العدد 29 السنة الثامنة | سبتمبر 2015 – ذو القعدة 1436

كان التاريخية

ISSN: 2090 - 0449

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

اول

دورية عربية الكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

تأسست غرة جمادى الأول 1429 هـ

صدر العدد الأول سبتمبر 2008 م

www.kanhistorique.org

موضوع العدد

تاريخ العصور الوسطى

Historical Kan Periodical

كان التاريخية

الدورية. محكمة. ربع سنوية

تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية

المشرف العام

بهاء الدين ماجد

مدير إدارة الخرائط "السابق"

دار الكتب والوثائق القومية المصرية

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية

أكاديمية الجهة الشرقية – المملكة المغربية

أ.د. عائشة عبد العال

أستاذ الحضارة والآثار القديمة

رئيس قسم التاريخ بكلية البنات

جامعة عين شمس – جمهورية مصر العربية

أ.د. خليف مصطفى غرايبة

أستاذ الجغرافيا التاريخية السياسية

نائب عميد كلية عجلون الجامعية

جامعة البلقاء التطبيقية – المملكة الأردنية الهاشمية

أ.د. نهلة انيس مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الدراسات الإنسانية

جامعة الأزهر – جمهورية مصر العربية

أ.د. خالد بلعربي

أستاذ التاريخ الوسيط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الجيلالي ليباس – الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

أ.د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الباحة – المملكة العربية السعودية (سابقًا)

أ.د. بشار محمد خليف

كاتب وباحث في تاريخ العالم العربي

خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم

الجمهورية العربية السورية

أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن

أستاذ الجغرافيا وعميد الشئون العلمية

جامعة بخت الرضا – جمهورية السودان

كان التاريخية

أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ، وصدر العدد الأول منها في سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٨

دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين ، أو تنتهك حقوق الملكيّة ، أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

أعداد الدورية متوفرة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت

أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية

تأسست يوليو ٢٠٠٣

www.nashiri.net

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي

منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)

www.archive.org

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد عبد الرحمن يونس
كاتب وباحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي
عضو هيئة التدريس في عدة جامعات عربية ودولية
الجمهورية العربية السورية

أ.د. ناظم رشم معتوق الإمارة
أستاذ مساعد التاريخ المعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة البصرة – جمهورية العراق

أ.د. محمود أحمد درويش
أستاذ الآثار الإسلامية
رئيس مجلس إدارة مركز البحوث والدراسات الأثرية
جامعة المنيا – جمهورية مصر العربية

أ.د. علي حسين الشطشاط
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة بنغازي - دولة ليبيا

أ.د. عبد الناصر محمد حسن يس
أستاذ الآثار الإسلامية
كلية الآداب
جامعة سوهاج - جمهورية مصر العربية

أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
نائب عميد كلية الآداب
جامعة إب - الجمهورية اليمنية

د. أنور محمود زناتي
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية التربية
جامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية

رئيس التحرير
د. أشرف صالح محمد
أستاذ باحث في تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد – هولندا

مدير التحرير
إسراء عبد ربه

سكرتير التحرير
إيمان محي الدين

الإشراف اللغوي
محمد عبـد ربه

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي

سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين ، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي ، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

المؤرخ الصغير®

صدرت البيلبلنزيون ٢٠٠٧

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم

www.kanhistorique.org
www.historicalkan.co.nr

جميع الحقوق محفوظة © دورية كان التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٥

دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية عالمية مُحَكَّمَة ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (١٠٠ - ١٥٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية (American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني:

info@kanhistorique.org

- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:

mr.ashraf.salih@gmail.com

محتويات العدد

9 جوانب حضارية لبعض مدن الجزيرة العربية من خلال الأدب الجغرافي والرحلات في العصر الوسيط
أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش • جامعة مولاي إسماعيل– المغرب

20 موقف علماء المالكية من الدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية
طارق بن زاوي • جامعة المسيلة– الجزائر

25 أضواء على نفقات الخلافة الفاطمية العسكرية (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٨ – ١٠٧٢م)
د. عيسى محمود العزام • جامعة العلوم والتكنولوجيا– الأردن

37 جبهة الموصل في مواجهة العدوان الصليبي إلى وفاة عماد الدين زنكي (٤٩٠ – ٥٤١هـ/ ١٠٩٦ – ١١٤٦م)
حمزة قادري • جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥– الجزائر

45 الحريم السلطاني ودوره في العصر المملوكي (٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م)
د. محمد جمال حامد الشوربجي • دكتوراه في تاريخ العصور الوسطى– مصر

61 العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية والمماليك البحرية: بين القرنين (٧ – ٨هـ/ ١٣ – ١٤م)
د. عبد الرحمن بالأعرج • جامعة تلمسان– الجزائر

68 انتقال إقليم كيرينايكا من السيطرة البيزنطية إلى الحكم الإسلامي
حسين حمد حسين الفقيه • جامعة بني غازي– ليبيا

78 دور البابوية والهيئات الدينية في إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية
أحمد جميات • جامعة محمد بوضياف– الجزائر

85 التنافس السياسي بين الصنهاجيين والسودانيين على منطقة الساحل الصحراوي خلال العصور الوسطى
د. المصطفى ولد يكبر • جامعة نواكشوط– موريتانيا

93 العنصر العربي في إقليم متيجة خلال العصر الوسيط
بشير مبارك • جامعة الجيلالي يابس– الجزائر

103 التصوف في التاريخ المغربي الوسيط: بعض ملامح المشروع السياسي
رشيد اليملولي • كاتب وباحث في التاريخ الوسيط– المغرب

112 الأرواحية عند مجتمع إفريقيا الغربية: السمات والخواص
عبد الله عيسى • جامعة الحسن الثاني– المغرب

117 ملاحظات حول السياسة الوحدوية للسلطان أبي الحسن المريني (٧٣١ – ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ – ١٣٤٨م)
سلوى الزاهري • المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين (طنجة) – المغرب

126 الإنتاج الزراعي في المغرب الأوسط من خلال كتاب المعيار للونشريسي
عبد الغني حروز • جامعة المسيلة – الجزائر

132 واقع التعليم في المغرب الأوسط من خلال نوازل الونشريسي
قاسمي بختاوي • جامعة حسيبة بن بوعلي – الجزائر

137 ترجمات: أسرة حاكمة مجهولة في شبه الجزيرة العربية: دولة الجبور في البحرين وعمان ونجد
د. محمد محمود خليل • معهد الفراعنة العالي للسياحة والفنادق – مصر

142 عرض كتاب: تاريخ الحروب الصليبية
د. شعبان محمد خلف محمد حمزة • كاتب وباحث في تاريخ العصور الوسطى – مصر

149 عرض أطروحة: أبعاد الصراع في المجال المغربي نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث: دراسة مقارنة
د. عبد الرزاق السعيدي • مركز الدراسات والأبحاث (تافيلالت) – المغرب

152 ملف العدد: مظاهر الحياة العلمية في حلب (ق ٧هـ/ ١٣م)
عبد القادر سليماني • المدرسة العُليا للأساتذة – الجزائر

166 **Demographic, Socio-Economic and Architectural Structure of Tibnīn in the Age of the Crusades**
Ahmed Mohamed M. Abdelkawy Sheir • Historical Scholar – Egypt

الأسطورة تاريخ التاريخ!

د. عمرو عبد العزيز منير

ثمة علاقة حميمية جدًا بين التاريخ والأساطير، وقبل أن يتحول التاريخ إلى علم يوثق الأحداث والشخصيات ويحلل الدوافع والأسباب ويستخلص العبر والنتائج كانت الأسطورة تلعب دورًا شبيهًا بهذا، وكانت متسقة تمام الاتساق مع الوجدان الإنساني في مراحل الطفولة العقلانية. ذلك أن الإنسان فيما قبل التاريخ كان يتعامل مع الكون وظواهره ومع الحياة ووقائعها بوجدانه أساسًا، بعقله الغريزي الخادم للجسد، وحينما قوى العقل المكتسب على العقل الغريزي نشأ العلم في حضن الفلسفة، وتولد عن العلم النظري العلم التجريبي ومنه نشأت التقنيات الحديثة القادرة على فرز الركام واستنباط الحقائق في الزمان المندثر، وربما كان (خيري شلبي) يشير إلى أمر من هذا القبيل عند توصيفه لجدلية العلاقة بينهما: "إن التاريخ لم ينفصل عن الأسطورة، وبقيت "الحدوتة" قاسمًا مشتركًا بينهما وهى بنت الأسطورة، كما صارت الأسطورة مادة للمؤرخ –العقل المفرد– يستعين بها على فهم وجدان الجماعة. وإذا كانت الأسطورة فيما مضى وسيلة فهم وتفسير لكل ما غمض على الإنسان من ظواهر الكون، فإن علم التاريخ هو الآخر وسيلة فهم وتفسير لوقائع الحياة وحركة الشعوب".

وبما أنني –شخصيًا– ابنًا للتراث الشعبي وأسيرًا لمؤرخي المدرسة المصرية في التاريخ العربي أجد أن "تاريخ التاريخ" بدأ منذ بداية الوجود الإنساني، فمنذ البداية حاول الإنسان التعرف على ماضيه لكي يفهم حاضره من ناحية، ولكي يجد في هذا الماضي سندًا ودعمًا لوجوده الآني في إطار الجماعة من ناحية أخرى. وإذا كان الإنسان قد لجأ في بداية تاريخه إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده في الكون، ومحاولة تفسير الظواهر المحيطة بهذا الوجود، فإن محاولته هذه كانت الخطوة الأولى لبناء المعرفة العلمية سواء في مجال التاريخ أو غيره. لقد كانت الأسطورة القراءة الأولى للتاريخ الإنساني عندما كان العقل البشري ما يزال في مرحلة الطفولة الأولى، وكانت الأسطورة أيضًا بمثابة ترقيع للنقص في ذاكرة الإنسانية عن الماضي. وبغض النظر عن التعريفات المختلفة للأسطورة، فإن الأسطورة كانت وسيلة الإنسان الأولى في المعرفة، فقد ظهرت أساطير الخلق باعتبارها إجابات على الأسئلة المتعلقة بخلق الإنسان والكون من حوله، والظواهر الموجودة في هذا الكون. لقد كانت هذه الأساطير المحاولات الأولى للحصول على الإجابات التي ينشدها الإنسان لتفسير وجوده وقصته في العالم. لقد كانت الأسطورة توصف على الدوام بأنها أم العلوم ، أو "العلم البدائي" وهو ما يعنى أن بدايات العلم بفروعه المختلفة ولدت من رحم الأسطورة؛ ولم يكن التاريخ استثناء في ذلك بطبيعة الحال، لقد خرجت المعرفة التاريخية من الأساطير التي تتناول أصول الأشياء والشعوب. وهنا نجد أن الجماعة البشرية قد لجأت إلى أساطيرها تعويضًا عن النقص في المعارف الحقيقية المتعلقة بماضي الإنسان والتطورات التي حدثت في هذا السياق؛ وهو ما يعني أن "بذرة" التاريخ التي زرعت في تربة الأسطورة أخذت تنمو تدريجيًا، وبشكل مطرد، مع ازدياد تحرر المعرفة التاريخية من الخيال والرمز الذي تتسم به الأساطير.

كانت التسجيلات "التاريخية" الباكرة عبارة عن تواريخ حكومات الآلهة، أو أشباه الآلهة، فقد كان الملوك في العالم القديم عمومًا يبررون حكمهم المطلق بالزعم بأنهم من نسل الآلهة. أو بأنهم الواسطة بين البشر والآلهة وبأنهم حين يموتون يدخلون في زمرة الآلهة. لقد كانت فكرة الملك/ الإله سائدة بين الكثير من دول العالم القديم لتبرير مثل هذه السلطة المطلقة (بل إن الإمبراطورية الرومانية عرفت نوعًا من عبادة الإمبراطور في القرن الثالث الميلادي)، وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال في الأساطير ذات المضمون التاريخي أو شبه التاريخي (مثل ملحمة جلجامش، والإلياذة والأوديسيا) وهنا نجد الأسطورة تحكم التاريخ وإن كانت لا تلغيه أو تستعبده، فالأسطورة حكاية مقدسة تلعب أدوارها الآلهة وأشباه الآلهة.

ثم نزلت الأسطورة، في مرحلة لاحقة من سماوات الآلهة إلى دنيا الإنسان، لكي ترصد تاريخه الباكر وتسجل قصة رحلته في الكون وفق شروطها، وفي إطار رموزها، وقد اختلف الباحثون حول هذا الأمر؛ إذ يذهب بعضهم إلى أن الأساطير "تسجيل تاريخي" للأحداث التي جرت على امتداد ماضي الإنسان في المجتمعات التي انتشرت على سطح هذا الكوكب، على حين يذهب البعض الآخر إلى القول بأن الأسطورة تمثل نوعًا من التاريخ العرقي (القبلي) المتوارث عبر الأجيال المتعاقبة التي تناقلته بالتلقين الشفاهي، ونادرًا ما تأخذ الأساطير أشكالاً أو نماذج محددة وإنما تنطوي غالبًا عل عناصر يمتزج فيها الخيال بالخرافة. وعلى حد تعبير قاسم عبده قاسم: "أن الأسطورة لا تحمل التاريخ كله؛ فهي ليست "تاريخًا" في التحليل الأخير وإنما يقوم بناؤها عل نواة تاريخية ما، وغالبًا ما تكون الصياغات الأسطورية لهذه "النواة التاريخية" مثقلة بتراكمات ثقافية تعبر عن وجدان الجماعة الإنسانية التي أنتجت الأسطورة وعن إدراكها لذاتها ووعيها بنفسها من ناحية، وعن رؤيتها للكون ودورها في الكون من ناحية أخرى". ويمكن القول دون حذر شديد: "بأن هذه الأسطورة في الوقت ذاته تحمل تصورًا نفسيًا تعويضيًا لصالح الجماعة أكثر من كونها تجسيدًا للواقع "التاريخي" وليس معنى هذا الكلام أن الأسطورة نتاج خالص للخيال وحده، وإنما هي ترجمة لملاحظات واقعية لمظاهر الكون ولطبيعة الأحداث الجارية وإن أخفقت في الوصول للحوادث الجارية في إطار أدبي فني يخدم الأهداف الثقافية / الاجتماعية التي يحتاج المجتمع إلى تحقيقها عن طريق أساطيره".

وقد كان الفضل لهذه الأساطير في أننا عرفنا ما عرفناه عن تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة التي تراكمت منذ أقدم العصور، والتي تسبق "التاريخ المكتوب" ومن هنا يمكن القول: بأن الأساطير "نظام فكري متكامل استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه ..." على حد تعبير فراس السواح. ويرى فريق من الباحثين أن أساطير الطوفان ، أو الدمار بالنار السماوية، أو الأعاصير وهى أساطير تتسم بالشمولية ، وتتكرر في أساطير معظم الشعوب، تحمل دلالات على تجارب وخبرات عاناها الجنس البشري في بداية تاريخه، لقد سربت هذه الأساطير؛ خاصةً ما يتناول منها التكوين والأصول الأولى، وفصل السماء عن الأرض بعض تفاصيلها إلى الكتابات التاريخية اللاحقة في المنطقة العربية بالشكل الذي يكشف عن أن تأثير الأسطورة ظل موجودًا ومتوارثًا في المنطقة نفسها، ومن ناحية ثانية فإن هذه الحقيقة تكشف عن حقيقة أخرى مهمة وهى أن المعرفة التـــاريخية لم تستطع أن تتخلص تمامًا من الأثر الأسطوري في بنائها. فالتاريخ ينسج مع الأسطورة علاقات كبيرة مرئية وغير مرئية، ليس هناك تاريخ صافيًا وعلميًا بالمعنى الموضوعي وبشكل مطلق، فالتاريخ كثيرًا ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية، والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه المستميت عن الحقيقة إلى ترميمات لا يقربها منه إلا الأسطورة التي ترتكز على القرابة مع التاريخ ■

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

جوانب حضارية لبعض مدن الجزيرة العربية
من خلال الأدب الجغرافي والرحلات في العصر الوسيط

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب – جامعة مولاي إسماعيل
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ
يسلط هذا البحث الضوء على بعض المشاهد الحضارية لمدن شبه الجزيرة العربية، اعتمادًا على الأدب الجغرافي الذي تجاوزت مساحة المعلومات التي يقدمها حول هذا الموضوع المساحة الضئيلة التي خصصتها المدونات التاريخية. وقد ركزت الدراسة على نماذج من المدن الواقعة في شرقي الجزيرة العربية مثل: الأحساء، وهجر، والقطيف، والبحرين، وصحار، وقلهات. ركّز البحث في القسم الأول على دور كتب الأدب الجغرافي في تحديد مواقع المدن المذكورة ومجالها العمراني. وتوصل استنادًا إلى المادة النصية المتناثرة فيها إلى تحديد مواقعها على خطوط الطول والعرض، وضبط أسمائها، وفك اشتقاقاتها اللغوية. ورغم شح النصوص الخاصة بالمجال العمراني لمدن شرق الجزيرة العربية في المتون الجغرافية والرحلات، فإن ما هو متوفر سمح بإلقاء شعاع من الضوء على هذا الجانب خاصةً أسوار المدن وأبوابها، والخنادق المحيطة بها. كما أتاح الوقوف على الدور والمنازل ومواد البناء، فضلاً عن المعالم الرئيسة للمعمار الديني، والكثافة السكانية داخل بعض المدن مدار البحث. وتصدى البحث في القسم الثاني لمعالجة الثروات الاقتصادية لمدن شرق الجزيرة العربية، مما سمح بالتعرف على المشهد الزراعي، والموارد المائية والنشاط الرعوي. كما مكّنت النصوص الجغرافية من رصد الحرف والصناعات، وتحديد مسالك الطرق التجارية البحرية والبرية، والمسافات الفاصلة بينها، وتحوّل بعض المدن إلى موانئ للتبادل التجاري، وإلى أسواق داخلية مزدهرة. هذا إلى جانب ما أبانت عنه من معطيات حول الضرائب، وقضايا اجتماعية أخرى سكتت عنها المدونات التاريخية.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١١ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٩ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
الأحساء، قلهات، البحرين، القطيف، صحار، تاريخ الجزيرة العربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
إبراهيم القادري بوتشيش. "جوانب حضارية لبعض مدن الجزيرة العربية من خلال الأدب الجغرافي والرحلات في العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٩ – ١٩.

مُقَدِّمَةٌ
لعبت مدن شرق الجزيرة العربية أدوارًا حضارية متميزة على كافة المستويات الاقتصادية والعمرانية والمعرفية. ومع ذلك؛ فإن هذه الأدوار ظلت مهمشة وغير مكتملة في المدونات التاريخية التي طغى فيها الجانب السردي لوقائع التاريخ السياسي على حساب المنجزات الحضارية. إذ لا يكاد الباحث يظفر في هذا الصدد سوى بإشارات باهتة، وشذرات متفرقة لا تسمح بتجاوز مستوى الإبهام والغموض اللذان يلفان المشهد الحضاري لتلك المدن، مما يفرض على الباحث الالتجاء إلى مصادر أخرى لسدّ هذه الثغرة التي خلفتها المدونات التاريخية. في هذا السياق، يأتي الأدب الجغرافي وكتب الرحلات كمصادر تسعى إلى كشف النقاب عن بعض الجوانب الحضارية التي تختزنها ذاكرة تلك المدن، وسنركز في هذه الدراسة على نماذج من مدن شرق الجزيرة العربية مثل: الأحساء، وهجر، والقطيف، والبحرين، وصحار، وقلهات، محاولين استخراج بعض الجوانب الحضارية التي ميزت هذه المدن، خاصةً في المجال العمراني والاقتصادي والاجتماعي.

أولاً: تحديد مواقع مدن شرق الجزيرة العربية ومجالها العمراني

تحوي كتب الأدب الجغرافي والرحلات نصوصًا هامة –رغم ضآلتها- حول مواقع مدن شرق الجزيرة العربية، خاصةً أن هذه الكتب تميزت عن غيرها من المصادر الأخرى باهتمام مؤلفيها بضبط أسماء المدن واشتقاقاتها اللغوية، وكذلك مواقعها بالنسبة لخطوط الطول والعرض، إلى غير ذلك من المعطيات المفيدة التي توفرها للباحث.

١/١- ضبط أسماء مدن شرق الجزيرة العربية وتحديد مواقعها:

فيما يتعلق بضبط أسماء مدن شرق الجزيرة العربية واشتقاقاتها اللغوية، يقدم ياقوت الحموي(١) مادة دقيقة في هذا المجال، فهو يضبط اسم **مدينة الأحساء** بالفتح والمدّ، ويذكر أن هذا الاسم جمع حسي بكسر الحاء وسكون السين، ويفسر اشتقاقه اللغوي من الماء الذي تنشفه الأرض من الرمل. ولتدقيق التعريف بهذه المدينة، يميز بينها وبين مجموعة من المدن التي تسمى أيضا بالأحساء كأحساء بني سعد وغيرها. وفي المنحى نفسه، يشير أبو الفدا(٢). إلى أن اسم الأحساء جمع حسا وهو رمل يغوص فيه الماء. والراجح أن هذا المصطلح – الحسا - في صيغة المفرد قد شاع في بعض الفترات التاريخية، حيث استعمله الرحالة ابن بطوطة(٣) في القرن (٨ هـ/ ١٤م) للدلالة على تلك المدينة التي زارها شخصيًا.

أما **مدينة القطيف** فقد وقع اختلاف بين الجغرافيين في ضبطه اسمها، فبينما يضبطه ياقوت الحموي(٤) بفتح القاف وكسر الطاء، مرجحًا أن مصطلح القطيف أطلق على كورة قديمة هناك، فغلب عليها وسميت باسمه، فإن ابن بطوطة يضبطه بضم القاف وفتح الطاء وسكون الياء "كأنه تصغير قطف"(٥) على حد تعبيره.

وفي السياق نفسه، يحرص الحميري(٦) على ضبط **مدينة هجر** بفتح الهاء والجيم، وعدم نطق الألف واللام. ويشترك مع ياقوت الحموي في نسبة اسم هجر إلى هجر بنت المكفف؛ بيد أنه يخالفه في الإقرار بأن هذه الأخيرة تنتمي إلى سلالة العماليق كما ينص على ذلك ياقوت الحموي الذي نقل عن ابن الكلبي فكرة أن هجر من العرب المتعربة، وأنها زوجة محلم بن عبد الله صاحب النهر الذي يوجد بالبحرين.(٧) ويضيف الجغرافي نفسه مجموعة أخرى من الفرضيات حول اشتقاق اسم هجر منها أن يكون من فعل هجر إذا هذى، لكن في هذه الحالة فإن اسم هجر ينبغي أن تكون هاؤه مضمومة بحكم أن ياقوت نفسه ضبط مصطلح الهجر (بضم الهاء) ومعناه الهذيان(٨)، وهو ما لا يستقيم مع ما ضبطه سلفا من فتح هاء هجر. ويجوز أن يكون من الهجرة أي خروج البدوي من باديته إلى المدن. كما يعطي تفسيرًا آخر من التفسيرات المحتملة لهذا الاسم، وهو أن يكون من معنى الهجران، وكأن سكان هجر هجروا ديارهم واستقلوا عنها. كما يمكن أن يكون مصطلح هجر قد أطلق عليها نسبة إلى عادة كانت لدى العرب الرحل، وهي ربط البعير بحبل في ذراعه إلى حقوه وتقصيره حتى يعجز عن العدو، فقيل هجرت البعير بالمعنى المذكور سلفًا، فشبه الداخل إلى هذا الموضع بالبعير الذي فعل به ذلك حتى غلب الاسم على هذا المكان.

ومن ضمن الفرضيات الأخرى للاشتقاقات اللغوية لاسم هجر أن يكون مشتقًا من معنى التهجير، وهو التبكير إلى الحاجة. كما يمكن أن يكون من الهاجرة، وهي شدة الحر وسط النهار، فسميت المدينة لشدة حرارتها بهجر. أما بلغة حمير وبلغة العرب العاربة، فهجر تعني القرية.

وبالمثل، حظي اسم **صحار** أيضًا بمجموعة من الفرضيات حول أصل اشتقاقاته اللغوية، فبعد أن ضبط ياقوت الحموي هذا الاسم بضم الصاد وفتح الحاء، يذكر أن اشتقاقه جاء من معنى الصحرة، وهي جوبة تنجاب وسط الحرة، وجمعها صحر، فأشبعت الفتحة فصارت ألفا. كما يمكن أن يكون المعنى آت من الصحرة، وهو لون الأصحر، وهو كالشقرة، أو نسبة إلى الصحراء. وثمة افتراض آخر لاشتقاق هذا الاسم، وهو أن صحار سميت بهذا الاسم نسبة إلى صحار بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.(٩)

وبخصوص مدينة **قلهات** – إحدى مدن شرق الجزيرة العربية – فقد ضبطها الجغرافي الآنف الذكر بفتح القاف وسكون اللام، وفسّر اشتقاقها اللغوي من البثر الذي يكون في الجسد أو الوسخ.(١٠) أما مدينة **البحرين**، فالبكري(١١) يذكر أنها سُميت كذلك لوجودها بين البحر الجنوبي أو البحر الأعظم كما يسميه والبحر الشمالي.

ومهما كان الأمر؛ فإن المصادر الجغرافية لم تكتف بضبط أسماء مدن شرق جزيرة العرب وفك اشتقاقاتها اللغوية فحسب، بل سعت إلى تحديد مجالاتها الجغرافية، وتبيان مواقعها على خطوط الطول والعرض؛ لكن نصوصها تطرح إشكالية عدم الدقة في تحديد الانتماء المجالي. فبعض النصوص تقر بانتماء مدينة هجر إلى المجال الجغرافي الواسع للبحرين، فتصبح هذه الأخيرة ناحية كبيرة تضم عدة مدن من بينها مدينة هجر ذاتها، في حين تصبح هذه الأخيرة بواقع هذا التحديد جزءًا من مجال البحرين، وهذا ما يؤكده الحميري(١٢) الذي نعت هجر بأنها (مدينة في البحرين)، بل إن ياقوت الحموي(١٣) سماها (هجر البحرين)، تأكيدًا على تبعيتها كمدينة لمجال جغرافي أوسع، وهو البحرين، وتمييزًا لها في الوقت نفسه عن هجر نجران وهجر جازان وهجر حضنة. في حين قلّص ابن خرداذبة(١٤) من حجم قيمتها العمرانية حين اعتبرها مجرد قرية من قرى البحرين.

بيد أن بعض المصادر الجغرافية عندما تتناول مدينة هجر ضمن نواحي ومدن الجزيرة العربية بصفة عامة، فإنها تشير إليها كمدينة مستقلة لا تنتمي لمجال البحرين(١٥)، فياقوت الحموي(١٦) يناقض ما سبق أن أكده في موضع آخر حول تبعية هجر للبحرين، مشيرًا هذه المرة إلى ما يفيد استقلاليتها كحاضرة كبرى، وأن قصبتها الصفا. كما أن المقدسي(١٧) الذي عاش في القرن (٤ هـ/ ١٠م)، وهو عصر ازدهار هذه المدينة، يشير إليها كحاضرة كبرى قصبتها

الأحساء، ويعدد أسماء المدن التي تندرج في مجالها كسابون والزرقاء وأوال والعقير. ومن جهته، يوردها البكري[١٨] كمجال عمراني مستقل عن البحرين ضمن المدن المشهورة من مدن الإقليم الثاني من أقاليم المعمور وهي اليمامة والبحرين وهجر وغيرها من المدن الأخرى.

والراجح أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين، يعود إلى اختلاف زمنية الوصف، فهجر كانت تنعت بالحاضرة الكبرى المستقلة إبان فترات ازدهارها، في حين كانت توصف في مراحل الضعف ضمن المجال الجغرافي للبحرين كما حدث في القرن السابع الهجري. ويبلغ الغموض والخلط في تحديد المجالات الجغرافية لمدن شرق الجزيرة العربية ذروته عند المقدسي[١٩] حين خلط بين الأحساء والبحرين قائلاً: (الأحساء قصبة هجر وتسمى البحرين).

وبالإيقاع نفسه يذكر ياقوت الحموي[٢٠] في صيغة المبنى للمجهول ودون تحديد مصادره أنه (قيل: ناحية البحرين كلها هجر)، مؤكدًا أن ذلك هو الصواب. ويكرّس في موضع آخر هذا الخلط والغموض حين يصف البحرين بأنها (اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، قيل هي – أي البحرين – قصبة هجر، وقيل هجر قصبة البحرين، وقد عدّها قوم من اليمن، وجعلها آخرون قصبة برأسها)[٢١]، وهو نص يعكس مدى تضارب الأقوال وعدم الحسم فيها، ولا يمكن للباحث على ضوء ما جاء فيه تحديد ما إذا كانت هجر قصبة البحرين أم العكس.

الخلط نفسه والتناقض وقع في شراكهما الجغرافي الإدريسي[٢٢] الذي جعل البحرين ناحية كبيرة تشمل مجموعة مدن منها هجر وحمص والقطيف والأحساء وبيسة والزارة، بينما ناقض هذا الوصف في موضع آخر حين جعل من البحرين مجرد مدينة في جزيرة أوال[٢٣]، فهل كان المجال الجغرافي للبحرين قد انكمش وتقلص – في الحالة الأخيرة التي توافق القرن (٦ هـ/ ١٢م) - إلى درجة جعلت هؤلاء الجغرافيين يجعلون الفرع هو الأصل ؟ لا شيء يؤكد ذلك، فابن خرداذبة الذي كتب مصنفه في أواخر القرن الثالث الهجري، يشير إلى تبعية هجر للبحرين، في وقت كانت هذه الأخيرة تشهد إشعاعًا سياسيًا في زمن القرامطة. كما أن الإدريسي[٢٤] نفسه يصف البحرين بالمدينة العامرة. لكن يبدو أن ما عرفته البحرين من مخاضات سياسية وفترات ازدهار وركود، ما جعل الجغرافيين يقعون في هذه التناقضات تبعًا لتغيرات خريطة الجغرافية السياسية التي شهدتها مدن شرق الجزيرة العربية في مختلف المراحل التاريخية.

ومن جهة أخرى؛ تشير بعض نصوص الأدب الجغرافي أيضًا إلى مدينة الأحساء كمجال يندرج في المجال العمراني لمدينة هجر، فهي حسب الإدريسي[٢٥]، (قصبة هجر وقاعدتها)، ويوطن الحميري[٢٦] موقعها على البحر الفارسي (الخليج العربي)، ويذكر أنها تقابل جزيرة أوال، لكنه ينعتها بالمدينة الصغيرة.

من جهته، سعى ياقوت الحموي[٢٧] إلى تحديد موقع مدينة هجر بدقة أكثر، فجعلها ضمن الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة التي يقسم إليها المعمور، وذكر أن طولها من ناحية جهة الغرب ثلاث وسبعون درجة، وعرضها أربع وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة. لكنه يبدو غير متأكد من معلوماته، إذ يورد معطى آخر من مصدر ثان يشير فيه إلى أن عرضها أربع وثلاثون درجة، وأنها توجد ضمن مدن الإقليم الثالث وليس الثاني كما سبق أن ذكر، دون أن يفاضل بين الفكرتين.

وتتغير أرقام الطول والعرض التي تحدد موقع مدينة هجر عند الجغرافي الأندلسي ابن سعيد[٢٨]، فبعد أن حدد موقعها على ساحل البحر الفارسي، وأوضح أنها تقع في جون أكبر من جون مدينة مسقط، أشار إلى أن طولها (٧٨) درجة و(٤٠) دقيقة، وأن عرضها (٢٢) درجة و(٣٠) دقيقة. أما القزويني[٢٩] فيكتفي بتوطين حدودها الشرقية ببلاد عمان، بينما يحدد الحميري[٣٠] المسافة الفاصلة بينها وبين صحراء الدهناء بأربعة أميال.

أما مدينة القطيف فتضاربت آراء الجغرافيين حول مجال انتمائها الجغرافي، فبينما جعلها الحميري[٣١] ضمن أعمال اليمن، حدد البكري[٣٢] موقعها ضمن مجال البحرين. في حين وطنها أبو الفدا [٣٣] على ساحل البحر الفارسي، مشيرًا إلى أنها جزء من ناحية الأحساء. من جهته، يوطن ابن سعيد [٣٤] مدينة صحار في (٨١) درجة من حيث خطوط الطول، و(١٩) درجة، و(٥٦) دقيقة من حيث خطوط العرض، بينما يوطن مدينة قلهات في آخر عرض من عروض الإقليم الأول.

ويأتي تحديد موقع البحرين في المصادر الجغرافية مشوبا بعدم الدقة والخلط في المفاهيم، فهي توصف أحيانًا بالمدينة، بينما تنعت في مصادر أخرى بالناحية الكبيرة التي تضم مجموعة مدن. فابن حوقل[٣٥] يصنفها كمجال جغرافي واسع يضم مدن هجر والأحساء والقطيف والعقير وبيشة والخرج وأوال، ويضيف إليها ابن خرداذبة[٣٦] الآرة والفروق وبينونة. بيد أن رسم حدودها يبدو أكثر دقة عند الحميري[٣٧] الذي يجعل ساحل البحر الفارسي يحدها شرقًا، والبصرة شمالاً، وعمان جنوبًا، بينما تحاذي حدودها الداخلية غربا منطقة اليمامة.

يتضح مما سلف؛ أن النصوص التي يوفرها الأدب الجغرافي حول مدن شرق الجزيرة العربية هامة، ولكنها تقع في معضلة الخلط والغموض وعدم الدقة أحيانًا، فما هو حظ المجال العمراني لهذه المدن في الأدب الجغرافي والرحلات؟

٢/١- المجال العمراني لمدن شرق الجزيرة العربية:

رغم شح النصوص الخاصة بالمجال العمراني لمدن شرق الجزيرة العربية في أدب الجغرافيا والرحلات، فإن ما هو متوفر منها يسمح بإلقاء بعض الأضواء الهامة على هذا الجانب. فخلال حديثه عن مدينة الأحساء، يذكر ياقوت الحموي[٣٨] أن أول مَنْ عمّرها وحصّنها وجعلها قصبة لهجر هو سليمان بن أبي سعيد الجنابي

القرمطي، وأنها استمرت في ازدهارها العمراني حتى العصر الذي عاش فيه هذا الجغرافي. ويحيل هذا النص إلى افتراض أن الأحساء لم تعرف نموًا عمرانيًا حتى القرن (٤هـ/١٠م) حين ظهر القرامطة. ويبدو أن مدينة هجر كانت صاحبة الريادة في الميدان المعماري قبل هذه الحقبة، وهي فرضية ندلّل على صحتها بنص ورد عند ابن سعيد(٣٩) يؤكد فيه أن هجر (خربها القرامطة وعمّروا الأحساء)، مما يكشف دون شك عن حركة عمرانية متناقضة، فمقابل أفول عمران مدينة هجر، وقعت صحوة عمرانية في مدينة الأحساء، وهي صحوة يشهد بها ناصر خسرو(٤٠) الذي وقف عليها بالعيان حين زارها سنة (٤٩٣هـ/١٠٥١م)، فوصف أسوارها وتحصيناتها، وما عرفه مشهدها العمراني من تألق كبير.

أما مدينة القطيف فيجمع الجغرافيون على أنها كانت مركزًا عمرانيًا هامًا، وأنها كانت محاطة بسور وخندق وأربعة أبواب(٤١). في حين يفيدنا نص جغرافي إضافي بإشكالية بيئية كانت تعيق النمو العمراني في مدينة البحرين، ويتعلق الأمر بما يمكن أن نسميه بمشكل التصحّر، وهو زحف الرمال على منازل السكان الذين اضطروا تحت إكراهات هذه الآفة الطبيعية إلى ترك منازلهم والانتقال إلى جهة أخرى.(٤٢) لكن لا يبدو أن ذلك لم يؤثر بشكل كبير على تقهقر عمران مدينة البحرين في القرن (٦هـ/ ١٢م) بدليل وصفها من قبل الإدريسي بأنها (مدينة عامرة). ويحتمل أن آثر مشكل التصحر أو زحف الرمال على مدينة البحرين لم يظهر إلا في القرون اللاحقة، وهو افتراض تعضده شهادة الحميري(٤٣) الذي عاش في القرن (٨ هـ/ ١٤م)، ومفادها وجود بعض الآثار والبنايات القديمة في مناطق واقعة بضواحي البحرين، ليس من المستبعد أن تكون هي المنازل نفسها التي تركها أهلها نتيجة زحف الرمال عليها، مما يعزز فرضية وجود مركز عمراني قريب من مدينة البحرين.

وبخصوص المشهد العمراني في مدينة قلهات، يقدم ابن بطوطة (٤٤) شهادة حية حول معمارها الديني إذ يصف مسجدها بأنه (أحسن المساجد، حيطانه بالقاشاني وهو شبه الزليج)، ويصفه بأن بنيانه مرتفع، يشاهد منه البحر والمرسى، مشيرًا إلى أنه تم تشييده من طرف امرأة صالحة تدعى الحرة مريم. ولا مشاحة في أن المشهد العمراني في الأدب الجغرافي يأخذ حجمًا أكبر بالنسبة لمدينة صحار، ويمكن من خلاله رسم الخطوط العريضة التالية:

١- تميزت الدور والمنازل في صحار من الناحية الجمالية بالأناقة والطراز المعماري الرفيع، وعلو المباني، وهو ما نلمسه في قول المقدسي(٤٥) بأن دورهم (شاهقة نفيسة).

٢- كانت مواد البناء المستعملة في المنازل تتشكل من الآجر والساج(٤٦) والأحجار والطوب والخشب.(٤٧)

٣- جودة المعمار الديني المتمثل في الجامع الذي تم تشييده على ساحل البحر، وعرف بمنارته الطويلة الحسنة البناء، إلى جانب المسجد الذي يقال أن ناقة الرسول (ﷺ) بركت فيه. وقد تميز بناؤه بالجودة العالية، بل برزت فيه لمسات إبداعية تجلت في صنع لولب بمحراب الجامع يدور دورانًا، فيحدث ألوانًا مختلفة تتناوب بين الأصفر والأخضر والأحمر. ويبدو أن مثل هذا الإبداع لم يكن مألوفا في مجال المعمار الديني إلى درجة أنه أثار انتباه الجغرافيين فسجلوه في مصنفاتهم.(٤٨)

ويضيف ياقوت الحموي(٤٩) معطى معماريًا آخر حول الجامع السالف الذكر، حين يصفه بأنه عبارة عن مصلى يلفه النخيل، مما يعكس روعة وجمالية الموقع والمساحات الخضراء المحيطة به. وإذا كان من الصعب رسم الملامح العامة للهندسة المعمارية لمدينة صحار في غياب حفريات أركيولوجية، فيبدو - كما يميل إلى ذلك أحد الباحثين(٥٠)- أن قسمًا كبيرًا من المباني ذات الواجهة المتجهة نحو مكة تقع تحت القلعة الحديثة وتمتد إلى ما ورائها، وربما كانت هذه المباني هي بقايا الجامع السالف الذكر.

٤- من الراجح أيضًا أن يكون الطراز المعماري الرفيع المستوى الذي تميزت به صحار، راجع إلى سببين: (أ) أن أغلب سكان مدينة صحار كانوا من طبقة الأثرياء، إذ هم (في سعة من كل شيء).(٥١) (ب) غلبة الطابع التجاري و"الميتروبولي" على المدينة نتيجة ارتيادها من طرف أجناس مختلفة، وحضارات متنوعة، مما جعل الطراز المعماري للمدينة في غاية الجودة والإتقان.

٥- الكثافة العمرانية: وهو ما يؤكده نص جغرافي مفاده أن صحار (بلد عامر آهل).(٥٢) بل إن ابن المجاور يزودنا برقم يحمل دلالة على التوسع العمراني الذي عرفته هذه المدينة، إذ يذكر أنه كان يوجد بصحار عشرة ألف منزل. بيد أن توطين زمنية هذا الرقم يظل محاطًا بسياج من الشك لأن الجغرافي المذكور يعوّم الفضاء الزمني الخاص بهذا الرقم ولا يحدده، بل يكتفي بالإحالة على الماضي دون تحديد زمني دقيق.

لكن يبدو أنه في عصر أبي الفدا (القرن ٨هـ) كان الخراب قد بدأ يدب في النسيج العمراني لمدينة صحار بدليل قول هذا الأخير (وصحار بليدة خراب)(٥٣)، لكنه أشاد بتوسعها العمراني حيث نقل عن جغرافيين آخرين مادته حول ماضيها العمراني، مستخلصا أنها كانت أكبر مدينة على بحر فارس (الخليج العربي).(٥٤) ونرجح أيضًا أن الكثافة السكانية طالت كذلك مدينة الأحساء بشهادة الجغرافي المقدسي(٥٥) الذي وصفها بأنها (عامرة آهلة). والقول نفسه ينسحب أيضًا على مدينة قلهات التي ظلت (عامرة آهلة)(٥٦)؛ لكن يرجح أن توسعها العمراني المنوه به لم يبدأ إلا في القرن (٦هـ/ ١٢م)، بدليل قول أحد الجغرافيين (ولا أظنها تمصرت إلا بعد المائة الخامسة).(٥٧)

أما المجال العمراني لمدينة هجر، فيحتمل أنه تعرض للتدهور في أواخر القرن (٣ هـ/ ٩م)، وهو ما يستشف من المؤشر الذي تقدمه النصوص الجغرافية حول عدد سكانها. فالراجح أن هذا العدد قد انخفض بشكل سريع بعد حصار أبي سعيد الجنابي القرطبي لها ودخوله إليها حوالي سنة ٣٠٠هـ، إذ أحدث فيها مجزرة

رهيبة راح ضحيتها معظم السكان فلم يبق من أهل هجر (إلا عشرون رجلاً)،[٥٨] وهو نص يشي بالنكسة الكبيرة التي تعرض لها مجالها العمراني.

ثانيًا: الثروات الاقتصادية لمدن شرق الجزيرة العربية

١/٢- المشهد الزراعي:

رغم وجود معظم مدن شرق الجزيرة العربية في أراضٍ صحراوية قاحلة، حتى أن المقدسي وصف الأحساء بأنها (معدن الحر والقحط)،[٥٩] فإنه لم تنعدم إمكانيات الريّ في بعضها؛ فالبحرين رغم أنها (شديدة الحر)،[٦٠] فإنها على خلاف مدن شرق الجزيرة العربية الأخرى كانت (سهلة كثيرة الأنهار والعيون، عذبة الماء).[٦١] بل كانت أرضها تختزن كميات كبيرة من المياه يمكن استنباطها على عمق قامة أو قامتين فقط،[٦٢] أي حوالي ثلاثة إلى أربعة أمتار. وقد أشاد الإدريسي[٦٣] بمياه العيون المتفجرة في البحرين، وذكر أسماء بعضها كعين بوزيدان وعين مريلغة وعين غذار التي يصفها بأنها مستديرة الفم في عرض ستين شبرًا وعمقها يصل إلى خمسين قامة، وتطحن الأرحاء من مياهها المتدفقة.

وبالمثل، كان موقع مدينة صحار يتميز بوجود وادي الجزي الذي يمتد كيلومترين في البحر. وعلى شمال المدينة ينبعث أطول مجرى مائي في المنطقة الوسطى من الباطنة، وتتحول مياهه إلى قنوات جوفية.[٦٤] يضاف إلى هذه الموارد المائية وجود مجموعة من الآبار والقنوات التي توفر ماء الشرب ومياه السقي، فلسكان هذه المدينة (آبار عذبة وقناة حلوة).[٦٥] ويبدو أن الآبار شكلت موردًا أساسيًا للمدينة حتى أن الحميري[٦٦] نصّ على أن (مياهها من الآبار).

مع وجود هذه الاستثناءات، يمكن القول – استنادًا إلى الأدب الجغرافي – أن مدن شرق الجزيرة العربية عمومًا عانت من قلة المياه، لذلك حاولت التكيف مع بيئتها الجافة بغرس المزروعات التي تتلاءم مع المناخ السائد فيها، ويأتي في مقدمتها التمر الذي كان ينتج بكميات كبيرة، خاصة في مدينة هجر، حتى أصبح يضرب بها المثل في كثرته[٦٧] فقيل (كمهدي التمر إلى هجر)[٦٨]، أو (كمستبضع التمر في هجر)،[٦٩] وهي أمثال يستشف منها وجود كميات فائضة من الإنتاج، الأمر الذي تؤكده شهادات بعض الرحالة الذين زاروا هجر، فذكروا أن ألف طن من التمر كانت تباع بدينار واحد، بل كان التمر يعطى أحيانًا علفًا للحيوانات بسبب فائض الإنتاج.[٧٠] وإلى جانب ذلك، كانت هجر تنتج حسب ما يذكره القزويني[٧١] الرمان والتين والأترج والقطن.

وبالمثل، كان للبحرين نصيب هام من إنتاج التمور، وقد يكون لتمرها ميزة خاصة (فإذا انتبذ وشرب اصفرت الثياب من عرقه).[٧٢] لكن يبدو أن كثرة البساتين التي تحيط بالمدينة جعلتها منتجة أيضا للفواكه والزرع.[٧٣] لذلك لا عجب أن يندهش ابن بطوطة[٧٤] إبان زيارته للبحرين ببساتينها وأشجارها، وبحدائق النخل والرمان والأترج والليمون المنتشر فيها. كما أن إحدى جزرها وهي جزيرة خارك عرفت كذلك بإنتاج جزر غليظ لا يمكن قطعه إلا بالقادوم لشدة غلظه.[٧٥] وبدورها كانت البحرين تنتج الحناء والقطن على ضفاف الأنهار.[٧٦] وعلى غرار هجر والبحرين، كانت الأحساء منتجة للتمور كذلك بفضل كثرة أشجار النخيل،[٧٧] حتى ليقال أن النخيل كان يتخذ شكل سياج دائري يحيط بها.[٧٨] كما كانت القطيف بدورها مركزا لإنتاج التمور.[٧٩]

وتفصح الآثار المكتشفة في مدينة صحار عن ازدهار النظام الزراعي فيها، ولا غرو فإن سهلها الساحلي كان يتكون من الحصى الطينية والأحجار الجيرية، وفي غرب البحر يقل سمك هذه الطبقة نسبيا، ويصبح سطح الماء موازيا لسطح الأرض.[٨٠] لذلك كانت هذه المدينة بسبب مرور وادي جزي في أراضيها مركزًا طبيعيًا للتطور الزراعي، فعرفت بإنتاج التمور بفضل وفرة زراعة النخيل، ولا غرو فإن مصلاها كم يؤكد ذلك المقدسي[٨١] محاطًا بأشجار النخيل. كما كانت تنتج كميات وافرة من الفواكه الاستوائية، فضلاً عن الرمان والسفرجل.[٨٢] أما جزيرة أوال فقد انتشرت فيها زراعات الموز والجوز والأترج وأصناف الزروع والتمور والعنب والليمون والرمان.[٨٣] ومن الأكيد أن نشاط الرعي وتربية الماشية كان منتشرًا في البحرين. وقد يكون الإنتاج زائدًا عن الحاجة حتى أنه كان يصدر، وهو ما ينهض عليه دليلاً قول البكري[٨٤] أن (الشياه كان يحملها أهل البصرة من البحرين).

٢/٢- الحرف والصناعات:

لا نجد مادة هامة حول المشهد الصناعي في مدن شرق الجزيرة العربية، باستثناء إيماءات قليلة حول وجود بعض المعادن وقيام بعض الصناعات النسيجية. فالجغرافي ابن رسته[٨٥] يتحدث في "أعلاقه النفيسة" عن معدن اللؤلؤ المستخرج من البحرين، ويسميه باللؤلؤ القطري، بينما يوطن المقدسي[٨٦] هذا المعدن في (حدود هجر يغاص عليه في البحر بالقرب من أوال). أما الحميري[٨٧] فيجعل جزيرة أوال القريبة من البحرين موطن هذا اللؤلؤ، ويورد بيتا لأبي العلاء المعري يعكس كثرة الإنتاج من هذا المعدن حيث يقول:

جهلتن أن اللؤلؤ الذوب عندنا ••• رخيص وأن الجامدات غوالي

وعلى غرار صناعة اللؤلؤ، انتشرت بعض الصناعات النسيجية مثل صناعة الملاحف والفوط والأحذية في البحرين والأحساء. وكانت هذه الفوط عبارة عن ملابس قصيرة مخططة يأتزر بها الخدم والطبقات الفقيرة، وتنسج في أماكن عديدة من بينها الأحساء.[٨٨] كما أن مدينة هجر كانت مشهورة في صناعة الثياب والبرود والأردية حتى أن بعض الثياب الهجرية صدرت في مطلع الدعوة الإسلامية إلى الحجاز.[٨٩] وعرفت هجر أيضًا بصناع القلال التي كانت تصدر إلى المدينة، واشتهرت باسم (القلال الهجرية)، وهي القلال التي شبّه بها رسول الله (ﷺ) نبق الجنة. ويقال إن سعتها كانت تبلغ (٥٠٠) رطل.[٩٠] ولا يخامرنا الشك في أن كثرة المباني في مدينة صحار وغيرها من مدن شرق الجزيرة العربية ساهمت في

رواج صناعة البناء وما يتبعها من صناعة الطوب والآجر التي كانت توضع في أفران خاصة. وقد دلت الأبحاث الأثرية التي أجريت في صحار على بقايا من الطوب، مما يكشف أهمية هذه الصناعة.[٩١]

٣/٢- النشاط التجاري:

أ- الطرق التجارية كما يقدمها الأدب الجغرافي:

تمثل كتب المسالك والممالك مصدرًا هامًا لتحديد الطرق التجارية والمواصلات بين المدن والأقطار. وبخصوص مدن شرق الجزيرة العربية موضوع الدراسة، تقدم هذه الكتب مادة توضيحية هامة عن هذه الطرق التي يمكن حصرها في طرق بحرية وبرية. فبالنسبة للطرق البحرية ثمة طريق كان يربط البحرين بعمان مرورًا بصحار والشقط وهي قرية صغيرة كان يستقي بها أرباب المراكب لوجود آبار بها، ثم مسقط ورأس الجمجمة، وهي آخر البحر الفارسي. وكانت توجد على طول هذا الطريق علامات من خشب منصوبة في البحر تعين أصحاب المراكب على معرفة اتجاه الطريق[٩٢]. وهناك طريق بحري كان يربط جزيرة أوال بالبحرين، وهو طريق قصير، ومن هناك كان المسافرون يواصلون رحلتهم عبر مدن الزارة والعقير والقطيف.[٩٣] وثمة طريق ساحلي أيضًا ينطلق من البصرة إلى عبادان ثم عمان مرورًا بهجر والعقير وصحار ودبا،[٩٤] فضلاً عن طريق آخر يربط البحرين بصحار ويواصل نحو دبا ومسقط.[٩٥]

ب- الطرق البرية:

تشتمل كتب الجغرافيا والرحلات على وصف دقيق لمسار الطرق البرية الرابطة بين مدن شرق الجزيرة العربية وغيرها من المناطق الأخرى، ومنها طريق يربط البحرين باليمامة ومكة، ويمر بالأحساء والقطيف. لكن الرحلة في هذا الطريق لا تتيسر إلا في فصل الشتاء حين تتجمع الأمطار ويستغلها تجار القوافل التجارية للشرب.[٩٦] وهناك طريق بري يربط مدينة هجر بجزيرة أوال، حدد الحميري[٩٧] مسافته في اثني عشر فرسخًا. ويفصل بين القطيف والأحساء طريق تبلغ مسافته مرحلتان،[٩٨] بينما يبلغ الطريق الشمالي الرابط بين البحرين وعمان عشرون مرحلة، ولكنه صعب الاجتياز بسبب النزاع بين القبائل العربية وغاراتهم على القوافل المارة به، مما أفقده كل ضمانة أمنية، حيث كان التجار يخافون على أموالهم.[٩٩]

أما الطريق البري الذي يربط البحرين بعمان مرورًا بعبادان فيقدره ابن حوقل[١٠٠] بـ (١١) مرحلة إلى عبادان وبحوالي شهر إلى عمان. بيد أن هذا الطريق تعطّل في القرن (٥هـ/ ١١م) بسبب الرمال التي غطته، فأصبح الطريق البحري هو البديل عنه.[١٠١] واستمر هذا الطريق معطلاً حتى عصر ابن بطوطة (القرن ٨ هـ/ ١٤م) كما تؤكد ذلك شهادته.[١٠٢]

وبقدر ما تفيد كتب الجغرافيا والرحلات في تحديد المسالك والطرق بين مدن شرق الجزيرة العربية وغيرها من الأماكن والبلدان، بقدر ما تفيد أيضًا في تحديد المسافات الفاصلة بينها، نذكر على سبيل المثال المسافة الفاصلة بين هجر واليمن والتي تصل إلى عشرة أيام، كذا بينها وبين البصرة والتي تصل إلى (١٥) يومًا على الإبل،[١٠٣] ومن البحرين والخشبات سبعون فرسخًا،[١٠٤] وبين أوال وهجر (١٢) فرسخًا في طريق البر وعشرة فراسخ في الطريق البحري،[١٠٥] ومن البحرين نحو عمان مسافة شهر.[١٠٦]

وبفضل تعدد الطرق البحرية والبرية، تحولت بعض مدن شرق الجزيرة العربية إلى موانئ نشيطة أو أسواق داخلية مزدهرة؛ ولا غرو فقد كان لمدينة القطيف (خور من البحر تدخل فيه المراكب الكبار الموسقة سواء أثناء مد البحر أو جزره)،[١٠٧] كما أصبح ميناء صحار أيضًا قبلة المراكب من مختلف الأصقاع، ومنها ركب المسعودي مع جماعة من أهل المراكب السيرافيين).[١٠٨] وبدورها صارت مدينة قلهات مرفئًا كبيرًا للسفن القادمة من الهند،[١٠٩] وعرف أهلها بترحيبهم بأصحاب المراكب، إذ كلما وصل إليهم مركب، (فرحوا به أشد الفرح)،[١١٠] وهو ما يتكامل مع إشادة ماركوبولو[١١١] في رحلته بميناء قلهات، وانبهاره بكثرة المراكب التي كانت تؤمه. كما تحولت مدن أخرى بفضل تعدد طرقها البرية إلى أسواق نشيطة نذكر من بينها مدينة الأحساء التي اشتهر فيها (سوق الأحساء)،[١١٢] فضلاً عن أسواق أخرى كانت تنتشر في ربوعها.[١١٣]

وفي السياق نفسه، يتحدث الجغرافيون والرحالة عن (الأسواق العجيبة) في صحار،[١١٤] و(الأسواق الحسنة) في قلهات،[١١٥] وكلها صيغ تعبيرية تترجم مدى ازدهار التجارة الداخلية في مدن شرق الجزيرة العربية، وهو ما عكسته التجارة "البينية"، أي المبادلات التجارية التي كانت تتم بين مدن شرق الجزيرة العربية كتلك التي أشار إليها القزويني[١١٦] بمناسبة حديثة عن انتقال بني تميم من البحرين إلى هجر لأغراض تجارية بعد انتقام حاكم فارس منهم.

أما على مستوى المبادلات الخارجية، فإن النصوص الجغرافية تكشف عن الإشعاع التجاري الذي عرفته مدن شرق الجزيرة العربية. فأهل مدينتي الأحساء والقطيف كانوا يحملون كميات كبيرة من التمر إلى اليمامة، ويقايضون الأهالي هناك بالحنطة، إذ كان يتم استبدال كل راحلتين من التمر براحلة من الحنطة حسب ما يذكره صاحب تقويم البلدان.[١١٧]

وتوضح نصوص الأدب الجغرافي والرحلات أن المبادلات التجارية اتسعت لتشمل الصين والهند واليمن والعراق وبلاد الزنج، وغيرها من الأصقاع النائية. ولعب ميناء صحار دورًا حيويًا في هذه التجارة الدولية، إذ منه كانت تخرج السفن محملة بالبضائع نحو مختلف العواصم التجارية العالمية.[١١٨] ونشطت فيها الحركة التجارية حتى أصبحت على حد تعبير المقدسي[١١٩] (دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن). وفي الاتجاه نفسه يبرز الادريسي[١٢٠] الطابع "الميتروبولي" لهذه المدينة بقوله: (ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد ما لا يحصى عددهم، وإليها يجلب جميع بضائع اليمن، ويتجهز بها أنواع التجارات وأحوال أهلها واسعة، ومتاجرهم مربحة).

ويستشف من خلال أدب الجغرافيا والرحلات أن العلاقات التجارية لهذه المدينة مع الصين كانت من القوة والكثافة ما جعل ميناءها يغص بالمراكب الصينية، لكن خللاً وقع بسبب استيلاء الفرس على جزيرة كيش، إذ كانت تسيّر منها حملات عسكرية لغزو اليمن، مما أضر بالتجار الذين فقدوا الأمن، وهو الشرط الضروري لممارسة التجارة.[١٢١] وقد أشار الرحالة برزك[١٢٢] إلى السفن الصينية التي كانت تؤم موانئ عمان وضمنها ميناء صحار، فكانت تحمل المؤن الرخيصة من التمر والفواكه التي تجد لها سوقًا رائجة في الشرق الأدنى، وتعود محملة بالسلع الصينية المطلوبة في صحار وغيرها من مدن شرق الجزيرة العربية. ولا غرو فقد أكد البحث الأثري هذه المبادلات التجارية، إذ عثر المنقبون الأثريون في صحار على بقايا مدفونة من البورسلين (الخزف الصيني) الذي يرجع للعصور الوسطى،[١٢٣] كما وجدت في المدينة جالية يهودية كبيرة تعمل بالتجارة والقروض المالية وفق الأعراف السائدة في ذلك الزمن.[١٢٤]

أما المبادلات التجارية مع الهند، فقد أكد الرحالة ماركوبولو[١٢٥] أن أهالي مدينة قلهات كانوا يستوردون التوابل من الهند، بينما أشار الرحالة المغربي ابن بطوطة[١٢٦] إلى استيرادهم الأرز من الهند أيضًا فأكد أنهم (أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي إليهم في البحر الهندي). ومن جهتها، عرفت البحرين مبادلات تجارية نشيطة مع بلاد الفرس، إذ كانت تصدر إليها التمر والدبس،[١٢٧] مقابل استيراد مجموعة من السلع الإيرانية التي لم تفصّل فيها كتب الجغرافيا إذ اكتفى الحميري[١٢٨] بالقول: (وميرة البحرين تجلب إليها من فارس).

ولا يخامرنا الشك – بناءً على رواية الرحالة ابن بطوطة –[١٢٩] أن جالية من التجار البحرينيين كانت موجودة في مدينة قاليقوط الهندية، كان يترأسها تاجر بحريني يسمى إبراهيم شاه بندر، ويلقب بأمير التجار. وقد وصفه ابن بطوطة بأنه (فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار ويأكلون في سماطه). ولم يقتصر الوجود التجاري البحريني على الشرق الأدنى، بل امتد ليشمل بلاد الزنج كذلك، ولا غرو فقد لاحظ ابن رسته[١٣٠] وجود تجار من البحرين وقد حملوا معهم بيضا يشبه بيض النعام.

أما تجارة اللؤلؤ ومغاص الجوهر، فقد كان لأهل البحرين والقطيف باع طويل فيها، وهو ما تدل عليه شهادة ابن بطوطة التي تميزت بالمشاهدة العيانية، إذ يقول: (ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم، فإذا كان شهر أبريل ومايو تأتي إليه القوارب الكثيرة، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف).[١٣١] ويستشف من هذا النص أن تجارة مغاص الجوهر كانت تبدأ بعملية البحث عنه في أعماق الخليج العربي في ناحية البحرين، وأن هذه العملية كانت تتم في شهري أبريل ومايو، وأن تجارًا من البحرين والقطيف، بالإضافة إلى التجار الفرس كانوا يشرفون على هذه العملية قبل إنهاء تصنيعها وحملها إلى الأسواق. ويتفق الإدريسي[١٣٢] مع هذه الشهادة، ولكنه يخالف صاحبها في توقيت عملية الغوص للبحث عن هذا الجوهر، إذ يحدده زمنيا بشهري غشت وشتنبر، ومكانيًا في جزيرة أوال. كما أن نصه أكثر وضوحًا إذ يقر بأن التجار كانوا يكترون الغواصين للقيام بالبحث عن مغاص الجوهر، وذلك بأجر يتم الاتفاق عليه، ويتفاوت حسب زمان الغوص وطريقته وحسب درجة أمانة الغواصين.

وعلى كل حال؛ فقد كانت تجارة اللؤلؤ ومغاص الجوهر من أهم أنواع تجارة الكماليات التي عرفتها مدن شرق الجزيرة العربية، خاصةً البحرين والقطيف كما تؤكد ذلك مصادرنا الجغرافية.

ثالثا: جوانب حضارية متنوعة

إلى جانب ما تتيحه كتب الجغرافيا والرحلات من نصوص حول موقع مدن شرق الجزيرة العربية واشتقاقات أسمائها ومعمارها وثرواتها الاقتصادية ومبادلاتها التجارية، فإنها تزود الباحث بنصوص متفرقة حول المشهد الحضاري بمدن شرق الجزيرة العربية. ففي ثنايا هذه المصادر، تنبث إشارات مهمة حول مسألة الضرائب وديوان جباياتها ببعض مدن شرق الجزيرة العربية، وأسماء الأشخاص المكلفين بالجباية وغيرها من المعلومات الهامة التي تساهم في إضاءة هذا الجانب الحضاري.

١/٣- جباية الضرائب:

يمدنا ياقوت الحموي، بنص حول كتاب الصلح الذي تم بين الفاتحين المسلمين للبحرين ومن كان بها من المجوس واليهود والنصارى، ومنه نستشف أن المسلمين فرضوا جزية الرؤوس على هؤلاء، حيث كان يؤخذ دينار واحد عن كل من بلغ الحلم منهم. ويذكر لنا رواية حول العلاء بن الحضرمي الذي كان يأخذ خراج البحرين من المشركين والعشر من المسلمين حتى اجتمع له من مال البحرين ثمانين ألف دينار، بعثها إلى رسول الله (ﷺ)، وهو مبلغ هائل (ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده)[١٣٣]؛ وحسبنا أن أحد جباة الخراج بالبحرين في عهد عمر بن الخطاب لم يجمع سوى (١٢) ألف دينار.[١٣٤] كما يذكر الجغرافي نفسه أيضًا أن رسول الله (ﷺ) أخذ الجزية من مجوس هجر دون أن يحدد قيمتها.[١٣٥] وفي موضع آخر يذكر أن مجوس القطيف انضموا إلى المكعبر الفارسي أثناء أحداث الردة وامتنعوا عن أداء الجزية.[١٣٦]

ومن بين الشخصيات الإسلامية التي تولت جباية الضرائب في البحرين خلال عهد الخليفة عمر بن الخطاب، يذكر صاحب معجم البلدان قدامة بن مضعون الجمحي، الذي عزل وولي مكانه أبو هريرة الذي عزل أيضًا لأن عمر بن الخطاب شك في مبلغ (١٢) ألف دينار التي اجتمعت له من قيمة الجباية.[١٣٧] أما في عصر القرامطة فينفرد ابن حوقل[١٣٨] برواية مفادها أن حاكم البحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام وولده سليمان كانا يفرضان ضريبة كبيرة على كل المراكب التي تمر بهجر والأحساء والقطيف والعقير وجزيرة أوال. ومن الراجح أن هذه الضرائب جلبت إلى هذه المدن أموالا طائلة.

ويستشف من النص نفسه أن البحرين كانت مقطعة بكل ما فيها من ضياع ومزارع لبعض أتباع الحاكم المذكور. وكان على هؤلاء أن يؤدوا سنويًا مبلغ ثلاثين ألف دينار كضريبة مقابل الإقطاع الذي حظوا به.(١٣٩) أما المقدسي،(١٤٠) فيشير إلى مثل هذا الديوان الخاص بجمع الضرائب بمصطلح (خزانة المهدي) فضلاً عن (خزائن أخرى لهم أيضًا فبعض الأموال بتلك وبقيته في خزائنهم)، والضمير هنا يعود على القرامطة.

٢/٣- الأوبئة والأطعمة:

تجمع نصوص الأدب الجغرافي والرحالة على مرض كان يعم البحرين ويميزها عن غيرها من مدن شرق الجزيرة العربية، وهو مرض الطحال، فكل (مَنْ سكن البحرين عظم طحاله).(١٤١) ونظرًا لشيوع هذا المرض بالبحرين فقد شاع في الأمثال التي نقلتها كتب الجغرافيا حتى قيل (لا صيف كصيف عمان، ولا صواعق كصواعق تهامة، ولا جرب كجرب اليمن، ولا طواعين كطواعين الشام، ولا طحال كطحال البحرين)؛(١٤٢) بل إن ذاكرة الشعراء اختزنت بدوها شبح هذا الوباء حيث قال أحد الشعراء فيما نقله أحد الجغرافيين:(١٤٣)

ومَنْ يسكن البحرين يعظم طحاله ••• وغبط بما في بطنه وهو جائع

وثمة وباء آخر وقع في مدينة هجر سنة ٢٨٧هـ، ولكنه كان وباءً طارئًا، ولم يكن من الأمراض الشائعة أو المزمنة مثل وباء الطحال. وقد ورد خبر هذا المرض عند البكري والحميري اللذان أشارا إلى أنه عند حصار أبي سعيد القرمطي مدينة هجر ودخوله إياها بعد حصار دام أربع سنين، وجد الناس داخل المدينة قد اعتلوا وهزلت أجسامهم بعد أن كان الوباء قد عمّهم، مخلفًا هلاك طاقة بشرية كبيرة.(١٤٤) أما بخصوص الأطعمة فلم تقدم لنا النصوص الجغرافية التي تم الاطلاع عليها سوى نص واحد يهم مدينة قلهات التي زارها الرحالة ابن بطوطة في القرن (٨هـ/ ١٤م)، فذكر لنا أن أهل هذه المدينة اعتادوا على أكل نوع من السمك في غاية الجودة، ويقدم لنا طريقة تحضيره بالقول أنهم كانوا يشوونه على ورق الشجر، ويجعلونه على الأرز ويأكلونه.(١٤٥)

٣/٣- اللغة والمتنزهات:

تزودنا كتب الجغرافيا والرحلات أيضا بنصوص تهم لغة بعض مدن شرق الجزيرة العربية، خاصةً صحار وقلهات. فعن صحار يشير المقدسي(١٤٦) إلى أن كلام أهلها كان باللغة الفارسية، وذلك خلافًا للمدن الأخرى التي كانت تتحدث بالعربية. أما كلام أهل قلهات، فلم يكن يتميز بالفصاحة حسب ابن بطوطة الذي التقى بهم وتحدث معهم (فكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب).(١٤٧) وكانت لديهم عادة إضافة نطق "لا" في كل كلمة إذ كانوا يقولون مثلاً: تأكل لا، تمشي لا، تفعل كذا لا.(١٤٨) ويطالعنا الحميري(١٤٩) بمعطى حضاري آخر حول المتنزهات التي كانت تشتمل عليها ضواح البحرين وعلاقتها بالمناخ الحار السائد إذ يقول عن أهل البحرين (وبساتينهم على نحو ميل منها – أي مدينة البحرين – ولا يأتونها إلا غدوا أو رواحا لإفراط حرّ الرمضاء).

٤/٣- مذاهب وأعلام:

تتضمن كتب الجغرافيا والرحلات نصوصا قليلة، ولكنها مهمة حول الخريطة المذهبية لبعض مدن شرق الجزيرة العربية، فمن خلال مشاهدات ابن بطوطة نقف على حضور المذهب الشيعي في مدينة القطيف، إذ لاحظ الرحالة المغربي أن أهل القطيف كانوا لا يخفون مذهبهم الشيعي الرافضي. وقد سمع بنفسه إبان زيارته لهذه المدينة المؤذن يذكر بعد الشهادتين أن عليا ولي الله ويزيد بعد التكبير الأخير: (محمد وعلي خير البشر، مَنْ خالفهما فقد كفر).(١٥٠) ويبدو أن هذا الحضور الشيعي الذي لاحظه ابن بطوطة في مدينة القطيف ترجع جذوره إلى عهد الهيمنة القرمطية على المدينة منذ القرن (٤ هـ/ ١٠م).

أما في مدينة الأحساء، فيتفرد ابن حوقل(١٥١) بذكر نص حول وجود مذهب العقدانية فيها. ويذكر أن رجال هذا المذهب كانوا من ذوي الفهم والعقل والحلم، إلا أن أتباعهم من بني الغمر كانوا من العامة الجفاة. بينما كان المذهب الإباضي منتشرًا في مدينة قلهات، ولم يكن أحد من سكان هذه المدينة يخفي هذا المذهب أو يتستر عليه.(١٥٢) وعلى غرار الإضاءات التي توفرها كتب الجغرافيا والرحلات حول الخريطة المذهبية ببعض مدن شرق الجزيرة العربية، فإنها تزودنا أيضًا بأسماء أعلام بعض هذه المدن، إذ يذكر ياقوت الحموي مجموعة من أعلام مدينة صحار من بينهم أبو علي محمد بن روزان الصحاري الشاعر.(١٥٣) كما يذكر أيضًا شخصيات من علماء البحرين من بينهم محمد بن معمر البحراني، والعباس بن يزيد بن أبي حبيب البحراني، وزكريا بن عطية البحراني.(١٥٤)

ويورد ابن حوقل(١٥٥) عادة اجتماعية لدى أهل الأحساء سردها عند ذكر ولد أبي طاهر إذ يقول أنه كان من عادة مشايخهم وأولادهم أن يركبوا فرادى، فيجتمعون بالأحساء في مكان يعرف بالجرعاء، فيلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم، وينصرفون بغاية التواضع وقد لبسوا البياض لا غير.

خاتمة

قصارى القول؛ أن المشهد الحضاري في مدن شرق الجزيرة العربية لا يكتمل وتتضح صورته إلا إذا استند الباحث على الأدب الجغرافي والرحلات. وقد أبانت هذه الدراسة التي اعتمدت على هذا الصنف من المصادر عن مجموعة من اللوحات الحضارية، إذ كشفت عن مواقع مدن شرق الجزيرة العربية في خطوط الطول والعرض، وتتبعت اشتقاقات أسمائها من الناحية اللغوية، كما ألقت بعض الأضواء على تطور معمارها وخصائصه، وأعطت مجموعة من المعلومات حول ثرواتها الاقتصادية ومبادلاتها التجارية التي تعز في المدونات التاريخية، فضلاً عن معطيات متفرقة حول المشهد الحضاري في مدن شرق الجزيرة العربية.

الهَوامِشُ:

(١) **معجم البلدان**، دار الكتاب العربي، بيروت (دون تاريخ)، ج١، ص١١١.

(٢) **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، باريس ١٨٤٠ م، ص٩٩.

(٣) **رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار**، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ)، ص٢٩١.

(٤) **معجم البلدان**، ج٤، ص٣٧٨.

(٥) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.

(٦) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، دار القلم للطباعة، بيروت ١٩٧٥، ص٥٩٢.

(٧) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.

(٨) يشرح ياقوت الحموي "الهذيان" بقوله: (ويجوز أن يكون شيء مهجر إذا أفرط في الحسن والتمام، وسمي كذلك لأن الناعت له يخرج في إفراطه إلى الهجر (بضم الهاء) وهو الهذيان، انظر: المصدر نفسه والصفحة.

(٩) المصدر نفسه والصفحة.

(١٠) **ياقوت الحموي**، م. س، ج٤، ص٣٩٣.

(١١) **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فون ليوفن، وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس ١٩٩٢، ج١، ص١٩٠.

(١٢) **الروض المعطار**، ص٥٩٢.

(١٣) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.

(١٤) **المسالك والممالك**، منشورات دار صادر، بيروت، طبعة ليدن – بريل ١٨٨٩م، ص١٥٢.

(15) Farouk Omar Fawzi; Studies in The History of Oman, Publications of AL al-Bayt University, 2000, P.23.

(١٦) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.

(١٧) **أحسن التقاسيم**، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩١، ط٣، ص٧١.

(١٨) **المسالك والممالك**، ج١، ص١٨٣.

(١٩) **أحسن التقاسيم**، ص٩٣.

(٢٠) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.

(٢١) نفسه، ج١، ص٣٤٧.

(٢٢) **نزهة المشتاق**، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٤، ج١، ص٣٨٦.

(٢٣) نفسه، ص٣٨٧.

(٢٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٢٥) نفسه، ص٣٨٧.

(٢٦) **الروض المعطار**، ص٢٤٤.

(٢٧) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.

(٢٨) **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠، ط١، ص١١٨.

(٢٩) **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، (دون تاريخ)، ص٥٦.

(٣٠) **الروض المعطار**، ص٢٤٤.

(٣١) نفسه، ص٤٦٥.

(٣٢) **المسالك والممالك**، ح١، ص٣٧٢.

(٣٣) **تقويم البلدان**، ص٩٩.

(٣٤) **كتبا الجغرافيا**، ص١١٨.

(٣٥) **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢، ص٣٣.

(٣٦) **المسالك والممالك**، ج١، ص٢٠٨.

(٣٧) **الروض المعطار**، ص٨٢.

(٣٨) **معجم البلدان**، ج١، ص١٠.

(٣٩) **كتاب الجغرافيا**، ص١١٨.

(٤٠) سفرنامة: اقتباسا من:, Fawzi , op-cit , p25.

(٤١) أبو الفدا، م، س، ص٩٩

(٤٢) **الروض المعطار**، ص٨٢. يشير ابن بطوطة إلى ظاهرة التصحر أو زحف الرمال على بعض منازل مدينة البحرين، وإن كان يذكرها في صفة الاحتمال، انظر: **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.

(٤٣) **الروض المعطار**، ص٨٢.

(٤٤) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.

(٤٥) **أحسن التقاسيم**، ص٩٢؟

(٤٦) المصدر نفسه والصفحة – ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٦ .

(٤٧) ابن المجاور، نقلا عن وليامسون، **صحار عبر التاريخ**، ترجمة: محمد أمين عبد الله، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، العدد ٢، مسقط ١٩٨٢،ص٢٥ .

(٤٨) المقدسي، م، س، ص٩٣.

(٤٩) **معجم البلدان**، ج٣، ص٣٩٣.

(٥٠) وليامسون، م. س، ص٢٨.

(٥١) المقدسي، م، س، ص٩٢.

(٥٢) ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٩٣.

(٥٣) **تقويم البلدان**، ص٩٩.

(٥٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥٥) **أحسن التقاسيم**، ص ٩٣ .

(٥٦) الادريسي: **نزهة المشتاق**، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي، تحقيق مجموعة من الباحثين، طبعة نابولي – روما، ط٢ (دون تاريخ) ، ج٣، ص١٥٥.

(٥٧) ياقوت الحموي، م، س، ج٤، ص٣٩٣.

(٥٨) الحميري، م، س، ص٥٩٢ - البكري، م، س، ج١، ص٣٧٧.

(٥٩) **أحسن التقاسيم**، ص٩٣- أبو الفدا، تقويم، ص٩٩.

(٦٠) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.

(٦١) الحميري، م، س، ص٨٢. – ياقوت الحموي، م، س، ج١، ص٣٤٧.

(٦٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٦٣) **نزهة المشتاق**، ج ١، ص٣٨٧.

(٦٤) وليامسون، م، س، ص١١.

(٦٥) المقدسي، م، س، ص٩٢- ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٩٤.

(٦٦) **الروض المعطار**، ص٣٥٤.

(٦٧) ابن سعيد، م، س، ص١١٨.

(٦٨) الحميري، م، س، ص٥٩٢.

(٦٩) ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**، ليدن ١٣٠٢ هـ، ص٣٠. ويستعمل ابن بطوطة نفس المثل بالصيغة التالية: (كجالب التمر إلى هجر)، **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.

(٧٠) ناصر خسرو، ص٩٤.

(٧١) آثار البلاد، ص٢٨٠.

(٧٢) ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، ليدن، مطبعة بريل ١٨٩٢م، ص٨٣- الحميري م، س، ص٨٢ – أبو الفدا، م، س، ص٩٩. – الادريسي، م، س، ص١٢٣.

(٧٣) الادريسي، م.س، ج١، ص٣٨٧.

(٧٤) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.

(٧٥) الحميري، م.س، ص ٨٢.

(٧٦) المصدر نفسه والصفحة – ابن بطوطة، م.س، ص ٢٩١.

(٧٧) المقدسي، م، س، ص٩٣.

(٧٨) أبو الفدا، م، س، ص٩٩.
(٧٩) المصدر نفسه والصفحة.
(٨٠) وليامسون، م. س، ص٢٨.
(٨١) **أحسن التقاسيم**، ص٩٢. ياقوت الحموي، م. س، ج٣، ص٣٩٣- ٣٩٤ .
(٨٢) أبو الفدا، م. س، ص٩٩.
(٨٣) الحميري، م. س، ص٣٥٤.
(٨٤) **المسالك والممالك**، ج١، ص٤٣٣.
(٨٥) **الأعلاق النفيسة**، ص٨٧.
(٨٦) **أحسن التقاسيم**، ص١٠١.
(٨٧) **الروض المعطار**، ص٦٣.
(٨٨) سفرنامة، ص٩٣-.
(٨٩) رشيد العقيلي: **الخليج العربي في العصور الاسلامية**، ص٢١٥.
(٩٠) القزويني، م.س، ص٢٨٠.
(٩١) وليامسون، م، س، ص٢٨.
(٩٢) المسعودي، **مروج الذهب**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٦٤، ط٤،ج١، ص١٤٩.
(٩٣) نفسه، ص١١١.
(٩٤) ابن خرداذبة، م. س، ص٦.
(٩٥) الإدريسي، م، س، ص١٦٢.
(٩٦) الهمذاني: **صفة جزيرة العرب**، القاهرة ١٩٥٢، ص١٣٨- أبو الفدا : م، س، ص٩٧.
(٩٧) **الروض المعطار**، ص٦٣.
(٩٨) أبو الفدا، م. س، ص٩٩ (يستعمل مصطلح يومان) – الادريسي، ج١ ص٣٨٦.
(٩٩) المصدر نفسه والصفحة.
(١٠٠) **صورة الأرض**، ص٤٥.
(١٠١) البكري، م. س، ج١، ص٣٧٧ – الحميري، م، س، ص٨٢ .
(١٠٢) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١ .
(١٠٣) ياقوت الحموي، م. س، ج٥، ص٢٩٣.
(١٠٤) ابن خرداذبة، م، س. ص٦٠.
(١٠٥) الحميري، م. س، ص٦٣.
(١٠٦) أبو الفدا م.س، ص٨٤.
(١٠٧) المصدر نفسه والصفحة.
(١٠٨) مروج الذهب، ج١، ص١٠٨.
(١٠٩) ياقوت الحموي، م. س، ج٤، ص٣٩٣.
(١١٠) ابن بطوطة، م. س، ص٢٥١.
(١١١) **رحلات ماركوبولو**، الترجمة العربية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٧، ص٣٤٠.
(١١٢) الهمذاني، م.س، ص٢٢٣.
(١١٣) الحميري، م. س، ص١٤ .
(١١٤) المقدسي، م. س، ص٩٢.
(١١٥) ابن بطوطة، م. س، ص٢٦٠.
(١١٦) **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص١١١.
(١١٧) أبو الفدا، م. س، ص٩٩.
(١١٨) البكري، م. س، ج١، ص٣٧٦ .
(١١٩) **أحسن التقاسيم**، ص٩٤- ابن حوقل، م، س، ص٤٥- ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٩٣.
(١٢٠) **نزهة المشتاق**، ج١، ص١٥٦.
(١٢١) المقدسي، م، س، ص٣٢- الادريسي، م، س، ص١٥٦- الحميري، م، س، ص٣٥٥.
(١٢٢) برزك: **عجائب الهند**، ليدن – بريل ١٨٨٣ – ١٨٨٦ م، ص٨٥ .
(١٢٣) **رحلة السندباد**، ترجمة د. سامي عزيز، مسقط ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، منشورات وزارة التراث القومي، ص٨٥.
(١٢٤) وليامسون، **صحار عبر التاريخ**، ص٢٢.
(١٢٥) **رحلات ماركوبولو**، ص٣٤١.
(١٢٦) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.
(١٢٧) البكري، م، س، ج١، ص٣٧٢.
(١٢٨) **الروض المعطار**، ص٨٢.
(١٢٩) **رحلة ابن بطوطة**، ص٥٧٢.
(١٣٠) **الأعلاق النفيسة**، ص١٠٠.
(١٣١) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩٠.
(١٣٢) **نزهة المشتاق**،ج١، ص٣٨٧-٣٨٨.
(١٣٣) ياقوت الحموي، م. س، ج١، ص٣٤٨.
(١٣٤) المصدر نفسه والصفحة.
(١٣٥) المصدر نفسه والصفحة.
(١٣٦) المصدر نفسه، ص٣٤٩.
(١٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٨.
(١٣٨) **صورة الأرض**، ص٣٣.
(١٣٩) المصدر نفسه والصفحة .
(١٤٠) **أحسن التقاسيم**، ص٩٤.
(١٤١) الإصطخري، م. س. ص١٧١- ابن رسته، م. س، ص٨٣.
(١٤٢) البكري، م، س، ج١، ص٤٩٤.
(١٤٣) الحميري، م، س، ص٨٢.
(١٤٤) **المسالك والممالك**، ج١، ص٣٧٧ – **الروض المعطار**، ص٥٩٢.
(١٤٥) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.
(١٤٦) **أحسن التقاسيم**، ص٩٦.
(١٤٧) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.
(١٤٨) المصدر نفسه والصفحة.
(١٤٩) **الروض المعطار**، ص٨٢.
(١٥٠) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.
(١٥١) **صورة الأرض**، ص٣٤.
(١٥٢) ياقوت الحموي، م، س، ج٤، ص٣٩٣.
(١٥٣) نفسه، ج٣، ص٣٩٤.
(١٥٤) نفسه، ج١، ص٣٤٧.
(١٥٥) **صورة الأرض**، ص٣٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

موقف علماء المالكية
من الدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية

طارق بن زاوي

أستاذ مساعد التاريخ الوسيط
جامعة المسيلة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

لقد عرف دعاة الإسماعيلية الشيعة كيف يتعاملون مع سكان بلاد المغرب الإسلامي، فحققّوا هدفًا طالما كافحوا من أجله، وذلك بفضل سواعد أبناء قبيلة كتامة البربرية التي تبنت مذهب واضع أسس الدولة الفاطمية الداعية أبا عبد الله الشيعي واحتضنت دعوته وأقامت دولته، والذي استطاع أن يقضي على أهم الدول التي كانت قائمة في تلك المرحلة وأهمها الدولة الرستمية الأباضية المذهب في المغرب الأوسط، والدولة الأغلبية السنية المذهب في المغرب الأدنى أواخر القرن الثالث الهجري. ومع قيام هذه الدولة سلك الفاطميون منذ عهد خليفتهم الأول عبيد الله المهدي مسلكًا عنيفًا جدًا تجاه السكان، فقد حرص عبيد الله المهدي على نشر التشيّع الإسماعيلي الباطني بكل الطرق بما في ذلك القوة والإكراه، وهذا ما يناقض تمامًا معتقدات السكان السنية التي ترسخت في المنطقة، وذلك بفضل جهود العلماء الذين كانوا من أشدّ الناس تمسكًا بالمذهب المالكي السني والذين لم يدخروا جهدًا في مقاومة المد الشيعي الإسماعيلي الباطني باذلين في ذلك مجهودات جبارة من مناظرة وتأليف وتدريس وجهاد بالنفس، الأمر الذي جعل انتشار التشيع في بلاد المغرب الإسلامي محدودًا جدًا.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢ أبريل ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٩ سبتمبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

المذهب الشيعي، الدولة العبيدية، المغرب الإسلامي، كتامة البربرية، الزيريين

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

طارق بن زاوي، "موقف علماء المالكية من الدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٢٠ – ٢٤.

مُقَدِّمَةُ

لقد عرفت بلاد المغرب صراعًا مذهبيًا منذ القرن الثاني الهجري، حيث وجد الخوارج والشيعة المنطقة مؤهلة لزرع أفكارهم بين سكانها البربر أو الأمازيغ الذين عرفوا بعدم الركون إلى الظلم والثورة على الولاة والأمراء، في الوقت الذي باءت فيه كل محاولات الخوارج والشيعة في المشرق الرامية للقضاء على الخلافة الأموية ثم العباسية بالفشل، وقد تمكن الخوارج الصفرية من تأسيس أول إمارة تعتنق المذهب الخارجي في سجلماسة أقصى جنوب المغرب، ثمّ أعقبها نجاح آخر للخوارج تمثّل في قيام الإمارة الرستمية الإباضية في تاهرت في المغرب الأوسط، ولم يكن الشيعة بمعزل عمّا يحققه أعداؤهم الخوارج من نجاحات، فقد كان الدعاة الشيعة على قدر كبير من النشاط والعمل خاصةً الإسماعيليون منهم الذين أسسوا أعظم دولة لهم في تاريخ الإسلام في بلاد المغرب الإسلامي (الجزائر حاليًا) معتمدين على ذكاء دعاتهم من جهة، وعلى جهل أبناء قبيلة كتامة البربرية من جهة أخرى، فحققوا ما عجزوا عن تحقيقه في المشرق بقيادة الداعية أبي عبد الله الشيعي الذي نصّب عبيد الله مهديًا وخليفة على رأس الدولة الفاطمية، وإذا علمنا أنّ مذهب أهل السنة في المغرب هو السائد كان من الطبيعي أن يحدث الصدام بين الطرفين وكان علماء المالكية السنة الأجلاّء في القيروان عملوا على مواجهة هذا المدّ الشيعي الإسماعيلي، ففيم تمثلت جهود هؤلاء الأعلام؟ وما هي طرائق مقاومتهم للإسماعيلية الشيعة؟ وما هي نتائج هذه المقاومة؟

أولاً: مقاومة المالكية السلمية للدولة الفاطمية

بقيام الدولة الفاطمية سنة (٢٩٧ هـ/ ٩٠٩م) تشتدّ المحنة على أهل إفريقية والمغرب المالكية، فالعنصر الذي جدّ في مناهضتهم كان قويًا، فبني عبيد إلى جانب كرههم لأهل السنة كانوا حاكمين وعملوا على نشر مذهبهم، لذلك كان على بلاد المغرب أن تواجه هذه الدعوة التي سوف لا تترك وسيلة للنفاذ إلا استنفذتها، وعلى أهلها إذا أرادوا التمسك بمالكيتهم أن يلاقوا التنكيل والترويع والقتل.(١)

وحاول أبو عبد الله الشيعي،(٢) مؤسس الدولة العبيدية، في أول أمره أن يقنع العلماء بمذهبه ويناظرهم عليه، وفي هذا الإطار فقد تناظر الشيعي مع أبي عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني، فقال له: القرآن يقرّ بأنّ محمدًا ليس بخاتم النبيين، فقال له سعيد: أين ذلك ؟ فقال له: في قوله تعالى "**وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**".(٣) فخاتم النبيّين غير رسول الله، فقال سعيد: هذه الواو ليست من واوات الإبتداء إنّما هي من واوات العطف، كقوله تعالى " **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**".(٤) فهل من أحد غير الله يوصف بهذه الصفات، وتكلّم عنده يومًا، فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ المشايخ، وقام إليه بالرمح، فمنعه أبو عبد الله من ذلك، ثمّ عطف إلى أبي عثمان فقال له: "يا شيخ لا تغضب، إذا غضب هذا الشيخ غضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف".(٥) واشتهر سعيد بن محمد بمناظراته وثباته على الحق، لذلك علا شأنه بين الناس. ولمّا خرج أبو عبد الله الشيعي في طلب عبيد الله استخلف أخاه أبا العباس، فأطلق يد محمد بن عمر المرودي فتصلّب وتكبّر، وكانت أيامه صعبة جدًا، وأخاف أهل السنة وترك أكثرهم الصلاة في المساجد، وأخذ أموال الأحباس والحصون، وأخذ سلاح الحصون التي على البحر، وأمر الفقهاء أن لا يفتوا ولا يكتبوا وثيقة إلا من تشرّق،(٦) وأن يزال من الحصون والمساجد اسم الذي بناها وأمر بها من السلاطين ويكتب اسم المهدي.(٧)

وقد كان العلماء من أوائل ضحايا الانتصار الشيعي الرافضي في إفريقية وبلاد المغرب، فقد قتل أبو العباس الشيعي شقيق أبي عبد الله عالمين فاضلين هما ابن البردون وابن هذيل، وطيف بهما مربوطين إلى بغل مسحوبين على وجهيهما في القيروان ثمّ صلبا.(٨)

ولمّا دخل عبيد الله(٩) القيروان ادّعى أنّه المهدي المنتظر، وأنّه الإمام المعصوم، وجاهر بسب أصحاب النبيّ (ﷺ) وأزواجه الطاهرين، وحكم بكفرهم، وارتدادهم عن الإسلام، ولم يستثن إلا عليّا وقليلاً ممَنْ أيده وناصره،(١٠) ونصّب حسينا السبّاب لعنه الله تعالى في الأسواق للسبّ بأسجاع لقّنها يوصل منها إلى سبّ النبي (ﷺ)، كقوله العنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى وغير ذلك، وعلّقت رؤوس الأكباش والحمر على الحوانيت عليها قراطيس معلقة فيها أسماء الصحابة رضي الله عنهم،(١١) وقطع صلاة التراويح، وأبطل الأذان السني، وأبدله بالآذان الشيعي، وانتهكت حرمات المساجد في أيامه، فقد روي أن بعض أتباعه أدخلوا خيولهم المسجد، ولمّا قيل لهم: كيف تدخلون خيولكم المسجد؟ ، قالوا: إنّ أرواثها وأبوالها طاهرة لأنّها خيل المهدي، فقال لهم القيّم على المسجد: إنّ الذي يخرج من المهدي نجس، فكيف بالذي يخرج من خيله، فقالوا له: طعنت على المهدي، وأخذوه ثمّ قتلوه.(١٢)

وهذا ما دفع علماء القيروان إلى إعلان معارضتهم الصريحة للعبيديين، وكان أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمان على رأس المعارضين، حيث ترك رباطه وأتى القيروان ليسكنها، فسأل عن سبب ذلك، فقال: كنّا نحرس عدوا بينه وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حلّ بساحتنا، لأنّه أشدّ علينا من الروم، ولم يكن في وقته أكثر منه اجتهادًا منه في مجاهدة عبيد الله وشيعته، وكان لا يداري أحدًا في ذلك،(١٣) وعندما حضر أول خطبة لهم في جامع القيروان جلس عند المنبر فسمع خطبتهم، فلمّا سمع ما لا يجوز سماعه قام وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر إلى آخر باب في الجامع والناس ينظرون إليه وهو يقول: قطعوها قطعهم الله، فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعهم، وهو أول من نبّه على ذلك.(١٤)

وإذا كان أبو يوسف قد سلّمه الله من الأذى، فإنّ أبا محمد بن العباس بن الوليد المعروف بالهذلي فقد ضرب عريانًا حتى سال الدم من رأسه، ثمّ أركب على حمار عريانًا وطيف به في أسواق القيروان، ثمّ حبس وترك بعد ذلك، وحدث له هذا بعد وشاية مفادها أنّه يفتي بمذهب المالكية ويطعن على المهدي،(١٥) وسجن حكم بن محمد بن هشام القرّشي لصلابته في السنة وإنكاره على أهل البدع، ثمّ هجر إفريقية واستقرّ في الأندلس،(١٦) وكذلك فعل حباشة بن حسن اليحصبي الذي كان يحدّث في الأندلس أنّ السنة تعرض سرًا في القيروان.(١٧)

ولقي عروس المؤذن حتفه مقتولا بالرماح بأمر من عبيد الله الشيعي سنة (٣٠٧ هـ/ ٩١٩م) بعد أن قطع لسانه وطيف به في القيروان ولسانه بين عينيه، وذنبه أنّه لم يقل في آذانه حي على خير العمل،(١٨) وأمّا أبو عبد الله محمد بن عبد الله السدري المجاهر بعداوة الشيعة المبايع على جهادهم، فقد أرسل عبيد الله الشيعي من يأتيه به إليه، ولمّا أوقف بين يديه قال له عبيد الله: أنت الشاتم لنا الذاكر عنّا أنا أحدثنا في الإسلام الحوادث، فقال له: نعم أنا القائل بذلك، فقال له: وما الذي رأيته منّا؟ فأخبره بكلّ ما يعتقده في الدين والإسلام وكلّ ما أحدث فهما، فقال حينئذ عبيد الله لأوليائه: اضربوا عنقه، فقتل رحمه الله سنة (٣٠٩ هـ/ ٩٢١م).(١٩)

وأمّا مَنْ لم يستطع المقاومة من العلماء فاختار الفرار بدينه، ومن هؤلاء أبو محمد يونس بن محمد الورداني الذي فضّل رعي البقر في البوادي بعيدًا عن أعين الشيعة، وذلك حين طلبوا أهل العلم والفضل، فخاف على نفسه، وكان هذا سببًا لأن يكون مخمول الذكر عند علماء القيروان.(٢٠)

وأنكر أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي وكان من أئمة المالكية في المغرب على معاصريه من أهل القيروان سكناهم في مملكة بني عبيد وبقاؤهم بين أظهرهم، وأنّه كتب إليهم مرّة بذلك، فأجابوه بأنّ بقاءهم مع مَنْ هناك من عامة المسلمين تثبيت لهم على الإسلام وبقية صالحة للإيمان، وأنّه لو خرج من إفريقية لتشيّع مَنْ بقي فيها من العامة، فرجّحوا خير الشرّين.(٢١)

وحامت حول بعض العلماء شبهة التعاطف مع بني عبيد، ومن هؤلاء أبو القاسم بن خلف بن أبي القاسم الأسدي المعروف بالبرادعي، حيث لم تحل له رئاسة في القيروان رغم أنّه كان من حفّاظ المذهب المالكي المؤلفين فيه، وكان مبغضًا عند أصحابه بسبب صحبة سلاطين الشيعة، ويقال إنّ الفقهاء أفتوا برفض كتبه وترك قراءتها لأنّه وجد بخطّ يده في ذكر بعض العبيديين، أو أنّه ألف كتابا في تصحيح نسبهم وأنّهم كانت تأتيهم إمامة.(٢٢)

ثانيًا: لجوء المالكية إلى الخروج المسلح على الفاطميين

إنّ سياسة الإضطهاد التي اتبعها الفاطميون في إفريقية وبلاد المغرب لم تكن ضد السنة المالكية وحدهم، بل شملت جميع المذاهب الأخرى لاسيما الخوارج الذين من أخصّ صفاتهم الخروج على الحكام، فهم لا يحتاجون إلى فتاوى كثيرة وتفكير عميق ليفعلوا ذلك، وعلى النقيض منهم أهل السنة والجماعة الذين يضيّقون هذا الباب كثيرًا، لذلك فإنّ الخوارج بعد أن استجمعوا قواهم ونظّموا أنفسهم لم يتأخروا في إعلان التمرّد ضد الدولة الفاطمية مستغلين وفاة عبيد الله الشيعي، وعرفت ثورتهم هذه بثورة صاحب الحمار أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي الزناتي، خرج بناحية جبل أوراس وتلقب بشيخ المؤمنين، وقاتله عساكر القائم بأمر الله العبيدي(٢٣) صاحب المغرب، وعظم أمره ثم زحف على رقادة فامتلكها، ثم خضعت له القيروان سنة (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) وحاصر الخليفة العبيدي في المهدية، وبعدها بدأت هزائمه تتوالى بانتقاض بعض البربر عليه، فرجع إلى القيروان سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) وغنم أهل المهدية معسكره، وتوالت المعارك، ومات القائم فتولى ابنه المنصور(٢٤) فأخفى موت أبيه وخرج من المهدية فالتقى بمخلد في سوسة، فكانت الحرب سجالاً، ثم انهزم مخلد وقتل من أصحابه عدد كبير، وتعقبه المنصور إلى أن قبض عليه حيًا بعد أن أثخنته الجراح، فجعل في قفص من حديد، وحمل إلى المهدية، ثم قتله الخليفة وصلبه وأمر بسلخه سنة (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م).(٢٥)

وما يميّز هذه الثورة الخارجية عن غيرها من الثورات مشاركة علماء أهل السنة المالكية فيها، فقد رأى فقهاء القيروان وصلحاؤهم أنّ الخروج مع أبي يزيد متعيّن لكفر بني عبيد، ومنهم أبو إسحاق السبائي من فقهاء القيروان ومن أشدّ الناس بغضًا للشيعة، فقد روي عنه أنّه كان إذا رقي أحدا يقرأ في رقيته الفاتحة والمعوذتين كلّ سورة سبع مرّات، ثمّ يقول في آخر رقيته: ببغضي بني عبيد وذويه وحبّي في نبيّك وأصحابه وأهل بيته، وكان يشير إلى أصحاب أبي يزيد ويقول: هؤلاء من أهل القبلة، فإن ظفرنا بهم – أي بالشيعة العبيديين – لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، والله يسلّط عليه إمامًا عادلاً يخرجه عنّا.(٢٦)

وحكى أبو عبد الله المالكي فيمَنْ خرج معه أبو الفضل الممسي الذي كان يقول إنّ الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ويورثون ويرثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنّهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام، فلا تتوارث معهم ولا ينسب إليهم،(٢٧) وربيع بن سليمان القطان الذي جعل على نفسه أن لا يشبع من طعام حتى يقطع الله دولة بني عبيد، وعندما عوتب في خروجه قال: كيف لا أخرج وقد سمعت الكفر بأذني، فمن ذلك أني حضرت يومًا إشهادًا فيه جمع كثير أهل سنة ومشارقة، وكان بالقرب منّي أبو قضاعة الداعي، فأتى إليه رجل مشرقي من أعظم المشارقة، فقام إليه رجل منهم وقال له: إلى ها هنا يا سيدي ارتفع إلى جانب رسول الله، يعني أبا قضاعة، فكيف يسعني أن أترك القيام عليهم،(٢٨) وأبو العرب بن تميم الذي حسم الأمر عندما تناظر الناس حول شرعية الخروج، فقال لهم: اسكتوا، فسكت الناس فقال: حدثني عيسى بن مسكين عن محمد بن عبد الله يرفعه إلى النبي (ﷺ) أنّه قال: "يكون في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة، فإن أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم كفّار"،(٢٩) فلما تمّ الحديث كبّر الناس وارتفعت أصواتهم ثمّ خرجوا،(٣٠) وحتى أصحاب الأعذار أرادوا المشاركة في القتال ولو بشكل رمزي، فأبو ميسرة الضرير مشى شاهرًا السلاح في القيروان،(٣١) ثمّ اجتمعوا وركبوا بالسلاح التام والبنود والطبول، وأتوا حتى ركّزوا بنودهم قبالة الجامع وكانت سبعة بنود، وحضرت صلاة الجمعة فخطب خطيبهم أحمد بن أبي الوليد خطبة بليغة، وحرّض الناس على الجهاد وسبّ بني عبيد وأعلم الناس بالخروج من غدهم، فخرج الناس مع أبي يزيد لجهادهم، وحصروهم في المهدية، فلما رأى أبو يزيد ذلك ولم يشكّ في غلبته أظهر ما أكنّه من الخارجية، فقال لأصحابه: "إذا لقيتم القوم فانكشفوا عن علماء القيروان حتى يتمكن أعداؤهم منهم"، فقتلوا منهم مَنْ أراد الله سعادته ورزقه الشهادة، فمنهم الممسي وربيع القطان في خمسة وثلاثين من الفقهاء والصالحين، وذلك في رجب سنة (٣٣٣ هـ/ ٩٤٤م)، ففارق الناس أبا يزيد وأظهروا السنة وحلّقوا بالجامع،(٣٢) وقالوا: قتل أولياء الله شهداء، واشتدّ بغضهم له،(٣٣) وكانت هذه إحدى أهم الأسباب التي أدّت إلى هزيمة أبي يزيد وقتله، وكما هو متوقع لم يستتبع هذه الثورة إلا المزيد من العداء بين الفاطميين والعلماء.

ثالثًا: استمرار المقاومة المالكية بعد هزيمة صاحب الحمار

لقد بذل علماء المالكية السنة جهودا كبيرة للدفاع عن عقيدتهم أمام المدّ الشيعي الإسماعيلي الذي اجتاح المنطقة، ووقفوا له بالمرصاد وستستمر مقاومتهم للشيعة الفاطميين ما بقيت رايتهم تعلو في سماء بلاد المغرب وإفريقية.

ولمّا اعتلى الحاكم(٣٤) عرش الدولة الفاطمية أظهر من الكفر والزندقة ما لم يظهره غيره، فكان ممّا أحدث أن بنى دارًا وجعل لها أبوابًا وأطباقًا وجعل فيها قيودًا وأغلالاً وسمّاها جهنّم، فمن جنى جناية عنده قال: "أدخلوه جهنّم"، وأمر أن يكتب في الجوامع بسبّ الصحابة، وأرسل إلى المدينة من ينبش قبر النبي (ﷺ)، وعندما سئل الفقيه القيرواني الزاهد ابن عذرة عن خطباء بني عبيد، وقيل له إنّهم يثنون عليهم، قال: "أليس يقولون اللهم صلّ على عبدك الحاكم وورّثه الأرض"، قالوا: "نعم"، قال: "أرأيتم لو أنّ خطيبًا خطب فأثنى على الله ثمّ قال أبو جهل في الجنة، أيكون كافرًا"، قالوا: "نعم"، قال: "فالحاكم شرّ من أبي جهل"، وسئل الداودي عن المسألة نفسها فأجاب بمثل ذلك تقريبًا وأضاف أنّ مَنْ صلّى الجمعة وراءه أعادها ظهرًا أربعًا، ثمّ لا يقيم إذا أمكنه الخروج ولا عذر له بكثرة عياله ولا غيره.(٣٥)

وكان العبيديون قبل رحيلهم إلى المشرق باتجاه مصر سنة (٣٦١ هـ/ ٩٧١م) عينوا على المغرب بلكين بن زيري(٣٦) عاملاً لهم على البلاد، وتوارث أبناؤه الحكم، وفي عهد المعز بن باديس(٣٧) أظهر السنة ونبذ الرافضة، فجهر الناس بمعتقداتهم وأقاموا شعائرهم الدينية بحرّية كبيرة، ثمّ قام المعز بتحريض من علماء السنة بقطع صلاته السياسية بالفاطميين العبيديين الشيعة، وأعلن مبايعته للخليفة العباسي القائم في بغداد سنة (٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣م)(٣٨) وقام العبيديون بعد ذلك بإرسال أعراب بني هلال وبني سليم إلى بلاد المغرب، فأحدثوا فيها خرابًا كبيرًا كما هو مذكور في مظّانه.

خاتمة

وأخيرًا يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

- يعتبر إعلان قيام الدولة الفاطمية ذات المذهب الشيعي الإسماعيلي في بلاد المغرب الإسلامي أكبر انتصار سياسي حققّه الشيعة الإسماعلية في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري.
- نجاح أبو عبد الله الشيعي المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية في نشر التشيّع بين أفراد قبيلة كتامة البربرية مجهودات كبيرة دعوية في بدايتها وسياسية وعسكرية بعد ذلك، منتصرًا على جميع العقبات التي اعترضت طريقه بفضل ذكائه وقوة عزيمته.
- تعتبر قبيلة كتامة البربرية العصبية الأساسية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي.
- فشل المحاولات الشيعية في نشر المذهب الشيعي في غير قبيلة كتامة رغم المجهودات الكبيرة المبذولة من أجل تحقيق هذه الغاية، الأمر الذي دفع عبيد المهدي إلى تأسيس مدينة المهدية في إفريقية واتخاذها عاصمة لدولته.
- نجاح علماء السنة المالكية في الدفاع عن عقيدتهم وإبدائهم مقاومة شديدة في سبيلها ضاربين في ذلك أروع صور الإخلاص والصبر في سبيل نصرة مذهب أهل السنة والجماعة منذ قيام الدولة الفاطمية إلى غاية انتقالها إلى مصر.
- مواصلة علماء السنة المالكية جهودهم الرامية للقضاء على المذهب الشيعي بعد تولي الزيريين حكم إفريقية باسم الفاطميين، حيث كانت هذه الجهود إحدى أهم الأسباب التي دفعت المعز بن باديس رابع الأمراء الزيريين إلى إعلانه القطيعة النهائية مع الفاطميين الشيعة مبايعته للخليفة العباسي القائم في بغداد سنة (٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣م).

الهوامش:

(١) أبو العرب تميم، **طبقات علماء إفريقية وتونس**، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، مقدمة المحقق، ص١٧.

(٢) **أبو عبد الله الشيعي**: الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي، من أهل مدينة صنعاء في اليمن، القائم بدعوة عبيد الله المهدي، تمكن من التوطيد لدولة العبيديين الباطنية في بلاد المغرب، ولمّا قامت الدولة الفاطمية الباطنية خالف إمامه عبيد الله وأضمر له الشر، فعلم "المهدي" بذلك فدسّ عليه مَنْ قتله وأخاه أبا العباس أحمد في ساعة واحدة سنة ٢٩٨هـ (أبو العباس بن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج٢، ص ١٩٢).

(٣) الأحزاب، الآية (٤٠).

(٤) الحديد، الآية (٣).

(٥) أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس**، تحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، ج٢، ص ٧٢.

(٦) قال القاضي النعمان: واشتهر أمر أبي عبد الله في بلد كتامة وسمّي المشرقي لقدومه من المشرق، ثمّ نسب إليه كل مَنْ بايعه ودخل في دعوته وسمّوا المشارقة. (القاضي النعمان، **كتاب افتتاح الدعوة**، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص٧٩).

(٧) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص٥٥.

(٨) نفسه، ج٢، ص٤٨.

(٩) **عبيد الله الشيعي**: مؤسس الدولة العبيدية الإسماعيلية الباطنية في بلاد المغرب الإسلامي وأول خلفائهم، اختلف الناس في نسبه اختلافًا كثيرًا قديمًا وحديثًا، بين مؤيد لمّا ادعاه من النسب الشريف، قال ابن خلكان: "وأهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواه في النسب، كانت ولادته سنة ٢٥٩ هـ، وقيل ٢٦٠هـ، وقيل ٢٦٦هـ في مدينة سلمية في الشام، وقيل في الكوفة (ابن خلكان، المصدر السابق، ج٣، ص١١٧)، وكذلك ابن عذاري المراكشي الذي قال: "وقال سائر الناس إنّه دعيّ، وأنّ انتسابه للطالبين دعوة باطلة. (ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س كولان، ل.بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣، ج١، ص ١٥٨).

(١٠) ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج١، ص١٥٩.

(١١) القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، تحقيق د/أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٨، ج٣، ص٣١٨.

(١٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص٢٨٤.

(١٣) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٧.

(١٤) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٣. القاضي عياض، المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٧.

(١٥) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٥.

(١٦) ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩، ج١، ص ٢٢٢، ترجمة رقم ٢٧٥.

(١٧) نفسه، ج١، ص ٢٣٦، ترجمة رقم ٣٩٣.

(١٨) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص ١٥٢.

(١٩) نفسه، ج٢، ص١٧٠.

(٢٠) نفسه، ج٢، ص٤٥.

(٢١) القاضي عياض، المصدر السابق، ج٣، ص٧٠٩.

(٢٢) نفسه، ج٣، ص٧٠٩.

(٢٣) **القائم**: أبو القاسم بن عبيد الله، ثاني الخلفاء الفاطميين، ولد في سلمية من بلاد الشام سنة ٢٨٠ هـ، بويع يوم مات أبوه سنة ٣٢٢ هـ، خرج في أيامه أبو يزيد الخارجي، ومات وهو محارب له سنة ٣٣٤ هـ (ابن حماد الصنهاجي، **أخبار ملوك بني عبيد**، ص١٧٠).

(٢٤) **المنصور بالله**: إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله، ثالث الخلفاء العبيديين في بلاد المغرب وإفريقية، ولد في مدينة المهدية سنة ٢٩٩هـ وقيل سنة ٣٠٢هـ، وولي بعد وفاة أبيه القائم بأمر الله سنة ٣٣٤هـ، وتوفي سنة ٣٤١هـ (ابن حماد الصنهاجي، المصدر السابق، ص١٧٦).

(٢٥) ابن حماد الصنهاجي، المصدر السابق، ص١٧١ وما بعدها. ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص٢١٦ وما بعدها.

(٢٦) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٦٩. القاضي عياض، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٧٦.

(٢٧) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٩٨.

(٢٨) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٣ وما بعدها.

(٢٩) روي هذا الحديث في كتب أهل الحديث، وممّن رواه مسندًا وبألفاظ مختلفة الحافظ أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني في كتابه السنة، قال: باب في ذكر الرافضة أذّلهم الله، وعلّق على أسانيدها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مبينًا ضعفها، وفي تخريج الحديث رقم (٩٨١) ونصّه كاملاً: حدّثنا إسماعيل بن سالم حدثنا يونس بن محمد حدثنا عمران بن زيد عن الحجاج بن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله يقول: "يكون في آخر الزمان قوم ينبزون الرافضة يرفضون الإسلام ويلفظونه فاقتلوهم فإنّهم مشركون". قال الألباني: والحديث أخرجه أبو يعلى من طريق أخرى عن عمران بن زيد به، وقال الهيثمي رواه أبو يعلى والبزار والطبراني، ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف، ثمّ ساقه بلفظ آخر عنه "يا علي سيكون قوم في أمتي ينتحلون حب أهل البيت، لهم نبز يسمون الرافضة، قاتلوهم فإنهم مشركون". وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن. (أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحّاك بن مخلد الشيباني، **كتاب السنة**، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣، ص٤٦٠).

(٣٠) المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٠٩.

(٣١) القاضي عياض، المصدر السابق، ج٣، ص٣١٧.

(٣٢) القاضي عياض، المصدر السابق، ج٣، ص ٣١٨. وحول مشاركة علماء السنة المالكية في ثورة صاحب الحمار، انظر أيضًا: المالكي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤٠ وما بعدها.

(٣٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص٢١٨.

(٣٤) **الحاكم بأمر الله**: أبو علي المنصور بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن عبيد الله، ولد سنة ٣٧٥هـ في القاهرة، ولاه أبوه العهد سنة ٣٨٣هـ، وولي الخلافة سنة ٣٨٦هـ، توفي الحاكم سنة ٤١١هـ (ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٢).

(٣٥) القاضي عياض، المصدر السابق، ج٣، ص٧١٩.

(٣٦) **بلكين بن زيري**: أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، استخلفه المعز العبيدي على إفريقية، وكان استخلافه سنة ٣٦١هـ، وأمر الناس بالسمع والطاعة له، ولم يزل حسن السيرة تام النظر في مصالح دولته إلى حين وفاته ستة ٣٧٤ هـ (ابن الخطيب: أعمال الأعلام "القسم الثالث"، تحقيق: د/ أحمد مختار العبّادي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص٩٩).

(٣٧) **المعز بن باديس**: صاحب إفريقية ولد في المنصورية سنة ٣٩٨هـ، وملك بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦هـ، حمل الناس على مذهب الإمام مالك وقطع الخطبة للمستنصر العبيدي وخلع طاعته، وخطب للقائم بأمر الله العباسي، توفي المعز سنة ٤٥٤هـ في القيروان (ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٣. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص٧٢).

(٣٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٦٦. وانظر: بن زاوي طارق، **استقلال المعز بن باديس عن الدولة الفاطمية** (٤٠٦ هـ- ٤٥٤ هـ)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩، الجزائر.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

أضواء على نفقات الخلافة الفاطمية العسكرية

(٣٥٨ – ٥٦٧هـ/ ٩٦٨ – ١٠٧٢م)

د. عيسى محمود العزام

أستاذ مشارك التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة العلوم والتكنولوجيا

المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّصْ

توجد العديد من الدراسات الحديثة عن الدولة الفاطمية إلا أن موضوع النفقات وبخاصةً العسكرية منها لم تدرس بصورة متخصصة، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الأضواء على النفقات العسكرية خلال العصر الفاطمي، وبخاصةً نفقات إعداد الجيش والأسطول، ونفقات الحملات العسكرية سواء في مصر أو بلاد الشام، ونفقات الدفاع عن الخلافة الفاطمية في مصر وبلاد الشام ضد الأخطار التي تعرضت لها كالخطر الإفرنجي أو الرومي أو العباسي من خلال المصادر التاريخية ولم أتوسع بالحديث عن النشاط العسكري الفاطمي في بلاد الشام حتى لا يحدث تقاطع مع دراسات أخرى للباحث. يستخلص من البحث أن الدولة الفاطمية ركزت منذ نشأتها على إعداد جيش قوي وعملاق، وبخاصةً أنها نشأت بقوة السلاح، لذلك أنفقت أموال ضخمة على إنشاء الجيش وتسليحه بكافة الأسلحة الدفاعية والهجومية المعروفة خلال العصور الوسطى، وبلغ تعداد الجيش الفاطمي حوالي ثلاثمائة ألف مقاتل. كما أن الدولة أنفقت أموال ضخمة على مد نفوذها إلى مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن، فنفقات فتح مصر وحدها، وبناء مدينة القاهرة بلغت أربعة وعشرين ألف ألف دينار ذهب. وأنفقت الدولة كثير من الأموال على الحملات العسكرية التي أعدتها على قمع الاضطرابات والثورات الداخلية في مصر وبلاد الشام، فمثلاً قمع ثورة أبو ركوة في مصر بلغت حوالي ألف ألف دينار ذهب، والشدة العظمى كلفت الدولة حوالي ثلاثين ألف ألف دينار ذهب، ونفقات قمع حركة أبو الفتوح في الشام بلغت خمسة وعشرين قنطار من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية. أضف إلى ذلك؛ أن الغزو الإفرنجي والروماني استنزف كثير من موارد الدولة، لكثرة الحملات التي أرسلتها للتصدي للغزاة، فنفقات التصدي للغزو الإفرنجي على مصر لسنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) بلغت حوالي ألف ألف دينار ذهب. كما استنزف الصراع الفاطمي العباسي كثير من موارد الدولة، فنفقات دعم ثورة البسا سيري وحدها بلغت حوالي ألفا ألف وثلاثمائة ألف دينار.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ يوليو ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ يوليو ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

فتح مصر، العصر الفاطمي، الغزو الإفرنجي، بلاد الشام، الخلافة العباسية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عيسى محمود العزام. "أضواء على نفقات الخلافة الفاطمية العسكرية (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٨ – ١٠٧٢م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٢٥ – ٣٧.

مُقدِّمَةُ

توجد العديد من الدراسات الحديثة عن الدولة الفاطمية إلا أن موضوع النفقات وبخاصةً العسكرية منها لم تُدرس بصورة متخصصة، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الأضواء على النفقات العسكرية خلال العصر الفاطمي، وبخاصةً نفقات إعداد الجيش والأسطول، ونفقات الحملات العسكرية سواء في مصر أو بلاد الشام، ونفقات الدفاع عن الخلافة الفاطمية في مصر وبلاد الشام ضد الأخطار التي تعرضت لها كالخطر الإفرنجي أو الرومي أو العباسي من خلال المصادر التاريخية.

أولاً: نفقات الجيش

اهتم الفاطميون ببناء جيش قوي وبخاصةً أن الدولة الفاطمية نشأت في المغرب بقوة السلاح، ومنذ نشأتها دخلت في صراع مرير مع

الخلافة العباسية الخصم اللدود لهم لاعتقادهم أنهم أحق الناس بقيادة الأمة، لذلك يُعَدّ الجيش هو أصل وجود الدولة وعمادها. ونجحت الخلافة الفاطمية في إعداد جيش عملاق، وكانت القوة الضاربة في الجيش عند نشأتها تتكون من المغاربة، وبخاصة من قبائل كتامة[١]، وصنهاجة[٢] ولواته[٣]، والبربر، والدليل على ضخامة الجيش الفاطمي أن عدد الجند الذين شاركوا بفتح مصر سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) بقيادة جوهر الصقلي[٤] بلغ مئة ألف مقاتل[٥]، وعندما دخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١هـ/٩٥٢م – ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) مصر سنة (٣٦١هـ/ ٩٧١م)، واتخذ القاهرة عاصمة للدولة، كان بصحبته خمسة عشر ألف مقاتل يحملون صناديق الأموال والسلاح، وقدم عبر بحر الروم مائتي ألف مقاتل معظمهم من كتامة والبربر[٦]، وبذلك بلغ عدد الجند الفاطمي الذي استقر في مصر بعد الفتح ثلاثمائة ألف مقاتل، وقد أطلقت المصادر التاريخية على الجند القادم من المغرب مصطلح المغاربة.

وبعد الفتح الفاطمي لمصر والشام عمدت الدولة إلى الحد من نفوذ المغاربة بإدخال عناصر جديدة للجيش من الأتراك والديلم والروم والأرمن، وقد أطلقت المصادر التاريخية على هذه الفئات مصطلح المشارقة أي الذين قدموا من المشرق، كما لجأت الخلافة إلى تجنيد العبيد من أولاد الناس، وأفرد لهم الخليفة المعز لدين الله حجرًا ضمن إطار قصور الخلافة، يعلمون فيها الفنون الحربية، وسموا بصبيان الحجر لسكناهم في هذه الحجر[٧].

ومن ضمن عناصر الجند كانت هناك طوائف من الجند تنسب إلى بعض الخلفاء أو الوزراء، فذكر من طوائف الخلفاء طائفتي الآمرية والحافظية إحداهما نسبة للخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥هـ/١١٠١م – ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) والأخرى نسبة للخليفة الحافظ لدين الله[٨]، (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م- ٥٤٤هـ/١١٤٩م) ونسبت بعض الطوائف إلى الوزراء، فالوزير يعقوب بن كلس [٩] كانت له طائفة من العبيد والمماليك تقدر بأربعة آلاف غلام، عرفت بالطائفة الوزيرية[١٠]، أما الوزير بدر الجمالي[١١] فقد كانت له طائفة تتكون من مئة ألف غلام، تعرف بالطائفة الجيوشية[١٢]، استخدمها لبسط نفوذه في مصر وبلاد الشام، بعد الفتنة العظمى التي شهدتها مصر خلال ما يعرف بالشدة العظمى.[١٣]

ونلاحظ؛ أن بعض أمهات الخلفاء كأم الخليفة المستنصر بالله[١٤] التي سيطرت على زمام الأمور في الدولة في عهد خلافة ابنها الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م- ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) وبخاصةً في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، جعلت لها طائفة من العبيد بلغ عددهم خمسين ألف ما بين فارس وراجل[١٥]، تم شراؤهم من الزنوج الأفارقة، وزودتهم بالمال والسلاح[١٦]، وبسطت لهم في الرزق، ووسعت عليهم حتى أمطرتهم بالنعم، وصار العبد في مصر يحكم حكم الولاة، حتى تتمكن من خلالهم إحكام سيطرتها على الدولة، والحد من نفوذ الأتراك الذين كانوا يشكلون القوة المتنفذة في الدولة خلال عهد الخليفة المستنصر بالله[١٧].

ويؤكد الرحالة ناصر خسرو أن عدد الجند الفاطمي في مصر وحدها خلال عهد الخليفة المستنصر بالله بلغ مئة وثمانون ألف مقاتل جلهم من الفرسان، من قبائل كتامة ولواته والمصامدة[١٨]، والأتراك، والديلم، والأرمن، والعبيد، والبدو، وغلمان الخلفاء[١٩] وكان لكل طائفة من الجند اسم وألقاب خاصة بها، وهيئة تميزها عن غيرها[٢٠]، ولكل منهم قادة مقدمون[٢١] ورواتب شهرية كل حسب منزلته، ورتبته[٢٢]، فرواتب الجند كانت تتراوح بين دينارين وعشرين دينار[٢٣] أما رواتب الأمراء فكانت بين خمسين وثلاثين دينار[٢٤]،ولبعض الأمراء مئة دينار[٢٥].

وكان الجيش مجهز بأحدث الأسلحة المتعارف عليها خلال العصور الوسطى، وهذا يتبين من خلال خزائن قصور الخلافة وبخاصة خزائن السلاح، والخيم، والسروج، والكسوة، واصطبلات الخيل فكان من ابرز الأسلحة: الخوذ والدروع والتخافيف، والسيوف المحلاة بالذهب والفضة، والسيوف الحديدية، وصناديق النصول، وجعاب السهام الخلنج، وصناديق القسي، ورزم الرماح الزان الخطية، وشدات القسا الطوال، والزرد... وكان كل صنف منها مفردا عشرات الوف"[٢٦].

كذلك استخدم الجند أسلحة الحصار الثقيلة مثل المنجنيقات لقذف الحجارة الضخمة، وأسلحة الحصار مثل الأبراج والدبابات لنقب الأسوار، وبرعوا في استخدام النار الإغريقية (النفط) حتى كان من ضمن طوائف الجند، طائفة النفاطين متخصصة برمي النفط على الأعداء في القوارير أو المنجنيقات أو قدور النفط[٢٧].

كذلك تفنن الفاطميون في صناعة واستخدام أنواع كثيرة من الخيم للجند، فقد وجد في خزائن الخيم اعدال من "المضارب والغازات والمسطحات والجركاوات والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط المحمولة من الدبيقي والمخمل والخسرواني والديباج الملكي والارمني والهنساوي.... والجيد من الحلبي، وما أشبه ذلك من سائر ألوانه وأنواعه، ومن السندس والطميم أيضا منها المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير، وغير ذلك من سائر الوحوش والطير والآدميين من سائر الأشكال والصور البديعة.... وسائر ما يحتاج إليه من جميع آلاتها وعدتها"[٢٨].

وكان يجهز للجند ما يحتاج إليه من سروج الخيل في الحرب فقد وجد في ضرائب سروج الخلافة في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ما يزيد عن تسعة آلاف سرج، كثير منها محلاة بالذهب والفضة، وتكلفة كل منها ما بين ألف وسبعة آلاف دينار، وخزان السروج " تحتوي على ما لا يحوي عليه مملكة من الممالك"[٢٩]، ويجهز للجند ما يحتاج إليه من الدواب وبخاصةً الخيل، لذلك وجد في القاهرة وحدها اصطبلان للخيل: اصطبل الحجرية[٣٠]، واصطبل الجميزة[٣١].

كذلك كان يجهز للجند ما يحتاج إليه من الكسوة والأطعمة والأشربة، فسنويًا كان يوزع على الجند كسوة الشتاء والصيف "إنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير كسوات الصيف والشتاء من العمامة إلى السراويل، وما دونه من الملابس والمنديل من فاخر الثياب، ونفيس الملبوسات، ويقدمون لهم بجميع ما يحتاجون إليه من نفيس المطعومات والمشروبات، وتبلغ تكاليف الكسوة ستمائة ألف دينار في السنة"[٣٢].

وكان ديوان الجيش والرواتب يشرف على كل ما يتعلق بأحوال الجند، فلديه سجلات عن الجند من حيث الحياة والموت والمرض والصحة والغيبة والحضور ومقدار اعطياتهم، وكان على رأس الديوان موظف يعرف بمتولي ديوان الجيش" له مكانة جليلة في الدولة[٣٣]، ويساعده عدد من الموظفين مثل: "الحاجب" الذي ينظم دخول الأجناد إليه، ونقباء الأمراء الذين يتحروا أحوال الجند، والخازن المسؤول عن تخزين ما يحتاج إليه الجيش من خيول وملابس[٣٤]، وكان للديوان فروع في ولايات الدولة لمتابعة أحوال الجند فيها[٣٥].

من جهة أخرى؛ اهتمت الخلافة الفاطمية ببناء أسطول ضخم، فقد بلغت قطع الأسطول الفاطمي عند الفتح الفاطمي لمصر حوالي ثلاثة آلاف شيني وغراب حربية وتجارية[٣٦]، بينما بلغ عددها في عهد الخليفة المستنصر بالله حوالي ألف سفينة حربية غير السفن التجارية[٣٧]، وكان يتم بناء السفن في الإسكندرية ودمياط ومصر (والفسطاط)[٣٨]، وكانت وحداته منتشرة في جميع مدن السواحل المصرية والشامية كالإسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور[٣٩].

ويبدو أن عدد جند الأسطول كان كبير جدًا، لان ابن الطوير يذكر أن جريدة الأسطول تقع فمع خمسة آلاف مدونة وكان على رأس الأسطول عشرة أعيان يقال لهم "القواد" واحدهم قائد، وكان يتولى قيادة الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم، يساعده مجموعة من النقباء[٤٠] وكان يجهز ما يحتاج إليه جند الأسطول من الأسلحة كالسلالم والحبال والأبراج والقسي والمنجنيقات والعرادات والكلاليب[٤١].

واستخدم الفاطميون أنواع كثيرة من السفن منها: الشواني، والطرائد، والمسطحات، والحرايق، والشلنديات، ويوضح ابن مماتي استخدامات كل سفينة بقوله: "فأما الطريدة فأنها برسم حمل الخيل، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا، وأما الحمالة فيحمل فيها الخيل، وأما الشلندي فانه مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره... وأما المسطح فهو في معناه كالشلندي، وأما الشيني يسمى الغراب أيضا- فانه يجدف بماية وأربعون مجدافًا، وفيه المقاتلة والجدافون، والحراقة مختصرة، وربما كانت ماية وحوالي ذلك، والأعذاري... تحمل فيه الازواد، والمدكوش لطيف لنقل الماء لخفته"[٤٢].

وجرت العادة في الدولة أن قام احتفال كبير يحضره الخليفة وكبار رجال الدولة عند مغادرة الأسطول للقتال، ويتولى قيادته أحد كبار الأعيان ويعرف بالمقدم ويساعده الرؤساء، فقد كان لكل سفينة رئيس ونواتي، وكان ينفق على رجال كثير من المال الضخمة قبيل المغادرة للقتال، فالمقدم يعطى مائة دينار، والرئيس عشرين دينار هذا غير رواتبهم الشهرية التي تتراوح بين دينارين وعشرين دينار.[٤٣] وكان يشرف على الأسطول ديوان يعرف بالجهاد أو العمائر يتولى إنشاء السفن وتسييرها، والإنفاق على الجند والأسلحة[٤٤].

ثانيًا: نفقات فتح مصر وقمع الاضطرابات الداخلية فيها

١/٢- نفقات فتح مصر

انفق الخليفة المعز لدين الله أموالاً ضخمة على فتح مصر، ففي سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) سير قائده جوهر الصقلي على رأس جيش كبير لفتح مصر[٤٥]، أغلبهم من كتامة والبربر، وبذل لهم من العطاء، حيث منح كل مَنْ شارك في الحملة العسكرية مبلغ من المال يتراوح بين عشرين دينار إلى مئة دينار، وذلك حسب منازلهم ورتبهم العسكرية حيث عمهم بالعطاء، هذا غير رواتبهم الشهرية[٤٦]، وبلغ عدد الجند الذين شاركوا في هذه الحملة العسكرية مئة ألف مقاتل[٤٧]، وسير الخليفة مع القائد جوهر ألف حمل[٤٨] من المال، ومن السلاح والعدد والكراع[٤٩] ما لا يوصف[٥٠]، وفي رواية أخرى ألف صندوق من المال[٥١].

ولما وردت الأخبار إلى مصر بقدوم الجيش الفاطمي، حدث اضطراب شديد في صفوف رجال الدولة الإخشيدية وحكام مصر والمصريون، ووقع اتفاق بين أرباب الدولة الإخشيدية على مراسلة القائد جوهر الصقلي بالصلح وطلب الأمان، فأجابهم إلى ذلك،وكتب لهم كتابًا بالأمان[٥٢]، ومع ذلك فإن قسم من عساكر الدولة الإخشيدية تصدوا لقتال الجيش الفاطمي، لذلك حدث بين الجانبين قتال عنيف، أسفر عن هزيمة الجند الإخشيدي، لذلك سارع وجوه الدولة إلى مناشدة القائد جوهر بإعادة الأمان عليهم فأجابهم إلى ذلك[٥٣]، ودخل بجنده مدينة مصر في نهاية شعبان سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)، واستقبله المصريون، وسلموا عليه وهنؤه بالفتح[٥٤]، وأكثر من تفريق الصدقات على الناس[٥٥]، وأقيمت الدعوة للخليفة المعز لدين الله في مساجد وجوامع مصر[٥٦]، وكتب جوهر إلى أهل الريف والصعيد يمنحهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم[٥٧]، واختط القائد جوهر مدينة القاهرة" تقهر الدنيا"[٥٨] لعله يقصد خصم الفاطميون اللدود الخلافة العباسية في بغداد، وبلغ تكاليف فتح مصر وبناء مدينة القاهرة أربعة وعشرين ألف ألف دينار[٥٩].

وفي سنة (٣٦١هـ/ ٩٧١م) قدم الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة، واتخذها عاصمة للدولة، واصطحب معه كنوز الدولة الفاطمية في المغرب وأموالها، فكان بصحبته خمسة عشر ألف جندي يحملون صناديق الأموال والسلاح، ومائة جمل تحمل ذهب،

وثلاثة آلاف جمل، على كل منها صندوقان، وألف وثمانمائة بختي محملة، وثلاثمائة جمل تحمل الخركاهات[٦٠]، وثلاثة آلاف سفينة حربية أبحرت في بحر الروم تحمل الجند وكنوز الدولة الأخرى[٦١]، وانعم بكثير من الصدقات على أهل مصر.

٢/٢- نفقات قمع الاضطرابات الداخلية في مصر

شهدت مصر خلال العصر الفاطمي كثير من الاضطرابات الداخلية كالصراع بين طوائف الجند أو الوزراء، والثورات، وكان من أشد الاضطرابات الداخلية الثورة العنيفة التي تعرض لها الخليفة الحاكم بأمر الله، والتي قام بها أبو ركوة[٦٢] الوليد بن هشام بن عبد الملك الأموي (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م- ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م) بمساندة بعض القبائل المغربية كبنو قرة[٦٣]، ولواته، وزناته[٦٤] نظرا لعدائهم للخليفة الذي بالغ في البطش بهم ومصادرة اقطاعاتهم، فاستغل ذلك أبو ركوة فدعاهم في سنة (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م) إلى مبايعته، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله[٦٥]، وفي رواية أخرى بالثائر بأمر الله، والمنتقم من أعداء الله[٦٦]، وبدأت الثورة في برقة سنة (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)[٦٧] ثم امتدت إلى مصر واستمرت حتى سنة (٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م)[٦٨].

وهزت هذه الثورة كيان الخلافة الفاطمية، وكلفتها أموال ضخمة، واضطر الخليفة الحاكم بأمر الله إلى إرسال جيش تلو الأخر للقضايا عليها، ففي شعبان سنة (٣٩٥هـ /١٠٠٤م) أرسل جيش بقيادة ينال الطويل التركي، فواقعه أبو ركوة وقتله مع معظم جنده، وظفر من الأموال والخيل والسلاح والنعم الجليلة بما قوي به، واشتد بأسه[٦٩]، فظفر نقدا بمائة ألف دينار[٧٠].

ثم أرسل الخليفة عسكرًا بقيادة أبو الفتوح فضل بن صالح في ربيع الأول سنة (٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م) لقتاله، وكان اللقاء قرب الإسكندرية في ذات الحمام، وانتهى القتال بهزيمة جنود الخليفة، وسيطرة أبو ركوة على ما في العسكر من مال وسلاح فعظم شأنه[٧١]. واضطر الخليفة إلى تجهيز جيشًا أخر بالمال والسلاح بقيادة أبي الحسن بن الفلاح، وأنفق على العساكر المتوجه للقتال أموالاً ضخمة، فأعطى لكل مَنْ شارك في الحملة خمسون دينارا غير رواتبهم، وكان لقاء العساكر مع أبو ركوة في الجيزة[٧٢]، حيث حدث بين الجانبين قتال عنيف انتهى بهزيمة جند الخلافة، وقتل أعداد كبيرة منهم، والاستيلاء على ما في حوزتهم من مال وسلاح[٧٣].

ثم جهزت الخلافة جيشًا آخر بقيادة الفضل بن صالح، وزودته بالمال والسلاح، فقد زود بأكياس ممتلئة بالذهب بلغ وزنها خمسة وعشرين قنطارًا[٧٤]، وبلغ جملة ما أنفق على الحملة ألف ألف دينار[٧٥]، وكان لقاء عسكر الخلافة مع جند أبو ركوة في الفيوم[٧٦]، وانتهى القتال بقمع الثورة ومقتل قائدها مع عدد كبير من أنصاره تجاوز ستة آلاف قتيل غير الأسرى[٧٧]، فهذه الثورة كلفت خزائن الدولة أموالاً ضخمة.

وخلال عهد الخليفة المستنصر بالله تعرضت الخلافة لما يعرف بالشدة العظمى (٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م – ٤٦٥هـ /١٠٧١م)، وكان سببها المباشر الصراع بين طوائف الجند، وبخاصةً بين الأتراك والمغاربة بزعامة ناصر الدولة بن حمدان[٧٨] من ناحية، والعبيد ولواته بدعم من أم الخليفة المستنصر بالله من ناحية أخرى، وهو صراع على السلطة، فوالدة الخليفة كانت تعمل من أجل الإنفراد في إدارة الدولة والحد من نفوذ الأتراك، لذلك استكثرت من شراء العبيد حتى بلغ عددهم خمسين ألف مقاتل، وزودتهم بالمال والسلاح[٧٩]، وحرضتهم على قتال الأتراك مما أدى إلى حرب شرسة بينها استمرت قرابة السبعة أعوام، وطوال تلك الحرب كانت تغدق عليهم بالمال والسلاح حتى نفذت الأموال من خزائن الدولة.

غير أن الأتراك نجحوا في إيقاع هزيمة قاسية بالعبيد سنة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) وتغولوا على الخليفة وإدارة الدولة، وأرغموا الخليفة على دفع أموال ضخمة لهم بلغت ألف ألف دينار[٨٠]، ثم أرغموا الخليفة على زيادة رواتبهم الشهرية من ثمانية وعشرين ألف دينار إلى أربعمائة ألف دينار[٨١]، لذلك اضطر الخليفة إلى بيع ذخائر قصور الخلافة قهرًا لدفع أرزاق الجند[٨٢]، وبلغ حجم ما أنفق على الأتراك خلال أقل من عامين ثلاثين ألف ألف دينار أخذت غلبة وقهرا بغير استحقاق[٨٣] نهب قادة جند الأتراك خزائن قصور الخلافة، وبلغ قيمة ما أخرج من خزائن القصور من السيوف والتحف والثياب والفرش والكتب والجواهر وغيرها ما يزيد قيمته عن عشرين ألف ألف دينار[٨٤].

ثم أخذ تمرد ناصر الدولة بن حمدان بعدًا خطيرًا عندما خلع طاعة الخليفة المستنصر بالله[٨٥]، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي[٨٦] في جميع المناطق الخاضعة لنفوذه كالإسكندرية ودمياط[٨٧] وجميع الوجه البحري، مما اضطر الخليفة المستنصر بالله إلى طلب النجدة من والى الشام أمير الجيوش بدر الجمالي الذي قدم بجنده إلى مصر سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) ونجح في القضاء على الفتنة، وهزيمة الأتراك وقتل قائد جندهم ناصر الدولة بن حمدان، وسيطر على زمام الأمور في الدولة، وقلده الخليفة وزارة التفويض وعهد إليه بإدارة شؤون الدولة[٨٨]، ولا شك أن تلك الفتنة تدل على حجم المصاب الذي لحق بالدولة، وإفلاس خزائنها وضعفها.

وبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) احتدم[٨٩] الصراع على السلطة في مصر بين ابني الخليفة نزار وأحمد وبخاصة أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي[٩٠]، سارع إلى مبايعة أحمد بالخلافة، ولقبه المستعلي بالله، الأمر الذي دفع نزار بن المستنصر بالله إلى رفض البيعة والثورة، لأنه يرى أنه الأحق بالخلافة، لان أباه قد نص على ولايته بالخلافة من بعده كونه الابن الأكبر، لذا جمع أنصاره، واتخذ من مدينة الإسكندرية مركزًا للثورة، لذلك عمل الوزير الأفضل على تسيير العساكر لقتاله، وبذل الأموال والإقطاعيات الكبرى لأنصار نزار لاستمالتهم إلى جانبه، ونجح في مقصده، فتفرق عن نزار معظم أنصاره، الأمر الذي أدى إلى هزيمته، والقبض عليه وسجنه حتى وفاته[٩١].

وخلال عهد الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م-٥٤٤هـ/١١٤٩م) احتدم الصراع على السلطة في الدولة غير مرة بين أبناء الخليفة وبعض أمراء الدولة، ففي سنة (٥٢٨هـ/ ١١٣٣م)، عهد الخليفة بولاية العهد لابنه حيدرة، الأمر الذي أغضب ابنه الآخر حسن الذي سارع إلى كسب فئات من الجند إلى جانبه، وخرج لقتال والده الخليفة وولي عهده، وفي هذا القتال قتل ما يزيد على خمسة آلاف من الجند "فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها"(٩٢).

وانتهى القتال بتغلب حسن بن الحافظ، الذي بالغ في التضييق على الخليفة وولي عهده، لذلك أصدر الخليفة منشورًا في رمضان بعزل حيدرة عن ولاية العهد، وتعيين حسن وليًا لعهده، ومع ذلك فان الحسن لم يزده ذلك إلا شرًا وتحديًا، فضيق على أبيه وبالغ في مضرته، مما أدى التي تجدد القتال بينهما، راح ضحيته عدد كبير من أمراء الدولة وجندها، وأرهق خزينة الدولة إلى أن تمكن الخليفة الحافظ لدين الله من قمع تمرد ابنه(٩٣).

وتمرد على الخليفة الحافظ لدين الله في سنة (٥٣٤هـ/١١٢٩م) أحد كبار أمراء الدولة ويدعى الأفضل رضوان بن ولخشي، لذا جهز الخليفة جيشًا ضخمًا بلغ تعداده خمسة عشر ألفًا لقمع هذه الحركة، وأنفق على الجند أموالاً ضخمة(٩٤).

وحدث تمرد آخر على الخليفة في سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م) من قِبل الأمير بختيار في منطقة الصعيد لرفض الخليفة تقليده الوزارة، لذا أرسل الخليفة العساكر لقتاله، وتمكنوا من هزيمته وقتله(٩٥)، كذلك قمع الخليفة تمردًا آخر في سنة (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) لأحد كبار أمراء الدولة رضوان بن اللوق، بعد أن أنفق على العساكر أموالاً ضخمة.(٩٦)

وواجه الخليفة الحافظ لدين الله تمردا آخر في سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) من قِبل قبائل لواته المغربية الذين انضموا إلى مناصرة رجل قدم من المغرب ادعى أنه من ولد نزار بن المستنصر بالله، فجهز الخليفة إليهم عسكرا، وقاتلهم " ودسّ إلى مقدمي لواته مالاً جزيلاً.... ووعدهم بالإقطاعات، فغدروا بابن نزار وقتلوه"(٩٧).

وفي عصر الخليفة العاضد لدين الله (استفحل الصراع على السلطة) بين كبار رجال الدولة، في الوقت الذي كانت مصر تتعرض للغزو الإفرنجي، ففي سنة (٥٥٨هـ/١١٦٢م) حدث صراع شديد على السلطة بين الوزير الناصر الصالح طلائع بن رزيك ، وأحد كبار أمراء الدولة ويدعى شاور(٩٨) والي قوص، لعزل الأخير عن الولاية، الأمر الذي دفعه إلى الثورة، فحشد إلى جانبه عدد كبير من رجال القبائل والجند، وسار إلى القاهرة وسيطر على زمام الأمور فيها، وأسر الوزير وقتله، وتقلد الوزارة وتلقب بأمير الجيوش، وصادر أموال بني رزيك، فعينًا صادر خمسمائة ألف دينار، وأنفقها على أنصاره من العربان، حتى كثرت أموالهم، وصاروا يكيلونها كيلا(٩٩).

ثم حدث صراع على السلطة بين شاور، وضرغام(١٠٠) أحد كبار أمراء الدولة في سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م)، واحتدم الصراع بينهما في الدولة، مما دفع الخليفة الناصر لدين الله إلى طلب النجدة من السلطان نور الدين زنكي حاكم دمشق السلجوقي، للقضاء على الفتنة في مصر، وصد الخطر الإفرنجي، فلبى السلطان طلب الخليفة، وأرسل جيشًا ضخمًا بقيادة أسد الدين شيركوه(١٠١) الذي نجح في القضاء على الفتنة بهزيمة ضرغام المتمرد على الخلافة وقتله(١٠٢)، وأعاد شاور للوزارة، غير أن الأخير سرعان ما ضاق ذرعًا بسيطرة شيركوه على زمام الأمور في الدولة، فلجا للتآمر عليه بالتحالف مع الإفرنج، بعد أن وعدهم بأربعمائة ألف دينار وهدنة لمدة خمس سنين(١٠٣)، ودخلا في صراع عنيف مع شيركوه، لذلك اضطر الأخير إلى مغادرة مصر بجنده سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٣م) بعد أن دفع له شاور خمسين ألف دينار(١٠٤)، وسيطر شاور على زمام الأمور في الدولة دون منازع حتى سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م). غير أن سياسته وإدارته للدولة أدى إلى ضعفها وإفلاس خزائنها المالية، وفي ذلك يقول المقريزي: " فاتلف أموال مصر وأطمع الغز في البلاد وجرا الإفرنج عليها"(١٠٥).

لذلك تعرضت مصر في سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) لغزو عنيف من الإفرنج في الشام لحالة الضعف التي تنتابها، فنزل الإفرنج بلبيس(١٠٦) واقتحموها، وسبوا وقتلوا خلقًا كبيرًا، ثم توجهوا إلى مدينة القاهرة، وحاصروها حصارًا شديدًا، لذلك أمر شاور بإحراق مدينة مصر(١٠٧) خوفًا من استيلاء الإفرنج عليها، وعندما أدرك الخليفة العاضد لدين الله صعوبة صد الغزو الإفرنجي استنجد بالسلطان نور الدين زنكي، واعدًا إياه بثلث مصر، لذلك جهز السلطان جندًا بالمال والسلاح، وسيره بقيادة أسد الدين شيركوه لنجدة مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار نقدًا غير الثياب والسلاح، ولما دخل مصر، اضطر الإفرنج إلى فك الحصار عن القاهرة والعودة إلى بيت المقدس لإدراكهم صعوبة مواجهة جند شيركوه، أما شيركوه فقد دخل إلى القاهرة، وخلع عليه الخليفة، غير أن الوزير شاور بدا يماطل في إعطاء النفقات للجند، وحاول تدبير مؤامرة للتخلص من شيركوه وكبار قادته، إلا أن شيركوه كشف المؤامرة، ولجا إلى قتل شاور وسيطر على زمام الأمور في الدولة الفاطمية بعد أن قلده الخليفة الوزارة.(١٠٨)

من جهة أخرى؛ فقد كانت الخلافة الفاطمية تنفق الكثير من الأموال على القبائل في مصر لكسب ولائها للدولة، ففي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أطلق لشيوخ قبائل كتامة ثماني اطلاقات في السنة، بحيث يكون لكل واحد من الشيوخ في كل اطلاقة ثمانية دنانير، فضلاً عن الأموال التي كانت تعطى لهم عند الحضور إلى مجالس الخليفة، ففي سنة (٣٨٧هـ/٩٧٧م) أعطى لكل مَنْ حضر إلى مجلس الخليفة من المشايخ عشرين دينارًا(١٠٩)، وكانت تخصص لهم خيول في مواكب الخليفة، علمًا بان شيوخ وأعيان كتامة كان عددهم نحو الألف رجل(١١٠)، كما كان يخصص للقبائل اقطاعات واسعة، فبنو قرة كانت اقطاعاتهم في منطقة الصعيد، وكانت لهم

واجبات على الدولة من غير اقطاع" حوالي ثلاثة آلاف دينار سنويًا.[١١١]

وأغدقت الخلافة في سنة (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) على بطون قبائل هلال وسليم من مضر[١١٢] بالأموال الجزيلة، وحمل إلى سائرهم بفدو ودينار[١١٣] وأبيحت لهم حمى المغرب، وذلك لان الخلافة عزمت على الانتقام من المعز بن باديس[١١٤] والي أفريقية، لخلعه طاعة الخلافة الفاطمية، ودخوله في طاعة الخليفة القائم بأمر الله العباسي.[١١٥]

ثالثًا: نفقات المد الفاطمي للشام وقمع الثورات الداخلية فيها

تمكنت الجيوش الفاطمية بقيادة جعفر بن فلاح[١١٦] من الاستيلاء على الشام، والقضاء على النفوذ الإخشيدي فها بين عامي (٣٥٩هـ/ ٩٦٨م- ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، وأنفقت الكثير من الأموال على ذلك.[١١٧]

وقد تعرض النفوذ الفاطمي في الشام إلى العديد من الحركات المناهضة سواء من قبل بعض القبائل أو الأحداث أو بعض الولاة، وقد كلف ذلك الخلافة نفقات مالية ضخمة جدًا، وأول هذه الحركات حركة الحسن القرمطي[١١٨] الذي دخل في صراع مرير مع الفاطميين على الشام، ففي سنة (٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) قدم إلى الشام غازيًا من منطقة البحرين[١١٩]، ونجح في هزيمة جعفر بن فلاح وقتله في ظاهر دمشق، وسيطر على معظم الشام[١٢٠]، ثم حاول مد نفوذه إلى القاهرة سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م)، غير أن محاولته باءت بالفشل بسبب ضخامة الجيوش الذين تصدوا له وأجبروه على الانسحاب إلى البحرين، واستطاع الفاطميون استعاده نفوذهم في الشام، وقد كلف ذلك الدولة أموال ضخمة، فيكفي أن نذكر أن الخليفة المعز لدين الله استمال أحد حلفاء القرامطة ويدعى حسان بن الجراح الطائي زعيم قبيلة بنو الجراح[١٢١] في جنوب الشام بإعطائه مئة ألف دينار مقابل التخلي عن القرامطة.[١٢٢]

واندلعت في دمشق سنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) حركة تمرد أخرى قام بها أفتكين التركي[١٢٣]، الذي خلع طاعة الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، لذلك اضطر الخليفة إلى إعداد الجند والخروج بنفسه برفقة القائد جوهر الصقلي لقمع هذه الحركة، وأمر الخليفة بإخراج الأموال ووضع العطاء في الرجال، وبرز بروزًا كليًا، واستصحب الخزائن والذخائر وكانت المعركة مع أفتكين وجنده بظاهر الرملة، وأسفر القتال عن هزيمة أفتكين، ومقتل نحو عشرين ألف من رجاله، وبذل الخليفة العزيز بالله لمَنْ يقبض على أفتكين مائة ألف دينار، مما دفع زعيم بنو الجراح المفرج بن دغفل بن الجراح الذي لجا افتكين إليه إلى تسليمه للخليفة الفاطمي مقابل المال.[١٢٤]

وتعرضت الخلافة الفاطمية إلى تمرد آخر في سنة (٣٨١هـ/٩٩١م) من قِبل والي دمشق الفاطمي "منير الخادم"[١٢٥] الذي كاتب الخلافة العباسية معلنًا الولاء لها، لذلك سير الخليفة العزيز بالله لقتاله جيشًا ضخمًا بقيادة منجوتكين التركي[١٢٦] بلغ تعداده خمسة عشر ألف مقاتل، وخلع الخليفة على قائد الجند، وحمل إليه مائة ألف دينار، ومائة قطعة من الثياب الملونة، وعشر قباب بأغشية، وفرش، وخمسين بندًا، وعشر منجوقات وعشرة أفراس، فضلاً عن المال والسلاح للجند،[١٢٧] حيث بلغت تكاليف إعداد الحملة ألف ألف دينار[١٢٨]، ونجحت الحملة في هزيمة منير الخادم وأسره، وتقلد منجوتكين ولاية دمشق[١٢٩]، وفي سنة (٣٨٥هـ/٩٩٥م) أرسل الخليفة العزيز بالله مائة وخمسون ألف دينار لمنجوتكين كلفه بإعادة حلب للسيادة الفاطمية.[١٣٠]

واستبد منجوتكين في إدارة دمشق، وساءت سيرته مع سكانها[١٣١]، ما دفع الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) إلى إرسال حملة عسكرية بلغ تعدادها ثمانية آلاف مقاتل بقيادة أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح[١٣٢] لإخراجه من دمشق، وبلغ تكاليف إعداد الحملة أربعمائة ألف دينار وسبعمائة ألف درهم[١٣٣]، ونجحت الحملة العسكرية في هزيمة منجوتكين وإلقاء القبض عليه.[١٣٤]

وشهدت بلاد الشام في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حركة تمرد خطيرة في سنة (٤٠٣هـ/١٠١٣م) قادها أحد أشراف الحجاز ويدعى أبو الفتح الحسن بن جعفر العلوي الذي قدم إلى فلسطين وتحالف مع بنو الجراح على خلع طاعة الخلافة الفاطمية وبويع بالخلافة من قبل بني الجراح، ولقب بأمير المؤمنين الراشد بالله[١٣٥]، لذلك عمل الخليفة الحاكم بأمر الله على إرسال الجيوش الضخمة لقمع هذه الحركة، ويستدل مما ورد عند ابن ظافر الأزدي أن تكاليف قمع حركة أبو الفتوح فاقت تكاليف تمرد أبو ركوة الأموي والتي بلغت خمسة وعشرين قنطار من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية وفي ذلك يقول: "ولم ينفق عليه بعد ذلك نفق أعظم من عصيان آل الجراح بدعمهم لابو الفتوح.[١٣٦]

وخلال عهد الخليفة المستنصر بالله كثرت الاضطرابات في بلاد الشام ، فقلد الخليفة المستنصر بالله في سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) أمير الجيوش بدر الجمالي الشام بأسره، وأنفق عليه أموالاً ضخمة بلغت ألف ألف دينار[١٣٧]، وذلك من أجل بسط الأمن والنظام في بلاد الشام. كذلك قام الأحداث[١٣٨] في دمشق، وسكان بلاد الشام بصفة عامة بالعديد من الثورات الشعبية ضد الوجود الفاطمي لمخالفتهم لهم في الاعتقاد، ولسوء سيرة ولاة الدولة[١٣٩]، وهذه الثورات الشعبية كلفت الخلافة الفاطمية أموالاً ضخمة للقضاء عليها، وقد عالجت ذلك في دراسات أخرى.[١٤٠]

رابعًا: نفقات قتال الإفرنج

٤/١- نفقات الدفاع عن النفوذ الفاطمي في بلاد الشام

كان الصراع الفاطمي السلجوقي في بلاد الشام على أشده قبيل الغزو الإفرنجي، فقد استطاع السلاجقة[١٤١] انتزاع دمشق، وحلب ومعظم الشام من الفاطميين، واحتفظ الفاطميون بنفوذهم في

بيت المقدس، ومعظم فلسطين، ومدن الساحل الشامي: كصور، وصيدا، وعكا، وجبيل، وعسقلان، وقيسارية، وبيروت.[١٤٢]

وقد بدأت طلائع الجيوش الإفرنجية تصل إلى بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ففي سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) اقتحموا أنطاكية، ثم معرة النعمان واللد والرملة، ثم حاصروا بيت المقدس في أخر رجب (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م) نيف وأربعين يومًا، ثم اقتحموها في شعبان سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٨م)، واعملوا السيف في رقاب السكان لمدة أسبوع[١٤٣]، وكانت خاضعة للنفوذ الفاطمي، لذلك تحرك الوزير الأفضل بن بدر الجمالي المسيطر على شؤون الدولة الفاطمية لنجدتها فجهز جيشًا" ولم يُبق ممكنا من مال وسلاح ورجال وخيل[١٤٤] إلا أعده للحرب، ووصل بجنده إلى عسقلان في ١٤ رمضان (٤٩٢هـ/١٠٩٨م) فبعث إلى الإفرنج فوبخهم على ما كان منهم؛ فردوا إليه الجواب، وركبوا في إثر الرسل فيصدفوه على غرّة، وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيرًا، لذلك اضطر الوزير الأفضل إلى العودة بجنده إلى القاهرة، وحاز الإفرنج على كثير من أموال معسكره ما جل قدره، ولا يمكن لكثرته حصره[١٤٥] هذا غير الآلات والأمتعة التي أحرقها خوفًا من استيلاء الإفرنج عليها[١٤٦] ويبدو أن هذه المعركة كانت قاسية جدًا على الأفضل بن بدر الجمالي حتى "لم يعد بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه في حرب البتّة"[١٤٧] وإنما كان يكتفي بإرسال الجيوش.

لذلك جهز الوزير الأفضل بن بدر الجمالي جيشًا كثيفًا في سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) بقيادة أحد أمراء الدولة ويدعى سعد الدولة الطواشي لقتال الإفرنج، فساروا إلى عسقلان، فتصدى لهم الإفرنج بجيش قوامه ألف فارس وعشرة آلاف راجل، وتقاتلا قتالاً شديدًا انتهى بهزيمة الإفرنج، غير أنهم ونجحوا (الإفرنج) في العام نفسه من اقتحام يافا، وحيفا، وقيسارية وملكوا أرسوف بالأمان، وجميع هذه المدن كانت تتبع للدولة الفاطمية[١٤٨].

وفي سنة (٤٩٦هـ/١١٠٢م) خرج الجند الفاطمي بقيادة سعد الدولة الطواشي لقتال الإفرنج بفلسطين، وكان اللقاء بين المعسكرين قرب تبنا[١٤٩] في منطقة الرملة، وتقاتلا قتالاً شديدًا، أسفر عن هزيمة الجند الفاطمي ومقتل قائده، وغنم الإفرنج خيمته وكثير من أمواله[١٥٠]. ثم عمل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) على تجهيز حملة عسكرية أخرى بقيادة ابنه شرف المعالي لقتال الإفرنج بلغ تعداد أفرادها خمسة آلاف فارس، وجموع كثيرة من العربان، وأنفق فيهم أموالاً عظيمة، والتقوا مع الإفرنج بين عسقلان ويافا، حيث جرى بينهما قتال شديد، أسفر عن هزيمة الجند الفاطمي، بعد أن استشهد منهم ما يزيد على ألف مقاتل.[١٥١]

وعندما تعرضت طرابلس الشام لهجوم عنيف من قبل الإفرنج سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م) سارع الوزير الأفضل بن بدر الجمالي لنجدتها فأرسل إليها أسطولاً ضخمًا" ولم يكن خرج فيما تقدم معه كثرة رجال ومراكب وعدد وغلالَ لكنه وصل إليها بعد سيطرة الإفرنج عليها، لذلك توجه إلى صور، وأقام بها مدة وفرق الغلال عل سكانها ثم عاد إلى القاهرة[١٥٢]. ولم تذكر المصادر أسباب عودة الأسطول الفاطمي للقاهرة على الرغم من شدة الغزو الإفرنجي لمدن الساحل الشامي.

واضطرت الخلافة الفاطمية في سنة (٥٠٣هـ/ ١١٠٩م) إلى نجدة بيروت، فجهز الوزير الأفضل أسطولاً من تسعة عشر مركبًا، وسيره إليها، وزوده بالميرة والسلاح لسكانها، فقوىّ أهلها بذلك، وحدث قتال شديد بين الأسطولين الفاطمي والإفرنجي "ولم يُرَ للإفرنج فيما تقدم أشد من حرب هذا اليوم"، وانتهى القتال بهزيمة الأسطول الفاطمي، وسيطرة الإفرنج على بيروت وما فيها من الأموال والذخائر[١٥٣]، كما أن الأسطول الفاطمي قام بنجدة صور وتزويدها بالغلال والسلاح غير مرة[١٥٤] إلا أن ذلك لم يحل دون سقوطها بيد الإفرنج.

وخلال عهد الخليفة الحافظ لدين الله كانت الخلافة الفاطمية ترسل كل ستة أشهر عسكرًا إلى عسقلان بدلا من العسكر المرابط فيها، وذلك تقوية لمَنْ فيها، وكانت تنفق عليهم أموالاً ضخمة، فلكل أمير كان يصرف مئة دينار، وللعسكر ثلاثون دينارًا لكل جندي[١٥٥].

وهاجم الأسطول الإفرنجي في سنة (٥٤٦هـ/١١٥١م) مدينة الفرمان[١٥٦] وقاموا بتخريبها، لذلك جهزت الدولة الفاطمية أسطول ضخم بلغت النفقة عليه ثلاثمائة ألف دينار، وسير إلى قتال الإفرنج في مدن الساحل الشامي، فهاجم الإفرنج في يافا، وعكا، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، وأبلى الجند بلاءً حسنًا، فأحرقوا كثير من مراكب الإفرنج، وغنموا بعضها[١٥٧]. ثم عاود الأسطول الفاطمي في سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) للإغارة على الإفرنج في عسقلان، وبيروت، وعكا فعاثوا فيها، وأسروا وغنموا الكثير من الإفرنج. كما عملت الدولة على تجهيز الجيوش لقتال الإفرنج برًا، ففي سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) هاجم العسكر الفاطمي الإفرنج في جنوب الأردن وبخاصة في منطقة الكرك والشوبك، وعادوا بالغنائم[١٥٨]، وفي (سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م) عاود الجند الفاطمي لمهاجمة الإفرنج في جنوب الأردن وبلغ جملة ما أنفق على الجند ما يزيد على مئة ألف دينار.[١٥٩]

كما أن الدولة الفاطمية كانت ترسل إلى السلطان نور الدين زنكي حاكم دمشق بالسلاح والمال لقتال الإفرنج بين الحين والآخر، ففي سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) بعثت إليه بهدية فيها من الأسلحة ما قيمته ثلاثون ألف دينار، وسبعون ألف دينار نقدًا تقويه له على قتال الإفرنج[١٦٠] وبخاصة أن العلاقات بينهما قد توطدت لقتال العدو المشترك الإفرنج.

٢/٤- نفقات الدفاع عن مصر

اهتمت الدولة الفاطمية بالإنفاق على الجند وتسليحهم للتصدي للغزو الإفرنجي، فالوزير العادل ابن السلار[١٦١] اهتم منذ تقلده الوزارة بأمر الجند، فزاد في أرزاقهم، وتفقد خزائن السلاح[١٦٢]، وقد أنفق على الجند مائتي ألف دينار[١٦٣]. بينما بلغت

نفقات الجند في سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) لتصدي الغزاة ما يزيد عن ألف ألف دينار[١٦٤].

وعلى كل حال؛ حاول الإفرنج غير مرة احتلال مصر، للسيطرة على مراكز التجارة العالمية بين الشرق والغرب فيها، وإضعاف النفوذ الإسلامي في بلاد الشام، ففي سنة (٥٠٩هـ/١١١٥م) غزا بلدوين الأول ملك بيت المقدس الإفرنجي مدينة الفرما، وألقى النيران فيها، وهدم مساجدها، ثم عاد إلى الشام بعد المقاومة العنيفة من قبل الجيش الفاطمي[١٦٥]. وفي سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م) هاجم الأسطول الإفرنجي الإسكندرية، غير أن الجند الفاطمي تصدى لهم.[١٦٦]

واشتد الغزو الإفرنجي لمصر في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ففي سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) غزا الإفرنج ديار مصر، ووصلوا إلى السدير[١٦٧] وفاقوس[١٦٨] وعاثوا فيها فسادًا، ثم غزو بلبيس غير أن العساكر الفاطمية تصدت لهم، وعادوا إلى بلاد الساحل الشامي.[١٦٩]

واشتد الغزو الإفرنجي لمصر في سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) لحالة الضعف التي وصلت إليها الدولة الفاطمية للصراع على السلطة فيها بين الوزير شاور والأمير ضرغام[١٧٠]، واقتحم الإفرنج بلبيس بالسيف، وقتلوا من كان فيها، واعملوا السبي والأسر والنهب فيها[١٧١]، ثم توجهوا إلى القاهرة، وأثار ذلك الرعب في صفوف السكان، فعزموا على الاستماتة دفاعا عن مدينتهم لسوء معاملة الإفرنج لسكان بلبيس، وكان هذا من لطف الله فانه لو قدر أن الفرنج أحسنوا السيرة في أهل بلبيس لكان الناس لا يدافعونهم عن القاهرة البتة لما في قلوبهم من كراهية شاورٍ[١٧٢]. في الوقت ذاته عمل الوزير شاور على حشد العساكر للدفاع عن القاهرة، ونقل إليها ما تحتاج إليه من الغلال[١٧٣]، بينما الخليفة العاضد لدين الله سارع إلى طلب النجدة من السلطان نور الدين زنكي صاحب دمشق، الذي أرسل جيش قوامه ستة آلاف فارس بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر لنجدتها.[١٧٤]

وبدا الوزير شاور في التخبط في إدارته للأزمة التي تواجه مصر، فأمر بإحراق مدينة مصر (الفسطاط)، بعد أن أخرج منها سكانها، وذلك لإعاقة مسير الإفرنج للقاهرة "وقد ماج الناس واضطربوا اضطرابًا عظيمًا... ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها، وملئوا جميع الشوارع والأزقة، وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق، وقد ذهبت أموالهم وسلبت عامة أحوالهم[١٧٥]، واستمرت النار في مساكن مصر أربعون وخمسين يوما، أما سكان القاهرة وجندها فقد استماتوا في قتال الإفرنج، ولما أدرك شاور عجزه عن مقاومتهم، أرسل إلى قادتهم، يطلب منهم الصلح، مقابل أن يحمل لهم ألفي ألف دينار، يدفع منها أربعمائة ألف دينار مقدمًا، فأجابوه إلى ذلك، وبخاصة أن طلائع جند السلطان نور الدين زنكي بقيادة أسد الدين شيركوه بدأت في الوصول إلى مصر.[١٧٦]

وعندما وصل أسد الدين شيركوه بجنده إلى القاهرة، نجح في السيطرة على زمام الأمور فيها، بعد قتل الوزير شاور بأمر من الخليفة، وتقلد الوزارة[١٧٧]، غير أنه سرعان ما وافته المنية، وتقلد الوزارة أحد أمراء جنده صلاح الدين الأيوبي. وفي سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) تعرضت مدينة دمياط لحصار شديد من قبل الإفرنج الذي استمر واحد وخمسين يومًا، غير أن الحصار باء بالفشل لضخامة العساكر الفاطمية التي تصدت لهم، واستعصاء المدينة عليهم، وقد بلغت نفقات الدولة الفاطمية على صد هذا الغزو حوالي ألف ألف دينار.[١٧٨]

خامسًا: نفقات القتال مع الروم

اتسمت العلاقات الفاطمية الرومية بالتأرجح بين العداء، والسلم، وكانت الشام محورًا لهذا الصراع، وذلك لمحاولات دولة الروم المتكررة مد نفوذها إلى بلاد الشام بعد سيطرتها على الثغور الشامية كطرطوس وأذنه والمصيصة، وبعض مدن الساحل الشامي كأنطاكية واللاذقية، وسوف يكون حديثنا في هذه الدراسة عن العلاقات الحربية ونفقاتها فقط.

ففي سنة (٣٧٢هـ/٩٨٢م) هاجم الجيش الفاطمي في طرابلس الشام الروم في اللاذقية، واسروا مهم نحو خمسمائة مقاتل[١٧٩]، لكن العلاقات الفاطمية الرومية أخذت بعدًا خطيرًا في أواخر عهد الخليفة العزيز بالله نظرًا لتحالف حلب مع الروم ضد الخلافة الفاطمية، ففي سنة (٣٨١هـ/ ٩٩١م) سيَرت الخلافة الفاطمية جيشًا بقيادة منجوتكين للسيطرة على حلب، لذلك استنجد واليها أبي الفضل بن سعيد الدولة بن حمدان بالإمبراطور باسيل (٩٧٦-١٠٢٥م) الذي سارع إلى مكاتبة والي أنطاكية الرومي بنجدة حلب، فسار لنجدتها بخمسين ألف مقاتل، والتقى مع الجيش الروماني قرب جسر الحديدي بين أنطاكية وحلب، واستطاع الفاطميون هزيمة الجيش البيزنطي، وغنموا الغنائم الجزيلة ثم سار منجوتكين الفاطمي بجنده إلى أنطاكية وأحرق ضياعها، ونهب رساتيقها ثم عاد إلى حلب.[١٨٠]

وجهز الخليفة العزيز بالله في سنة (٣٨٥هـ/٩٩٥م) جيشًا ضخمًا للتصدي للغزو الرومي لبلاد الشام، وانفق أموال ضخمة لتجهيز الجيش، فقد أطلق " خمسين ألف دينار لابتياع ما يحتاج إليه، وأخرج للكتامين أربعة آلاف فرس، وأمر أن يشتري لهم ألف فرس أخرى، واخرج الفازة (الخيمة) الكبيرة وهي بعمود واحد طوله أربعة وأربعون ذراعا... وقرئ سجل في الأسواق بالنفير فاضطربت البلد... واجتمع من الرعية وطوائف الناس بالسلاح للسفر مع العزيز ألوف كثيرة... وأحصيت الخيول التي سارت مع العزيز في إسطبلاته، فكانت أثنى عشر ألفا، والجمال المحملة للعزيز ولوجوه خاصته فكانت ثلاثين ألفا، سوى ما هو مع وجوه الدولة، وحملت الخزانة السائرة على عشرين جملا سوى خزائن الوجوه والخاصة، وكان معه من المال خمسة آلاف جمل، على كل جمل صندوقان كبيران مملوءان مالاً، وألف وثمانمائة بختية وبختى، على كل واحد

صندوقان في كل منهما مثل ما في الصندوقين المحمولين على الجمل". فاستعدادات الخليفة العزيز بالله للقتال كانت ضخمة، الأمر الذي ألقى الرعب عند قادة دولة الروم، لذلك سارع إمبراطور الروم إلى طلب الهدنة من الفاطميين، فأجيب إلى ذلك، لذلك فلم يحدث قتال بين الطرفين(١٨١).

وخلال عهد الخليفة العزيز بالله توترت العلاقات الفاطمية الرومية ففي سنة (٤٤٦هـ/١٠٥٤م) جهز الوزير اليازوري(١٨٢) جيشًا بقيادة مكين الدولة الحسن بن علي الكتامي، وتوجه لقتال الروم في مدينة اللاذقية، فحاصرها حصارًا شديدًا، ثم توغل بجنده في بلاد الروم، وأسر وقتل الكثير منهم، لذلك اجبر الروم على العودة إلى الهدنة، على أن يدفعوا جزية سنوية للفاطميين قدرها نيفًا وثلاثين ألف دينار(١٨٣). غير أن العلاقات بينهما ساءت في العام التالي نظرًا للتقارب العباسي البيزنطي، والخطبة في جامع القسطنطينية للخليفة القائم بأمر الله العباسي وقطع خطبة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، لذلك أمر الخليفة المستنصر بالله بنهب كنيسة القيامة وإغلاق الكنائس في مصر والشام، وأرسل جيشًا لقتال الروم في مدينتي أنطاكية، واللاذقية كلف الدولة الفاطمية أموالاً ضخمة(١٨٤).

سادسًا: نفقات القتال مع العباسيين

اتسمت العلاقات الفاطمية العباسية بالصراع منذ نشأة الخلافة الفاطمية في المغرب سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م)، ولم تعترف كلا الخلافتين بشرعية كل منهما، وانتزع الفاطميون بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز من النفوذ العباسي، وحاولوا مد نفوذهم إلى العراق في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من خلال دعم حركة البساسيري(١٨٥) المناهضة للخليفة القائم بأمر الله العباسي، حيث سارعت الخلافة الفاطمية إلى إمداده بالمال والسلاح، والتي بلغت جملتها حسب ما يذكر المقريزي: "ألفا ألف وثلاثمائة ألف دينار، العين ألف ألف وتسعمائة ألف دينار، والعروض أربعمائة ألف دينار"(١٨٦) مما أدى إلى إفلاس خزائن الدولة الفاطمية، ووقوعها في أزمة اقتصادية خطيرة(١٨٧).

ونجح البساسيري في السيطرة على مقاليد أمور السلطة في بغداد، والخطبة في مساجدها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي(١٨٨)، الأمر الذي دفع الخليفة القائم بأمر الله العباسي إلى الاستنجاد بالسلاجقة، الذين سرعان ما دخلوا العراق، وقمعوا حركة البساسيري سنة (٤٥١هـ/١٠٥٩م)(١٨٩)، وعزم السلاجقة بعد ذلك على القضاء على الخلافة الفاطمية لذلك في سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) هاجموا الشام، وتمكنوا بقيادة أتسز الخوارزمي(١٩٠) من السيطرة على الرملة، وبيت المقدس، ومعظم فلسطين، وحاصروا دمشق غير مرة حتى اضطر سكانها إلى تسليم مدينتهم إليهم في سنة (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م)(١٩١)، كما دانت صور وطرابلس بالولاء إليهم(١٩٢).

ثم حاول السلاجقة بقيادة اتسز الخوارزمي مد نفوذهم إلى مصر، ففي سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) سار بجنده إلى مصر، ووصل إلى منطقة الريف(١٩٣)، وعاث فسادًا سلب ونهب لمدة نيف وخمسين يوم(١٩٤) إلى أن تمكن الفاطميون بقيادة أمير الجيوش بدر الجمالي من تجهيز جيش ضخم بلغ تعداده حوالي ثلاثين ألف مقاتل، وخرجوا لقتال السلاجقة، واستطاعوا هزيمتهم وإجبارهم على العودة إلى الشام.(١٩٥)

ثم حاول أمير الجيوش بدر الجمالي استعادة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، لذلك في سنة (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) سار بجنده إلى دمشق وحاصرها، لكنه لم يتمكن من اقتحامها(١٩٦)، ولكنه استطاع في سنة (٤٨٢هـ/١٠٨٩م) استعادة النفوذ الفاطمي على مدن الشام الساحلية كصور، وصيدا، وعكا، وجبيل، وعسقلان، وبيروت(١٩٧) كما استعاد بيت المقدس سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م)(١٩٨)، وكلف ذلك الدولة الفاطمية نفقات ضخمة.

الخلاصة

يستخلص من البحث ما يلي:

أولاً: الدولة الفاطمية ركزت منذ نشأتها على إعداد جيش قوي وعملاق، وبخاصةً أنها نشأت بقوة السلاح، لذلك أنفقت أموال ضخمة على إنشاء الجيش وتسليحه بكافة الأسلحة الدفاعية والهجومية المعروفة خلال العصور الوسطى، وبلغ تعداد الجيش الفاطمي حوالي ثلاثمائة ألف مقاتل.

ثانيًا: الدولة أنفقت أموال ضخمة على مد نفوذها إلى مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن، فنفقات فتح مصر وحدها، وبناء مدينة القاهرة بلغت أربعة وعشرين ألف ألف دينار ذهب.

ثالثًا: الدولة أنفقت كثير من الأموال على الحملات العسكرية التي أعدتها على قمع الاضطرابات والثورات الداخلية في مصر وبلاد الشام، فمثلاً قمع ثورة أبو ركوة في مصر بلغت حوالي ألف ألف دينار ذهب، والشدة العظمى كلفت الدولة حوالي ثلاثين ألف ألف دينار ذهب، ونفقات قمع حركة أبو الفتوح في الشام بلغت خمسة وعشرين قنطار من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

رابعًا: الغزو الإفرنجي والروماني استنزف كثير من موارد الدولة، لكثرة الحملات التي أرسلتها للتصدي للغزاة، فنفقات التصدي للغزو الإفرنجي على مصر لسنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) بلغت حوالي ألف ألف دينار ذهب.

خامسًا: الصراع الفاطمي العباسي استنزف كثير من موارد الدولة، فنفقات دعم ثورة البسا سيري وحدها بلغت حوالي ألفا ألف وثلاثمائة ألف دينار.

الهَوامِش:

(١) **كتامة**: قبيلة من البربر، كانت من اشد القبائل قوة وأطولهم باعًا في تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب، والتصدي للثورات المناهضة للوجود الفاطمي في المغرب، كما كان لهم دور بارز في فتح مصر والشام، وكان معظم رجال الدولة منهم. انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت. ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) **تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ٧ أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٦، ص ١٤٨- ١٥٢.

(٢) **صنهاجة**: قبيلة بربرية لعبت دور فعال في قيام الدولة الفاطمية في المغرب، وكان رجاها القوة الضاربة في الجيش الفاطمي.

(٣) **لواته**: قبيلة مغربية من ولد كنعان بن حام بن نوح عليهم السلام، ثم من ولد بر بن بديان بن كنعان المذكور، وهي إحدى القبائل المغربية التي لعبت دور فعال في قيام الدولة الفاطميّة. المقريزي، تقي الدين أبو العباس احمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) **البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب**، تحقيق عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٤٩-٥٣.

(٤) **جوهر الصقلي**: قائد الجيش الفاطمي الذي فتح مصر وبلاد الشام، توفي سنة (٣٨١هـ/ ٩٩١م). الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت. ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) **سير أعلام النبلاء**، ٢٣ جزء، تحقيق شعيب الارنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م، ج١٦، ص٤٦٧-٤٦٨.

(٥) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، ١٦ جزء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د. ت، ج٢٤، ص٧٧؛ الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت. ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م): **الدّرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للآثار الشرقية، قسم الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٣٨.

(٦) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٢٨، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٤٤.

(٧) ماجد، عبد المنعم: **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**، جزءان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣، ج١، ص١٩٥.

(٨) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ/١٤٤١م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط**، ٣ أجزاء، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ج١، ص٥٥٠؛ ماجد، **نظم الفاطميين**، ج١، ص١٩٨.

(٩) يعقوب بن كلس كان يهوديًا من أهل بغداد، التحق بخدمة الدولة الفاطمية، فأستوزره الخليفة العزيز بالله سنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، وتوفي سنة (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م). ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٧، ص٢٧-٣٣؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٦٥-١٦٩.

(١٠) ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب المصري (ت. ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م): **الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة**، تحقيق عبد الله مخلص، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية، القاهرة، ١٩٢٤م، ص٢٣؛ الدواداري، **الدرة المضية**، ص٢٢٥-٢٢٦.

(١١) عن أمير الجيوش بدر الجمالي انظر: ابن الصيرفي، **الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة**، ص٥٥-٥٦.

(١٢) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ٣ أجزاء، تحقيق الدين الشيال ومحمد حلمي، ومحمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣م، ج٢، ص٣٣١.

(١٣) عن الشدة المستنصرية انظر: عيسى العزام، **الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر بالله**، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م، من ١٠٠-١٢٩.

(١٤) عن أم الخليفة المستنصر بالله ودورها في إدارة الدولة انظر: عيسى العزام، ص١٢-٢١.

(١٥) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢٧٣؛ ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي (ت. ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م): **المنتقى من أخبار مصر**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م، ص٣٢.

(١٦) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢٦٦

(١٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦٧.

(١٨) **المصامدة**: قبيلة بربرية كانت تسكن بلاد المغرب، لعبت دور فعال في نشأة الدولة الفاطميّة. ابن حزم، أبو محمد علي بن احمد الظاهري الأندلسي (ت. ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) **جمهرة انساب العرب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م، ص٤٩٥.

(١٩) لمزيد من المعلومات انظر: ناصر خسرو، أبو معين الدين القبادياني المروزي (ت. ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م): **سفر نامة**، ترجمة أحمد خالد البدلي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م، ص٩٩-١٠٠.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٢١) القلقشندي، أحمد بن علي (ت. ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج٣، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م، ص٥٥٣.

(٢٢) ناصر خسرو، **سفر نامة**، ص١٠٠

(٢٣) ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني (ت.٦١٧هـ/ ١٢٢٠م): **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار النشر فرانس شتايز شتوتقارت، ١٩٩٢م، ص٩٦.

(٢٤) المصدر نفسه، ص٧٤.

(٢٥) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص١٩٠.

(٢٦) المقريزي، **الخطط**، ج١، ص٤١٧.

(٢٧) القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج٢، ص١٥٢-١٥٣، ماجد، **نظم الفاطميين**، ج١، ص٢١٦-٢١٧؛ عطية مصطفى مشرفة، **نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين**، ط٢، دار الفكر العربي، د.ت، ص ١٤٥-١٤٨.

(٢٨) لمزيد من المعلومات انظر: المقريزي، **الخطط**، ج١، ص٤١٨-٤١٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ج١، ص٤١٨.

(٣٠) عن اصطبل الحجرية انظر: المقريزي، **الخطط**، ج١، ص٤٦١.

(٣١) عن اصطبل الجميزة انظر: المقريزي، **الخطط**، ج١، ص٤٦٣.

(٣٢) المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٩.

(٣٣) ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص ٨٢-٨٣؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٥٦٥؛ المقريزي، **الخطط**، ج١، ص٤٠١.

(٣٤) ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص ٨٢، القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٥٦٥.

(٣٥) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي، (ت. ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، **تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٩٨٣م، ص٥١؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص١٩٦؛ المسبحي، محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز (ت. ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، **أخبار مصر في سنتين** (٤١٤-٤١٥هـ)، تحقيق وليم ج. ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٢١٥.

(٣٦) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٤٤.

(٣٧) ناصر خسرو، **سفر نامة**، ص٨٤.

(٣٨) المقريزي، **الخطط**، ج٢، ص١٨٩.

(٣٩) ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص٩٥؛ القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٥٩٧؛ ماجد، **نظم الفاطميين**، ج١، ص٢١٩-٢٢٠.

(٤٠) لمزيد من المعلومات انظر: ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص٩٤-١٠٠.

(٤١) ماجد، **نظم الفاطميين**، ج١، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٤٢) ابن مماتي، اسعد بن المهذب بن أبي مليح الأيوبي (ت. ٦٠٦هـ/١٢٠٩م): **كتاب قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الزراعية الملكية، مصر، ١٩٤٣م،٣٣٩-٣٤٠؛ عيسى العزام، **الدولة الفاطمية**، ص٤٦.

(٤٣) لمزيد من المعلومات انظر: ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص٩٤-١٠٠.

(٤٤) لمزيد من المعلومات انظر: ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص٩٤-١٠٠؛ القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٥٦٩.

(٤٥) الصنهاجي، أبو عبد الله محمد (ت.٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق جلول احمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٤٩.

(٤٦) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٢٢.

(٤٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٤، ص٧٧؛ الدواداري، **الدرة المضية**، ص١٣٨.

(٤٨) الحمل من المال يناهز ٢٥٠ كغم. هنتس، المكاييل، ص٢٧.

(٤٩) **الكراع**: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٥٠) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٢٢.

(٥١) الدواداري، **الدرة المضية**، ص١٣٨.

(٥٢) عن كتاب الأمان انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٢٣-١٢٦؛ الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت. ٤٥٨هـ/١٠٦٥٦م): **تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٩م، ص١٣٢.

(٥٣) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٢٨-١٢٩؛ الأنطاكي، **تاريخ**، ص١٣٢-١٣٣.

(٥٤) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٢٩.

(٥٥) المصدر نفسه، ج٢٨، ص١٣٠.

(٥٦) الصنهاجي، **أخبار ملوك**، ص ٥٠.

(٥٧) المصدر نفسه، ص٥٠-٥٢.

(٥٨) الدواداري، **الدرة المضية**، ص١٣٨.

(٥٩) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج١، ص٩٧؛ **الخطط**، ج٢، ص١٨٧-١٨٨.

(٦٠) **الخركاهات**: جمع خركاه، وهي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء للوقاية من البرد. القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج٢، ص١٤٦.

(٦١) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ١٤٣-١٤٤.

(٦٢) عن ثورة أبو ركوة انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٦٠-٦٧؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٤٤- ٤٧؛ النويري، **نهاية الأرب**، ٢٨، ص١٨٠-١٨٥.

(٦٣) بنو قرة هم من بنو عمرو بن ربيعة بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن وهي قبيلة عدنانية. المقريزي، **البيان والأعراب**، ص٢٢.

(٦٤) **زناتة**: قبيلة من البربر كانت من اشد القبائل البربرية ولاءً لبني أمية في الأندلس، ومناهضة للوجود الفاطمي، ابن الأثير، **الكامل**، ج٧، ص٣٣٢-٣٣٤.

(٦٥) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص ٦٠-٦٧.

(٦٦) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٨٠-١٨١.

(٦٧) **برقة**: اسم يطلق على جميع المنطقة الواقعة بين الإسكندرية وافريقية، ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص٣٨٨-٣٨٩.

(٦٨) لمزيد من المعلومات، انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٦٠-٦٧.

(٦٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٦١؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٤، ص٢١٦-٢١٧؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٤٥؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٨١-١٨٢.

(٧٠) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٤، ص٢١٧.

(٧١) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٦٢؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٤٥-٤٦.

(٧٢) **الجيزة**: الجيزة في اللغة تعني الوادي، وهي بليدة تقع غرب فسطاط مصر، ولها كورة واسعة، وهي من أفضل كور مصر، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٢٠٠.

(٧٣) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٦٢-٦٣.

(٧٤) القنطار في مصر يساوي (١٠٠) رطل أي (٤٥) كم. لمزيد من المعلومات عن القنطار في الإسلام انظر: هنتس، فالتر، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٤٠-٤٢.

(٧٥) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٨٤؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٤٨.

(٧٦) **الفيوم**: ولاية مصرية غربية تبعد عن الفسطاط أربعة أيام، وهي في منخفض الأرض، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٢٨٦-٢٨٦.

(٧٧)عن هزيمة أبو ركوة وقتله انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٦٣-٦٥؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٨٢-١٨٣؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٤، ص٢١٦-٢١٧.

(٧٨) عن ثورة ناصر الدولة بن حمدان انظر: عيسى العزام، **الدولة الفاطمية**، ص١٠٦-١١٥.

(٧٩) عن الشدة العظمى، وأسبابها، ومجرياتها، ونتائجها انظر: عيسى العزام، **الدولة الفاطمية**، ص١٠٠-١١٧.

(٨٠) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢٧٣.

(٨١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٥؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م): **الكامل في التاريخ**، ١٠ أجزاء، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج٨، ص ٣٩٨-٣٩٩.

(٨٢) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٨٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٧.

(٨٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٣.

(٨٥) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٨٣.

(٨٦) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ٣٠٣.

(٨٧) **الوجه البحري**: بلاد واسعة في منطقة الصعيد، وفيه أربع ولايات: ولاية الشرقية ومقرها بلبيس، ولاية المنوفية ومقرها منوف، وولاية الغربية ومقرها المحلى الكبرى، وولاية البحيرة ومقرها دمنهور، القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٦٧.

(٨٨) لمزيد من المعلومات انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢٨١-٣١٠.

(٨٩) عن هذه الفتنة انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص١١-١٦.

(٩٠) عن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي تقلد الوزارة عامي ٤٨٧هـ/١٠٩٤م- ٥١٥هـ/١١٢١م) انظر: ابن الصيرفي، **الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة**، ص٥٧-٦٠؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٢٢٢.

(٩١) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص١٤.

(٩٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٩.

(٩٣) عن هذه الفتنة انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٩-١٥٢.

(٩٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٣.

(٩٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٨١.

(٩٦) المصدر نفسه،ج٣، ص١٨٣.

(٩٧) المصدر نفسه،ج٣، ص١٨٦

(٩٨) عن شاور ووزارته والأحداث في عهده انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٥٧- ٣٠٦.

(٩٩) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٥٧-٢٦١.

(١٠٠) عن ضرغام انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص ٢٥٩-٣٠٦.

(١٠١) عن أسد الدين شيركوه انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص١٥-١٧.

(١٠٢) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٧٣-٢٧٥.

(١٠٣) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٣٤.

(١٠٤) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٧٥.

(١٠٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٧٦؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٣٣٠-٣٣٥.

(١٠٦) **بلبيس**: مدينة تقع على طريق الشام بينها وبين مدينة الفسطاط عشرة فراسخ. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص ٤٧٩.

(١٠٧) **مدينة مصر**: اسم يطلق على مدينة الفسطاط التي اختطها عمرو بن العاص عند فتح مصر أيام الخليفة عمر بن الخطاب. لمزيد من المعلومات: ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٣٧-١٤٢.

(١٠٨) لمزيد من المعلومات، انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٣٣٥-٣٤٣.

(١٠٩) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٤-٥.

(١١٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٦.

(١١١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢١٨-٢١٩.

(١١٢) **بنو هلال**: هم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس غيلان، وهم أهل بلاد الصعيد كلها لمزيد من المعلومات انظر: المقريزي، **البيان والإعراب**، ص٢٨-٣١.

(١١٣) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢١٨-٢١٩

(١١٤) عن المعز بن باديس وولايته لافريقية انظر: عيسى العزام، **الدولة الفاطمية**، ص٢٠٩-٢٢١.

(١١٥) لمزيد من المعلومات انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢١٥-٢١٨.

(١١٦) عن جعفر بن فلاح وفتحه لبلاد الشام انظر: عيسى العزام، **بلاد الشام في العصر الفاطمي الأول/ دراسة حضارية**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م، ص٢٨-٣٠.

(١١٧) لمزيد من المعلومات انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٣٥، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ١-٩؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٧، ص٣١٠-٣٢٧؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص ٢٥-٢٧؛ عيسى العزام، **بلاد الشام**، ص٣٣-٣٤.

(١١٨) عن حركة الحسن القرمطي انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٣-٨؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٢٥-٢٧؛ عيسى العزام، **بلاد الشام**، ص٣٣-٣٤.

(١١٩) **البحرين**: إقليم يسمى باسم مدينته، ويمتد على مسافة شهر على الخليج العربي بين البصرة وعُمان. ابن خلدون، **العبر**، ج٤، ص٩٢.

(١٢٠) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص١-٣؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٢٥.

(١٢١) **بنو الجراح**: هم احد بطون طيء التي أقامت في فلسطين، وهي قبيلة عظيمة من كهلان القحطانية، وتتفرع منها بطون وأفخاذ متعددة. القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج١، ص٣٧١-٣٧٥.

(١٢٢) لمزيد من المعلومات انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٥-٨؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٧، ص٣٤٣-٣٤٤؛ الدواداري، **الدرة المضية**، ص١٥٩-١٦٠.

(١٢٣) عن افتكين التركي وحركته انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٢١-٣٧.

(١٢٤) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٣٣-٣٧.

(١٢٥) عن ولاية منير الخادم لدمشق انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٦٨ وما بعدها.

(١٢٦) عن ولاية منجوتكين التركي بدمشق انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٦٨-٨١.

(١٢٧) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج١، ص٢٦٩-٢٧٠.

(١٢٨) ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٣٢؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج١، ص٢٦٩-٢٧٠.

(١٢٩) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج١، ص٢٦٩-٢٧٠؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ١٦٠-١٦٢.

(١٣٠) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج١، ص٢٨٧.

(١٣١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٩-٢٧٠.

(١٣٢) المصدر نفسه، ج١، ص٨.

(١٣٣) المصدر نفسه، ج١، ص٨-٩.

(١٣٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٠-١١

(١٣٥) الأنطاكي، **تاريخ**، ص٢٠١؛ ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص ٤٩-٥٠، النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٨٥-١٨٦.

(١٣٦) المصدر نفسه، ص٤٨.

(١٣٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٧٢

(١٣٨) **الأحداث**: لغة جمع حدث، وهو الفتيّ السن، ورجل حدث أي شاب، وتطلق اصطلاحًا على مؤسسة الأحداث التي ظهرت بشكل بارز في مدن الشام والجزء الأعلى من بلاد الرافدين. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢، ص١٣٢-١٣٣، وعن الأحداث في الشام انظر: عيسى العزام، **بلاد الشام**، ص١٠٨- ١٢٧.

(١٣٩) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٣٠.

(١٤٠) عن حركة الأحداث وثوراتهم خلال العصر الفاطمي انظر: عيسى العزام، **بلاد الشام**، ص١٠٨-١٢٨.

(١٤١) سيطر السلاجقة بقيادة طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق على مقاليد الأمور في الخلافة العباسية سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، فقد قلده الخليفة القائم بأمر الله العباسي مقاليد أمور الدولة العباسية، وخاطبه بملك المشرق والمغرب. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت. ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ٥-١٠ أجزاء، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٣٩م، ج٨، ص٢٣٣-٢٣٤؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٨، ص١٠٧-١١٠.

(١٤٢) ابن الأثير، **الكامل**، ج٨، ص٤٦٠؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٣٢٦.

(١٤٣) عن الغزو الإفرنجي لبلاد الشام انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٢١٨-٢٣٠؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص١٤-٢٠؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨ ، ص ٢٥٢-٢٦٠.

(١٤٤) ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص٣.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص٣-٤؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٤.

(١٤٦) ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص٤.

(١٤٧) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٤؛ انظر أيضًا: ابن ظافر، **أخبار الدول**، ص٨٢؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٥٨.

(١٤٨) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٦.

(١٤٩) **تبنى**: بليدة بحوران من أعمال دمشق. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص١٤.

(١٥٠) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٣٢-٣٣.

(١٥١) المصدر نفسه، ج٣، ٣٥.

(١٥٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٤.

(١٥٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٥.

(١٥٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٥، ٥١،٥٢.

(١٥٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١٠٠.

(١٥٦) **الفرما**: مدينة على الساحل بحر الروم من ناحية مصر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٢٥٥.

(١٥٧) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٠٢.

(١٥٨) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٣٠.

(١٥٩) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٣٤-٢٣٥.

(١٦٠) المصدر نفسه، ج٣، ٢٣٤، ٢٣٦.

(١٦١) عن الوزير ابن السلار ودوره في قتال الإفرنج انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ١٩٦-٢٠٧.

(١٦٢) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص١٩٨.

(١٦٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٥٤.

(١٦٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٣-٢-٣٠٣.

(١٦٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٥٣.

(١٦٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٩٨.

(١٦٧) **السدير**: مستنقع الماء وغيضة في ارض مصر بين العباسية والخشبي تنصب فيه فضلات النيل إذا زاد، وهو أول ما يلقى القاصد من الشام إلى مصر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٢٠٢.

(١٦٨) **فاقوس**: اسم مدينة في سوف مصر الشرقي، وهي في أخر ديار مصر من جهة الشام في الحوف الأقصى. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٢٣٢.

(١٦٩) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٣، ص٢٦٢.

(١٧٠) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩١.

(١٧١) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٢-٢٩٣.

(١٧٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٦.

(١٧٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٢.

(١٧٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٤.

(١٧٥) لمزيد من المعلومات انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٦-٢٩٩.

(١٧٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٩٩-٣٠٩.

(١٧٧) لمزيد من المعلومات انظر المصدر نفسه، ج٣، ص٣٠٠-٣٠٩، ابن خلدون، **العبر**، ج٤، ص٩٣-٩٤.

(١٧٨) لمزيد من المعلومات انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ص٣٠٢-٣٠٧، ابن خلدون، **العبر**، ج٤، ص٩٤-٩٥.

(١٧٩) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص١٥٨-١٥٩.

(١٨٠) المصدر نفسه، ج٢٨، ص ١٦١-١٦٢.

(١٨١) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج١، ص٢٨٧-٢٨٨

(١٨٢) عن الوزير اليازوري الذي تقلد القضاء والوزارة في شوال (٤٦١هـ/١٠٦٨م)، وقتل في العام نفسه. انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢٧٩-٣٠٠.

(١٨٣) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨.

(١٨٤) المصدر نفسه، المصدر نفسه، ج١، ص٨-٩. ج٢، ص٢٣٠-٢٣١.

(١٨٥) عن حركة البساسيري انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج٨، ص٣٢٢-٣٤٧؛ ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص١٤٤-١٤٩؛ الشيرازي، جمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشافعي (ت.٤٧٦هـ/١٠٣٨م): **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م، ص٩٦-١٩٦.

(١٨٦) لمزيد من المعلومات، انظر: الشيرازي، **سيرة**، ص٩٦؛ ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص١٤٥، النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٢٠؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٢٣٢.

(١٨٧) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٢٠؛ ابن ميسر، **المنتقى**، ص١٥.

(١٨٨) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص١٤٧-١٤٨؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٢٨، ص٣٤٢؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٧.

(١٨٩) لمزيد من المعلومات انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج٨، ص٢٤٧، ابن ظافر، **أخبار الدول**، ٦٨؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٨٨.

(١٩٠) عن أتسز الخوارزمي انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت.٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ج٥، ص٢٩٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٠-٤١١.

(١٩١) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص١٦٦-١٦٨؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٨، ص٤١٠.

(١٩٢) سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو مظفر يوسف قزاوقلي (ت.٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م): **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** (حوادث ٤٤٨-٤٨٠هـ) تحقيق علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٦٨م، ص١٧٨.

(١٩٣) **الريف** في اللغة موضع الزرع والشجر، إلا انه غلب في مصر على أسفل الأرض، وفيها سبع كور أهمها: دقهلة، تنيس، دمياط، العباسية. المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص١٩٤.

(١٩٤) سبط بن الجوزي، **مرآة الزمان** (حوادث ٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٨٢.

(١٩٥) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٣١٧-٣١٨.

(١٩٦) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص١٨٢؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٢، ص٤١٨، ٤٤٠، ٤٤١.

(١٩٧) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، ج٢، ص٣٢٦.

(١٩٨) المصدر نفسه، ج٣، ص٢١-٢٢؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٤٦-٢٤٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

جبهة الموصل في مواجهة العدوان الصليبي إلى وفاة عماد الدين زنكي (٤٩٠ – ٥٤١هـ / ١٠٩٦ – ١١٤٦م)

حمزة قادري

أستاذ مؤقت التاريخ الإسلامي الوسيط
جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥
سكيكدة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

عُدَّت الموصل النواة الأولى الَّتي انطلقت منها حركة المقاومة الإسلامية ضدَّ الوجود الصليبي، حيث كان حاكمها وقتذاك يسمى أمير غرب الممتلكات السلجوقية، وهو المكلف قانونًا بأي عمل عسكري ضد الأعداء في المنطقة بأمر من السلطان السلجوقي في أصفهان، وعلى الأمراء الآخرين الانضمام إليه والامتثال لسلطانه، ولعل هذا الاختيار يعود لموقع المدينة الاستراتيجي سياسيًا وعسكريًا، وكذا لتمتع حكامها بثقة السلاطين السلاجقة لكونهم جعلوا من قضية تحرير الأراضي الإسلامية من التواجد الأجنبي وطرد الصليبيين عنها هدفًا رئيسيًا دون أي اعتبار للمصالح الذاتية الضيقة، والَّتي طبعت العديد من القوى الإسلامية الأخرى خلال تلك الفترة، حيث لم يأل أتابكتها جُهدًا في دفع ذلك الخطر عن البلاد الإسلامية، إذ تمكَّنوا في بداية أمرهم من صدِّ هجمات الفرنجة المتوالية عن بلاد الشام والجزيرة، ولما علا شأنهم وقوى بأسهم وكثُر جندهم تحوَّل موقفهم من الدفاع إلى الهجوم، فأغاروا على الإمارات الصليبية واستردوا العديد منها، فيمكن القول بأن جهودهم تلك -والتي سايرت مختلف مراحل الصراع الإسلامي- الصليبي أي منذ العقد الأخير للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وإلى العقد الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي- ومواقفهم من الصليبيين تُعَدّ البداية لجهود أتت بعد ذلك بذلها الأيوبيون ثمَّ المماليك في سبيل إجلاء التواجد الصليبي عن ديار الإسلام.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٦ يناير ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ١١ مارس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الحركة الصليبية، الشرق الإسلامي، الدولة الزنكية، الممتلكات الإسلامية، الشام والجزيرة

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حمزة قادري. "جبهة الموصل في مواجهة العدوان الصليبي إلى وفاة عماد الدين زنكي (٤٩٠ - ٥٤١هـ/ ١٠٩٦ - ١١٤٦م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٣٨ - ٤٤.

مُقَدِّمَةُ

شهد العالم الإسلامي منذُ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، اضطرابات داخلية خطيرة، نشأت نتيجة مجموعةٍ من الصراعات، نشبت بين القوى التي حكمت في الدولة الإسلامية من عباسيين وسلاجقة وفاطميين وكذلك التي ظهرت بعدئذ كالأتابكة والأيوبيين وأخيرًا المماليك، فكانت على ذلك سِمة الصراع والتطاحن عنوانًا لعلاقات العديد من القوى الإسلامية بين بعضها البعض خلال تلك الفترة.

كان لهذا التمزق الداخلي في الدولة الإسلامية أثرٌ كبير على الحياة السياسية فيها، مما دفع بالعديد من القوى الخارجية إلى التطلع نحو الاستفادة من ذلك الوضع، بغية الإطاحة بهذه الدولة العريقة التي امتدت إلى جميع أقاصي الدنيا شرقًا وغربًا مالكة بذلك معظم أراضي العالم القديم، فأخذت تلك القوى تزحف على ديار الإسلام، واضعةً أمام جندها أهدافًا تستنفرهم وتدفعهم للمُضيِّ قُدمًا نحو تحقيقها، مُمَنين إيَّاهم بمختلف الملذات التي سيحصلون عليها في أقاليم العالم الإسلامي، ولعل أبرزها ما كان قد قدم من الغرب الأوروبي من جيوش خطط لمسيرها رجال الدين

وقادها الملوك والأمراء، حيث قصدوا بلاد الشام والجزيرة ومصر طامحين في جعلها أرضًا مسيحية وطامعين في خيراتها ومباهجها، فحدث على إثرها مواجهات عسكرية دامية بين الطرفين دوَّنها التاريخ تحت مصطلح "الحروب الصليبية".

تقدمت الجيوش الصليبية منذ سنة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) في شكل حملاتٍ متقطعة بهدف تحقيق غاية البابوية في استرداد الأماكن النصرانية المقدَّسة من المسلمين، فاستطاع هؤلاء خلال سنوات قليلة الاستيلاء على عدد من المدن والقرى الإسلامية، وأسسوا أربع كيانات صليبية هي إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس، لتدلَّنا تلك السرعة في الاستيلاء والتأسيس على مدى الضعف والوهن والتمزق الذي آلت إليه القوى الإسلامية الحاكمة آنذاك. وقد حدث خلال تلك الفترة من الصراع على الجانبين معارك وحروب دموية وإفناء لمعالم الحضارة الإنسانية ما يَجلُّ عن الذكر وبخاصةً ما حلَّ بالمسلمين في بدايات الزحف الصليبي، وكأمثلة عن ذلك حال بيت المقدس وأهلها بعد أن استولى عليها الصليبيون في شعبان من سنة (٤٩٢هـ/ جويلية ١٠٩٩م)، وقبلها ما كان قد وقع بأهالي مدينة معرَّة النعمان في محرم من السنة نفسها من ذبح وتقتيل على يد بوهيموند القائد الصليبي بعد أن وعدهم بالأمان إن استسلموا له.

إنَّ مَنْ يسمع عن مثل هذه الأحداث العصيبة الَّتي مرَّ بها المسلمون خلال فترة العدوان الصليبي سيظنُّ بأن هؤلاء الأعداء قد وجدوا أمامهم الطريق معبدًا للتحقيق مآربهم، وأنَّ الوضع الذي كان إبَّان قدومهم قد ظلَّ على نفس النحو بعد ذلك، بل وسيعتقد بأنَّ كل المدن الإسلامية قد قَبِلَت بذلك الواقعْ وسلَّمت دون مقاومة أو حتَّى إبداء رد فعل طبيعي سيقوم به أيًا كان ضد كل من يستولي على ممتلكاته، بيد أنَّ هذا القول ليس صائبًا بالكامل، إذ وعلى الرغم من السلبية الَّتي طبعت العديد من الأجناد الإسلامية في كثير من أوقات الصراع الإسلامي- الصليبي، إلاَّ أنَّها شهدت فترات من الصحوة، برز خلالها قادةٌ عظام، جعلوا من قضية إخراج الأعداء من أرض الإسلام غاية تسْمُو فوق كل الاعتبارات فأسَّسوا انطلاقًا من مدن حكمهم جهات مقاومة، أعادت الأمل للمسلمين في استعادة ممتلكاتهم، ولعل من أبرز تلك الجهات التي تشكلت في سبيل رد المخططات الأجنبية على أرض الإسلام جهة الموصل ببلاد الجزيرة والتي تركت بصمتها في أحداث تلك الفترة من تاريخ المسلمين بل عُدت النواة الأساسية والصلبة التي انطلقت منها حركة الجهاد ضد الصليبيين وعليه أردنا من خلال هذا المقال أن نتتبع سير حركة المقاومة في هذه المدينة في مواجهة العدوان الصليبي إلى غاية وفاة أبرز قادتها وهو عماد الدين زنكي (٥٤١هـ - ١٠٤٦م).

أولاً: الموصل نواة المقاومة الإسلامية ضد العدوان الصليبي

اقترن الحديث عن المقاومة الإسلامية للتواجد الصليبي في مدينة الموصل على شخصية عماد الدين زنكي (٥٢١ – ٥٤١هـ/ ١١٢٧م- ١١٤٦م)، وذلك بفضل ما تحقق على يديه من مكاسب للطرف الإسلامي كانت إلى وقت ليس ببعيد أمرًا من الصعوبة بما كان، نظرًا لما كان يعانيه المسلمون من ضعف وتشتت صفهم وما كان يتمتع به الصليبيون من قوة وشكيمة وعزم على تحقيق مخططاتهم، فاستعادة عماد الدين لمدينة الرها[١] من الصليبيين في ١٦ جمادى الآخرة (٥٣٩هـ/ ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م) كان له أثر بالغ في حركة المقاومة الإسلامية حيث أعاد للمسلمين أمل التخلص من الوجود الصليبي على أراضيه، وأصاب الصليبيين بصدمة دفعتهم للاستنجاد بالبابا في أوروبا (لوجين الثالث) لإنفاذ حملة تمكنهم من استعادتها.

إن من الاجحاف والظلم قرن جهود هذه المدينة بشخصية عماد الدين زنكي فحسب، ذلك أن الصليبيين قد قدموا لبلاد الشام والجزيرة قبل توليه حكمها بثلاثين سنة، لذا فقد ساهم من قبله حكامها في رد ذلك الخطر، وإن كانت مكاسبهم محدودة إلا أن المؤرخين اعتبروها بذرة المقاومة الاسلامية التي نمت فيما بعد على عهد عماد الدين وحققت انتصارات باهرة على الوجود الصليبي وأبرزها استعادة مدينة الرها.

سمح الموقع الجغرافي لمدينة الموصل بأن تكون جهة مقاومة رئيسية ضد الغارات الصليبية، حيث تجلت ردود فعل قادتها مباشرة بعد مجيء الصليبين سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٦م)، حين قاد حاكمها وقتذاك كربوغا (٤٨٩هـ- ٤٩٥هـ/ ١٠٩٥م-١١٠١م) القوات الإسلامية التي واجهت الصليبيين المحاصرين لأنطاكية في سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م)،[٢] حيث كان من الممكن لتلك القوات أن يفيدوا ممَّا وقع بين قادة الجيش الصليبي المحاصر من اختلاف حول كيفية الاستيلاء على المدينة وتحديد التوقيت المناسب لذلك، حيث كان بوهيموند يسعى إلى الانفراد بالاستيلاء على المدينة دون أن ينازعه فيها أحد، إضافة إلى الظروف التي صاحبت حصارها كنفاذ المؤونة وإطباق المجاعة على الجند بعد حلول فصل الشتاء، وكذلك رغبة بوهيموند في إبعاد القوات البيزنطية وعدم تمكينها من المشاركة في عملية الاستيلاء حتَّى يستبعد أي حق بيزنطي في المدينة بعد الاستيلاء عليها.[٣]

غير أن ما نلاحظه في هذه الفترة أن حالة الانقسام والتمزق التي كانت عليها القوات الإسلامية، لم تكن لتسمح لها بالإفادة من أوضاع الصليبيين، فرواسب الصراعات المريرة التي كانت تحكم العلاقات بين أمراء البلدان الإسلامية، حالت دون تكتل الجهود في مواجهة المحاصرين للمدينة، وأما عن موقف حاكم الموصل (كربوغا) فقد رفض قتال الصليبيين حال خروجهم من أنطاكية كما وأنه أساء معاملة بقية الأمراء الذين كانوا تحت إمرته،[٤] فكان

لموقفه وقع على جهود القوات الإسلامية المحاصرة للمدينة.[٥] وقد ظهر بعد وفاة كربوغا رجل آخر كان له الفضل في الاعتناء ببذرة المقاومة الَّتي وضعها سلفه من قبل على أرض الموصل ألا وهو شمس الدولة جكرمش، الذي شارك في حلف جمعه بمعين الدين سقمان بن أرتق صاحب ماردين في مواجهة صليبي الرها، حيث ألحق هذا الحلف هزيمةً قاسية بالصليبيين وأوقعت ببلدوين وجوسلين أسيرين في قبضة القوات الإسلامية،[٦] إلا أنَّ المطامع الشخصية كانت حائلاً دون إفادة هذا الحلف من هزيمة صليبيي الرها.[٧]

أمَّا ثالث الرجال الذين نمت على أيديهم بذرة المقاومة الإسلامية في منطقة الموصل، كان شرف الدين مودود بن التونتكين (٥٠٢هـ- ٥٠٧هـ/١١٠٨م- ١١١٣م) حيث يسجِّل التاريخ لهذا القائد رئاسته لذلك الحلف الذي أمر بتشكيله الخليفة العباسي المستظهر بالله والذي ضمَّ العديد من أمراء المسلمين لأجل استعادة إمارة الرها، غير أنَّ رواسب العلاقات المتوترة بين هؤلاء الأمراء، وكذا خوفهم من تعاظم شوكة مودود أمير الموصل بعد الاستيلاء على الرها، الذي من شأنه أن يقضي على تلك الإمارات الصغيرة المتناثرة في الشام والجزيرة، دفع العديد من أمراء ذلك الحلف إلى التباطؤ في دعمه،[٨] بل أن منهم من هادن الصليبيين، كما فعل طغتكين صاحب دمشق[٩]

واصل مودود أتابك الموصل سياسته الرامية إلى تقويض الوجود الصليبي على أراضي المسلمين، حيث اشترك في حلف آخر بطلب من طغتكين أتابك دمشق، الذي أدرك استحالة وقوفه في وجه بلدوين ملك القدس العازم على الاستيلاء على مدينة صور والمدعَّم من حلفاءه، فتشكل على إثر ذلك حلف ضم القائدين السالفي الذكر في سنة (٥٠٥هـ /١١١١م)، فتمكَّن من ردِّ الصليبيين عن هدفهم وهزمهم شر هزيمة في محرم (٥٠٧هـ/ جوان ١١١٣م)،[١٠] على أنَّ مسيرة هذا الرجل الجهادية قد انتهت على أيدي أحد من الباطنية، حين بقاءه في دمشق عند طغتكين، حيث طعنه وهو يصلي صلاة الجمعة في الجامع الأموي بدمشق.[١١]

أسند السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه حكم الموصل لآقسنقر البرسقي، في السنة التي قُتل فيها مودود (٥٠٧هـ/ ١١١٣م)، غير أن صراع البرسقي مع صاحب ماردين إيلغازي بن أرتق، وانهزامه أمامه دفعه بالعودة إلى إقطاعه في الرَّحبة،[١٢] فتولى حكمها بعده جيوش بك،[١٣] ثم عاد وحكمها البرسقي من جديد بتعيينٍ من السلطان وذلك في صفر من سنة (٥١٥هـ/ أبريل ١١٢١م)، قضى خلالها خمس سنوات، استطاع فيها أن يُسهم بشكلٍ كبير في حركة المقاومة الإسلامية،[١٤] وأظهر من الكفاية والقدرة على مقاومة الصليبيين، ممَّا جعلته يجمع بين الموصل وحلب، بعد أن لجأ أهل هذه الأخيرة إليه يستنجدونه لمساعدتهم في درأ خطر الصليبين سنة (٥١٨هـ/١١٢٥م)، فأسرع لذلك وضمَّ المدينة الَّتي شكَّلت فيما بعد مع الموصل نواة للمقاومة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة، تحت قيادته ثم على يد أبنه عماد الدين زنكي.[١٥]

ثانيًا: عماد الدين زنكي رجل المقاومة الإسلامية

في تلك المرحلة التي كانت تشهد ازدياد الضغوط الصليبية على منطقة الشام والجزيرة، وخاصةً بعد وفاة البرسقي حاكم الموصل وحلب،[١٦] ظهرت شخصية بارزة على مستوى الجهة الإسلامية، سعت إلى تقويض الوجود الصليبي واستعادة الأراضي الإسلامية منه، وهي شخصية عماد الدين زنكي بن آقسنقر قسيم الدولة (٥٢١هـ-٥٤١هـ/ ١١٢٧م- ١١٤٦م)– وهو غير آقسنقر البرسقي حاكم الموصل المتأخر-.[١٧] فمنذ وفاة والده قسيم الدولة آقسنقر الذي لم يَخْلف من الأولاد إلا هُوَ، أحاطه مماليك والده وأصحابه وحكام منطقة الموصل من عهد كربوغا إلى غاية البرسقي المتأخر بالعطف والرعاية وحسن التربية، كما وقد ذاع صيته بعد بلوغه مرحلة الشباب ومشاركته في حروب الموصل ضد الصليبيين التي أظهر فيها شجاعة وبسالة لفتت الأنظار إليه، وهو الأمر الذي دفع بأعيان منطقة الموصل إلى الالتماس من السلطان السلجوقي تعيينه حاكمًا عليها بعد وفاة أتابكها عزالدين مسعود بن آقسنقر البرسقي (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)،[١٨] فاستجاب السلطان لطلبهم، وأصدر منشورًا بتولية عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام.[١٩]

وعلى كل حال؛ فإن عماد الدين زنكي ومنذ توليه حكم الموصل قد أخذ لنفسه ولمنطقة نفوذه سياسة قائمةً على ما تمَّ استخلاصه من معايشته لمختلف مراحل الصراع الإسلامي- الصليبي في هذه المنطقة، فقد عمل على الإفادة مما لم يستغلَّه سابقوه من أعدائه، وأن يَسُدَّ ثغرات الجهة الإسلامية التي كانت أكثر ما ينفذ عبرها الصليبيون في ذلك الصراع. فكانت أولى الخطوات التي قام بها زنكي في سبيل إقامة جهة إسلامية قادرة على مواجهة الصليبيين واستعادة الممتلكات الإسلامية منهم، هي العمل على إنهاء الانقسام والتفتت الذي كانت عليه منطقة الجزيرة وشمال الشام واحتواء جميع الإمارات والقوى الإسلامية الصغيرة الموجودة هناك وضمِّها لنفوذه، لحمايتها من الخطر الصليبي أولاً، وبغية تأمين تخومه ثانيًا.[٢٠] نجح عماد الدين زنكي في الاستيلاء على جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار[٢١]والخابور وحرَّان،[٢٢] وضمَّ إليها بعض مدن الشام كحماه وحمص وبعلبك،[٢٣] كما استطاع بسطَ سيادته على حلب، والَّتي كانت قد خرجت من سلطة أمير الموصل بوفاة البرسقي،[٢٤] فوصلها بقواته في جمادى الثانية (٥٢٢هـ/ جوان ١١٢٨م)، أين استقبله أهلها واستبشروا لقدومه.[٢٥]

أما الخطوة الثانية في سبيل بناء جهته الداخلية، فقد تمثلت في تجنب مواجهة الصليبيين ومهادنتهم لمدَّةٍ تسمح له بالتركيز وإنجاح الخطوة الأولى، فيقول عن هذه السياسة ابن الأثير: "وأرسل إلى جوسلين -صاحب الرها- وغيرها من البلاد التي بيد الفرنج بالجزيرة، وهادنه مُدَّةً يسيرةً، يعلم أنَّه يفرغ فيها من الاستيلاء على

ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية، وإصلاح شأنها والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم، ويعرف نصحهم وشجاعتهم".[٢٦] أما أبو شامة فيقول عن هذه السياسة: "وهادن الفرنج مُدَّة يسيرة يعلم أنَّه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية، وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، وملك مدينة حلب وغيرها".[٢٧]

وما يسترعي النظر فيه من خلال هذه السياسة التي رسمها عماد الدين زنكي الرَّامية إلى التوسع على حساب الإمارات الإسلامية المتناثرة في بلاد الجزيرة والشام أنها تختلف كلية عن تلك التي سار عليها الفاطميون حين استيلائهم على بيت المقدس من الأراتقة، وكذا توسع الأمراء السلاجقة على حساب بعضهم البعض، فأما سياسة عماد الدين التوسعية فقد كان هدفها خدمة القضية الإسلامية بتقوية الجبهة الإسلامية ضد الوجود الصليبي، لكن غاية كل من الفاطميين والسلاجقة فقد كانت لمصالح ذاتية ضيقة.

هذا بالنسبة لسياسته الداخلية، أما عن الخارجية فقد تمثَّلت في الكفاح بكل الوسائل والعمل على إخراج الصليبيين من الأراضي الإسلامية، إذ عرف هؤلاء في تلك الفترة من القوة ما يتطلب توحيد كل الجهود في سبيل مواجهتهم، وعن ذلك يقول ابن الأثير: "لما ملك المولى الشهيد (يقصد عماد الدين زنكي) البلاد كان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وتضاعفت سطوتهم، وعلا شرهم، واشتدَّ بطشهم، وامتدت إلى بلاد الإسلام أيديهم، وضعُفَ أهلها من كفِّ عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، وركبوهم بالتبار والتباب، واستطار في البلاد شرر شرهم، وعمَّ أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم،...".[٢٨] وعليه فإن موازين القوى وفق ما يذكر ابن الأثير كانت راجحة لكفة الصليبيين وأن أمام عماد الدين تحد كبير وجب عليه مواجهته، فكانت سياسته الداخلية بداية النضال ضد الوجود الصليبي.

بعد تولي عماد الدين زنكي حكم الموصل وحلب أنفق الكثير من حياته في خدمة المقاومة الإسلامية، حيث عرف سجل انتصاراته أولى الصفحات حين انتهز فرصة اختلال الأحوال بأنطاكية سنة (٥٢٤هـ/١١٣٠م) فخرج على رأس جيوشه للجهاد، فعسكر أمام حصن الأثارب[٢٩] المتاخم لأعمال حلب، فاشتبك مع حاميتها في قتال عنيف، انتهى بسقوط الحصن ومصرع العديد من الجند الصليبية،[٣٠] ليواصل بعد ذلك زحفه نحو الغرب إلى غاية بلوغه قلعة حارم[٣١] الَّتي هادنه أهلها، وبذلوا له نصف دخلها، حتى لا يتعرض لهم، فأجابهم إلى ذلك.[٣٢]

كان لتلك الانتصارات الأولى التي حققها عماد الدين زنكي أثر بالغ في نفوس الصليبيين وحتى المسلمين، فعن الأوائل يقول ابن الأثير: "وضعفت قوى الكافرين وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع".[٣٣] وأما بالنسبة للمسلمين فقد كانت النتيجة عكسية تمامًا، حيث يقول ابن الأثير عنها: "وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد، وأعلنت في الحاضر والباد".[٣٤]

على أن جهود عماد الدين في مواجهة الصليبيين قد شغلت بالصراع الداخلي الذي نشب في منطقة الجزيرة وشمالي العراق، بين الأمراء السلاجقة من جهة وبين الخلافة العباسية والسلطان السلجوقي من جهة ثانية،[٣٥] حيث لم يستطع أن يقف معزولاً عن تلك الأحداث ليقينه بأنَّ أي جُهدٍ في مواجهة الصليبيين لن يكون ذا معنى إلاَّ إذا كانت الجبهة الداخلية على قدرٍ من التوحد والاستقرار، على أنَّ ذلك الصراع قد خَفَّت حدَّته سنة (٥٣١هـ/١١٣٧م)،[٣٦] ممَّا جعل عماد الدين يعود إلى إكمال مسيرة الجهاد ضد الصليبيين، فأحرز عليهم أولى الانتصارات بعد تلك المحنة بانتزاع قلعة بعرين (أوبارين)[٣٧] سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٧م) رغم توحُّد الأمراء الصليبيين واستنجاد ريموند صاحب طرابلس بفولك ملك بيت المقدس، وكذا بأميري الرها وأنطاكية، إلا أن عماد الدين ألحق بالفرنجة هزيمة قاسية أُسر على إثرها العديد منهم، ومن بينهم ريموند أمير طرابلس.[٣٨]

لم تتوقف جهود زنكي المشرفة عند هذا الحد بل واصل عمله بغية توحيد الجبهة الإسلامية فاستولى على معرَّة النعمان وكفر طاب وغيرها من البلاد الواقعة بين حلب وحماه، كما سعى إلى ضَمِّ دمشق إلى حاضرة نفوذه فهاجمها سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م)، غير أن استنجاد نائب أتابكها معين الدولة أنر بالصليبيين حال دون تمكن زنكي من ضمها للجبهة.[٣٩]

ثالثا: أهم نصر لجبهة الموصل وعماد الدين

وعلى أية حال؛ فإنَّ كُلَّ ما حققه زنكي إلى غاية سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م)، لا يمكن أن يقارن بما حققه بعد ذلك، وذلك لأنَّ الصليبيين لا يزالون محافظين على إماراتهم التي أسسوها في حملتهم الصليبية الأولى، فإنْ أراد عماد الدين منح قيمة لانتصاراته أمام المسلمين، وكذا لإبراز قوته للصليبيين فقد وجب عليه استعادة تلك الإمارات منهم، وعليه فقد كانت إمارة الرها هدفه المنشود. كانت إمارة الرها تشكل خطرًا كبيرًا على المسلمين، لموقعها بين العديد من الإمارات الإسلامية، فكانت عائقًا حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها لصالح خصوم عماد الدين من الأمراء المسلمين في المنطقة، كما أنَّها كانت تُمثِّل قاعدة للصليبيين في غاراتهم على أملاك المسلمين في بلاد الجزيرة،[٤٠] ولهذا فقد كان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية ودينية.[٤١]

سعى عماد الدين إلى استعادة الرها بشتى الطرق، حتَّى وإن كانت بالحيلة، فعماد الدين رأى بأن مسيره إلى الرها مباشرة سيدفع بالفرنجة إلى التوحُّد ضده، وبالتالي إحباط حملته، فاتجه إلى ديار بكر مُوهمًا صاحب الرها (جوسلين الثاني الذي كان بتل باشر) بأنَّه مُنشغلٌ عنه بإخضاع حليفه صاحب ماردين قر أرسلان، فتمكَّن عماد الدين من الاستيلاء على العديد من القلاع في ديار بكر،[٤٢] أما

صاحب الرها فلم يكن بإمكانه الانشغال عن حليفه أمير ماردين فخرج بجيوشه لمساعدته في رد حملة عماد الدين،[٤٣] تاركًا حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة.[٤٤]

لما سمع عماد الدين بتحرك جوسلين من الرها، عقد الصلح مع الأراتقة وسار إليها،[٤٥] وفرض عليها حصارًا دام أكثر من ثمانية وعشرين يومًا، أرسل فيها لأهل المدينة يعرضُ الأمان مقابل تسليمها إيَّاه، لكنَّ زعماء المسيحيين رفضوا عرض زنكي أملاً في وصول نجدات الأمراء الصليبيين، ممَّا دفع بعماد الدين إلى تشديد الهجمات عليها حتى سقطت في حوزته، في ١٦ جمادى الآخرة (٥٣٩هـ/٢٣ ديسمبر ١١٤٤م).[٤٦] كان لانتصار عماد الدين زنكي المظفَّر على صليبيي الرها الأثر البالغ في خضوع منطقة شرق الفرات للسيطرة الإسلامية، حيث أنَّه وباستعادة الرها تمكَّن من استرجاع العديد من القلاع والأقاليم المجاورة للمدينة والَّتي كانت تحت السيطرة البيزنطية كسروج[٤٧] والبيرة[٤٨] وغيرها.[٤٩]

وقد واصل عماد الدين زنكي سياسيته في تقويض الوجود الصليبي في بلاد المسلمين، منذ استعادته للرها وإلى غاية تعرضه للاغتيال على يد أحد غلمانه، وذلك في ربيع الثاني (٥٤١هـ/ سبتمبر ١١٤٦م)،[٥٠] لتنتهي بذلك صفحة مشرقة في تاريخ المقاومة الإسلامية على يد هذا البطل الذي قيل بأن مقتله كان بمثابة قتل المسلمين جميعًا.

خاتمة

إن ما يمكن أن نخلص إليه من بعد جهود قادة وحكام الموصل وبخاصةً في عهد عماد الدين زنكي في مواجهة المخططات الصليبية، أن المسلمين كان ينقصهم الوحدة وتغليب كفة مصلحة الإسلام على الأهواء والمصالح الذاتية التي تهيجها النزعات العرقية والتطرف المذهبي وحب السلطة والتملك لدى كثير من قادة الإسلام، فاتضح لنا من خلال تسجيل ميلان كفة ذلك الصراع إلى الطرف الإسلامي في فترات عدة كيف أهتم قادة الإسلام خلالها بضرورة تحقيق الوحدة ووضع الخلافات والمصالح الضيقة جانبًا، وتركيز كل الجهود في مواجهة أعداء الأمة وثنيهم على تحقيق غاياتهم، فضرب قادة هذه المدينة عديد الأمثلة عن ذلك فتحققت على أيديهم أهم الانتصارات في مختلف مراحل الصراع مع الصليبيين، كما تمكنوا من بعث الأمل في أمة الإسلام بأن أراضيهم ستعود إليهم، وأن هؤلاء لن يهنئوا عليها وسيخرجون منها وهم كارهون.

الملاحق:

خريطة رقم (١)

الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية

المصدر: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٢٦٣.

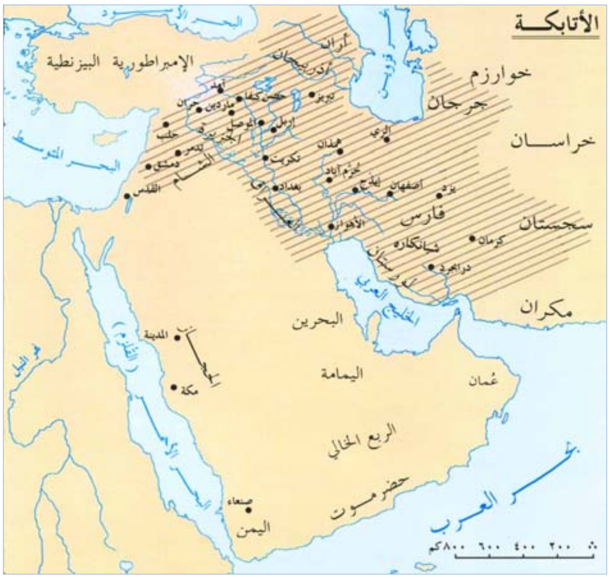

خريطة رقم (٢)

منطقة الجزيرة (الفراتية) ومدينة الموصل

المصدر: الموسوعة العربية على شبكة الانترنت

الهَوامِشُ:

(١) **الرها:** تقع على بعد (٤٥) ميلاً شرقي الفرات، و(١٦٠) ميلاً شمال شرقي أنطاكية، وهي بقعة تتصل بمدينة حران، وسطة من المدن، أكثر أهلها نصارى، وبها لهم ما يناهز ثلاث مائة بيعة ودير، انظر القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) **صبحي الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م، ١٣٩/٤، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن علي(ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) ، **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، د ت، ص ٢٧٧. وتُعَدّ الرها أول الإمارات التي أسسها الصليبيون على الأراضي الإسلامية حيث كان ذلك على من قبل بلدوين البويني في ربيع الأول ٤٩١هـ/ فبراير ١٠٩٨م، انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي (ت. ٦٦٠هـ/ ١٦٧٨م): **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥١، ٢٧٧/٢، ابن شداد، عزالدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (ت. ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م). **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تح، يحيى عبَّادة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١، ٩٤/٣. وانظر:(الملحق رقم ٠١ خريطة الإمارات الصليبية المؤسسة في بلاد الشام والجزيرة)

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): **تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٧، ٤٠/٥-٤١، ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م): **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق، سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق ١٩٨٣، ص٢١٨، ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م): **تاريخ مختصر الدول**، تح، أنطوان صالحاني اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٥٨، ص٣٤١.

(٣) فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى القدس**، تر، زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص٥٤، ٥٥، ريموندا جيل، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٨٨-٩٠.

(٤) ابن خلدون، **العبر**، ٤١/٥.

(٥) قام ياغي سيان حاكم مدينة أنطاكية لمَّا علم بزحف الصليبيين إليها باستصراخ القوى الإسلامية المحيطة بها طلبا للنجدة ولمساعدته في الوقوف ضد الغزو الصليبي، فيقول عن ذلك ابن القلانسي: "وسير ولده إلى دمشق، إلى الملك دقاق، وإلى جناح الدولة بحمص، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، والبعث على الخفوف إلى الجهاد، وقصد تحصين أنطاكية". غير أن رضوان صاحب حلب لم يسهم بقواته في مساندة ياغي سيان، وذلك لانحياز الأخير إلى جانب دقاق في الصراع الذي دار بين الإثنين، كما وأنَّ الفاطميين في مصر قد فكَّروا في التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم السلاجقة، فأرسلوا سفارة إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية لعقد اتفاق بينهم حيث تكون أنطاكية وبلاد الشام للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين، إضافة إلى كل هذا فقد حدث أن أخذت العصبية العنصرية بين العرب والترك دورها في زيادة حدة الانقسام والتشتت، وعن ذلك يقول ابن العديم: "وجرت بين العرب والأتراك الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته"، انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٢١٨، ابن العديم، **زبدة حلب**، ١٣٦/٢. فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٦) قام إيلغازي بن أرتق حاكم ماردين الذي خلف سقمان بإطلاق سراح جوسلين مقابل الحصول على مبلغ قدره عشرون ألف دينار، كما سعى بعد ذلك جوسلين لإطلاق سراح بلدوين بفدية قدرها ثلاثين ألف دينار، انظر: ابن العديم، **زبدة الحلب**، ١٤٨/٢، ابن خلدون، **العبر**، ٨٧/٥.

(٧) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦، ١٠/ ٣٧٥، ابن خلدون، **العبر**، ٨٧/٥-٨٨.

(٨) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص١٧٧.

(٩) ابن الأثير، **الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٧، ١٨.

(١٠) راح ضحية تلك الواقعة بين الحلف الإسلامي المتكون من مودود أتابك الموصل وطغتكين أتابك دمشق، والجيش الصليبي بقيادة ملك بيت المقدس بلدوين، وصاحب أنطاكية روجر وبونس صاحب طرابلس، ما يقرب من ألف ومائتا من المشاة وثلاثين فارسا، حتى أن الملك الصليبي لم يتمكن من النجاة إلى بصعوبة بالغة انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٢٩٣- ٢٩٥، ابن خلدون، **العبر**، ٨٨/٥-٨٩.

(١١) ابن الوردي، أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر (ت. ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م): **تتمة المختصر أو تاريخ ابن الوردي**، القاهرة، ١٢٨٥هـ، ٣٦/٢، ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تح، إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ٢٠٧/٥، ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): **البداية والنهاية**، تح، عماد زكي البارودي، خيري سعيد، مكتبة المعارف، ط١، بيروت، ١٩٦٦، ١٧٨/١٢، الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت. ٥٩٧هـ/ ١٢٠١): **تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار، الفتح بن علي البنداري الأصفهاني**، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ١٩٠٠، طبعة جديدة، دار الآفاق الجديدة، ط٣، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٦١-١٦٢. ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٢٩٨-٢٩٩، ويرجح ابن الأثير أن يكون طغتكين هو من كان وراء تدبير عملية الاغتيال لخوفه من تعاظم نفوذ مودود في بلاد الشام، ابن الأثير، **الكامل**، ٥٠١/١٠.

(١٢) ابن خلدون، **العبر**، ٨٩/٥، ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ٣٧/٢.

(١٣) ابن خلدون، **العبر**، ٩٢/٥

(١٤) ابن خلدون، **العبر**، ١٠٧/٥-١٠٨، حامد غنيم أبو سعيد، **الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر**-، دار السلام، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٦٥.

(١٥) تعرض آقسنقر إلى الاغتيال على أيدي جماعة من الباطنية، وهو يصلي في جامع الموصل يوم الجمعة ٠٩ ذو القعدة، ٥٢٠هـ/ ٢٦ نوفمبر ١١٢٦م، ثم خلفه عز الدين مسعود، انظر: ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت. ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح، لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت)، ٦٧/٤، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٣٤١، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٣٠/٥، ابن الأثير، **الكامل**، ٥٨٧/١٠، ابن خلدون، **العبر**، ١١٢/٥-١١٤.

(١٦) ابن خلدون، **العبر**، ١١٤/٥، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٣٠/٥، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٣٤١.

(١٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٣٤/٥.

(١٨) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٣٤٤، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٣٢/٥

(١٩) ابن خلدون، **العبر**، ١١٤/٥-١١٨، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت. ٨٦١هـ/١٤٥٧م): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ٣٢٧/٢-٣٢٨، ابن شداد، **الأعلاق**، ١٦٧/٣.

(٢٠) حامد غنيم، المرجع السابق، ص ١٧١-١٧٢

(٢١) **سنجار:** مدينة مشهورة، من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت.

٦٢٦هـ/١٢٢٩م): **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ٧٨/٥، القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود (ت.٦٨١هـ/ ١٣٨٢م): **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ص٣٩٣، البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت.٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م): **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق: مصطفى السَّقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧م/ ١٣٦٦هـ، ٣/ ٧٦٠، ابن شداد، **الأعلاق**، ١٥٤.

(٢٢) **حرَّان**: بلدة من ديار مضر، إلى شرق الرها والجبل منها في سمت الجنوب والشرق على فرسخين، القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٤/ ٣١٩.

(٢٣) **بعلبك**: مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب، معدن الأعناب، سائر مدنها طيبة رحاب، المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت. ٣٨٨هـ/٩٩٨م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تح، ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٧م، ص ١٦٠.

(٢٤) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م): **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تح: محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة للنشر، القاهرة، ١٩٦٢، ٧٧/١، ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت. ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م): **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٢، ٣٤/١-٤١.

(٢٥) ابن خلدون، **العبر**، ١١٩/٥، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ١٣٣/٣.

(٢٦) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص٣٧.

(٢٧) أبو شامة، **الروضتين**، ٧٩/١.

(٢٨) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص٣٢.

(٢٩) هو من أمنع القلاع الصليبية المتاخمة لمدينة حلب، حيث ظل هذا الحصن يشكل عاملا من عوامل الضغط الصليبي على المدينة، فكان أهلها يلاقون الكثير من الضرر والضيق من هذا الحصن، ويعتبر آخر شيء على حلب، ابن الأثير، **الكامل**، ٦٦٢/١٠.

(٣٠) أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م): **تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر**، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٩٦٦، ٣/٣، ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص٣٩-٤٢، أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، دار النهضة العربية، ترجمة، السيد الباز العريني، بيروت، د ت، ص١٥٥-١٥٦.

(٣١) **حارم**: حصن حصين وكورة جليلة اتجاه أنطاكية، طولها تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة و ثلاثون دقيقة، بناها الروم لتكون حصنا يحمي مواشيهم من غارات العرب، وقد أخذها منهم المسلمون في فترة الحروب الصليبية، انظر، ياقوت، **معجم البلدان**، ١٩٩/٣، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ١/ ٥٥- ٥٦.

(٣٢) أبو شامة، **الروضتين**، ٧٨/١.

(٣٣) ابن الأثير، **الكامل**، ٦٦٣/١٠.

(٣٤) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص٤٢.

(٣٥) ابن الأثير، **الكامل**، ١١/ ٣٥-٤٦.

(٣٦) ابن الأثير، **الكامل**، ٤٧/١١-٤٨، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٤٠٦-٤٠٧.

(٣٧) كانت هذه القلعة من أمنع معاقل الصليبيين وأحصنها، حيث اتخذها الصليبيون قاعدة يشنون منها الغارات على البلاد الواقعة بين حمص وحلب، انظر: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٤٠٧-٤٠٨، ابن الأثير، **الكامل**، ٥١/١١، إلاَّ أنَّ أبا شامة يرى بأن فتح بعرين كان في سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)، **الروضتين**، ٨٧/١، وقد تسلم عماد الدين زنكي القلعة من أهلها مقابل خمسين ألف دينار، وذلك بعد أن سمع بوصل إمدادت الصليبيين من الجيوش، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٤٠٨، ابن الأثير، **الكامل**، ٥٢/١١.

(٣٨) أبو شامة، الروضتين، ١/ ٨٧-٨٨، كمال بن مارس، **العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٠٠.

(٣٩) عصام الدين عبد الرؤوف، **بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ١٦١-١٦٢.

(٤٠) ابن الأثير، **الكامل**، ٩٨/١١-١٠٠، أبو الفدا، المختصر، ٧/٣، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٧٥/٥.

(٤١) ابن الأثير، **الكامل**، ٩٩/١١، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص٤٣٦. وأيضًا:
Runciman: **The first crusade:Constantinople to Antioch,** in: A History of the Crusades, vol II, Ed by: Setton (London, 1969) P. 235.

(٤٢) ابن العديم، **زبدة حلب**، ٢/ ٢٧٦- ٢٧٧.

(٤٣) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٤٤) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ١٦٨.

(٤٥) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص ٤٣٧-٤٣٨.

(٤٦) ابن العديم، **زبدة حلب**، ٢/ ٢٧٧-٢٧٩، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ٣/ ٩٤، سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، المكتبة الأنجلو مصرية، ط٤، القاهرة، ١٩٨٦، ٢/ ٦٠٦.

(٤٧) **سروج**: بلدة قريبة من شمال حران في ديار مضر ببلاد الجزيرة، حسنة حصينة، كثيرة الأشجار والمياه والفواكه والزبيب، طولها ثلاث وسبعون درجة وعرضها سبع وثلاثون، انظر، ياقوت، **معجم البلدان**، ٥/ ٤٢، البكري، **معجم ما استعجم**، ٧٣٧/٣، الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت ق٤هـ/١٠م): **المسالك والممالك**، تح، محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، مصر، ١٩٦١، ص ٥٥، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ١٠١/٣.

(٤٨) **البيرة**: قلعة حصينة على جبل مشرف على الفرات من شرقيها على الطول مائي، لها مما يلي الفرات حائط ممتد، ومما يلي البر سور وأبرجة طولها اثنتان وسبعون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها سبع وثلاثون، ابن شداد، **الأعلاق**، ١٢٠/٣.

(٤٩) ابن الأثير، **الكامل**، ١٠٢/١١، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٩٦/١ ، أبو شامة، **الروضتين**، ١٠٣/١، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ١٠٦/٣.

(٥٠) أبو شامة، **الروضتين**، ١٠٧/١، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٤٤٤، ابن الأثير، **الكامل**، ١١٠/١١، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٧٨/٥ ، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ٣/ ١٨٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

الحريم السلطاني ودوره في العصر المملوكي
(٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م)

د. محمد جمال حامد الشوربجي
دكتوراه في تاريخ العصور الوسطى
جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ
يتحدث هذا البحث عن حريم سلاطين المماليك، ويبدأ بالتعريف بالأماكن التي يعيشون فيها داخل القلعة، والمكان المخصص لكل خوند من خوندات السلاطين وما تحتويه هذه الأماكن من ملابس وأدوات زينة ونحوها، وكذا الأماكن التي يعيش فيها السراري والجواري والطواشية ونحوهم، ثم ينتقل بعدها للحديث عن زمام دور الحريم ومساعديه، ويشير إلى أن هذه الأماكن كانت تعد في بعض الأحيان مكانًا للإقامة الجبرية كما حدث مع العزيز يوسف مثلاً. كما يرصد البحث أسماء زوجات السلاطين وجواريهم حتى نهاية العصر المملوكي، ثم يتطرق البحث إلى الحديث عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، فيتحدث عن حياتهم الخاصة في الأفراح كالزواج وشفاء المريض والإنجاب، وخروج هؤلاء الخوندات في صحبة السلطان أو منفردين للتنزه في الجيزة وغيرها، ولكن هذا الفرح والسرور كثيرًا ما كانت تكدره مصيبة الموت، ولهذا تحدث البحث عن مراسم الموت والجنائز عند هؤلاء، ثم انتقل بعدها للحديث عن تدين الخوندات وانخراط بعضهن ضمن بعض الطرق الصوفية كالطريقة الأحمدية، وأداءهن لفريضة الحج مرة أو عدة مرات، ولكن لم يمنع هذا من وجود بعض الأمراض الخُلقِية كالسرقة والسحر ونحو ذلك. ويرصد البحث مصادر الثروة عند هؤلاء الخوندات وموقف السلاطين منها، وينتقل بعدها للحديث عن دورهم في الحياة السياسية كالتأثير على السلطان في الولاية والعزل، أو التدخل للصلح بين السلطان الصغير وكبار الأمراء، أما الدور الاجتماعي فقد تمثل في بناء المنشآت الخيرية كالمساجد والأسبلة ونحوها.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٣ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
قلعة الجبل، الجواري، الطواشية، الخوندات، المرأة المملوكية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد جمال حامد الشوربجي. "الحريم السلطاني ودوره في العصر المملوكي (٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٤٥ – ٦٠.

مُقَدِّمَة
إن الحديث عن الحريم السلطاني ودوره في العصر المملوكي حديث شائق وشاق لما يكتنفه من الغموض حول الحياة الخاصة لهؤلاء الحريم، فالحديث عن الحياة الخاصة للمرأة العادية في ذلك العصر كان شيئًا شائنًا وغير مقبول في المجتمع المصري آنذاك، وإذا كان هذا هو حال المرأة العادية فما بالنا بسيدات القصر السلطاني، ويهدف هذا البحث إلى الحديث بصورة متعمقة عن دُورُ الحريم السلطاني من حيث تقسيماتها وتجهيزها الداخلي من أواني وبسط ونحوها وأشهر من سكن بها، والخدمة بهذه الدُورُ، كما يهدف أيضًا إلى رصد أسماء زوجات السلاطين وجواريه الذي يمكن من خلاله معرفة الجنسيات التي تزوج بها السلاطين، ومدى شغف السلاطين بالنساء ونحو ذلك، هذا علاوة على إلقاء الضوء على حياتهم الخاصة في الأفراح والأحزان، ومدى تدينهم وانتشار الأمراض الخلقية بينهم، كما يهدف أيضًا إلى دراسة مصادر الثروة عند الحريم السلطاني وموقف السلاطين منها إلى غير ذلك.

وقد تحدث الدكتور عبد المنعم ماجد عن الحريم السلطاني في كتابه "نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر" بإيجاز نظرًا لقلة المعلومات وبخاصةً أن الكثير من مصادر العصر المملوكي كانت

مخطوطة آنذاك، كما أشار الدكتور أحمد عبد الرازق في كتابه "المرأة في مصر المملوكية" عدة إشارات متناثرة عن هؤلاء الحريم، كما أفادتنا مجلتنا الغراء "كان التاريخية" بمعلومات عن دراستين مهمتين هما "خوندات العصر المملوكي" للدكتورة نهلة أنيس الذي نشر بدار الكتاب الجامعي بالقاهرة ٢٠٠٣، وبحث للدكتور سيد عبد العال محمود بعنوان "دور خوندات سلاطين المماليك في الحياتين السياسية والاجتماعية"، وهو بحث قدم لمؤتمر تاريخ الوطن العربي عبر العصور: "المرأة العربية عبر عصور التاريخ"، ديسمبر٢٠١١، وقد حاولت جاهدًا أن أطلع عليهما لكن لم أوفق في ذلك.

أولاً: قاعات الحريم

كانت العادة أن الخوند لا يطلق عليها هذا الاسم إلا إذا كانت زوجة للسلطان، وعددهن أربعة لكل واحدة منهن أبهة عظيمة في المسكن والملبس، وكان لكل خوند من هؤلاء قاعة مخصصة لها، فالقاعة الكبرى التي تعرف بقاعة العواميد كانت مخصصة للخوند الكبرى التي كان يطلق عليها سيدة القاعة مثل خوند طغاي (ت.٧٤٩هـ/١٣٤٨م) زوجة الناصر محمد بن قلاوون[١]، وخوند أدر زوجة الظاهر برقوق[٢]، وقد جددت هذه القاعة في عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)[٣]، وفي عهد السلطان الغوري سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م)[٤]، وكان بها مرتبة تجلس عليها الخوند أنشأتها شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وإليها تنسب[٥].

أما قاعة رمضان فكانت مخصصة للخوند الثانية مثل خوند خديجة زوجة المؤيد شيخ[٦]، وقاعة المظفرية مخصصة للخوند الثالثة، وخصصت قاعة المعلقة للخوند الرابعة مثل الخوند سعادات بنت الأمير صرغتمش (ت.٨٣٣هـ/١٤٢٩م)[٧]، هذا بالإضافة إلى قاعة الأشرفية التي أنشأها الأشرف شعبان[٨].

كان لكل خوند من هؤلاء عدد من الجواري يصل أحيانًا إلى ألف جارية[٩] أو يزيد، وعدد من الطواشية يصل في بعض الأحيان إلى ثمانين[١٠]، ومن هؤلاء الطواشية مثقال الساقي (ت.٧٩١هـ/١٣٨٨م) أحد خدام أم السلطان الأشرف شعبان[١١]، والطواشي صندل الهندي أحد طواشية الخوند جلبان زوجة الأشرف برسباي[١٢]، والطواشي جوهر الحبشي الذي كان طواشي خوند قنقباي زوجة السلطان برقوق، وقد ترق حتى تولى زمامية الدور السلطانية بعد عزل فيروز[١٣].

ويبدو أن الخوند الكبرى كان لها استدار لإدارة شئونها الخاصة، فقد ذكر ابن إياس عن الأمير علاء الدين الطيبرسي (ت.٧٨٦هـ/١٣٨٤م) أنه كان استدار الخوند بركة أم الأشرف شعبان[١٤]، كما كان لها دواداره مثل تحفة التي كانت دوادارة خوند أم الناصر محمد بن قايتباي[١٥].

وهذه القاعات كانت تحوي الكثير من الملابس وأدوات الزينة بالإضافة إلى أواني الذهب والفضة والبشاخين المزركشة، والتخوت المفضضة والمرصعة بالذهب إلى غير ذلك من الأدوات التي كانت تُحضرها الخوند عند زواجها من السلطان[١٦]، هذا بالإضافة إلى المشتروات والهدايا التي كانت تُهدى إليها، ولهذا كثير ما نسمع في تراجم بعض الخوندات المتوفيات بأنهن خلفن كثيرًا من الأدوات والموجودات.

أما السراري أو ما يطلق عليهم أمهات الأولاد فكانوا في عهد المنصور ومن أتى بعده من أبناءه أربعين سرية لكل واحده منهن حشم وخدم وجواري وطواشية، وقد خصصت لهن قاعة البربرية[١٧]، وممن سكن بهذه القاعة الخوند الكبرى مغل بنت القاضي ناصر الدين البارزي (ت.٨٧١هـ/١٤٦٦م) زوجة السلطان جقمق حيث أنزلت من قاعة العواميد إلى هذه القاعة بعد أن غضب عليها وطلقها لاتهامها بأنها قتلت جاريته سورباي بالسم[١٨]، هذا بالإضافة إلى السبع قاعات[١٩]، وممَنْ سكن بها من الخوندات الخوند بنت سودون زوجة السلطان ططر وأم ولده محمد، حيث أسكنها السلطان برسباي هذه القاعة هي وابنها[٢٠].

وخصصت القاعة البيسرية[٢١] لخدمة دور الحريم، وكان بها الكثير من الجواري من مختلف الأجناس، وللكثير منهن وظائف بالدور كمرضعات مثل الست آمنة مرضعة الأشرف شعبان بن حسين[٢٢]، وقد تجلس أحد هذه المرضعات على كرسي السلطنة أثناء المبايعة بالسلطنة وهي ترضع السلطان الصغير كما حدث مع مرضعة السلطان أحمد بن المؤيد شيخ الذي تولى السلطنة وعمره سنة وبضع شهور[٢٣]، بالإضافة إلى البلانات، والدادات[٢٤] التي تقوم بتربية الأولاد ورعايتهم مثل الست حدق الناصرية دادة الناصر حسن بن محمد[٢٥]، والست سر النديم دادة يوسف بن برسباي[٢٦]، وفيها يتم ختان أبناء السلاطين كما فعل مع محمد بن السلطان قايتباي، ويقوم بذلك شخص يسمى المزين[٢٧]، وقد جددت هذه القاعة في عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)[٢٨]، وفي عهد الغوري سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) بالرخام وغيره[٢٩].

ومن أشهر الجواري التي كانت لها دور كبير في إدارة شئون الحريم الست مسكة[٣٠]، والست حدق[٣١] حيث كان يأخذ برأيهما في عمل الأعراس والاحتفالات السلطانية، وترتيب شئون الحريم وتربية الأمراء ونحو ذلك[٣٢]، وبهذه القاعة كان يتم ختان أولاد السلاطين مثل الأمير محمد بن قايتباي الذي أختتن بهذه القاعة في سنة (٨٩٥هـ/١٤٨٩م)، وقد ختن معه عدد من أبناء الأعيان[٣٣]، وأحيانا يقيم بها السلطان أثناء مرضه لوجود الخدمة بها كما حدث مع السلطان خشقدم أثناء مرضه سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)[٣٤]، وقد يتعرض عدد من هؤلاء السراري والجواري للمرض والموت بسبب الطاعون كما حدث في سنة (٨٤١هـ/١٤٣٧م)، حيث مات من الجواري الذين هم برسم الخدمة نحو مائة وستون جارية، بالإضافة إلى وفاة سبعة من السراري[٣٥].

وكان لهذه الدور زمام[٣٦] من الطواشية يشرف عليها، ويعين من أمراء الطبلخانة، وكان أي تهاون منه في شئون الحريم يعرضه للعزل كما فُعل مع فيروز الزمام الذي عُزل من منصبه بسبب هروب العزيز يوسف بن الأشرف برسباي من دور الحريم، وعين السلطان جقمق مكانة الطواشي جوهر القنقبائي نسبة للخوند قنقباي زوجة السلطان برقوق[٣٧]، ويبدو أن الزمام كان دائم الخدمة للحريم السلطاني في المقام والترحال، ففي أثناء عودة الظاهر برقوق إلى مصر سنة (٧٩٤هـ/١٣٩٢م) قدم معه الأمير بهادر الزمام وبصحبته الحريم السلطاني.[٣٨]

ويساعده في عمله عدد من الطواشية مقسمين على عدة وظائف فمنهم قسم خدام على باب ستارة الحريم كالبوابين والسقائين مثل الأمير بن قانصوه ساقي خوند السلطان الغوري[٣٩]، والحوائج كاشية لقضاء حوائج الحريم[٤٠]، وفي بعض الأحيان كان يموت الكثير منهم بسبب الطاعون كما حدث في سنة (٨٤١هـ/١٤٣٧م)[٤١]، وسنة (٨٨١هـ/١٤٧٦م) حتى أن السلطان حمل بطيخة صيفي وأدخلها بنفسه إلى الحريم لقلة هؤلاء الخدام[٤٢]، وكان لهؤلاء الخدام والعبيد والجواري مرتبات يتقاضونها[٤٣]، وفي بعض الأحيان تقطع أو تنتقص من قبل السلاطين كما فعل الناصر حسن بن محمد سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) مبقيًا على رواتب بعض الجواري مثل كيدا واتفاق جاريتا أخيه[٤٤]. وفي دور الحريم كانت هناك نوبة تسمى نوبة خاتون تنسب إلى شجرة الدر تدور في القلعة بعد العشاء بالطبل والخليلية، وقد ألغاها السلطان في ذي القعدة سنة ٨٥٥هـ[٤٥].

وكان يقيم بهذه الدور مع الحريم عدد من أبناء السلاطين المتقدمين وبخاصةً بني قلاوون حتى أمر السلطان برسباي في سنة (٨٣٣هـ/١٣٣٢م) بأن ينزل أولاد السلاطين الذين داخل دور الحريم في القلعة، ويسكنوا مدينة القاهرة، فنزلوا وسكنوا القاهرة حتى وقت كتابة ابن إياس لكتابه.[٤٦]

وهذه الدور كانت تستخدم في بعض الأحيان كمكان للإقامة الجبرية للسلاطين المخلوعين، فقد وضع المنصور محمد لما خلع من السلطنة سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) تحت الإقامة الجبرية ببعض دور الحريم، ووكل به جماعة من الخدام يحفظونه، وكان في مدة سجنه هذا يسلي نفسه بالشراب والغناء، وكان للمنصور محمد جوقة من المُغنيات كاملة تقدر بحوالي عشر جواري، وكانت العادة في ذلك العصر أن لكل سلطان جوقة من المُغنيات للغناء عنده[٤٧].

وحدث الأمر نفسه مع المنصور أمير حاج بن شعبان سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٦م) عندما خلع نفسه من السلطنة للظاهر برقوق، فأدخله إلى أمه بدور الحريم، والتي يبدو أن برقوق كان متزوج بها، ورتب له من المال ما يكفيه، وظل بها حتى مات سنة (٨١٤هـ/١٤١١م)[٤٨]، وفُعل نفس الأمر مع العزيز يوسف بن برسباي لما خلع من السلطنة سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م)، حيث رسم له الإقامة بقاعة البربرية، وسمح له أن تقيم معه دادته سر النديم، وعدة جواري سراري وغير سراري، وكانت تتردد عليه مرضعته، وكان في خدمته أحد طواشية والدته جلبان ويسمى صندل الهندي ليقضي له حاجاته[٤٩].

فلما هرب من القلعة وقبض عليه سُلم للخوند الكبرى مغل بنت القاضي ناصر الدين البارزي (ت.٨٧١هـ/١٤٦٦م) بقاعة العواميد، وأمرها السلطان أن تجعله في المخدع الذي ينام فيه، وأن تتولى أمور من مأكل ومشرب وغيره بنفسها، كما أنها شفعت في الست سر النديم دادة يوسف وبقيت عندها[٥٠]، وهذه الدور كانت تتعرض أحيانًا للسلب والنهب من قبل الجلبان في القلعة كما حدث في سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) مستغلين فترة الاضطرابات التي نتج عنها عزل تمربغا وتولية قايتباي السلطنة[٥١].

ثانيًا: أسماء الخوندات والجواري البارزات

ذكرت لنا المصادر التاريخية عدد من الخوندات والسراري والجواري يمكن إحصائهم على الوجه التالي:

الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٥٩- ١٢٧٧م):

تزوج الخوند بنت سيف الدين نوكاي التتري، والخوند بنت الأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمي وهي أم السلطان السعيد بركة خان، وخوند بنت الأمير سيف الدين دماجي التتري، وخوند بنت سيف الدين نوكاي التتري، هذا بالإضافة إلى السراري وعلى رأسهم أم الأمير نجم الدين خضر[٥٢].

المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م):

تزوج من الخوند ابنة سيف الدين كرمون التتري الوافدي في سنة٦٦٤هـ/١٢٦٥م، وأنجب منها ولده الأمير علاء الدين علي[٥٣]، كما تزوج من الخوند بنت سكتاي بنت قراجين بن جيغان نوين[٥٤] في سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وأنجب منها ولده محمد[٥٥].

الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م):

تزوج من الخوند ابنة سيف الدين نوكيه سنة٦٨٢هـ/١٢٨٣م.[٥٦]

الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤٠م):

شغف الناصر محمد بحب الجواري، فكتب إلى الأعمال بحمل الجواري المولدات إليه، واقتنى الناصر الكثير منهن فتسرى ببعضهن وأصبحن أمهات أولاد مثل أردو التركية التي أنجب منها كجك[٥٧]، وبياض التي كانت تشتهر بقومة أو قونية وكانت مشهور بالغناء، فلما سمع بها طلبها وحظيت عنده وأنجب منها ولده أحمد[٥٨]، ومن محظياته أيضًا جارية تسمى "دُنيا" كانت قد أنجبت ولدًا سُمي "محمد". وادعت أنه من الناصر لكن أخوته لم يكونوا يعترفون به كأخ لهم، ولهذا أطلق عليه محمد بن دنيا[٥٩]، ومن أمة تسمى كدا أنجب ولده حسن[٦٠].

كما تزوج بعدد من الزوجات من مختلف الأجناس، فتزوج من الأميرة التترية طولو ابنة طغاي بن بكر بن دوشي خان بن جنكيز خان[٦١] ثم طلقها بعد فترة[٦٢]، وتزوج من خوند أردكين بنت نوكاي امرأة أخيه الأشرف خليل، وأنجب منها ولد سماه المنصور علي[٦٣]،

ويبدو أنه طلقها سنة (٧١٩هـ/١٣١٩م) حيث أمر بأن تنزل من القلعة إلى القاهرة لتعيش بها[٦٤].

أضف إلى هذا؛ زواجه من الخوند قطلوملك بنت الأمير تنكز نائب الشام، التي أنجب منها السلطان الصالح صالح، والكامل شعبان[٦٥]، هذا بالإضافة إلى زواجه من الخوند الكبرى طغاي أم آنوك (ت.٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[٦٦] وكانت من جملة جواريه فأعتقها وتزوجها وأصبحت خوند الكبرى وأكبر نسائه حتى من بنت الأمير تنكز نائب الشام، وكانت من أعظم نساء عصرها[٦٧]، ومات الناصر محمد عن ما يزيد عن ألف ومائتي وصيفة ومولدة[٦٨].

الصالح إسماعيل بن محمد (٧٤٣-٧٤٦هـ/ ١٣٤٢-١٣٤٥م):

تزوج الصالح إسماعيل ابنة الأمير بكتمر الساقي التي كانت زوجة لأخيه أنوك ثم من بعده لأخيه المنصور أبو بكر فلما قتل تزوجها إسماعيل هذا وظلت معه حتى مات[٦٩]، ولما عمر الصالح إسماعيل الدهيشة في القلعة سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) جلس فيها وبين يديه جواريه وخدمه وحرمه[٧٠]، وفي سنة (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) تزوج الصالح الخوند بنت طقزدمر نائب الشام[٧١]، وكان الصالح يهوى الجواري السود، فكانت له جارية تسمى اتفاق العوادة سوداء شديدة السواد أفرط في حبها[٧٢].

الكامل شعبان بن محمد (٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م):

تزوج الكامل ابنة الأمير بكتمر الساقي التي كانت زوجة لأخيه إسماعيل بعد أن طلق أختها التي كانت تحته وعقد عليها ودخل بها[٧٣]، وقد أنجبن له ولد ذكر في سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م)[٧٤]، وفي سنة (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) زوج الكامل بعض الطواشية لبعض سراريه، وعمل له السلطان احتفالاً حضره جميع جواري السلطان، ونثر السلطان الذهب على عروس الطواشي، فكانت هذه الحادثة من أشنع ما يكون في حق مقام السلطان، وقد استاء سائر أعيان الدولة من ذلك[٧٥].

كما كان لأخيه الصالح كانت له جارية تسمى اتفاق كان قد شغف بها أثناء حياة أخيه فلما مات أخذها، فحظيت عنده وأنجبت له ولد سمي شاهنشاه، ولكنه مات بعد أسبوع من ولادته[٧٦]، وقد أحيط بممتلكاتها بعد تولية المظفر حاجي فكان من من ممتلكاتها أربعين بدلة مرصعة بالجواهر، وستة عشر مقعد زركش، وثمانون مقنعة بقيمة عشرون ألف دينار وغير ذلك، وأنزلت من القلعة مع زوجاته، أما جواريه اللاتي بلغن خمسمائة جارية، فقد وزعن على الأمراء[٧٧].

المظفر حاجي بن محمد (٧٤٧-٧٤٨هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م):

تزوج المظفر في شوال سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) ابنة الأمير تنكز زوجة أخيه الكامل[٧٨]، كما طلب في نفس الشهر الجارية اتفاق العوادة إلى القلعة ومعها جواريها، وتزوجها السلطان خفية وعقد له عليها أحد القضاة وبني بها ، وفرش تحت رجلها ستون شقة أطلس، ونثر عليها الذهب، وأنعم عليها بأربعة فصوص من الجواهر وست لؤلؤات ثمنها أربعة آلاف دينار بعد أن ضربت بعودها وغنت له. ثم أمر بإعادة ما أخذ منها من خدامها وجواريها وشغف بها حتى شغلته عن غيرها، وبهذا الزواج أصبحت أحد الخوندات الأربعة[٧٩].

وكان شغفه بالخوند اتفاق، وببعض حظاياه كسلمى والكركية، وتبذيره في الإنفاق عليهن سبب في غضب الأمراء الكبار والمماليك السلطانية، حيث انقطع إليهن بقاعة الدهيشة عن الأمراء وأهمل شئون الدولة، فلما أعلمه بعض الخاصكية بهذا الأمر خاف وأمر في نفس السنة الطواشي مقبل الرومي أن يخرج اتفاق وسلمى والكركية من القلعة بما عليهن من ثياب فقط دون أن يحملن شيئًا معهم، وأن تخلع عصبة الخوند اتفاق عن رأسها ويتركها عنده، وهذه العصبة كان محل اهتمام وتنافس من السلاطين الثلاثة الصالح والكامل والمظفر، وقد بلغت قيمة الجواهر بها زيادة على مائة ألف دينار[٨٠]، وفي شعبان سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أنعم السلطان حاجي على جاريته كيدا بعشرين ألف دينار سوى الجواهر، ونثر الذهب على الخدم والجواري[٨١].

الناصر حسن بن محمد(٧٤٨ - ٧٦٢هـ/١٣٤٧- ١٣٥١م):

لما تولى السلطنة سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أحاط بمال الجارية كيدا وأموال بقية حظايا حاجي، وأنزلهم من القلعة[٨٢]، وكان قد تزوج من خوند طولوبية بنت عبد الله الناصري التترية (ت.٧٦٥هـ/١٣٦٣م) بعد أن أعتقها، وماتت وهي في عصمته[٨٣].

الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٢-١٣٧٦م):

تزوج الأشرف عدد من النساء منهم ابنة عمه السلطان حسن، وهي الخوند الكبرى صاحبة القاعة، وخوند بغار بنت الأمير تنكز، وخوند بنت الأمير طغاي تمر النظامي، وقد أشيع في سنة (٧٧٧هـ/١٣٧٥م) أن قد غضب عليهن وطلقهن في يوم واحد[٨٤]، كما تزوج من الخوند ابنة منكلى بغا الشمسي (ت.٧٧٨هـ/١٣٧٦م)[٨٥]، ومن سراريه بستان التي أعتقها وزوجها للأمير ألجاي- زوج أمه- بعد وفاة أمه[٨٦]، وكان للأشرف عدد من الجواري قام كبار الأمراء بتفريقها على الأمراء بعد قتله سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م)[٨٧].

الظاهر برقوق بن أنص (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م):

تزوج الخوند أرد وكانت تركية وأنجب منها ولده محمد الذي مات في حياة أبوه سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م)[٨٨]، وخوند حاج ملك (ت.٨٣٣هـ/١٤٢٩م) وماتت وهي في عصمته، فتزوجت بعده تغري بردي الأتابكي[٨٩]- والد ابن تغري بردي المؤرخ- ، كما تزوج خوند بركة وأنجب منها إبراهيم، وتزوج أيضًا تندو بنت حسين بن أويس عندما حضرت مع عمها أحمد إلى القاهرة سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م)، وكان مبلغ الصداق ثلاثة آلاف دينار، ثم طلقها ورحلت مع عمها إلى بغداد[٩٠].

كما تزوج من الخوند هاجر بنت الأمير منكلى بغا الشمسي (ت.٨٣٣هـ/١٤٢٩م) في سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)[٩١]، وأنجب منها بنت تسمى بيرم[٩٢]، أضف إلى ذلك زواجه من خوند بنت الأمير منجك اليوسفي سنة (٧٨٦هـ/١٣٨٤م)[٩٣]، وأنجب من خوند قنقباي

(ت.٨٣٥هـ/١٤٣١م) ولده المنصور عبد العزيز، وقد استقرت بعد وفاته بقاعة العواميد لتربية عبد العزيز لأنه لم يكن قد وصل سن البلوغ[٩٤].

كما تزوج من بنت شهاب الدين أحمد الطولوني شاد العمائر السلطانية في سنة (٧٩٤هـ/١٣٩١م)، وأنجب من جاريته شيرين الرومية (ت.٨٠٢هـ/١٣٩٩م) ابنه الناصر فرج[٩٥]، ومن جواريه أيضًا جارية تسمى سمراء زوجها لمحمد بن علي الكيلاني (ت.٨٢١هـ/١٤٠٩م)[٩٦]، وأخرى رومية أنجب منها ولده محمد[٩٧]، وعندما حضرت برقوق الوفاة أوصى لزوجاته وسراريه وخدامه بمائتي وعشرين ألف دينار[٩٨].

الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ/١٣٩٨-١٤١٢م):

لما تسلطن أصبحت أمه شيرين الرومية هي الخوند الكبرى، وسكنت قاعة العواميد بعد أن خرجت منها خوند أرد، فلما توفيت سنة (٨٠٢هـ/١٣٩٩م) أصبحت زوجته الخوند فاطمة بنت تغري بردي الأتابكي-أخت ابن تغري بردي المؤرخ- هي الخوند الكبرى صاحبة قاعة العواميد[٩٩]، كما تزوج من خوند تسمى عاقولة وأنجب منها ولد سماه محمد الذي مات في الإسكندرية سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)[١٠٠]، أما سراريه فقد أنجب من جارية حبشية تسمى ثريا بنته آسية[١٠١]، وأنجب من سرية تركية بنت تسمى زينب.

المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م):

تزوج من الخوند سعادات بنت الأمير صرغتمش (ت.٨٣٣هـ/١٤٢٩م) وأنجب منها أحمد سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) الذي تولى السلطنة بعده[١٠٢]، كما أنجب من سرية له تسمى قطلباي أو طولوباي ابنه موسى(ت.٨٢١هـ/١٤١٨م)[١٠٣]، وأنجب من أخرى حبشية تسمى ثريا ابنه تسمى آسية[١٠٤]، كما تزوج بخوند زينب بنت الظاهر برقوق (ت.٨٢٦هـ/١٤٢٢م).[١٠٥]

الظاهر ططر(٨٢٤هـ/١٤٢١م):

تزوج من الخوند سعادات بنت الأمير صرغتمش (ت.٨٣٣هـ/١٤٢٩م) زوجة السلطان المؤيد شيخ ثم طلقها بعد تولي السلطنة[١٠٦]، كما تزوج خوند فرج بنت الأمير سودون الفقيه (ت.٨٧١هـ/١٤٦٦م)، وأنجب منها محمد الذي تولى السلطنة بعد أبيه، ولما مات لم تتزوج بعده[١٠٧].

الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م):

كان لبرسباي جارية تسمى جلبان بنت يشبك الجركسية اشتراها في بداية سلطنته واستولدها العزيز يوسف، فلما ماتت الخوند الكبرى فاطمة بنت قجقا أم ولده محمد سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[١٠٨] تزوجها، وجعلها الخوند الكبرى وأسكنها قاعة العواميد، وتوفيت في عهد برسباي سنة (٨٣٤هـ/١٤٣٠م) بعد عودتها من الحج[١٠٩].

كما تزوج أيضًا من شاه زادة بنت أحد أمراء بني عثمان (ت.٨٥٩هـ/١٤٥٤م)، ومات وهي في عصمته[١١٠]، وتزوج أيضًا من الخوند فاطمة بنت الظاهر ططر(ت.٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، ولما مات السلطان نزلت من القلعة ومعها جهاز بنحو مائة ألف دينار، فسكنت بالقاهرة، وكانت مسرفة في النفقة حتى تراكمت عليها الديون، وماتت ولم تستطع السداد[١١١]، كما تزوج بخوند فاطمة بنت قجقار القردمي(ت.٨٢٧هـ/١٤٢٤م)[١١٢]، وأنجب منها ولده محمد الذي مات في حياة أبيه سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م)[١١٣]، ومن سرارية جارية تسمى ملك باي الجركسية (ت.٨٦٠هـ/١٤٥٦م) أنجب منها أحمد وماتت تحته[١١٤].

الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م):

كان جقمق كثير الزواج، فقد تزوج بالخوند الكبرى مغل بنت القاضي ناصر الدين البارزي (ت.٨٧٦هـ/١٤٧١م) قبل توليه السلطنة سنة (٨٣٠هـ/١٤٢٦م) تقريبًا، وولدت له خديجة وغيرها[١١٥]، وقد ظلت على مكانتها المرموقة حتى اتُهمت بأنها دست السم لإحدى جواري السلطان وتسمى سورباي[١١٦]- كانت لها حظوة كبيرة عنده- مما أدى إلى وفاتها سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، فهجرها السلطان ثم طلقها في نفس السنة، فنزلت من القلعة وسكنت عند ابنتها[١١٧]، وبعد طلاق خوند مغل أصبحت زوجته خوند زينب بنت الأمير جرباش قاشق (ت.٨٦٤هـ/١٤٥٩م) هي الخوند الكبرى وسكنت قاعة العواميد[١١٨].

كما تزوج جقمق خوند شاه زادة بنت السلطان ابن عثمان بعد وفاة برسباي وأنجب منها ولد يسمى أحمد (ت.٨٥٣هـ/١٤٤٩م)[١١٩]، ثم طلقها سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م)[١٢٠]، وتزوج نفيسة بنت ناصر الدين بن دلغادر التي توفيت بالطاعون سنة (٨٥٣هـ/١٤٤٩م)[١٢١]، فلما ماتت تزوج من الخوند جان سوار بنت كرتباي الجركسية سنة (٨٥٣هـ/١٤٤٩م)[١٢٢]، وأنجب من الخوند قراجا بنت الأمير أرغون شاه ولده الأمير محمد الذي توفي في حياة أبيه سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م)[١٢٣]، كما تزوج من ابنة القاضي عبد الباسط ناظر الجيش (ت.٨٥٤هـ/١٤٥٠م) في ربيع الأول سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م)[١٢٤]، وأنجب من زهراء التركية ولده المنصور عثمان[١٢٥]، ومن سرارية دولات باي التي زوجها لبرقوق نائب الشام، وأنجب من إحدى سراريه بنت تسمى فاطمة، ومن أخرى تركية بنت سميت أيضًا فاطمة[١٢٦]، ومات جقمق عن أربع زوجات هم: خوند زينب بنت جرباش قاشق، وخوند ابنة عثمان، وخوند الجركسية، وخوند بنت القاضي عبد الباسط[١٢٧].

الأشرف إينال (٨٥٨-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦٠م):

تزوج من الخوند الكبرى زينب بنت بدر الدين حسن بن خاص بك، وأنجب منها ولده المؤيد أحمد الذي تولى السلطنة، وبنتين هما فاطمة وبدرية، وكان قبل ذلك متزوج من أختها فمات تحته أو طلقها وتزوج هذه الخوند[١٢٨]، ولم يتزوج بغيرها[١٢٩].

الظاهر خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦٠-١٤٦٧م):

تزوج خشقدم بالخوند الكبرى شكرباي الجركسية الأحمدية فقط، والتي كانت في الأصل من سراري الناصر فرج لكنها لم تلد، ثم تزوجت بعده بأحد الأمراء ثم بالأمير خشقدم قبل أن يلي السلطنة،

فلما تسلطن جعلها الخوند الكبرى، ولم يتزوج عليها بل تسرى بعدة سراري صرن أمهات أولاد، وظل يعظمها حتى ماتت عن عمر ثمانين سنة تقريبًا(١٣٠)، ولما ماتت سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) عقد على جاريته سوارباي الجركسية أم ابنته بعد أن أعتقها، وجعلها الخوند الكبرى صاحبة القاعة(١٣١)، وقد ظلت في القلعة حتى عهد السلطان قايتباي حيث لم يُطلع السلطان يلباي أو السلطان تمربغا أي من زوجاتهم لقصر فترة حكمهما(١٣٢).

الظاهر تمربغا (٨٧٢هـ/١٤٦٧م):

كان متزوج من الخوند خمسمائة(١٣٣).

الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٦م):

تزوج قايتباي الخوند فاطمة بنت علاء الدين علي بن خاص بك، وظلت هي الخوند الكبرى لمدة ثلاثين سنة تقريبًا، وانجب منها ولد اسمه أحمد، وبنت تسمى ست الجراكسة، وكلاهما ماتا في رمضان سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، وقد تزوجت بعده السلطان العادل طومان باي سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، وصعدت إلى القلعة مرة أخرى، وأصبحت الخوند الكبرى(١٣٤)، ولكن ذلك لم يستمر سوى شهور حيث قتل طومان باي وتولى قانصوه الغوري، وقد ماتت عن عمر يناهز الستين سنة(١٣٥)، وأنجب من إحدي سراريه وتسمى أصل باي ابنه محمد(١٣٦).

الناصر محمد بن قايتباي (٩٠١-٩٠٤هـ/١٤٩٦-١٤٩٨م):

تزوج بمصر باي الجركسية زوجة أحد الأمراء رغم معارضة والدته لهذا الزواج، ويبدو أن زواجه منها كان ذا فأل سيئ، فإنه لم يمر على زواجه بها سوى أقل من شهر حتى قتل(١٣٧)، فتزوجها خاله السلطان قانصوة الأشرفي سنة (٩٠٥هـ/١٤٩٩م) الذي لم يلبث أن خلع من السلطنة(١٣٨).

الأشرف جانبلاط (٩٠٥-٩٠٦هـ/١٤٩٩-١٥٠٠م):

تزوج بسرية السلطان قايتباي خوند أصل باي(١٣٩)، وعندما تولى السلطنة أصبحت أحد الخوندات، فلما خرجت للحج أمر السلطان أن تبقى هناك إلى أن ماتت بمكة سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م)(١٤٠).

الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٦م):

كان متزوج من خوند جان كلدي(١٤١)، وجان سكر الجركسية (ت.٩٢٢هـ/١٥١٦م) وهي أم ولده الذي مات سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م)، (١٤٢) وخوند الكبرى بنت الأمير أقبردي الدوادار(١٤٣)، ويبدو أنه تزوجها بعد وفاة الخوند جان سكر، والتي يُعتقد أنها كانت هي الخوند الكبرى.

طومان باي الثاني (٩٢٢ - ٩٢٣هـ/ ١٥١٦ – ١٥١٧م):

لما تولى السلطنة طلعت زوجته خوند ابنة آقبردي الدودار في ١٤ شوال سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) إلى القلعة في موكب حافل حتى دخلت قاعة العواميد، وحملت على رأسها القبة والطير حتى جلست على مرتبتها في القاعة المذكورة(١٤٤)، وكان له عدد من السراري منها جارية تسمى نال باي (ت.٩٢٤هـ/١٥١٨م)(١٤٥).

ثالثا: بعض مظاهر الحياة الاجتماعية عند الحريم السلطاني

٣/١- التدين:

على الرغم من الثراء الذي تمتع به الحريم إلا أننا كثيرًا ما نسمع عما كانوا عليه من البر والتقوى، فقد وصفت مثلاً الخوند مغل البارزية زوجة الظاهر جقمق بأنها "كانت من خير نساء عصرها دينًا وأمانة ومحبة للصالحين والفقراء، كثيرة البر والمعروف والصدقات..." (١٤٦)، وهذا بالطبع يرجع إلى أن الكثير من هؤلاء الخوندات لم يكونوا من الجواري وإنما كان عدد منهم من بنات القضاة ورجال الإدارة، وبنات سلاطين الدول الأخرى، ونظرًا لمكانة أبائهم فقد نالوا قسطًا من التعليم، ولما كان التعليم الديني هو السمة العامة للتعليم في هذه الفترة، فقد تعلموا القرآن وبعض مبادئ الدين مما كان له تأثير في حياتهن ظهر في أعمال البر والتقوى، ولكن هذا لا يعني أن كل الخوندات من طائفة الجواري لم يكن يتصفن بالخير، بل على العكس من ذلك نجد أن أكثر الأمثلة التي ذكرتها المصادر التاريخية في جانب البر والخير كانت للخوندات من طائفة الجواري، زد على ذلك أنه قد ذُكر عدة أمثلة للجواري الخادمات في هذا الباب.

فقد انخرطت الخوند الكبرى شكرباي الجركسية في طريق التصوف، وأصبحت من أتباع الطريقة الأحمدية، واعتادت أن تسافر للزيارة ضريح السيد أحمد البدوي كل سنة في محفة وحولها الطواشية والأعيان من الناس(١٤٧). كما أنها أحيت احتفال خاص بها بالمولد النبوي يقام بعد أن ينتهي المولد السلطاني في القلعة كما حدث في سنة (٨٦٧هـ/١٤٦٢م)،(١٤٨) وقد استمر إقامة هذا المولد كل عام حتى وفاتها، ووصفت خوند جان سكر الجركسية مستولدة الغوري (ت.٩٢٢هـ/١٥١٦م) بأنها كانت دينة خيرة قليلة الأذى(١٤٩).

كما اعتاد الحريم وبخاصة الخوندات الخروج لأداء فريضة الحج بين الحين والآخر في محفات تدخلها من باب الستارة، وتظل فيها حتى تعود من سفرها فتخرج منها عند نفس الباب(١٥٠)، وأحيانًا كان يتم المغالاة في صنعها كما فُعل مع خوند زوجة السلطان الغوري(١٥١)، وتحاط بمظاهر الرعاية والحماية في الذهاب والإياب، وهناك في الحج كن يتصدقن بالكثير من الأموال على أهل الحرمين، والأمثلة على هذا كثيرة ففي سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) خرج الأمير أنس بن السلطان كتبغا حاجًا بوالدته وأكثر حريم السلطان، وحصل بهم رفق لأهل مكة والمدينة نتيجة للبذل والإنفاق(١٥٢). وحجت خوند بركة والدة الأشرف شعبان في سلطنته سنة (٧٦٩هـ/١٣٦٧م) في فخامة وعظمة كبيرة(١٥٣).

كما حجت الخوند جلبان زوجة برسباي سنة (٨٣٥هـ/١٤٣١م)(١٥٤)، وأنفقت الكثير من الأموال على الحجاج وبلاد الحرمين وصنعت الكثير من المعروف والبر هناك(١٥٥)، وبعدها حجت الخوند فاطمة زوجة برسباي سنة (٨٣٨هـ/١٤٣٤م)(١٥٦)، وحجت كذلك الخوند الكبرى زينب بنت الأمير جرباش زوجة السلطان

جقمق (ت.٨٦٤هـ/١٤٥٩م) مع والدها سنة (٨٤٣هـ/١٤٣٩م)[١٥٧]، بالإضافة إلى الخوند مغل زوجة السلطان جقمق التي حجت مرارًا منها سنة (٨٥٠هـ/١٤٤٦م) مع أخوها كمال الدين في الركب الأول، وحجت معها الخوند نفيسة،[١٥٨] وأخرها سنة (٨٧١هـ/١٤٦٦م)، وتصدقت في الحرمين بثلاثة آلاف دينار[١٥٩]، وقس على هذا[١٦٠].

وهذه الرحلة كانت لها خصوصيتها في الذهاب والعودة، ففي الذهاب وُصف خروج الخوند جلبان زوجة برسباي للحج سنة (٨٣٤هـ/١٤٣٠م) بأنه "كان يومًا مشهودًا خرجت فيه بتجمل زائد"[١٦١]، وعدّ يوم خروج الخوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م) بأنه كان يومًا مشهودًا، حيث خرجت في محفة زركش مرصعة بالجواهر وبصحبتها أخت السلطان وحولها كبار رجال الدولة[١٦٢]، وفي عودتهن كانت تقام الولائم والاحتفالات ويستقبلهن الأمراء وأحيانًا السلاطين، ففي عودة خوند بركة أم الأشرف شعبان من الحج سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م) خرج السلطان لاستقبالها، وصعدت القلعة في حفلاً مشهود تحت إيقاع المغاني ومدت الأسمطة احتفالاً بوصول الخوند سالمة من الحج[١٦٣]، وذلك لأنها أحيانًا تموت في الطريق كخوند زوجة برسباي التي مات في طريق الحجاز وكانت حامل[١٦٤]، فكانت المصيبة على السلطان كبيرة.

وفي عودة الخوند زينب زوجة السلطان أينال سنة (٨٦٢هـ/١٤٥٧م) أقيمت الاحتفالات في القلعة، واستقبلها الأمراء، ولما صعدت القلعة رفع الأمير فيروز الزمام على رأسها القبة والطير، وفرشت لها شقق الحرير من باب الستارة حتى دخلت قاعة العواميد، وقدمت لها الهدايا فكان منها قندورة مرصعة بالذهب واللؤلؤ والريش تقدر قيمتها بحوالي اثني عشر ألف دينار[١٦٥]، وحدث نفس الأمر للخوند زوجة السلطان قايتباي سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م) أثناء عودتها من الحج، وقدمت إليها الكثير من الهدايا[١٦٦]، وهذه الهدايا كانت تمثل أحد مصادر الثروة عند الحريم السلطاني.

٢/٣- الأفراح:

شهدت القلعة الكثير من الاحتفالات لأسباب متعددة، وقد شاركت فيها الحريم بمزيد من الحضور كاحتفالات الزواج مثل احتفال زواج المنصور قلاوون من الخوند بنت سكتاي بنت قراجين بن جيغان نوين[١٦٧] في سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) والذي ظل في القلعة سبعة أيام، وأنفق على هذا الاحتفال حوالي عشرة آلاف دينار[١٦٨]، وزواج السلطان المظفر حاجي من الخوند بنت الأمير تنكز زوجة أخيه الكامل سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م)، حيث أقام لها حفل زواج لمدة سبعة أيام في القلعة أنفق فيه الكثير من المال[١٦٩].

وفي احتفالات الزواج هذه كانت تصعد الخوند ومعها جهازها الذي كان كثيرًا ما يغالى فيه، فقد قدر مثلاً جهاز الخوند بنت الأمير منجك اليوسفي زوجة الظاهر جقمق بمائة ألف مثقال ذهب، وحمله ثلاثمائة حمال وسبعون بغلاً، وسار أمامه الأمراء حتى صعد إلى القلعة وقس على هذا بقية الخوندات[١٧٠]، ولم تقتصر الأفراح في القلعة على زواج السلاطين بالخوندات بل شمل أيضًا زواج بنات السلطان بالأمراء، فقد أقيم احتفال كبير استمر ثلاث أيام في القلعة في زواج فاطمة بنت السلطان جقمق على الأمير يونس البواب أمير دوادار كبير سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م).[١٧١]

كما شمل الاحتفال بالإنجاب كما حدث عندما ولد للسلطان الكامل شعبان ولد من جاريته اتفاق العوادة سنة (٧٤٧هـ) سماه شاهنشاه، وأقام له احتفال لمدة أسبوع[١٧٢]، وفي سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م) ولد للسلطان الأشرف شعبان ولد من أحد نسائه، فدقت البشائر في القلعة وأقيمت الاحتفالات في القلعة سبعة أيام، وسمى هذا الولد رمضان[١٧٣]، وفي سنة (٨٢٢هـ) ولد للمؤيد شيخ ولد من زوجته خوند سعادات، فسماه أحمد وعمل له عقيقة كبيرة في القلعة[١٧٤]، وفي اليوم السابع من ميلاد أحمد بن السلطان قانصوة الأشرفي اجتمعت سائر الخوندات وسائر نساء الأعيان في القلعة، وحمل الزمام جوهر المعيني القبة والطير على رأس خوند جان كلدي، وفرشت لها الشقق الحرير، ونثر على رأسها خفائف الذهب والفضة، وكان يومًا مشهودًا[١٧٥].

وكان من المعتاد أنه حين تحين ولادة أحدى نساء السلطان كانت تجهز لها التجهيزات من مكان الولاة ومكان وضع المولود، فقد عمل للخوند قطلوملك بنت الأمير تنكز زوجة الناصر محمد بشخانة، ودابر بيت، وغشاء مهد الولد عند ولادتها ابنه صالح سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٨م)[١٧٦]، وعمل لأحد جواري السلطان شعبان وتسمى اتفاق العوادة قبل ولادتها بقليل في سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) الأمر نفسه.[١٧٧]

وقد يكون الاحتفال بسبب الشفاء من المرض كما حدث في سنة (٨٥٩هـ/١٤٥٤م) عندما شفيت الخوند زينب زوجة السلطان أينال، وكانت قد نزلت إلى بولاق أثناء مرضها لتنشط جسمها بهواء البحر، فكان ليوم شفائها احتفالا كبيرًا في القلعة، والتفت حولها الخوندات والجواري يهنئونها بالعافية[١٧٨]، وعندما خرج السلطان قايتباي للصلاة في جامع القلعة بعد أن تمرض أيامًا بسبب كسر في رجله التف حوله الخدام بالبخور والزعفران، وتلقته النساء بالغناء من باب الجامع حتى دخل للحريم، وعم الفرح والسرور داخل دور الحريم، ووصف بأنه "كان يومًا مشهودا"[١٧٩].

وفي مثل هذه الحالات كانت الخوند توزع الأموال والخلع على الكثير من الأمراء والخدام ونحوهم كما فعلت خوند السلطان قايتباي عند برئ السلطان من مرضه في شهر ربيع الأخر سنة (٨٩١هـ/١٤٨٦م)[١٨٠]، وكذا خوند السلطان الغوري في سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م)[١٨١]، وبالطبع كانت تشارك في هذه الاحتفالات جوق المغاني الموجودة بدور الحريم، وقد تتكون الجوقة الواحدة من عشر جوار أو نحو ذلك[١٨٢].

٣/٣- الترفيه:

شارك الحريم السلاطين في الخروج للتنزه، فكان السلطان يأمر بإحضار الحريم السلطاني إليه، لكي يرفهن عن أنفسهن، وهذا من باب البر، وزيادة في البر كان يأمر بإحضار حريم الأمراء معهن ليتسامرن طول الطريق، ويتشاركن التنزه والتمتع بالحدائق الغناء، كما حدث في سنة (٧٢٣هـ/١٣٢٣م) عندما أرسل الناصر محمد بن قلاوون إلى القلعة لإحضار الحريم السلطاني إليه، ومعهم الأمراء وحريمهم، فأقاموا هناك مدة، ثم عادوا بعد خمسة عشر يومًا[١٨٣]، ولما توجه الكامل لسرحة سرياقوس سنة (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) أخذ معه حريمه فنصب لهم أحسن الخيم في البساتين[١٨٤]، وكذا فعل الظاهر برقوق سنة (٧٨٥هـ/١٣٨٣م)[١٨٥]، وكان الحريم إذا خرج يخرج في محفات(هودج) قد غشيت بالحرير الملون ما عدا محفة الخوند الكبرى فإنها تغطى بالزركش كما فُعل مع الخوند الكبرى طغاي أم آنوك [١٨٦]، وفاطمة بنت تغري بردي[١٨٧]، وكان لكل واحدة منهن طواشي يتولى مسك المحفة ويطلق عليه اسم المحفدار[١٨٨].

وهذا الحريم كان يخرج في بعض الأحيان بأمر السلطان دون صحبته ويصطحبهم عدد من الأمراء لحمايتهم وتقديم الخدمة لهم، كما حدث في شوال (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) عندما ركب الحريم السلطاني إلى الجيزية للتنزه، وصحبهم أحد الأمراء، فأقام بهم حتى خرج محمل الحاج ثم عاد بهم[١٨٩]، وهذا الحريم كان كثيرًا ما يخرج أيام السلطان الصالح الذي انشغل بالنساء واللهو عن الحكم، فكان إذا خرج إلى سرحة الأهرام ركبت معه أمه ومعها الكثير من النساء بالثياب الفاخرة، ومعهن الخدم، ثم فيركبن الخيول ويتسابقن ويلعبن الكرة.[١٩٠]

٤/٣- الحزن:

لم تختلف مشاعر الحزن والأسى عند الحريم السلطاني عن نساء العامة، بل كن أكثر حرية في إظهار ذلك على عكس نساء العامة اللاتي كان يضبطهن المحتسب عند المخالفة، أما هم فلم يكن للمحتسب عليهن سلطان تاركًا لهم الحرية ليفعلن ما أردن من مخالفات، فقد شرع الإسلام لأصحاب الميت الحزن والبكاء عليه دون القيام بأعمال الجاهلية من لطم الخدود وشق الجيوب والنياحة ونحوها[١٩١]، ولم يكن الحريم يلتزمن في كثير من الأحيان بضوابط الشرع، ففي وفاة الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) خرجت الخوندات حاسرات ومعهن جواريهن يلطمن بالدفوف عدة أيام[١٩٢]، وفي وفاة الأشرف خليل بن قلاوون سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) جمعت زوجته نائحات كثر لتنوح على السلطان، وذهبت بهم إلى تربته حيث قامت كل واحدة منهن تنوح بقول مختلف من كلام النساء في مثل هذا المقام.

وقد أقمن على هذا ست ليال كل ليلة من العشاء للسحر، وقد التزمت زوجة الأشرف ألا تترك ما هي عليه من الحزن حتى ترى قاتل الأشرف ومن عاونه مسمرًا مشهورًا، وبالفعل قبض على الأمير بيدرا قاتل السلطان وقتل[١٩٣]، ولما انتشر خبر وفاة السلطان الصالح إسماعيل سنة (٧٤٦هـ/١٣٤٦م) قامت نسائه وجواريه ينوحن عليه ويلطمن[١٩٤]، وعندما توفي الأمير طاراباي الشريفي سنة (٩١٧هـ/١٥١٣م) قامت زوجته تنوح عليه بالدفوف والطارات[١٩٥]، وهناك العديد من الأمثلة أعرضنا عنها لعدم الإطالة[١٩٦].

ويشتد الحزن على الأهل إذا كان المفقود أحد الأبناء فقد حزن السلطان خشقدم وزوجته شكرباي حزنًا شديدًا لما ماتت فرج ابنته في سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) حتى أنه أبطل الخدمة في يوم الاثنين لشدة حزنه عليها وانشغال ذهنه بها، حتى وصف حزنه عليها بأنه ما عهد مثله في الذكور فضلاً عن الإناث، وقد جرى لأمها مثل هذا[١٩٧].

أما الصلاة على الحريم فكانت تتم في داخل القلعة عند طبقة الزمام قرب باب الستارة، وهذا المكان كان في الغالب مخصص فقط للصلاة على النساء، فقد صلى على الخوند الكبرى فاطمة زوجة السلطان برسباي سنة (٨٢٧هـ) أمام الستارة بحضرة الخليفة والسلطان وتقدم في الصلاة عليها القاضي الشافعي[١٩٨]، وفي وفاة فرج بنت السلطان خشقدم سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) أخرجت جنازتها من دور الحريم وصُلي عليها تحت الزمام تجاه باب الستارة، وتقدم في الصلاة عليها الخليفة المستنجد بالله يوسف[١٩٩]، كما شهد هذا المكان الصلاة على الخوند شكرباي الأحمدية زوجة السلطان خشقدم في سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م).[٢٠٠]

وعند خروج الجنازة اعتادت الحريم أن يقدمن ما يسمي بالكفارة وتحوي الخبز والتمر ونحوه، وتحمل في أوعية يسعى بها الساعون أمام الجنازة لتفريقها، ووقت التوزيع يشتد الزحام وتنهبها العامة، وقد حدث هذا في جنازة الخوند بركة أم الأشرف خليل بن قلاوون سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)،[٢٠١] وفي جنازة خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م)[٢٠٢]. كما كانوا كثيرًا ما يتبعون الجنائز رغم مخالفة ذلك للشرع والعرف[٢٠٣]، ففي جنازة الظاهر برقوق سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م) سارت في جنازته الجواري والنساء من حرمه وحرم مماليكه وحاشيته وهن مكشوفات الرأس يصيحون ويصرخون بالبكاء والعويل[٢٠٤]، وفي جنازة فرج بنت السلطان خشقدم سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) خرجت أمها من شدة حزنها عليها ونزلت إلى قبرها، رغم مخالفة ذلك لعادة الخوندات.[٢٠٥]

وفي بعض الأحيان تتخذ جنازة أحد الخوندات شكلاً غير مألوف عما هو متبع في طائفتها مثل جنازة الخوند شكرباي الناصرية زوجة الظاهر خشقدم التي كانت تتبع الطريقة الأحمدية، والتي حمل نعشها وهو مغطى ببرقعة أحمدية، ولم يرفع على نعشها البشخانة[٢٠٦] بالرماح على ما جرت به العادة في جنائز أمثالها، وسار أمام نعشها الأعلام الحمر الأحمدية، وكان ذلك بوصية منها[٢٠٧]، وإذا كانت هذه الحالة مخالفة للأصل فإن العادة جرت كما ذكرنا أن يرفع على نعش الخوندات البشخانة بالرماح كما حدث مع الخوند مغل زوجة السلطان جقمق سنة

(٨٧٦هـ/١٤٧١م)،[٢٠٨] وخوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي (ت.٩٠٩هـ/١٥٠٣م)[٢٠٩] وغيرها[٢١٠].

وكان من عوائد السلاطين ورجال الدولة والقضاة ومن على شاكلتهم أن يسيرون أمام الجنازة كما حدث مثلاً في جنازة خوند شيرين زوجة الظاهر برقوق سنة (٨٠٢هـ/١٣٩٩م) فبعد أن تم الصلاة عليها في القلعة سار الأمراء أمام نعشها حتى دفنت بالمدرسة البرقوقية بين القصرين[٢١١]، وحدث نفس الأمر في جنازة خوند جلبان زوجة برسباي سنة (٨٣٨هـ/١٤٣٤م)،[٢١٢] وفي جنازة خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) حيث سار أمام نعشها السلطان والقضاة الأربعة وكبار الأمراء[٢١٣]، وبما أنها رسمية فقد وصفت بأنها حافلة[٢١٤]، وفيما يخص الدفن نجد أن بعض الخوندات كن يدفن في منشآت أزواجهن كالمدارس والخانقاوات وغيرها، فقد دفن الأشرف برسباي زوجته خوند فاطمة بنت قجقار بمدرسته الأشرفية[٢١٥]، ودفن الغوري زوجته خوند سكر سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) في مدرسته مع أولادها[٢١٦]، أو تدفن في مقابر خاصة بهم.[٢١٧]

رابعًا: مصادر الثروة والعلاقات الشخصية عند الحريم

كان للخوندات وغيرها من الحريم السلطاني رواتب نقدية، وأخرى عينية كاللحم مثلاً، وهذه الرواتب كانت تقطع عنهم في بعض الأحيان لعجز الدولة عن الوفاء بمتطلبات الجميع، كما حدث في سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) عندما قام السلطان حسن بقطع مرتبات الخدام والعبيد والجواري[٢١٨]، وفي سنة (٩٠٧هـ/١٥٠١م) عندما قطع الغوري راتب اللحم المقرر للخوندات بسبب العجز في اللحوم، واقتصر الأمر على المماليك فقط، حتى جاءت عدة من رؤوس الأغنام من الصعيد فحلت الأزمة، وفي نفس العام قطع رواتب بعض الخوندات للعجز المالي[٢١٩]، كما شكلت الهدايا الضخمة التي كانت تهال على الحريم وعلى رأسهن خوندات السلاطين في مواسم الأفراح كالزواج والولادة والحج مصدرًا من مصادر الثروة عند هؤلاء.[٢٢٠]

ونظرًا لكثرة ثروات الخوندات التي تفيض بها المصادر التاريخية[٢٢١] فقد تعرضت في بعض الأحيان للمصادرة، فقد فرض السلطان خشقدم في سنة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م) على أم المؤيد أحمد مبلغ من المال قدر بخمسين ألف دينار[٢٢٢] فاجتهدت في دفعها له، وقد حدث الأمر نفسه مع خوند أصل باي أم محمد بن قايتباي التي قام السلطان طومان باي الأول بمصادرتها سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) حيث وكل بها عشرة من الخدام وقرر عليها عشرة آلاف دينار، فباعت الكثير من ممتلكاتها لدفع ما قرر عليها.[٢٢٣]

وعن علاقة الخوندات بنساء طبقتها من الخاصة، نجد أنها لم تنفصل عن معارفها وصديقاتها اللاتي كانت تعرفن قبل الزواج بالسلطان وتحولها للخوندية، فقد كانت خوند زينب بنت الأمير جرباش(ت.٨٦٤هـ/١٤٥٩م) زوجة الظاهر جقمق على علاقة طيبة ببعض النساء من بنات الشيوخ والعلماء والأمراء مثل نشوان بنت عبد الله بن محمد العسقلاني الحنبلي(٨٨٠هـ/١٤٧٥م)، وكانت من المحدثات وقد حجت معها أكثر من مرة[٢٢٤]، كما كانت الخوند زينب زوجة الأشرف أينال على علاقة طيبة بالسيدة خديجة بنت أمير حاج البيسري (ت.٨٧٨هـ/١٤٧٣م) زوجة الشيخ علم الدين البلقيني[٢٢٥].

خامسًا: الأمراض الاجتماعية بين الحريم

ومن الأمراض الاجتماعية التي انتشرت وسط الحريم السلطاني الإيمان بالسحر وتأثيره، فلا تكاد تمرض إحداهن أو تموت، أو يحدث لها أي مكروه حتى يشاع أن هذا من جراء سحر عمل لها، ويبدأ التفتيش عن الفاعل، وغالبًا ما تتهم هذه الخوند أحدى الخوندات الأخرى أو جواريها، وقد يتهم في ذلك بعض الأبرياء ويعاقبن، ففي سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) حدث للصالح إسماعيل رعشة مستمرة فاتهمت أمه أم السلطان الأشرف كجك خوند أردو بأنها سحرته، وهاجمتها وصادرت ممتلكاتها وربت عدة من جواريها ليعترفن عليها، وفي أثناء ذلك برئ السلطان من مرضه، ليظهر أن هذا لم يكن سحرًا، وأن الخوند أردو ومن معها ظلمن في هذا الأمر[٢٢٦].

وفي سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م) أمر السلطان شعبان بأن يسمر أحد النصارى بعد أن اتهم بأنه سحر زوجته الخوند بنت الأمير طاز وكان ذلك سببًا في وفاتها[٢٢٧]، وحدث نفس الأمر لما مرضت الخوند الكبرى شيرين الرومية ولزمت الفراش سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م)، فأشيع بأنها مسحورة واتُهمت أحدى الجواري بذلك فضربت فاتهمت كاتب نصراني فعوقب ولم يعترف بشيء، فحبس حتى مات هو والجارية[٢٢٨].

أضف إلى ذلك السرقة سواء للأموال أو الجواهر والأشياء الثمينة من ذلك قيام بعض جواري السلطان خشقدم - الموجودين بالدور لتربية أبناء الظاهر خشقدم- بسرقة مبلغ من المال يقدر بعشرين ألف دينار من خزانة السلطان قايتباي، وقدر كشف الأمر وعوقبت الجواري[٢٢٩]، واحتجز السلطان الخوند سورباي حتى تم الصلح بينهما[٢٣٠]. أما مسألة الخيانة الزوجية نجد أن مكانه الخوند وهيبتها لم تكن تمنعها أحيانًا من إقامة علاقة غير شرعية في السر مع أحد رجال الدولة، وهذا كان نادر الحدوث لأن الكثير من هؤلاء الخوندات وصفن بالعفة والديانة والحشمة[٢٣١]، وفي مثل هذه الحالة يكون العقاب ضرب العنق، ففي سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) قام السلطان بضرب عنق زوجته الخوند بنت صُرق بعد أن علم بأنها استغلت فترة غياب السلطان ونزلت من القلعة سرًا إلى بيت ابن الطبلاوي فأقامت معه علاقة غير شرعية، ثم أمر السلطان بإحضار ابن الطبلاوي فأراه رأس الخوند فاصفر وجهه فأمر به فضربت عنقه أيضًا، وأمر بالاثنين فدفنا معا في قبر.[٢٣٢]

وكانت الخوندات بعد موت أو عزل أزواجهم السلاطين بعضهم يظللن في القلعة لزواجهن من بعض السلاطين، والبعض يخرجن من القلعة ويسكن أحد البيوت في القاهرة، وبعضهم يتزوجن من بعض الأمراء، بينما يعشن البعض أرامل، وكثير من هؤلاء كن يعاملن بدرجة كبيرة من الاحترام والتقدير سواء في المحيى أو الممات كأنهن ما زلن خوندات داخل القلعة والأمثلة كثيرة منها مثلاً معاملة السلطان خشقدم للخوند مغل زوجة السلطان جقمق لما علم بنبأ موتها نزل فصلي عليها بمصلى سبيل المؤمني، ووضع على نعشها البشخانة على عادة ما يعمل مع الخوندات[٢٣٣].

وفي مقابل ذلك كان يتم صعود أزواج الأمراء الذين تولوا السلطنة وسط مظاهر الاحتفالات، فمثلاً نجد السلطان بعد توليه السلطنة يرسل إلى زوجته خوند مغل لتصعد إلى القلعة سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) فطلعت في موكب حافل يحفها الخدم والجواري[٢٣٤]، وكذلك فعل السلطان قايتباي سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) مع زوجته خوند فاطمة بنت علي بعد توليه السلطنة[٢٣٥].

كما أرسل السلطان جانبلاط في سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) إلى زوجته خوند أصل باي- سرية السلطان قايتباي وأم ولده محمد- بالصعود إلى القلعة، فصعدت في مشهد حافل وحولها الخدام والجواري[٢٣٦]، وعندما تولى الغوري السلطنة في نفس السنة أمر بصعود زوجته إلى القلعة، وفعل لها من مظاهر الاحتفال ما فُعل لخوند أصل باي[٢٣٧]، وفي سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) طلعت زوجته الأخرى خوند بنت الأمير أقبردي الدوادار، واحتفل بصعودها إلى القلعة[٢٣٨].

كما كانت تُعامل بنات السلاطين المتزوجات على أنهم أحد الخوندات، فلا تذكر أحدهن إلا ويسبق اسمهن لقب خوند مثل خوند بدرية بنت أينال زوجة الأمير بردبك أحد أمراء الطبلخانة (٨٦٨هـ/١٤٦٣م)، كما كانوا يشاركن في رحلات الحج[٢٣٩]، والاحتفالات في القلعة ونحوها، وفي الممات كان يُوضع على نعشهن البشخانة كما يفعل مع خوندات السلاطين[٢٤٠].

سادسًا: الدور السياسي والاجتماعي للحريم

١/٦- الدور السياسي:

يبدأ ظهور هذا الدور بعد وفاة الظاهر بيبرس حيث قامت زوجته الخوند بنت الأمير حسام الدين بركة خان بسم الأمير بدر الدين بيليك بعد أن أتم مراسم سلطنة ابنها بركة خان وذلك لخوفها على ابنها منه، وبعد ذلك بقليل قام ابنها بركة خان بالقبض على خاله محمد فسعت عند ابنها حتى أفرجت عنه[٢٤١]، ولكن سياسة السلطان بركة خان تجاه الأمراء تسببت في خروج عدد من أمراء الشام عليه وعلى رأسهم نائب الشام سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، فخرج السلطان بركة ومعه أمه في محفة إلى الشام، وعند وصوله للشام كان الأمراء قد رحلوا إلى المرج، فتوجهت الخوند إليهم واجتمعت بهؤلاء الأمراء في المرج، وكان الغرض هو رأب الصدع والصلح بينهم وبين السلطان، لكن هذه المفاوضات انتهت بالفشل بعد رفض الأمراء للصلح[٢٤٢]، وانتهى الأمر بعزل السلطان وتولية أخيه بدر الدين سلامش سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م).

وفي أثناء الفتنة التي حدثت بين المماليك البرجية والأمير كتبغا سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، وقيام كتبغا بمحاصرة القلعة ومقاتلة المماليك بها، نزلت الخوند أشلون أم الناصر إلى باب السلسلة وتحدثت مع كيبغا في المخرج من هذه الفتنة، وأنه إذا كان غرضه عزل ابنها من السلطنة فليفعل ذلك إذا أراد بشرط أن يرسله إلى مكان آمن يحدده، ولكنه أخبرها أنه يطلب الأمير علم الدين سنجر الشجاعي الذي هو مصدر الفتنة، ولما قتل الشجاعي خمدت الفتنة[٢٤٣]، وكان للخوند طغاي زوجة الناصر محمد بن قلاوون دور في إلغاء بعض المكوس منها مكس القمح بمكة المكرمة[٢٤٤]، كما شفعت عند ابنها في الطواشي كافور الهندي عندما أمر بمصادرته ونفي عدد من كبار الطواشية الخدام بالدور في سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م)، فلم يُصادر وتم نفيه للقدس[٢٤٥].

وفي الفترة التي أعقبت وفاة الناصر محمد، وتولي عدد من الأبناء الضعفاء زادت سيطرة الحريم والخدام على شئون الدولة قد كثر هذا الأمر في أيام الصالح إسماعيل، حتى وصل الأمر إلى معارضتهن لنائب السلطنة في الكثير من الأمور[٢٤٦]. وزاد الأمر في أيام الكامل[٢٤٧] فاستولت والدته على الكثير ما في أيدي الناس، فأخذت معصرة وزير بغداد ومنظرته التي على بركة الفيل وغير ذلك، وشاركها في هذا حريم الكامل، فلما تولى المظفر حاجي رد جميع الأملاك التي أخذها حريم الكامل إلى أصحابها[٢٤٨]، كما كان للخوند بركة والدة الأشرف شعبان شأن كبير بعد توليه السلطنة[٢٤٩].

وكانت الخوند الكبرى أرد التركية زوجة برقوق كثيرًا ما تحذره من اقتناء المماليك الجراكسة، وقد دار حديث بينهما في هذا الأمر في سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٦م) قالت له: "اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس تتر وجركس وروم وتركمان تستريح أنت وذريتك"، فقال لها: "الذي كنت أشرت به علي هو الصواب، ولكن كان هذا مقدرًا ونرجو الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم"[٢٥٠]، لكنه مات بعد ذلك بقليل ولم يتم ما أرد. كما كان للخوند شيرين والدة الناصر فرج دور في العفو عن بعض الأمراء المتمردين عليه في سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م) ومنهم تغري بردي ابن عمها، ووصفت بأنها "كان لها جاه كبير في سلطنة ولدها".[٢٥١]

أما والدة السلطان عبد العزيز المسماة قنق باي التترية فقد سيطرت على مقاليد السلطنة أثناء سلطنة ابنها سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، ولم تترك لابنها عبد العزيز سوى الاسم لكنه لم يستمر في السلطنة سوى سبعين يومًا وعاد أخوه فرج إلى السلطنة[٢٥٢]، وفيما يخص المشاركة في الاغتيالات داخل القصر فقد نسب إلى الخوند سعادات زوجة المؤيد شيخ وأم ولده أحمد

بأنها قامت بسم الظاهر ططر أو قتله في فراشه انتقامًا منه بعد أن تزوجها ثم طلقها بعد تولي السلطنة.[٢٥٣]

كما كان للخوند الكبرى مغل بنت القاضي ناصر الدين البارزي (ت.٨٧١هـ/١٤٦٦م) زوجة جقمق دور في العفو في الست سر النديم دادة يوسف التي كانت أحد المشاركات في هروب العزيز يوسف، وبقيت عندها[٢٥٤]، وبسفارة هذه الخوند شغل عدد من الأمراء عددًا من الوظائف المهمة مثل الدوادارية التي تولاها أحمد بن محمد العطار[٢٥٥]، وجوهر القنقبائي الذي أضيفت إليه وظيفة الزمام[٢٥٦]، وكان للخوند زينب زوجة الأشرف أينال تأثير كبير على السلطان، وكان يستجيب لمطالبها وأوامرها من ولاية وعزل[٢٥٧]، حتى أنها كانت سببًا في ولاية بعض العلماء لمنصب القضاء، فقد سعت في تولية العلم البلقيني لمنصب قضاء الشافعية لمعرفتها وعلاقتها الطيبة بزوجته خديجة بنت أمير حاج البيسري (ت.٨٧٨هـ/١٤٧٣م).[٢٥٨]

ويصف لنا السخاوي كيف أن السلطان الظاهر خشقدم قد أمر بنفي الطواشي خشقدم الرومي إلى المدينة المنورة لكن الخوند شكرباي اعترضت على هذا القرار مما دفع السلطان إلى التراجع عن قراره هذا إرضاءًا لها،[٢٥٩] وفي سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٧م) قامت الخوند أصل باي أم الناصر محمد بن قايتباي بتحليف أخوها قانصوة الأشرفي وابنها على المصحف بوفاء كلاً منهما لصاحبه بعد أن تخوفت من أخيها على ابنها، ولكن هذا الحلف لم ينفع بشيء.[٢٦٠]

٢/٦- الدور الاجتماعي:

سعى الكثير من الحريم السلطاني على كافة مستوياته في المساهمة في النشاط الاجتماعي والديني الذي شهدته مصر في العصر المملوكي، وكان للخوندات النصيب الأكبر من ذلك بسبب الإمكانيات التي توفرت لهن ولم تتوفر لغيرهن من سعة المال ونحوه، فاتجهوا نحو بناء المدارس والخانقاوات والأسبلة والحمامات والأربطة ونحوها منافسين في ذلك السلاطين والأمراء، ومن هذه المنشآت:

جامع الست حدق: أنشأته الست حدق دادة الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م)[٢٦١]، ومما يذكر عنها في باب الخير أنه لما أحيط بممتلكاتها في سنة (٧٥٢هـ) لم يجدوا معها الكثير من المال لكثرة إنفاقه في وجوه الخير، فأفرج السلطان عنها.[٢٦٢]

جامع الست مسكة: أنشأته الست مسكة جارية السلطان محمد بن قلاوون سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)[٢٦٣]

خانقاة أم آنوك: هذه الخانقاه خارج باب البرقية بالصحراء، أنشأتها الخوند طغاي أم آنوك زوجة الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، وجعلت بها صوفية، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة.[٢٦٤]

مدرسة أم السلطان: بنت هذه المدرسة الخوند بركة أم الأشرف شعبان بن حسين سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م) بخط التبانة، وأقامت بها درسًا للشافعية، ودرسًا للحنفية، وأنشأت على بابها سبيل ماء، ومكتبًا للأيتام، وهي من المدارس الجليلة، وبقبة المدرسة يوجد قبرها وقبر الأشرف شعبان[٢٦٥]، وقد أوقفت الكثير من الأوقاف على هذه المدرسة منها قيسارية للجلود بخط الركن الخلق، والربع المعروف بربع أم السلطان وهما من بنائها[٢٦٦]، وجعلت لأوقافها هذه ناظر لضبط شئون الوقف.[٢٦٧]

وعمرت خوند مغل بنت البارزي زوجة الظاهر جقمق (ت.٨٧٦هـ/١٤٧١م) جامع الشيخ مدين بالمقس وأوقفت عليه أوقاف كثيرة[٢٦٨]، كما أنشأت سورباي الجركسية -أحد جواري الظاهر جقمق- حمامين بالقرب من قناطر السباع، وأنشأت سبيلاً ببولاق[٢٦٩]، وعمرت خوند زينب زوجة السلطان أينال رباطًا للأرامل بالقرب من زاوية بني وفا[٢٧٠]، ولم تقتصر أعمالهن الاجتماعية على مصر فقط بل نالت بلاد الحرمين منها جزءًا، فبجانب الصدقات وأعمال البر التي كن يقومن بها أثناء الحج، فقد توجهن لعمارة دور الأربطة ونحوها من دور التعبد، فجددت خوند شيرين أم الناصر فرج رباط الخوزي، ووقفت عليه أوقاف كثيرة[٢٧١]، ووصفت بأنها "كانت كثيرة البر والمعروف سرًا"[٢٧٢].

كما كان لهم دور مؤثر في ملابس النساء في ذلك الوقت، حيث تصدرن ما يسمى اليوم بالموضات، وبسببهن انتشرت بعض الأزياء النسائية المخالفة للشرع، ففي سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) أحدثت حريم السلطان قمصانًا طويلة بأكمام واسعة، سعة الكم يصل إلى ثلاثة أذرع فإذا أرخته غطت رجلها، وأطلقوا على هذا القميص اسم البهطلة، وقد وصلت تكلفة هذا القميص إلى ألف درهم فأكثر، فتشبهت بهن أكثر نساء القاهرة، فاجتمع والي القاهرة بالسلطان والعلماء وصدرت فتوى تحظر لبس هذا القميص، فشدد الوالي في التنفيذ حتى امتنعت النساء عن ارتدائه[٢٧٣].

خاتمة

من خلال ما سبق يمكن القول؛ أن حياة الحريم السلطاني داخل القلعة قد خضعت لنظام دقيق في المسكن فقد كان لكل خوند من الخوندات الأربعة غرفة مجهزة على أرقى نظام حسب مكانة الخوند، وقد خضع هؤلاء لنظام دقيق عند الخروج من القلعة سواء للحج أو الترفيه ونحوه، كما كان لهؤلاء عدد من العادات والتقاليد في الأفراح والأحزان وغيرها لا يختلفن في بعضها عن المرأة المصرية العادية.

وخلص البحث إلى أن بعض هؤلاء الحريم وأن عرف عن أكثرهم الحشمة والديانة إلا أن هذا لم يمنع من انتشار بعض الأمراض الخلقية كالسحر ونحوه، وتطرق إلى علاقة هؤلاء بغيرهم من نساء طبقة الخاصة، وأوضح أن بنات السلاطين المتزوجات كن يعاملن على أنهن أحد الخوندات، فلا تذكر أحدهن إلا ويسبق اسمهن لقب خوند كما كانوا يشاركن في رحلات الحج، والاحتفالات في القلعة ونحوها، وفي الممات كان يُوضع على نعشهن البشخانة كما يفعل مع خوندات السلاطين. كما تطرق إلى مصادر الثروة عند هؤلاء فأوضح أن مصادر الثروة تمثلت في الرواتب والهدايا التي

كانت تنهال عليهم في الكثير من المناسبات، وأن كثرة هذه الثروات دفع بعض السلاطين إلى مصادرتها أو التضييق على أصحابها حتى يحصل على بعضٍ منها.

واستعرض البحث دور هؤلاء الحريم سواء كان سياسيًا من خلال التأثير على السلطان أو التحكم في شئون البلاد في حال صغر السلطان وضعفها، أو من خلال تدبير المؤامرات داخل القصر نحوه، أو اجتماعيًا من خلال بناء المدارس والمساجد والخوانق والإنفاق على الحرمين إلى غير ذلك من وجوه البر والخير.

الهَوامِشُ:

(١) ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت:٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج١٠، تحقيق: فهيم محمود شلتوت، وجمال محمد محرز، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٢٣٨.

(٢) ابن تغري بردي: **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، ج٩، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٣٢.

(٣) ابن إياس(محمد بن أحمد الحنفي ت:٩٣٠هـ/١٥٢٤م): **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج١، ق١، تحقيق: محمد مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٤٦٠.

(٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٦٧.

(٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٦٠؛ ج٢، ص٢٩٢.

(٦) ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج٢، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، ١٩٨٨م، ص٢٠٢.

(٧) ابن شاهين (غرس الدين خليل الظاهري ت: ٨٧٢هـ/١٤٦٧م): **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق: بولس روايس، باريس، ١٨٩٤م، ص٢٦-٢٧،١٢١.

(٨) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١٨٣.

(٩) كان هؤلاء الجواري يأتين عن طريق الشراء، أو الإهداء كما فعل حاكم دهلك عندما أرسل للظاهر برقوق عدد من الجواري. انظر: الصيرفي(علي بن داود ت: ٩٠٠هـ/١٤٩٥م): **نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان**، ج١، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م، ص٣٦٢.

(١٠) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج٣، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٥٩٧؛ ج٤، ص٩٦؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢٣٨؛ الحنفي (عبد الباسط بن خليل الملطي ت:٩٢٠هـ/١٥١٤م): **نيل الأمل بذيل الدول**، ج١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٧٣.

(١١) ابن حجر(شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني ت:٨٥٢هـ/١٤٤٢م): **إنباء الغمر بأنباء العمر**، ج١، تحقيق: حسن حبشي، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٨٨.

(١٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٢٩٦؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٤، ص٧٧.

(١٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٢٧.

(١٤) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج١، ص٢٩٥؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٥٦.

(١٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٣٠٣.

(١٦) الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج١، ص٩٤؛ السخاوي: **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، ج٣، تحقيق: لبيبة إبراهيم مصطفى، نجوى مصطفى كامل، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٩٠؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٤٦.

(١٧) ابن شاهين: **زبدة كشف الممالك**، ص٢٦-٢٧،١٢١.

(١٨) السخاوي: **التبر المسبوك**، ج٢،ص٨٠.

(١٩) هذه القاعات تشرف على الميدان وباب القرافة، عمرها الناصر محمد بن قلاوون، وأسكنها سراريه. انظر: المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج٣، تحقيق: محمد زينهم عزب، ومديحه الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٦٢؛ **السلوك**، ج٣، ص٣١٤.

(٢٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٨٠.

(٢١) أنشأها الناصر حسن بن الناصر محمد سنة٧٦١هـ/، وعمل لها من الفرش والبسط الشيء الكثير، وكان ارتفاعها ثمانية وثمانون ذراعًا. انظر: المقريزي: **الخطط**، ج٣، ص٦١.

(٢٢) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١٨٠.

(٢٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٦٤.

(٢٤) ابن شاهين: **زبدة كشف الممالك**، ص٢٦-٢٧،١٢١.

(٢٥) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢٣٢.

(٢٦) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٢٥٤؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٤، ص٧٧؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢١٤.

(٢٧) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٢٧٢.

(٢٨) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٦٠.

(٢٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٦٧، ٦٨.

(٣٠) يذكر ابن بهادر أن حدق دادة الناصر محمد هي نفسها الست مسكة. انظر: **فتوح النصر في ملوك مصر**، مخطوط بدار الكتب، رقم٤٩٧٧ تاريخ، ورقة٥٩٢

(٣١) كانت تلقب بـ"الجهة الشريفة العالية الكبيرية المحجبية المصونية الحاجية الوالدية جلال النساء في العالمين بركة الدولة، والدة الملوك والسلاطين. انظر: السحماوي(شمس الدين محمد ت:٨٦٨هـ/١٤٦٤م): **الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم**، ج١، تحقيق: أشرف محمد أنيس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٥٤٠.

(٣٢) علي باشا مبارك: **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة** ، ج٥، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، ط١، ١٨٨٧م، ص١١٥.

(٣٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٢٦٦.

(٣٤) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٢٧٤؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٥٤،٤٥٢.

(٣٥) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٩٦؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٣، ص٤١٣؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٥، ص٢٩،٣٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٨٥.

(٣٦) لقب على المشرف على باب ستارة الحريم السلطاني، وهو لفظ فارسي مركب من زنان ومعناه النساء ودار بمعنى ممسك، بمعنى أنه الموكل بحفظ الحريم. انظر: القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٥، ص٤٥٩.

(٣٧) السخاوي: **التبر المسبوك**، ج١، ص٢٣٨؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢١٣.

(٣٨) الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج١، ص٣٤١؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٢، ص٣٥٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٤٧٢.

(٣٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص٦.

(٤٠) ابن شاهين: **زبدة كشف الممالك**، ص١٢١.

(٤١) الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٣، ص٤١٣.

(٤٢) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٧، ص١٧٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٢٠.

(٤٣) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٣٨٣؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٨٨.

(٤٤) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٦٠،٦١؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٨٨.

(٤٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٦٠؛ ج٢، ص٢٩٢.

(٤٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٣١.

(٤٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص٨.

(٤٨) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٤٣١،٤٣٣.

(٤٩) المقريزي: **السلوك**، ج٧، ص٣٨٢؛ ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج٤، ص٩٥؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٢٥٤،٢٩٦؛ **المنهل الصافي**، ج٤، ص٢٨٤،٢٨٨؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٤، ص٧٧.

(٥٠) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣١٥؛ **المنهل الصافي**، ج٤، ص٢٩٢؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٤، ص٩٥

(٥١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٣٨٨.

(٥٢) اليونيني(قطب الدين موسى بن محمد ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٦م): **ذيل مرآة الزمان**، ج٣، تحقيق: وزارة التحقيقات والأمور الثقافية بالهند، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص٢٥٠؛ المقريزي: **السلوك**، ج٢، ص١٠٧.

(٥٣) المنصوري: **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق: دونالد ريتشاردز، مؤسسة حسيب درغام، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص١٠٢.

(٥٤) ذكرها ابن إياس باسم الخوند أشلون بنت الأمير نكاي. انظر: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٥١.

(٥٥) المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص٢٥٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٥١.

(٥٦) المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص٢٣٢.

(٥٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢١.

(٥٨) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٣٥٥؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٥٠.

(٥٩) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج١، ص١٤٤.

(٦٠) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٥٩.

(٦١) يذكر المقريزي أن زوجة الناصر هذه هي ابنة أخي أزبك ملك التتار، بينما يذكر ابن تغري بردي أنها ابنة ملك التتار أزبك خان بن طغرلجا بن منكوتمر. انظر: **السلوك**، ج٣، ص٢٦؛ **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٧٤.

(٦٢) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص١٨٤.

(٦٣) المقريزي: **السلوك**، ج٢، ص٣٤٢،٣٧٢.

(٦٤) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص١٧.

(٦٥) المقريزي: **الخطط**، ج٣، ص٢٩٢؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢٥٤، ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٥٣٨.

(٦٦) كانت تلقب بـ"الجهة الشريفة العالية، المحجبة المعظمة المصونة الكبرى، خوند خاتون، **جلال النساء في العالمين، سيدة الخواتين، قرينة الملوك والسلاطين**. انظر: السحماوي: الثغر الباسم، ج١، ص٥٣٩.

(٦٧) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٤٨؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢٣٨.

(٦٨) المقريزي: **الخطط**، ج٣، ص٦٢؛ **السلوك**، ج٣، ص٣١٩؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٢١٠.

(٦٩) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١١٩.

(٧٠) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٣٨٣.

(٧١) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٠٣.

(٧٢) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٤؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٩٧؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١١٠.

(٧٣) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١١٩؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١١٣.

(٧٤) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٢٧.

(٧٥) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص١٩؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٢٤؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٢٢.

(٧٦) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٢٩.

(٧٧) المقريزي: **السلوك**،ج٤، ص٣٥؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٤٩-١٥٠؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٣٣.

(٧٨) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٣٨.

(٧٩) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٤٠؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٥٣-١٥٤؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٣٨.

(٨٠) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٤٤؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٥٦-١٥٧.

(٨١) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٥٦؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٦٩.

(٨٢) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٦٠،٦١؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٨٨.

(٨٣) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص٦،٨٤؛ السخاوي: **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**، ج١، تحقيق: بشار عواد معروف وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص١٤٣؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص٣٦٠، ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١٥.

(٨٤) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٢، ص١٠٥؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١٥٩.

(٨٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١٦٣.

(٨٦) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج١، ص٤١.

(٨٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص١٥٢،١٧٠.

(٨٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص٨٨.

(٨٩) السخاوي: الضوء اللامع، مج٦، ج١٢، ص١٩.

(٩٠) المقريزي: **السلوك**، ج٥، ص٣٥٢؛ ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج١، ص٤٦٩؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص٥٢؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج١، ص٣٨٣؛ السخاوي: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، مج٦، ج١٢، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص١٦؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٢، ص٣٤٣؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٤٦٦.

(٩١) الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج١، ص١٢٧؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٢، ص٢٣٣؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٦٨.

(٩٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص١٠٦؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٣٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٦٨.

(٩٣) الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج١، ص٩٣؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٢، ص٢١٤؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٩٤) المقريزي: **السلوك**، ج٦، ص١٤٣؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١١٧؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٧٣٦.

(٩٥) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص١٠٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٥٣٧.

(٩٦) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج٣، ص١٨٦.

(٩٧) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٢٥٦.

(٩٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص١٠٣.

(٩٩) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٣، ص١٢٧؛ المنهل الصافي، ج١، ص٢٩٨.

(١٠٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٣٠.

(١٠١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢١٧.

(١٠٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٨١؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٤، ص٣٨.

(١٠٣) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص١٥٦؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٢، ص٤١٢؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٤، ص١٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٨.

(١٠٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٦٢.

(١٠٥) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٢٠٣،١٩٧،١٩٠؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٤٠.

(١٠٦) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص١٨٥؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٦٢.

(١٠٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٢١١؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٤٤.

(١٠٨) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٩٢.

(١٠٩) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج٣، ص٤٦٠؛ ج٤، ص٢٧؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٢٠٣؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٧.

(١١٠) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص١٧٨؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٣٧.

(١١١) الصيرفي (علي بن داود ت:٩٠٠هـ/١٤٩٥م): **إنباء الهصر بأنباء العصر**، تحقيق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢م،، ص١٣٢؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٩٢.

(١١٢) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٩٢.

(١١٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٤٠.

(١١٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٣٤.

(١١٥) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٢٧،١٢٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٠٤.

(١١٦) صلى عليها السلطان بمصلى سبيل المؤمني، ويقال أنها خلفت من الحلي والحلل ما لا يوصف، ومن المال خمسين ألف دينار. انظر: السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٦٦.

(١١٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣٨٢؛ الصيرفي: **إنباء الهصر**، ص٤٦٥؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٢٧،١٢٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٦٣.

(١١٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢١٥،٤٠٥؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٤، ص١٧٢؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٤٠.

(١١٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٧٢.

(١٢٠) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص١٧٨؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٣٧.

(١٢١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٥٤٢؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٣٠؛ **التبر المسبوك**، ج٢، ص٢٢٥؛ ابن إياس **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٧٣.

(١٢٢) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٧٦.

(١٢٣) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٥٠٢.

(١٢٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٨٩.

(١٢٥) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٣٨.

(١٢٦) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٩٠.

(١٢٧) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٠٠.

(١٢٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص١١١؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٤٤، ٩٠.

(١٢٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٦٨.

(١٣٠) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٦٩،٦٨.

(١٣١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢٩٢؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٢٣٣؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٣٥.

(١٣٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢٩٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٣٥؛ ج٣، ص٩.

(١٣٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٦٩.

(١٣٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤٦٠، ٤٦٣.

(١٣٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٦٤.

(١٣٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٩٧.

(١٣٧) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٣٨٩.

(١٣٨) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤١٧.

(١٣٩) لما قتل السلطان طومان باي الأول سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) أظهرت الفرح والسرور، وقامت هي وأبناؤها بمس جلودهم بدمه تشفيًا منه، لأنه قتل ابنها محمد، وسجن أخوها السلطان قانصوه الأشرفي، وقتل زوجها السلطان جانبلاط، وعندما تولى الغوري السلطنة سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) قبض عليها، وأطلعها القلعة ووكل بها عدد من الطواشية، وقرر عليها مبلغ من المال، ولما عجزت عن الدفع أمر بأن تنفى إلى مكة حتى شفع فيها بعض الأمراء، ودفعت بعض المال فأفرج عنها. انظر:ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص١١،٢٠.

(١٤٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤٣٥؛ ج٤، ص١٥٩.

(١٤١) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص١٢٨.

(١٤٢) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص٢٧،٢٨.

(١٤٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص١١٤.

(١٤٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص١١٤.

(١٤٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص٢٥٤.

(١٤٦) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٧، ص٣٢.

(١٤٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢٦٩،٢٧٤،٢٨٣؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص١٤٣،١٦٠؛ الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ج٢، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢٤٠٣ تاريخ تيمور، ورقة٣٩أ، ٥٣ب؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٩٣،٤٠٣.

(١٤٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢٧٤؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص١٥٦؛ **الروض الباسم**، ج٢، ورقة٤٨ب؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٠٢.

(١٤٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص٢٨.

(١٥٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٤١١.

(١٥١) وصفت هذه المحفة بأنها من مخمل أحمر كفوي، ومطرزة بالذهب وعروق أرضيتها زركش من الذهب الخالص، ومحلاه باللؤلؤ والفيروز والفضة. انظر: ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٤١٠.

(١٥٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٨، ص٥٨.

(١٥٣) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص٥٤.

(١٥٤) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٣٥٥.

(١٥٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٤٠.

(١٥٦) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٦٠؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٦٢.

(١٥٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢١٥،٤٠٥؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٤، ص١٧٢؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٤٠؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٢٣.

(١٥٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣٧٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٥٦.

(١٥٩) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٢٦،١٢٧.

(١٦٠) السخاوي: **التبر المسبوك**، ج١، ص٣٠٤؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٤٠٩.

(١٦١) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج٣، ص٤٦٠؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٣٩.

(١٦٢) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٧، ص١٢٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٠٠.

(١٦٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٩٣.

(١٦٤) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٤، ص١٨٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٠٢.

(١٦٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٤٣. وأيضًا: أحمد عبد الرازق: **المرأة في مصر المملوكية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٩.

(١٦٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٠٣.

(١٦٧) ذكرها ابن إياس باسم الخوند أشلون بنت الأمير نكاي. انظر: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٥١.

(١٦٨) المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص٢٥٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٥١.

(١٦٩) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٤٠.

(١٧٠) المقريزي: **السلوك**، ج٥، ص١٦٤.

(١٧١) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣١٤.

(١٧٢) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٢٩.

(١٧٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٩٧.

(١٧٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٧.

(١٧٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤١٧.

(١٧٦) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٢٣٢.

(١٧٧) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٢٩؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٢٩.

(١٧٨) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٢٤. وأيضًا: أحمد عبد الرازق: **المرأة**، ص٢٠.

(١٧٩) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٧، ص١٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٦٠.

(١٨٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٢٢٩.

(١٨١) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٣٣٢.

(١٨٢) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٥٩٣.

(١٨٣) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٥٩؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٧٥.

(١٨٤) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٢١.

(١٨٥) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص٢٣٩.

(١٨٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٤٥٢.

(١٨٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٣، ص١٣٤.

(١٨٨) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت:٨٢١هـ/١٤١٨م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج٥، تقديم: فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٤٧٠.

(١٨٩) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص١٦.

(١٩٠) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٥.

(١٩١) للمزيد عن نهي الإسلام عن اللطم، وشق الجيوب، والنياحة، ودعوى الجاهلية. انظر: الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م): **كتاب الكبائر**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص١٨٣.

(١٩٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص٢٧٢.

(١٩٣) العيني: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، حوادث(٦٨٩-٦٩٨هـ)، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٢٤.

(١٩٤) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٩٨.

(١٩٥) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٢٠٨.

(١٩٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٤٥٢،

(١٩٧) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١١٤؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٢٤٥.

(١٩٨) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٩٩.

(١٩٩) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٢٤٥.

(٢٠٠) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٢٣٣.

(٢٠١) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١١٥.

(٢٠٢) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٦٤.

(٢٠٣) نهي النبي "صلى الله عليه وسلم" النساء عن إتباع الجنائز، فقال لبعضهن وقد خرجن في جنازة:" أتحملنه فيمن يحمل، قلن: لا قال: أتنزلنه قبره فيمن ينزل قلن: لا، قال: أفتحثين عليه التراب فيمن يحثي قلن: لا ، قال: ارجعن مأزورات غير مأجورات". انظر: ابن الحاج (محمد بن محمد العبدري الفاسي ت:٧٣٧هـ/١٣٣٧م): **المدخل**، ج١، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص٢٥٠. وأيضًا: محمود رزق: **عصر سلاطين المماليك ونتاجهم العلمي والأدبي**، ج٢، المطبعة النموذجية، القاهرة، ط٢، ص٣٤٢.

(٢٠٤) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص١٠٥.

(٢٠٥) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١١٤؛ ابن شاهين: **نيل الأمل**، ج٦، ص٢٤٥.

(٢٠٦) هي ما يطلق عليها اليوم الناموسية المزركشة. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م، ص٤١٨.

(٢٠٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٣٤٦؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٢٣٣.

(٢٠٨) الصيرفي: إنباء الهصر، ص٤٢٦.

(٢٠٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٦٤.

(٢١٠) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٢٦،١٢٧.

(٢١١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٣، ص١٩.

(٢١٢) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٦٩.

(٢١٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٦٤.

(٢١٤) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٩٢، ١٦٩.

(٢١٥) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج٣، ص٣٣٧؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٩٢.

(٢١٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص٢٨.

(٢١٧) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٤٨؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢٣٨؛ ج١١، ص٦،٨٤؛ السخاوي: **وجيز الكلام**، ج١، ص١٤٣؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص٣٦٠. ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١٥.

(٢١٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٨٨.

(٢١٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٢٢،٢٥.

(٢٢٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٤٢؛ ج٣، ص١٠٣.

(٢٢١) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٤٨؛ ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج٣، ص٤٦٠؛ ج٤، ص٢٧؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢٣٨؛ ج١١، ص٦،٨٤؛ ج١٥، ص٢٠٣؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٧؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص١٤٣؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص٣٦٠، ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١٥؛ ج٣، ص٤٦٠، ٤٦٣.

(٢٢٢) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص١٢٢؛ الروض الباسم، ج٢، ورقة٢٤أ؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٨٤.

(٢٢٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤٥٧. وأيضًا: أحمد عبد الرازق: **المرأة**، ص٢٦.

(٢٢٤) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٧٠.

(٢٢٥) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٢٥. **العلم البلقيني**: هو صالح بن عمر بن رسلان البلقيني الشافعي، ولد سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م)، تولى القضاء الأكبر سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، تفرد بالفقه وألف تفسير القرآن، توفي سنة٨٦٨هـ/١٤٦٣م. انظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن محمد ت:٩١١هـ/١٥٠٥م): **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، ج١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٧م، ص٤٤٤.

(٢٢٦) المقريزي: **السلوك**، ج٣،ص٣٨١؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٨١.

(٢٢٧) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٣٣٥؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٢، ص١٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٩٦.

(٢٢٨) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٧٠.

(٢٢٩) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٣٢٠؛ **الروض الباسم**، ج٤، ورقة١٨٠أ؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص١١.

(٢٣٠) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢٩٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٣٥؛ ج٣، ص٩.

(٢٣١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣٨٢؛ **الصيرفي: إنباء الهصر**، ص٤٦٥؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٢٦،١٢٧؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٦٣.

(٢٣٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٣، ص١٣٠؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٣، ص٢٢٤؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٨١٥.

(٢٣٣) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص١٢٦،١٢٧؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٦٤.

(٢٣٤) ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج٤، ص٩٥؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٥، ص٥٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٠٠.

(٢٣٥) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٦، ص٣٢٣؛ الروض الباسم، ج٤، ورقة١٨١أ؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٢.

(٢٣٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤٣٥؛ ج٤، ص١٥٩.

(٢٣٧) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٤، ص٨١.

(٢٣٨) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٥، ص١١٤.

(٢٣٩) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٢٣،٣٤٣.

(٢٤٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٤٠٤.

(٢٤١) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت: ٨٣٣هـ/١٣٣١م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٣٠، تحقيق: السيد الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص٣٧١،٣٧٣.

(٢٤٢) النويري: **نهاية الأرب**، ج٣٠، ص٣٩٥؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٤٤.

(٢٤٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٨٢.

(٢٤٤) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٧٣.

(٢٤٥) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٢٩.

(٢٤٦) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٩٠؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١١٠.

(٢٤٧) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٤٠٥؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٣٣.

(٢٤٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص١٤١،١٥٠؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص١٣٣.

(٢٤٩) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص٥٤.

(٢٥٠) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص٨٨

(٢٥١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص٢١٣.

(٢٥٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٣، ص٤١،٤٢.

(٢٥٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٧١.

(٢٥٤) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣١٥؛ الصيرفي: **نزهة النفوس**، ج٤، ص٩٥.

(٢٥٥) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٢، ج٣، ص٢٨٦.

(٢٥٦) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٨٣.

(٢٥٧) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٥٤؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٥٢.

(٢٥٨) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٢٥.

(٢٥٩) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٢، ج٣، ص١٧٦.

(٢٦٠) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٣٧٨.

(٢٦١) المقريزي: **الخطط**، ج٣، ص٣١٢.

(٢٦٢) الحنفي: **نيل الأمل**، ج١، ص٢٢٠.

(٢٦٣) المقريزي: **الخطط**، ج٣، ص٣٤٦. وصفه على مبارك بقوله: "هو بسوق مسكه قرب جامع الشيخ صالح أبي حديد بخط الحنفي، له بابان منقوش بأعلى أحدهما في الرخام "بسم الله الرحمن الرحيم أمرت بإنشاء هذا الجامع المبارك الفقيرة إلى الله الحاجة إلى بيت الله الزائرة قبر رسول الله عليه الصلاة والسلام الست الرفيعة مسكه سنة ست وأربعين وسبعمائة ومنقوش بدائر من الخارج في الحجر سورة يس، وهو غير مقام الشعائر لتخربه ...". انظر: **الخطط التوفيقية**، ج٥، ص١١٥.

(٢٦٤) المقريزي: **الخطط**، ج٣، ص٥٩٦. هذه الخانقاه لا تزال قائمة ولكنها معطلة، وبها قبة تحتها تربة خوند طغاي، وقد أنشأت هذه الخانقاه سنة (٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، وهي اليوم على ناصية شارع خوند طغاي والسلطان أحمد بجبانة المجاورين شرق القاهرة. انظر: ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، حاشية ص١٣.

(٢٦٥) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٥٣٠؛ **السلوك**، ج٤، ص٣٥٧؛ ابن حجر: **إنباء الغمر**، ج١، ص٤١؛ الحنفي: **نيل الأمل**، ج٢، ص٥٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١١٥. وهذه المدرسة لا تزال قائمة باسم جامع أم السلطان بشارع باب الوزير. انظر: ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص٥٩ وحاشيتها.

(٢٦٦) **السلوك**، ج٤، ص٣٥٧؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص١١٥.

(٢٦٧) المقريزي: **السلوك**، ج٤، ص٣٢٦.

(٢٦٨) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٧، ص٣٢؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٣، ص٦٧.

(٢٦٩) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٦٦؛ ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٦٣.

(٢٧٠) السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٤٥.

(٢٧١) ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج٦، ص٣١٧؛ السخاوي: **الضوء اللامع**، مج٦، ج١٢، ص٧٠.

(٢٧٢) الحنفي: **نيل الأمل**، ج٣، ص٤٤.

(٢٧٣) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص٤٢٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية والمماليك البحرية بين القرنين (٧ – ٨هـ/ ١٣ – ١٤م)

د. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بالْأَعْرَجِ

أستاذ محاضر – قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

يتناول المقال العلاقات السياسية بين الدولتين الحفصية والمملوكية البحرية خلال الفترة الممتدة بين القرنين (٨/٧هـ – ١٤/١٣م)، لكونهما أقوى ممثلين للعالم الإسلامي في تلك الفترة، فالدولة الحفصية كانت مسيطرة على بلاد المغرب سياسيًا من خلال مبايعة بقية الدويلات المغاربية لها على اعتبار أنها الأحق بخلافة الموحدين الذين انتهى وجودهم من بلاد المغرب نهائيًا على يد بني مرين من المغرب الأقصى سنة ٦٦٨هـ أما الدولة المملوكية فكانت الحامي للجناح الشرقي للعالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وكانت تسيطر على مصر والشام والحجاز، ووصل نفوذها أحيانًا إلى بلاد المغرب، وكانت الدولتان متجاورتان في الحدود الجغرافية ما دفعهما للبحث عن سبل التقارب السياسي. ويركز على التواصل الدبلوماسي بين البلدين في ظل الجو الدولي المتوتر والذي كان يشهد تجدد الحملات الصليبية الأوربية على بلدان المشرق والمغرب الإسلاميين، كما يركز على مشكلة الخلافة الإسلامية التي برزت إلى الوجود عقب سقوط بغداد بيد المغول، وتنازع الحفصيين والمماليك على لقبها من أجل نيل الشرعية السياسية في العالم الإسلامي، ومحاولة الظاهر بيبرس والمستنصر الحفصي إثبات الأحقية في تولي هذا المنصب، وإذا كان الحفصيون من سلالة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ويحق لهم التسمية بلقب الخليفة خاصةً بعد مبايعة أمير مكة لهم، فإن المماليك قد اضطروا أن يجلبوا أحد أفراد البيت العباسي بعد سقوط بغداد وإثبات نسبه وتعيينه خليفة في بغداد. وموقف المماليك من الحملة الصليبية الأوروبية بقيادة لويس التاسع الفرنسي على تونس، وكذا تدخلهم في الشأن الداخلي الحفصي من خلال مساندة بعض الحركات السياسية المعارضة كحركة أب زكرياء اللحياني.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: 10 يناير ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

التاريخ السياسي, خلافة المستنصر, الظاهر بيبرس, الصليبية الثامنة, زكرياء اللحياني

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحمن بالأعرج. "العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية والمماليك البحرية: بين القرنين (٧ – ٨هـ/ ١٣ – ١٤م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٦١ – ٦٧.

مُقَدِّمَةٌ

يُعَدّ البحث في تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية إبان العصر الوسيط من المواضيع التي صارت تهم الساحة الأكاديمية، خاصةً فيما يتعلق بالعلاقات بين دول المغرب الإسلامي والدول المجاورة له، ولما كانت الحدود الشرقية لهذا الفضاء الجغرافي متلاصقة مع دولة المماليك، جاء التفكير في البحث حول طبيعة العلاقات التي ربطت الدولة الحفصية بالدولة المملوكية الأولى أو البحرية في اصطلاحات المؤرخين. إن الهدف من هذا الموضوع هو إبراز مدى أهمية التواصل الدبلوماسي بين أقطار العالم الإسلامي في إرساء معالم الوحدة بين دوله في العصر الوسيط.

وقد تناول هذا الموضوع بالدراسة جملة من الباحثين عبر كتابات متفرقة في المصادر والمراجع، ولعل عبد الرحمن بن خلدون قد أدلى بدلوه في هذا السياق، وكذلك القلقشندي الذي يزخر كتابه "صبح الأعشى" بالكثير من المراسلات الدبلوماسية، فضلاً عن بعض الباحثين المعاصرين أمثال عابد يوسف من جامعة قسنطينة

- الجمهورية الجزائرية، والدكتور أحمد عزاوي من المملكة المغربية والذي أفاض في الحديث عن هذه العلاقات في مؤلفاته. يطرح المقال مجموعة من التساؤلات نحاول الإجابة عنها في طياته، أهمها: ما هي طبيعة العلاقات التي ربطت بين الدولتين الحفصية والمملوكية؟ ما هو موقف الحفصيين من قيام الدولة المملوكية؟ وما هو موقف المماليك من الخلافة الحفصية؟

وتعتبر الدولة الحفصية[(١)] من الدول ذات الحضور القوي في المغرب الإسلامي عقب ضعف وسقوط دولة الموحدين، وشكلت بحدودها التي امتدت من بجاية غربًا إلى إقليم طرابلس الغرب وحدود برقة شرقًا، الدولة الأولى من دول المغرب التي تعاملت مع المماليك البحرية على الصعيد السياسي بحكم الجوار وبحكم كونها كانت المرشحة لخلافة دولة الموحدين، وقد كانت على مقربة من الوقائع التي أدت إلى سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية، ومما أتيح لنا من المصادر أمكن رسم معالم العلاقات التي ربطت بين الحفصيين والمماليك البحرية.

(١) بداية العلاقات الحفصية المملوكية

يمكن إرجاع بداية العلاقات بين دولة الحفصيين والمماليك إلى أواخر عهد الدولة الأيوبية والأشهر الأولى لميلاد دولة المماليك البحرية، وفي هذا السياق يذكر ابن قنفذ القسنطيني في كتابه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"،[(٢)] وابن الشماع في "كتابه الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية"[(٣)] أن علاقة مودة وصداقة كانت تجمع بين السلطان الحفصي أبي زكرياء صاحب تونس، والملك الصالح أيوب، ويمكن إجمال مظاهر هذه العلاقات في تبادل المعلومات حول التحركات الصليبية التي كانت تهدد السواحل المغربية والمشرقية على حد السواء.

وفي هذا الصدد أوفد السلطان الحفصي سفارة إلى الملك الصالح أيوب في القاهرة، يعلمه بتخطيط وعزم الملك الفرنسي لويس التاسع على غزو مصر فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة، وتضمن كتاب الرسول اعتذار أبي زكرياء عن عدم تمكنه من صد الهجوم الصليبي بنفسه نظرًا للأخطار التي كانت تهدد دولته من جانب صاحب صقلية، وكذلك خطر الأعراب الذين كانوا دائمي الثورة والانتقاض بإفريقية.[(٤)]

وقد ذكرت المصادر الأخرى المعاصرة أن المعلومات التي وردت الملك الصالح أيوب كانت من طرف ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة فريديريك الثاني الذي كان قد نشأ في صقلية في كنف المسلمين والحضارة الإسلامية،[(٥)] لكن الظاهر أن الخطر المشترك الذي كان يهدد العالم الإسلامي من جهة الحوض الغربي للمتوسط قد ساهم في إرساء قواعد اتصالات دبلوماسية وتبادل للمعلومات التي تخص الجانبين الحفصي والأيوبي ثم المملوكي، خاصةً وأن الحملات الصليبية التي كانت تقصد المشرق غالبا ما كانت تمر بالسواحل التونسية.

وكان بنو حفص على علم بالأحداث السياسية التي أدت إلى سقوط حكم البيت الأيوبي وانتقال الحكم إلى طائفة المماليك البحرية، وكان لزامًا عليهم التعامل مع نظام الحكم الجديد الذي طرأ في القاهرة، لكن مع اشتداد الخطر المغولي على بغداد وسقوط الخلافة العباسية بها تعكر جو العلاقة التي صارت تنافسية حول منصب الخليفة أكثر منها تعاونًا ضد الأخطار الأجنبية الصليبية من الغرب والمغولية من الشرق.

(٢) مسألة الخلافة الإسلامية بين الحفصيين والمماليك البحرية

شكلت مسألة الخلافة الإسلامية الميزة التي صبغت العلاقات الحفصية المملوكية في بدايتها، وقد تسامع عامة المسلمين خبر سقوط بغداد على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله[(٦)]، وأمسى المسلمون في العالم في موقف لم يعتادوه منذ عهد الرّسول (ﷺ)، فالتفتت الأنظار للبحث عمن يمكن أن يلقب بالخليفة ويجدد رسوم الخلافة، فبادر أهل الحجاز لتعيين الخليفة، وتوجهت أنظارهم إلى الدولة الأيوبية التي كانت في فترة السقوط وانتقال السلطة إلى المماليك البحرية وحال ذلك دون التمكن من عرض الفكرة على السلاطين الجدد لعدم توفر شروط الخلافة في أي منهم، حيث كان المماليك عبارة عن رقيق، فضلا عن أن الخلافة لا ينبغي أن تخرج من قريش، ولم يبق أمام شريف مكة سوى سلطان الدولة الحفصية بتونس.[(٧)]

وقد اجتمعت الكثير من العوامل دفعت المسلمين في المشرق والمغرب إلى الاتجاه صوب الحفصيين لتولي منصب الخلافة الإسلامية، حيث أن نسبهم يرتفع إلى الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقرر أمير مكة إرسال البيعة لهم، هذا ما جعل السلطان محمد بن أبي زكرياء الملقب بالمستنصر الحفصي يكتسب شهرة عمت العالم الإسلامي في المغرب والمشرق.[(٨)]

وكان أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين المرسي (ت ٦٦٩هـ/١٢٦٩م) من الأعلام الزهاد المتصوفة المغاربة الذين استقروا بمكة، وكان على علاقة طيبة مع شريف مكة بن أبي نمي، وهو الذي تولى إنشاء كتاب البيعة.[(٩)] وكان ابن سبعين قد هاجر من بلاده مرسية بالأندلس قاصدًا تونس في إطار الهجرة الأندلسية فرارًا من حروب الاسترداد النصرانية، ثم توجه إلى الحجاز وأقام مجاورًا في مكة المكرمة، وكان من المحرضين لأبي نمي على التبعية للمستنصر الحفصي الذي قام بدور كبير في إنقاذ المهاجرين الأندلسيين من المذابح الصليبية وإيوائهم في تونس فضلاً عن نفوذه ببلاد المغرب الإسلامي.[(١٠)]

وتم إرسال نص البيعة[(١١)] سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) بعد إلغاء مراسيم الخلافة العباسية في بغداد. أما حامل الرسالة من مكة إلى تونس فكان أبا محمد بن برطلة الاشبيلي[(١٢)]، وعقد لها مجمع حافل وقرئت على الناس وكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة في

الدولة الحفصية[١٣]، وكان الحادث محققًا لرغبة كامنة في نفوس بني أبي حفص فاعتبروا أنفسهم أجدر بالخلافة ولقب الخليفة وأمير المؤمنين، ومما قاله أحد الشعراء مهنئا المستنصر:

أُهَنِّئُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
بِدَعْوَةٍ وَافْتَكَ بِالإِقْبَالِ وَالإِسْعَادِ
فَلَقَدْ حَبَاكَ بِمُلْكِهِ رَبُّ الوَرَى
فَأَتَى يُبَشِّرُ بِافْتِتَاحِ بِلَادِ
وَإِذَا أَتَتْكَ أُمُّ القُرَى مُنْقَادَةً
فَمِنَ المَبَرَّةِ طَاعَةُ الأَوْلَادِ[١٤]

وأصبح السلطان الحفصي يلقب بأمير المؤمنين بعد أن كان ينادى بالأمير فقط.[١٥] وافتتح نص البيعة بالبسملة وبالآيات الأولى من سورة الفتح، ثم جاء فيها: "... فمَنْ فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفعت له الدرجة، وضفت عليه الرحمة، ومَنْ وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشد وسار على صراطه، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وأرهاطه، ومَنْ حرم من هذا فقد حرم من ذلك، والأمر هكذا وسنة الله كذلك."[١٦] وهي إشارة إلى أن مَنْ بايعه أمير مكة فهو الأحق بالبيعة من بين كل السلاطين المسلمين في المشرق والمغرب، وأن هذه البيعة هي فتح عظيم على الحفصيين، حيث أنهم سيصبحون الخادمين للحرمين الشريفين الذين سيصبحان تحت سلطتهما الدينية.

وورد في نص البيعة التصريح والاعتراف بأن بني أبي حفص أحق بالخلافة حيث جاء: "وقد قيل إن الملة الحنفية المضرية تنصرها السيرة العمرية المحمدية المستنصرية. ولعل الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يجيره من المغرب ولا ينقله عنه..."،[١٧] وكذلك: "سنته محمدية، وسيرته بكرية، وسريرته علوية، وسلالته عمرية. فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض، عرف بالرياسة العالية..."[١٨] وقد استدل في هذه البيعة على أن الخلافة بعدما يتم إسقاطها في بغداد تنتقل إلى بلاد المغرب بما ورد في الآثار: "إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد ويستقيم ملك المغرب، وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند."[١٩] وقد ذكر بعض المؤرخين خروج نار الحجاز المذكورة في سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م).[٢٠]

هذا وجاء في بقية نص البيعة كل الدلائل التي تفيد بأن السلطان الحفصي هو الخليفة المقصود، كما جاءت بإشارات إلى أن أمير مكة كان يعتزم التخلي عن الدعوة للعباسيين في بغداد، ربما لأن وزير الخليفة آنذاك كان من الروافض،[٢١] وجاء فيها: "... فلما وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان، أظهر الخفي المكنون، فكان ذلك مع التسبيح والقرآن، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذاهب ينتظر الخطة نحو عراق المغرب، والآن وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب...".[٢٢]

وختمت الرسالة بعبارات الوقار للخليفة الذي تمت له البيعة، وذكر مكان كتابتها دون التاريخ: "ومعاد التحية على المقام الأرفع، والمقر الأنفع، وعلى خدام حضرته العلية، وأرباب دعوته الجلية، وأنواع رحمته تعالى وبركاته، والحمد لله كما يجب، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آبه وسلم. كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله رب العالمين".[٢٣]

وقد انتشر خبر هذه البيعة في كل أقطار العالم الإسلامي وتباينت ردود الأفعال من ذلك، حيث أن اتخاذ لقب خليفة المسلمين من طرف السلطان الحفصي يمكن النظر إليه من زاويتين، فإما أنه كان محققًا لأهداف إيجابية أو أنه لم يتجاوز التشريف، لأن منصب خلافة المسلمين وإمارة المؤمنين يقتضي القيام على مسؤوليات تشمل العالم الإسلامي في المشرق والمغرب. وقد توالت البيعات على الخليفة الجديد من أقطار المغرب الإسلامي، حيث وصلت بيعة أهل الأندلس خاصة من النصريين في غرناطة، وكذلك من بني عبد الواد في تلمسان، والمرينيين في فاس.[٢٤]

لكن بالمقابل فإن هذه البيعة لم تلق التجاوب اللازم لها في بلاد المشرق نظرًا للظروف السياسية الصعبة التي عاشتها المنطقة خاصةً زحف المغول والتتار على العالم الإسلامي وتخريب حواضره، كما أنها عدت مبادرة فردية من ابن سبعين وشريف مكة، واعتبر المؤرخون المشارقة أن الخلافة قد انقطع رسمها لمدة ثلاث سنوات منذ سقوط بغداد حتى تم إحياؤها في القاهرة على يد الملك الظاهر بيبرس المملوكي.[٢٥]

(٣) موقف المماليك من خلافة المستنصر

يفهم من بعض المصادر التي تناولت مسألة الخلافة الحفصية بأن الملك الظاهر بيبرس قد اعترف بالمستنصر الحفصي كأمير للمؤمنين، وذلك في ظل افتقار دولة المماليك البحرية الناشئة لسند شرعي، ويذكر ابن قنفذ القسنطيني في كتابه الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ما يلي: "وفي سنة تسع وخمسين وستمائة المذكورة قرئ كتاب هزيمة التتار على المستنصر وخططه أهل الديار المصرية في الكتاب المذكور بأمير المؤمنين، وكان هذا أكبر آمال المستنصر وأحيا إليه".[٢٦] لكن يبدو أن اعتراف المماليك بخلافة المستنصر لم يدم طويلاً،[٢٧] إذ سعى الظاهر بيبرس البندقداري لتجديد معالم الخلافة العباسية بالقاهرة، وذلك خير دليل على أن ذلك الاعتراف ما كان إلا سياسة مرحلية إلى حين توطيد الحكم المملوكي.

وتذكر المصادر أنه في مطلع شهر رجب سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) حضر إلى القاهرة أحد أبناء البيت العباسي الناجين من الزحف المغولي، وهو الأمير أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو القاسم بن الخليفة الظاهر العباسي، فاستقبله الظاهر بيبرس وبالغ في إكرامه وأنزله بالقلعة، وأحضر أعيان الدولة والعلماء، وأمر بإحضار العربان الذين قدموا مع الخليفة من العراق للشهادة بصحة انتساب الأمير أحمد للبيت العباسي، وشهد بذلك عند قاضي

القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، وعقب ذلك تم عقد البيعة له ولقب بالمستنصر، وأول من بايعه كان قاضي القضاة تاج الدين، ثم السلطان، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، واحتفلت القاهرة بهذه المناسبة، وهو الخليفة الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس.[٢٨]

إن تلقب الخليفة العباسي الجديد بلقب المستنصر يرجع في نظر بعض الدارسين[٢٩] إلى اتخاذ السلطان الحفصي لهذا اللقب، ويقول المقريزي في هذا الصدد متحدثًا عن الخليفة العباسي: "... واتفق له ما لم يتفق لغيره، وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه باني المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يقع لغيره أن خليفة لقب بلقب أخيه سواه...".[٣٠] هذا في ظل ما كان موجودًا من بقايا مراسيم الخلافة الموحدية في مراكش والتي لم تدم طويلاً حتى قضى عليها بنو مرين سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

هذا وذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في حديثه عن الحفصيين قوله: "وهم يدعون النسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقولون: أبو حفص عمر بن يحي بن محمد بن وانود بن علي بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمون بها من بني أبي حفص يدعون الخلافة، ويدعى القائمون منهم في بلاده بأمير المؤمنين، وربما كاتبه بها بعض ملوك المغرب... ومن أهل النسب من ينكر ذلك، ويجعلهم تارة بنسب إلى عدي بن كعب: رهط عمر بن الخطاب دون عمر، ومنهم من ينسبهم إلى هنتاتة من قبائل البربر بالمغرب، وهي قبيلة عظيمة مشهورة."[٣١] وهذا التعبير من طرف أحد كبار كتاب الإنشاء والمؤرخين في عصر المماليك يبين لنا الطابع العام لموقف الدولة المملوكية وكبار رجال العلم فيها من الخلافة الحفصية وأنها لم تلق التجاوب اللازم في المشرق.

غير أن المكاتبات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء المملوكي والموجهة للحفصيين كانت تحمل عبارات تدل على غير ذلك، حيث كانت الرسائل تفتتح كالتالي: "..إلى الحضرة الشريفة العلية السنية السرية العالمية العادلية الكاملية الأوحدية حضرة الإمارة العدوية، ومكان الإمامة القرشية، وبقية السلالة الطاهرة الزكية، حضرة أمير المسلمين، وزعيم الموحدين، والقائم في مصالح الدنيا والدين، السلطان السيد الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المظفر المنصور المتوكل على ربه...".[٣٢] فلفظ "ومكان الإمامة القرشية" يدل على الاعتراف الضمني بأن تونس مقر الخلافة وأن الحفصيين فعلاً كانوا من ذرية عمر بن الخطاب.

٤) موقف المماليك من الحملة الصليبية الثامنة على تونس

تُعَدّ الحملة الصليبية الثامنة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع على الأراضي الإسلامية في تونس بمباركة من البابا، حلقة من حلقات الصراع الديني بين الشرق والغرب، وبعد فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة الملك نفسه، فكر الصليبيون في حملة أخرى على الديار الإسلامية. وكانت الأسباب المباشرة لهذه الحملة هي الاستيلاء على كنوز بلاد المغرب لتحضير حملات أخرى على الأراضي المقدسة في المشرق، ورغبة لويس التاسع في الانتقام من المسلمين الذين هزموه وأذلوه في وأسروه في مصر قبل ذلك سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م).[٣٣]

ورغم تكتم الصليبيين على الحملة وتحضيراتها فقد تسامع خبرها كل العالم الإسلامي خاصةً على المستوى الرسمي، إذ أن المماليك وخاصةً في عهد السلطان الظاهر بيبرس لم تكن لتخفى عليهم تحركات الصليبيين، إذ كان من أولويات المماليك إنهاء الوجود الصليبي بالمشرق، ووقعت حالة من الاستنفار في كل من مصر وتونس، خاصةً وأن كلا البلدين كان يعتقد بأنه المستهدف من الحملة.[٣٤]

وقام كل من السلطان الحفصي والسلطان الظاهر بيبرس المملوكي باتخاذ التدابير اللازمة لرد الخطر الصليبي المحتمل على البلاد الإسلامية. فقام الظاهر بيبرس بتحصين الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط، وزودها بالجند والسلاح لمنع أي إنزال محتمل للصليبيين على أرض مصر، وذكر عبد الرحمن ابن خلدون هذه الاستعدادات قائلاً: "فاهتم الظاهر بحفظ الثغور واستكثر من الشواني والمراكب"[٣٥]، أي أنه قام بتدعيم الأسطول البحري المملوكي. كما اتصل بالبنادقة ووعدهم بمنحهم عدة امتيازات تجارية في السواحل المصرية والشامية، مقابل امتناعهم عن تقديم يد المساعدة البحرية للملك لويس التاسع الفرنسي، وأشار عليهم بأن يغالوا في شروطهم إذا أراد التفاوض معهم، وهو ما حدث بالفعل، فلجأ لويس التاسع إلى استأجار أسطول جنوه.[٣٦]

أما المستنصر الحفصي، فقد أصدر الأوامر إلى كل العمال في أنحاء السلطنة من أجل الاستكثار من العدة، وإصلاح الأسوار وتخزين المواد الغذائية كالحبوب[٣٧]، كما أرسل وفدًا إلى الملك لويس التاسع لاختبار موقفه ومحاولة كفه عن مشروعه، مقابل ثمانين ألفًا من الذهب، لكن الملك الفرنجي كان مماطلاً في موقفه، حيث كان في نيته غدر المسلمين ونكث العهود التي قطعها لهم عقب إطلاق سراحه من مصر بأن لا يطأ أرض المسلمين ثانية بموجب المعاهدة التي أبرمها مع المماليك.[٣٨] وقام الملك الظاهر بيبرس من جانبه بإرسال وفد إلى الملك لويس التاسع بهدف تحذيره من القيام بأي عمل ضد بلاد المشرق، وقد صيغ هذا التحذير في شكل قصيدة شعرية من نظم الشاعر جمال الدين بن مطروح[٣٩]، ألقاها السفير المملوكي على ملك الفرنجة وهو واقف، وأهم ما جاء فيها تذكير لويس التاسع بما جرى له في وقعة المنصورة في مصر وأنه لو عاد فسيلقى المصير نفسه.[٤٠]

وصادف وجود الوفد المصري في البلاط الفرنجي وجود الوفد الحفصي، لكن المصادر لا تفيدنا إن كان قد تم بينهما لقاءات أم لا.

لكن الراجح حسب الظروف الإقليمية وفي ظل الخطر المشترك أن الوفدان قد تقابلا وتحادثا في هذه المسألة التي تهم العالم الإسلامي برمته، وإن كانت مشكلة الخلافة التي أعلنها المستنصر الحفصي لا تزال تخيم على جو العلاقات المملوكية الحفصية، ومن المحتمل أن الوفد الحفصي قد طلب يد المساعدة من المماليك لما علم بأن الحملة ستتوجه إلى تونس وليس إلى مصر، حيث ما إن عاد الوفد المملوكي إلى مصر وأطلع الملك الظاهر بيبرس على اتجاه الحملة حتى قرر الوقوف إلى جانب الحفصيين ومساعدتهم لرد العدوان الصليبي، إذ كان المماليك رواد تحرير الأراضي المقدسة من بقايا الصليبيين وكان لهم خبرة في قتالهم وهزيمتهم.

ووعد الظاهر بيبرس بإرسال النجدات إلى الحفصيين، وأمر عرب برقة بالمسير إلى تونس وأن يحفروا الآبار على طول الطريق المؤدية إليها حتى تستفيد منها الجيوش المقاتلة ومن أراد التطوع لقتال الصليبيين في تونس.[٤١] وقد شرع فعلا في تجهيز الحملة المصرية لولا ورود الأخبار بانسحاب الصليبيين من تونس بسبب وباء الطاعون الذي قضى على الكثير من الجيش الصليبي، وعلى الملك الفرنسي لويس التاسع نفسه في شهر المحرم ٦٦٩هـ/ ٢٥ أوت ١٢٧٠م، وقد استقبلت هذه الأنباء بالارتياح الكبير في المشرق.[٤٢]

وذكر المقريزي في كتابه السلوك بأن المستنصر الحفصي بعث سنة (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) بهدية إلى الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي قام بتوزيعها على الأمراء والقادة والجند، ورد عليه برسالة أخرى يستنكر فيها عليه موقفه الانهزامي أمام الفرنج، وأنه لا يصلح لإمرة المسلمين لعدم تمكنه من مجابهة العدو في سواحل مدينة تونس[٤٣]، ولجوئه إلى عقد الصلح مع الفرنج والتزامه بأن يدفع لهم مقدارًا من المال تعويضًا عن الخسائر التي تكبدها الصليبيون، إضافة إلى ضريبة سنوية، وضمانه لحرية التجارة الأوربية بالسواحل الحفصية، وتبادل الأسرى.[٤٤]

(٥) دور المماليك في دعم حركة أبي يحيى زكرياء اللحياني

يُعَدّ أبو يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد الزاهد بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٥١هـ-٧٢٨هـ/١٢٥٣-١٣٢٨م)[٤٥] من الشخصيات الحفصية التي استعانت بالمماليك للوصول إلى الحكم بتونس. وكان اللحياني قد سافر إلى مصر سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، ولما بلغته مجريات الأحداث في تونس والفوضى السياسية الكبيرة التي كانت تعيشها المملكة الحفصية[٤٦]، قرر العودة وجهزه السلطان الناصر بجيش من المماليك إلى غاية طرابلس الغرب، وهناك اجتمعت حوله القبائل العربية وبايعته وانضموا إلى جيشه، ثم سار إلى تونس واستولى على الحكم.[٤٧]

وواجه اللحياني معارضة شديدة من طرف أبي بكر بن يحيى المنتخب أخ أبي البقاء خالد المخلوع، الذي تمكن من دخول تونس والإطاحة بحكم اللحياني الذي استقر في طرابلس الغرب، وكان ذلك سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م)، وقام أبنه محمد بالاحتفاظ بمدينة المهدية وكان أبوه بطرابلس الغرب، ولما بلغته هذه الأخبار اضطرب جيشه وقام بالاستنجاد بالنصارى لكي يرسلوا إليه أسطولا يحمله إلى المشرق، فبعثوا له ستة مراكب حملته وأهله وأولاده وماله وحاجبه أبي زكرياء بن يعقوب إلى الإسكندرية، واستخلف على طرابلس أبا عبد الله بن عمران من أصهاره، وقام بجمع العرب حوله وشن عدة حملات على تونس وذلك سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م).[٤٨]

وقام السلطان الملك الناصر المملوكي باستقدام اللحياني إلى القاهرة وأعلى من شأنه وقربه إليه.[٤٩] وفي سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م) وردت مكاتبات من تونس على اللحياني، جاء فيها بأن الحكم شاغر في تونس، وأن الناس قد اجتمعوا على الطاعة له، وقاموا بمبايعة نائبه محمد بن أبي بكر وأنهم في انتظار وصوله إليهم وعودته إلى الحكم.[٥٠] لكن اللحياني بقي في مصر، ولم يتسنى له العودة إلى الحكم إلى غاية وفاته سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٨م).[٥١]

ومن خلال هذه العلاقة بين السطان الناصر المملوكي وأبي يحيى زكرياء اللحياني الحفصي، تتبادر إلى الذهن مجموعة من الفرضيات حول الأهداف التي كان يسعى المماليك إلى تحقيقها من تدخلهم العسكري في تونس، وذلك من خلال تجهيز اللحياني بجيش من المماليك، وجعل أرض مصر منطقة تراجع والتجاء في له حالة انهزامه. ويمكن القول: أن السلطان الناصر كان يبتغي مد حكمه إلى المغرب الأدنى من خلال اللحياني وبالتالي تقويض أركان الخلافة الحفصية الناشئة. لكن تبقى هذه الطروحات في حاجة إلى الوثائق المثبتة لها.

خاتمة

من خلال العرض السابق يمكن القول: بأن الكثير من العوامل تدخلت في رسم معالم وطبيعة العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (١٣-١٤م)، حيث كانت دولة الحفصيين في إفريقية مجاورة لحدود دولة المماليك البحرية من ناحية الشرق، وكانت السبل والمسالك مفتوحة بين البلدين، ما ساعد على عملية التواصل المستمر عن طريق البر، أما من جهة البحر فكانت السفن دائمة الإبحار بين موانئ تونس وطرابلس الغرب وميناء الإسكندرية المصري. ولا شك بأن النظامين الحفصي والمملوكي كان لهما وجهات نظر متقاربة حول القضايا المصيرية المشتركة والتي تهم العالم الإسلامي مثل الخطر المشترك والمتمثل في العدو الصليبي، كما كان هناك بعض أوجه التنافر الدبلوماسي خاصةً في مرحلة انتقال الخلافة من بغداد إلى القاهرة وتونس، ما تسبب في بعض التنافر السياسي الذي سرعان ما زال لاحقًا.

الهَوامِشُ:

(١) تأسست الدولة الحفصية سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م على يد أبي زكرياء الحفصي بالمغرب الأدنى (إفريقية). وينتسب الحفصيون إلى أبي حفص عمر بن يحي بن عمر الهنتاتي، وهناك من يرفع نسبهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهم من قبيلة هنتاتة البربرية أكبر قبائل المصامدة بالمغرب الأقصى، والتي كانت السباقة إلى نصرة دعوة محمد بن تومرت، هذا الأخير الذي كنى جدهم عمر زعيم هنتاتة بأبي حفص وضمه إلى جماعة العشرة المقربين منه، وأصبح في عهد عبد المؤمن بن علي من كبار رجال الدولة. عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١، ص٥٧٧ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٤، ص٤٨ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية و تونس**، ط ٣، دار المسيرة، بيروت، ١٩٩٣، ص١٥٣ – ٢٠٠ روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، ج١، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٤٢.

(٢) أبو العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، ص ١١٢.

(٣) ابن الشماع، المصدر السابق، ص٥٣.

(٤) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص١١٢.

(٥) تقي الدين المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، ط٢، ج١، ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧، ج١، ص٣٨٥.

(٦) أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي، **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، ج٧، تح: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٢٦١٢٩ – أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، **البداية والنهاية**، ط ٦، ج ١٣، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٥، ، ص ١٦٠ – جلال الدين السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تح: أحمد إبراهيم زهوة، سعيد بن أحمد العيدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٣٥٥.

(٧) المطوي، المرجع السابق، ص١٨٩.

(٨) برنشفك، المرجع السابق، ص٧٠٧١.

(٩) أبو العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني ، **عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٢٠٩ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج٧، تح: إبراهيم علي طرخان، المؤسّسة المصرية العامة، القاهرة (د.ت)، ص٢٣٢ – ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٧، ص ١٤٤

(١٠) محمد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية**، ص ١٩٠.

(١١) نص الرسالة من كتاب: عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٠٧ ٤١٦.

(١٢) هو أبو محمد عبد الحق بن برطلة الأزدي المرسي، عالم محدث، درس بالأندلس ثم هاجر إلى المشرق، واستقر في تونس عقب عودته من الحج وتوفي سنة (٦٦١هـ/١٢٦١م). محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، ج١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٤٩هـ، ص ١٩٦ ابن قنفذ، الفارسية، ص١٢٠ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، **تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة**، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص٣٧.

(١٣) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ٤١٦.

(١٤) الزركشي، **الدولتين**، ص ٣٧ – مخلوف، المصدر السابق، ص ١٩٦.

(١٥) ابن الشماع، المصدر السابق، ص٦٩.

(١٦) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٠٧.

(١٧) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٠٩.

(١٨) المصدر نفسه، ج٦، ص٤١١.

(١٩) أحمد عزاوي، **العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط**، ج٢، مطبعة ربا نت، الرباط، ٢٠١١، ص ٩٢.

(٢٠) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص ١١٩.

(٢١) الزركشي، المصدر السابق، ص٣٤ – عزاوي، المرجع السابق، ج٢، ص٩٩.

(٢٢) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤١٦.

(٢٣) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ج٦، ص ٤١٦٤١٧.

(٢٤) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٤١٧، وقد أعلن بنو مرين مبايعتهم للمستنصر وتشبثوا بها لمدة طويلة نتيجة مواجهتهم للموحدين حيث طلبوا من الحفصيين المعونة والمساعدة ضد خصومهم. انظر: أبو العباس أحمد السلاوي الناصري، **الاستقصاء لأخبار دوَل المغرب الأقصى**، ج٣، تحقيق: محمد و جعفر الناصري، دار الكتب، الدّار البيضاء، ١٩٥٤، ص ٢٨ حيث يقول بأنه: "لما لم يكن لبني مرين أن يدعوا إلى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم وإياهم يتنازعون... دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم، والدعوة إلى فرع كالدعوة إلى أصله، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها".

(٢٥)**عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان**، ج١، تحقيق: محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٨٧، ص٢٩٣.

(٢٦) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٢٧) المطوي، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص٢٥٦.

(٢٨) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج، ص ٧٢ **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص٢٠٦ العيني، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٣ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص٢٣١٢٣٢.

(٢٩) المطوي، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٣٠) تقي الدين المقريزي، **كتاب السلوك لمعرفة دوَل الملوك**، ج١، تحقيق: مصطفى زيادة، لجنة التأليف والتّرجمة و النّشر، القاهرة، ١٩٧٢، ص٤٥١.

(٣١) أبو العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج٧، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٧٧.

(٣٢) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٧، ص ٣٧٨.

(٣٣) العيني، المصدر السابق، ج١، ص ١٧ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص١٣٦.

(٣٤) ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص١٣٧.

(٣٥) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٥، ص ٣٩٠.

(٣٦) المطوي، **الحروب الصليبية**، المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٣٧) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٥.

(٣٨) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٢٥ ٤٢٦.

(٣٩) هو يحي بن عيسى بن ابراهيم أبي الحسن بن مطروح جمال الدين (ت: ٦٤٩هـ/١٢٥١م)، كان رجلا ذا شأن عند الملك الصالح أيوب، وكان من أعلام النثر والنظم. العيني، المصدر السابق، ج١، ص ٦٢.

(٤٠) ذكرت القصيدة في عدة مصادر مع الاختلاف في بعض الكلمات والأبيات. العيني، المصدر السابق، ج١، ص٣٠ عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٦ ابن الشماع، المصدر السابق، ص ٧١ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص١١١. وللاطلاع على القصيدة يُنظر الملاحق.

(٤١) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٧٤٢٨.

(٤٢) المطوي، المرجع السابق، ص٢٠٨.

(٤٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٦٠١.

(٤٤) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٤٢٨.

(٤٥) الزركشي، المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤٦) بعد وفاة أبي عصيدة الحفصي سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) حكم بعده أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي زكرياء بن عبد الواحد لمدة ١٨ شهرًا، ثم وصل خالد بن المنتخب حاكم بجاية ودخل تونس وقتل أبا بكر في السنة نفسها مما حفز اللحياني على القيام بحركته. ابن الشماع، المصدر السابق، ص ٨٣٨٧ العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص ١٠٥.

(٤٧) ابن الشماع، المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤٨) عبد الرحمن بن خلدون، العبر ج٦، ص ٤٨٣.

(٤٩)المصدر نفسه، ج٦، ص٤٨٤.

(٥٠) العيني، المصدر السابق، ج١، ص١٠٧.

(٥١) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٤٨٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

انتقال إقليم كيرينايكا
من السيطرة البيزنطية إلى الحكم الإسلامي

حسين حمد حسين الفقيه

باحث دكتوراه تاريخ إسلامي
كلية الآداب – جامعة بنغازي
قاريونس– ليبيا

مُلَخَّصْ

لم يحظى تاريخ كيرينايكا الإسلامي إلا بدراسات قليلة وضحلة، ويدل على ذلك قلة المراجع التاريخية التي تتناول تاريخ هذا الإقليم، لذلك جاءت هذه الدراسة للخوض في ظاهرة مهمة في تاريخ الفتح الإسلامي - فبعد أن مرَّ الإقليم بتيارات عديدة من الاستعمار الأجنبي الأوروبي الذي فرض هيمنته ونهب خيراته وزرع الفتنة والشقاق بين أبنائه – جاءت الفتوحات الإسلامية لاستكمال نشر الرسالة السامية، فوجد المسلمين ترحيبًا كبيرًا من سكان كيرينايكا البربر الأمازيغ، تمثل ذلك في قبيلة "لواتة" البترية القوية، والتي قدمت الرجال والمال للحملة المباركة، فكان لذلك أبعد الأثر في نجاح حملة الفتوحات الإسلامية، حتى صار المغرب قاعدة الهجوم للجيوش الإسلامية ونقطة التراجع حين تشتد عليهم الهجمات والهزائم، ووفَّر عليهم الوقت والمال والأنفس، وفتح الباب على مصراعيه لفتح باقي المدن في المغرب، وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج السردي التحليلي المقارن، معتمدًا على أهم المصادر والمراجع التاريخية في هذا الموضوع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ يناير ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ مارس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الإمبراطورية الرومانية، نبات السلفيوم، الديانة النصرانية، فتح برقة، الفتوحات الإسلامية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسين حمد حسين الفقيه. "انتقال إقليم كيرينايكا من السيطرة البيزنطية إلى الحكم الإسلامي".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٦٨ – ٧٧.

مُقدِّمَةُ

دخلت كيرينايكا تحت السيطرة البيزنطية، ومع مرور الزمن وتعاقب الأباطرة اندمج بعض سكان الإقليم البربر في مجتمع الرومان وتكلموا بلغتهم وتثقفوا بثقافتهم، سُنة تقليد الضعيف للقوي، بينما نفر فريق منهم من الرومان ورفضوا هيمنتهم على بلادهم التي تحولت إلى مزارع رومانية، وأصبح ملاكها الأصليين عبيد يعملون فيها، ويؤدون الضرائب كذلك. ونتيجة لحركة التنصير التي فرضها الرومان على سكان ليبيا عامة وكيرينايكا خاصة، زاد ذلك من استياء الكيرينايكيين. كذلك قام الرومان بفرض هيمنتهم على تجارة نبات السلفيوم الذي كان مصدر رزق للكيرينايكيين، وقام الملاك الرومان بالسيطرة على مساحات شاسعة من أراضي كيرينايكا، وأدت عمليات جني المحصول الجائرة – من قبل الرومان – إلى انقراض هذا النوع النادر من النبات الطبي.

كل هذا كان له أبعد الأثر في التمهيد للفتح الإسلامي، وتيسير مهمته، فبعد أن فتحت مصر عنوة، أصبح الفاتحون المسلمين يتطلعون للتقدم في بلاد المغرب، لنشر الرسالة السامية التي جاءوا من أجلها. من المسلم به أن كيرينايكا كانت قاعدة انطلاق الجيوش الإسلامية نحو المغرب، ونقطة التمركز والانسحاب التكتيكي للقادة المسلمين، وذلك لطبيعتها الجغرافية الخاصة. وأجمعت أغلب الروايات التاريخية على أن فتح إقليم كيرينايكا كان سريعًا وسهلاً، وأن سكانها قد قدموا مبادرتهم للمسلمين طائعين مختارين.

الهدف من الدراسة

من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة، لمعرفة الأسباب والظروف التي ساعدت المسلمين على بسط سلطتهم على هذا الإقليم؛ وما هو الدور الذي قامت به كيرينايكا وسكانها في دعم حركة الفتح الإسلامي للمغرب العربي ؟ وما هي أبرز القبائل المحلية

التي ساعدت الجيوش الإسلامية وقدمت لها الدعم المعنوي والمادي والعسكري؟

أولاً: إقليم كيرينايكا قبل الحكم الإسلامي

١/١- دخول كيرينايكا تحت السيطرة البيزنطية

بوفاة بطليموس أبيون (Apione)[١] في سنة (٩٦ ق.م) آلت ملكية (كيرينايكا، Cyrenaica) إلى روما بمقتضى وصية هذا الملك[٢]، والواقع أن دخولها إلى حظيرة الدولة أو الإمبراطورية الرومانية كان أمرًا متوقعًا[٣]. فقد تدخلت (روما) في النزاع الدائر بين (بطليموس السادس) وأخيه الصغير، وأوصى الأخير بكيرينايكا إلى روما، إذ لم يعقبه وريث ذكر يرث العرش[٤].

وبعد وفاة بطليموس أبيون لم تبادر روما إلى مباشرة حكم كيرينايكا، وإنما اكتفت بالاستيلاء على أملاك التاج، وهي المعروفة بأرض الملك، وبفرض ضريبة على نبات (السلفيوم، Silphium) وسمحت لمدن كيرينايكا الخمس أن تتولى بنفسها إدارة شؤونها في بداية الأمر[٥]. وفي سنة (٧٤ ق.م) حُوِّلت كيرينايكا إلى ولاية رومانية وعُيِّن لها حاكم روماني، وهكذا انتقلت هذه المنطقة إلى روما بعد أن كان البطالمة يحكمونها مدة (٢٢٦ عامًا) وأصبح الخطر الروماني يربض على مسافة (٨٠٠ كلم) غرب الإسكندرية[٦].

وإزاء خطر استفحال هجمات القراصنة في البحر المتوسط، الذين كانوا يتخذون من إقليم كيرينايكا قاعدة لهم[٧]، قررت روما – بعد أن وجدت الفرصة والذريعة الملائمة – أن تضع فيه حامية عسكرية، ووضعت أول حاكم روماني على إقليم كيرينايكا. ولكن انشغال روما بالاضطرابات الداخلية وبمكافحة القراصنة وتجدد صراعها مع ثورات داخلية لم تركز اهتمامها على الإقليم وتنظيم شؤونه، مما أدى إلى عدم تحسن أحواله عما كانت عليه من قبل[٨].

لقد كان المستعمرون الرومان يعتبرون كيرينايكا ليست أكثر من منطقة إستراتيجية تتوسط البحر الأحمر وبالتالي فهي مختلفة عن (طرابلس trepoli)[٩] تمامًا من الناحية الإستراتيجية[١٠]. وفي سنة (٦٧ ق.م) وبعد أن دَمَجَت روما جزيرة (كريت crete) [١١] وإقليم (كيرينايكا) في ولاية واحدة[١٢]، وركَّزت روما اهتمامها على السيطرة عليه لحماية كريت من أي هجمات مباغتة من ناحية سواحله[١٣]، وأصبحت كيرينايكا كولاية مشيخة[١٤].

والجدير بالذكر؛ أن العصر الروماني شهد ثورتين لليهود قامتا في كيرينايكا (الأولى سنة ٧٠م، والثانية في سنة ١١٥م) [١٥] كان من نتائجهما أن تصدع كيان مدينة كيريني وغيرها، ودَبَّ الانحلال في المدن الرئيسية[١٦]. وفي الواقع أن ثورتا اليهود قد ساهمتا في استمرار القمع والاضطهاد الروماني ضد السكان مما أدى إلى ترك أغلبية سكان قورينا يعيشون في العراء بدون مأوى بالإضافة إلى ما كانوا يعانونه من تعاسة وفقر[١٧].

ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية نهائيًا في القرن الرابع الميلادي، كانت كيرينايكا في نطاق الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ولعل الحادث الوحيد المهم الذي عرفته كيريني في عهد الرومان وأيام البيزنطيين، هو انتشار النصرانية في ربوعها والذي سوف نتناوله في حينه[١٨].

ووضع البيزنطيون تنظيمات إدارية، كان القصد منها زيادة سيطرتهم على البلاد من النواحي الإدارية والعسكرية والاقتصادية، وبموجب هذه التنظيمات قُسّمت البلاد إلى ثلاث أقسام رئيسة هي: (منطقة طرابلس الساحلية – ومنطقة الدواخل الليبية – ومنطقة برقة "باركي")[١٩] وكانت كيرينايكا بدورها مقسمة إلى دوقيتين تتألف كل منها من أبرشية واحدة، وهما دوقية "بنتابوليس"[٢٠] وعاصمتها الإدارية (طلميثة – بتوليومايس) [٢١] ودوقية ليبيا وعاصمتها الإدارية (بارتينيوم، مرسى مطروح) [٢٢] وكانت منطقة كيرينايكا تابعة للحاكم البيزنطي في الإسكندرية بمصر[٢٣].

وخلال الحكم البيزنطي دهم طرابلس خطر "الوندال"[٢٤] احتلوها في أوائل القرن الخامس الميلادي، واستقروا فيها ما بين (٤٢٧-٥٣٣م) ودمروا ما استطاعوا تدميره، ومع أن الوندال لم يحتلوا كيرينايكا ذاتها إلا أن البلاد تأثرت بسبب هذه الكارثة التي أصابت شقيقتها[٢٥]. لكن الإمبراطوري البيزنطي "جوستنيان"[٢٦] أعلن الحرب على الوندال سنة (٥٣٤م) [٢٧] وأرسل قواته المُدجَّجَة بقيادة قائده الماهر "بيليساريوس"[٢٨] إلى المغرب فتغلب على الوندال وأسر قائدهم "جليمير"[٢٩] واستعاد كل المناطق التي سيطر عليها الوندال[٣٠].

وبعد وفاة جوستنيان (٥٦٥م) أدخل إصلاح إداري مهم، وذلك بإنشاء نظام الولايات، ولم تلحق به طرابلس الغرب التي ضمت هي وكيرينايكا (بنتابوليس) إلى المقاطعة المصرية. وفي سنة (٦٤١م) مات الإمبراطور "أرقيليوس" بعد أن خسر المقاطعات الشرقية في حروبه مع المسلمين، وخلفه الإمبراطور "كوستانت الثاني" وفي عهده فتح العرب مصر، ثم طرابلس الغرب[٣١].

وكان الحكم الروماني حكمًا عسكريًا بحتًا، حكم دولة غالبة على أمة مغلوبة، وساءت الحالة جدًا في زمن سيطرتهم، وصارت البلاد في فقر مدقع لا تقوى على ما فرضته الحكومة عليها من الضرائب، وكرهت الولايات جميعها حكم الرومان فلم يكرهوا توغل الفرس في مستعمرات الدولة الرومانية وفتحهم لممتلكاتها سنة (٦١٧م) لكنه لم يدم كثيرًا حيث قام الإمبراطور "هرقل"[٣٢] وأجلى الفرس عن مستعمراته وضايقهم في بلادهم فانسحبوا[٣٣].

٢/١- مقاومة سكان كيرينايكا للسيطرة البيزنطية

مع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل مع الروم بسُنَّة تقليد الضعيف للقوي، أما البربر الذين يسكنون الجبال وما ورائها فقد احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم، ولم يتأثروا بعادات الروم، ولذلك نراهم كثيرًا ما قاوموا الروم وحاولوا إجلاءهم عن وطنهم، ولم يتركوا فرصة للثورة إلا ثاروا عليهم للتخلص من حكمهم[٣٤].

وخير مثال على ذلك ما قامت به قبائل "النسامونيس"[٣٥] الليبية، حيث ثارت في الحدود الجنوبية لإقليم كيرينايكا، ضد دفع الضرائب

للجباة الرومان، وذلك في عهد "دوميسيانوس – Domiziano" سنة (٨٦ ق.م) [٣٦].

ونجد أن قبائل "المارماريداي" [٣٧] الليبية في كيرينايكا تقوم بهجوم ضد الرومان، حيث هاجمت المدن، وقد تصدت لها القوات الرومانية على عهد الإمبراطور "كلوديوس جوتيكوس" (٢٦٨-٢٧٠م) بقيادة "تيناجينو بروبوس" "Tenogino probus" حاكم مصر والخبير في حرب الصحراء، وانتصر هذا القائد على هذه القبائل وأنتزع مدينة كيريني التي كانت تقع تحت سيطرتهم [٣٨].

وكان الكيريناياكيون يستغلون طبيعة وادي الكوف فيشنون منه هجماتهم على منطقة المدن الخمس، ومن هذا المنطلق كان الهدف من إنشاء "قصر بني المقدم" [٣٩] وقصر "شيادن" في منطقة وادي الكوف، وكانت هذه الثغور الرومانية تعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والسابع الميلادي [٤٠]. هذه الأنظمة العسكرية وما يرتبط بها من ثغور إنما تكشف عن حقيقة الأوضاع في ليبيا في ظل الحكم الروماني [٤١]، وأنه على الحكومة الرومانية، سواء في كيريناياكا أو طرابلس، أن تكون متيقظة دائمًا لاحتمالات غزو تقوم به القبائل الليبية في أي وقت [٤٢].

وكان الروم على حق حين اتخذوا الحذر لاتقاء خطر البربر (السكان الأصليين)، ولكنهم كانوا مخطئين إذ بالغوا في ذلك مبالغة أشعرت الأهلين بخوفهم وأوجدت بين الجانبين – من أول الأمر – شعورًا من العداء والكراهية كان له بعيد الأثر في مستقبل الحكم البيزنطي في شمال أفريقية، فكانت الاستحكامات الحربية الكثيرة والجيوش المتنقلة والثابتة إيحاءً للحاكمين بالاستبداد والاعتماد على القوة في معاملة أهل البلاد ودافعًا لهؤلاء إلى أن يقفوا موقف العداء من الروم وكل ما يتصل بهم من حضارةٍ ولغةٍ [٤٣].

كانت الرباطات والحصون التي أقامها الرومان قد قَسَّمت البلاد إلى قسمين: الأول القسم الساحلي الذي ظهر فيه الحكم البيزنطي واضحًا جليًا، وتنتشر فيه الحضارة واللغة البيزنطيتان، والقسم الداخلي الذي باعدت السياسة الرومانية بينه وبينها، فبقيت فيه القبائل البربرية (المحلية) محتفظة بما لديها من قوة شخصية واستقلال، ونتيجة لكثرة صراعهم مع الروم فقد تعلموا منهم وسائل جديدة، في الحرب حتى تعادلوا معهم في القوة، بل كان النصر لأهل البلاد في كثير من الأحيان، فزادت جراءة البربر على اختراق الرباطات والهجوم على الولايات البيزنطية واحتلال الكثير من الحصون والمحارس، حتى صارت الدولة البيزنطية في شمال أفريقيا، شريطًا ساحليًا ضيقًا [٤٤].

ومما يشير إلى مقاومة الليبيين للظلم البيزنطي، أن الإمبراطور "فوكاس" [٤٥] عندما استولى على عرش الإمبراطورية سنة (٦٠٢م) وتفاقمت حالة البلاد سوءًا، تهيأت النفوس للثورة، مما جعل بعض القبائل الليبية تآزر "هرقل" [٤٦] متضامنة في ذلك مع معظم سكان الولايات الأخرى، حيث ترتب على ذلك هزيمة "فوكاس" ومن معه ونودي بهرقل إمبراطورًا في سنة (٦١٠م) [٤٧].

ويظهر مما سبق؛ أن ليبيا بمساندة قبائلها لهرقل؛ دليل واضح في كونها كانت تأمل في حكم أكثر عدلاً، يرعى مصالحها، ويهتم بشؤونها [٤٨].

ثانيًا: سياسة البيزنطيين في إقليم كيريناياكا

١/٢- احتكار نبات السلفيوم

كان نبات السلفيوم [٤٩] يوجد بكثرة بين الغابات الكثيفة التي تنمو على طول المنحدرات الجنوبية للهضبة الساحلية المطلة على البحر المتوسط، وكان يُعتبر ملكية خاصة للدولة بعد أن كان سكان كيريناياكا يتمتعون بحقوق المشاركة في جني المحصول، ولكن القانون الذي فرضته الولاية الرومانية حرمهم من كافة الامتيازات المتعلقة بنبات السلفيوم التي كانوا يتمتعون بها، فأصبح منذ ذلك الوقت حكرًا على الدولة الرومانية [٥٠].

وأدت هيمنة الحكومة الرومانية الطاغية على كافة الأراضي التي كان ينمو فيها نبات السلفيوم في كيريناياكا إلى تدمير محصول تلك الأراضي من السلفيوم، حيث كان جباة الضرائب، أو ملتزموا الضرائب يقومون باستثمار تلك الغابات بطريقة غير منطقية تاركين الحيوانات ترعى بين أحراشها مما أدى إلى تدمير ذلك النبات النادر [٥١].

كذلك يرى سترابون أن الليبيون عمدوا إلى إهلاك هذا النبات بإتباع وسائل خاطئة في جنيه [٥٢]. ويذكر أنه قد تم جمع ثلاثين ليبرة من نبات السلفيوم بعد مضي ثلاث سنوات على وفاة "أبيون" تم نقلها جميعًا إلى الخزينة العامة في روما، فهل كانت تلك الكمية من محصول نبات السلفيوم عبارة عن محصول الأراضي العيني؟ أم أنها كانت عبارة عن جزية التبعية للرومان، دفعتها المدن الكيرينايكية إلى روما؟ [٥٣].

والجدير بالذكر؛ أنه عندما قام يوليوس قيصر [٥٤] خلال عام (٤٩ ق.م) بفتح خزينة "ساتورنس" وجد فيها كمية من نبات السلفيوم الكيريناياكي من بين الأشياء الثمينة التي كانت محفوظة في الخزانة المذكورة [٥٥]. كل هذا أدى إلى استياء سكان كيريناياكا من احتكار المستعمر الروماني لمصادر ثروتهم وخاصة نبات السلفيوم، فخلق ذلك في نفوس السكان روح التطلع للثورة والتحرر من رِبْقة الاستعمار والاستغلال الروماني لخيرات بلادهم.

٢/٢- محاولة فرض الديانة النصرانية على السكان

دخلت النصرانية إلى ليبيا، وخاصةً إلى كيريناياكا منذ أيامها الأولى، حيث انتشرت على يد رهبان أتوا إليها من مصر، ومع أنها لاقت قبولاً عند بعض الناس، فقد كان انتشارها محدودًا، رغم كل ما بذله هؤلاء الرهبان من جهد في سبيل تحقيق أهدافهم، ورغم كل الجهود التي بذلها الرومان في سبيل نشر النصرانية في ليبيا؛ فإنها لم ترسخ في المنطقة [٥٦]، وكان انتشارها قليلاً عندما بدأ الفتح الإسلامي في ليبيا [٥٧].

وقيل أن "مرقس" [٥٨] صاحب الإنجيل الذي يُنسب إلى برقة، ويقال أنه هو الذي أسس أول كنسية بكيريناياكا قبل أن ينشئ

كنيسة الإسكندرية[٥٩]. ويرى فريق آخر أن اليهود هم أول من نقل فكرة الديانة النصرانية لكيرينايكا، فنحن نعرف أن "سيمون القوريني" هو الذي حمل الصليب المسيح على طريق الآلام في القدس[٦٠].

وكان أول أسقف لإقليم كيرينايكا سجله التاريخ؛ شخصًا يدعى "آموناس" سنة (٢٦٠ ق.م) [٦١]. وكان الأسقف "سينسيوس" الكيريني من أهم الفترة النصرانية في كيرينايكا، حيث تولى أسقفية طلميثة (Potolemayos) [٦٢]. وعند اعتراف الإمبراطور "قسطنطين الأول"[٦٣] بالديانة النصرانية في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي انتشرت النصرانية في ليبيا لكنها لم تقضي على الوثنية[٦٤].

وظهر في الشمال الأفريقي مذهب "دوناتس"[٦٥] الذي أطلق عليه "الدوناتية" وقبل أن ينتهي القرن الرابع الميلادي كانت الدوناتية قد انحرفت عن مبادئها وأصبحت محورًا يلتفت حوله اللصوص وقطاع الطرق، كذلك انتشر المذهب "الآريوسي"[٦٦] في كيرينايكا – الذي أتى إليها من الإسكندرية ومصر – حوالي نفس الفترة التي انتشر فيها المذهب الدوناتي[٦٧]. وعلى الرغم من جهود الإمبراطور "جتسنيان" وغيره من الأباطرة فإن الديانة النصرانية لم ترسخ في ليبيا، ونتيجة لذلك نرى أن الفاتحين المسلمين لم يصطدموا بأي معارضة عقائدية نصرانية عندما فتحوا الإقليم الكيريناكي سنة (٦٤٢-٦٦٣م)[٦٨].

وتشجيعًا للنصرانية فقد سلم الرومان لمن اعتنقها مناصب كبرى في الدولة ليكونوا لهم عونًا وركزًا، أما الذين قاوموا أو امتنعوا عن اعتناق النصرانية فقد عمل فيهم السيف عمله واضطُهدوا وطُوردوا وشُردوا، وهكذا أصبح الأهالي يعانون الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي معًا[٦٩]. وانتشرت الفوضى وعَمَّ الإرهاب والفساد، وكثرت الثورات والقلاقل وفُقد الأمن، وأصبحت ليبيا غابة لا تحكمها شرائع ولا تنظمها قوانين[٧٠]، وهذا بحسب رأيي ما يتكرر الآن في عصرنا الراهن، حيث تعم الفوضى من جديد المنطقة، نتيجة لتدخل بعض الدول وبصورة خفية في الشأن الداخلي لليبيا.

وهكذا؛ نرى أن سكان ليبيا رزحوا تحت وطأة القهر الروماني ردحًا من الزمان، انتشر فيه التمرد، وعَمَّت الفوضى، فهذه كانت حالة الأهالي تحت حكم الرومان النصراني، وانتهت هذه الحقبة بظهور الإسلام[٧١]، حيث خضع أهالي كيرينايكا لأول الفتوحات الإسلامية، وهذا برأيي راجع لنية السكان للتخلص من هذه الفوضى والانفلات الأمني.

٣/٢- تغذية الفتنة بين القبائل المحلية

من أهم السياسات التي اتبعها الرومان في احتلالهم للشمال الأفريقي، تغذية الصراع بين القبائل المحلية الليبية، وبث روح الفتنة بينهم، فقد كان العداء بين قبيلتي (البرانس[٧٢] والبتر[٧٣]) متأصّل قديم ويرجع سبب هذا العداء بينهما، إلى اختلاف أحوالهما الاجتماعية، وإغارة (الرُّحَّل من (زناته) – وهو فرع من قبيلة البتر – على مزارع (صنهاجة) - وهو فرع من قبيلة البرانس – مما اضطر صنهاجة إلى الاستعانة بالرومان[٧٤]. وهي السياسة نفسها التي اتبعها المستعمرون الفرنسيون في العصر الحديث، عندما فرقوا بين العرب والبربر إبَّان حقبة الاحتلال[٧٥].

استغل الرومان الخلاف القائم بين قبيلتي (البرانس والبتر)، خدمة لمصالحهم الشخصية، فوسَّعوا شقة الخلاف بينهما، بأن ضربوا فريقًا بفريق، وتمكنوا بذلك من السيادة وتثبيت أقدامهم بالبلاد، وبذروا بذور الشقاق بين عنصري السكان، وضمنوا بذلك السيطرة على بلاد المغرب ككل[٧٦].

وهذا الأمر في نظري يشبه أيضًا ما يحدث الآن في ليبيا، حيث أن هناك أيادي خفية تعمل على تغذية الفتنة والانقسام بين الليبيين من خلال دعم الثقافة الأمازيغية، إيحاءً لهم بأنهم سكان ليبيا الأصليين وغيرهم هم من الدخلاء، وتمييزهم عن باقي السكان.

وأدى ذلك النزاع بين البربر إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح، كان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي، إذ حال دون اتحاد أهلها، وسَهَّلَ غزوها، ومَكَّنَ المستعمر الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق آخر[٧٧].

ثالثًا: دور برقة في الفتح الإسلامي

١/٣- تعاون قبيلة لواتة مع الفاتحين المسلمين

كانت برقة وطرابلس – قبل الفتح الإسلامي – على أساس التنظيم الذي وضعه (موريق Maurice) إمبراطور بيزنطة (٥٨٢-٦٠٢م) تابعتين لمصر لكن آل (غريغوريوس Gregorius (جرجير)[٧٨] الذين استقلوا بإفريقية في أوائل القرن السابع الميلادي، اعتبروا هاتين المنطقتين داخلتين في دائرة نفوذهما[٧٩].

وكانت أخبار فتح العرب لمصر قد انتشرت في كل البلاد المجاورة لهما، وقد اشتملت هذه الأخبار على ما أبداه العرب من شجاعة في مقاتلة العدو، وعلى ما أظهروه من عدالة في أحكامهم، ومساواة بين الناس في الحقوق، واحترام معابد النصرانيين واليهود وأملاكهم وأعراضهم، فكانت هذه الأخبار – من حيث شجاعة العرب وإقدامهم – مرهبة لسكان إقليم برقة، ومثبطة لعزائمهم، ومن حيث عدالتهم وحسن معاملتهم مطمئنة لنفوسهم، وباعثًا لرغبتهم في التخلص من حكم الروم الذين سلبوهم نعمة الحرية واتخذوا منهم عبيدًا، ومن برقة مزرعة يعملون فيها ليوفروا لهم رغد العيش ومتع الحياة، وهم محرومون من كل شيء حتى مما يشبع بطونهم ويغطي أجسامهم، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى احتراف اللصوصية (ولا يزالون إلى الآن) لكسب لقمة العيش[٨٠].

وما كاد المسلمين ينتهون من فتح مصر والإسكندرية حتى اتجهت أنظارهم نحو إفريقية لفتحها، وتخليص سكانها الأصليين من ظلم الرومان وجبروتهم، وكان فتح مصر والإسكندرية مشجعًا على فتح إفريقية لما وجدوه فيهما من ثروة تمكنهم من جعلهما قاعدة لفتح المغرب إتمامًا لسلسلة فتوحاتهم الموفقة ولاستئصال نفوذ الروم من المغرب[٨١].

وكان طبيعيًا أن يفكر القائد "عمرو بن العاص"[٨٢] جديًا في فتح برقة وطرابلس لعاملين؛ الأول: أنَّ برقة كانت تعتبر امتدادًا لمصر، وإقليمًا متممًا لها[٨٣]. والثاني: رغبة عمرو في تطبيق سياسة الاستمرار في الفتح في اتجاه الغرب، لنشر الدين الإسلامي في كافة ربوع المغرب[٨٤].

ويذكر ابن عذاري أن عمرو بعد أن افتتح مصر سنة (٢٠هـ) وجه عقبة بن نافع[٨٥] إلى زويلة وبرقة فافتتحهما[٨٦]، ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الرواية في كتابه "المؤنس"[٨٧]، ويرى ابن الأثير أن فتح برقة كان في سنة (٢٢هـ)[٨٨]، ويوافقه في ذلك أبو الفدا في كتابه "المختصر"[٨٩]. ويذكر المؤرخ ابن تغري بردي بأن فتحها كان في أواخر سنة (٢١هـ)[٩٠].

وكان عمرو يبعث بالجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون وهذا بمثابة اختبار أو جس النبض لقوة الإقليم الكيريناكي[٩١]، ويبدو أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة بن نافع عن بلاد أنطابلس (بنتابولس) - كما كانت تسمى[٩٢] وهي برقة، فعجَّل بتسيير جيوشه لفتحها[٩٣].

سار عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه غربًا حتى قدم برقة، وكانت وقتئذٍ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواتة[٩٤] البترية[٩٥]، وهي أكبر قبائل البربر شأنًا، وأشدها بأسًا[٩٦]، وأوَّل قبيلة أمازيغية دخلت الإسلام ثم أصبحت من أكثر المناصرين للإسلام إيجابية، وكان لها دور مشرف في الإسلام، وبرز منهم أول قائد إسلامي من أصول أمازيغية وهو "هلال بن ثروان اللواتي" ضمن حملة "حسان بن النعمان"[٩٧] سنة (٧٤هـ/٦٩٣م) على المنطقة[٩٨].

ومما يدل على قوة لواتة هو ثورتها بزعامة "أنطالاس"[٩٩] على الحكم البيزنطي، وانتهت ثورتهم بمقتل "صولون"[١٠٠] القائد العام لجيوش بيزنطة في المغرب[١٠١]. ومن المؤكد أن عمرو بن العاص كان يقصد قبيلة لواتة بالذات حين قال قولته الشهيرة التي رواها ابن عبد الحكم نقلاً عن البكري حيث قال: "لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر علي عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس فإن لهم عهدًا يوفى لهم به"[١٠٢]. وكان عبد الله بن عمرو العاص يقول عن برقة: "لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها"[١٠٣].

والواقع أن قبيلة لواته كانت القوة الحقيقية في برقة، حتى أن العرب، وقد فطنوا إلى هذه الحقيقة، عرفوا كيف يتعاملون معها، مما سهل عليهم فتح برقة [١٠٤]. ويُرَجِّح الدكتور السيد عبد العزيز سالم، أن تحالف هذه القبيلة مع العرب ناتجًا من تشابههم معهم في البداوة، في حين يختلف البرانس عن العرب في كونهم متحضرين بالحضارة اللاتينية، ومستقرين في المدن[١٠٥]. ويرى أن العداء قد ازداد بين البتر والبرانس في العصر الإسلامي زيادة خطيرة، عندما تحالفت قبيلة زناتة البترية مع العرب الفاتحين منذ السنين الأولى للفتح، بينما تولى البرانس عبء المقاومة وأيدهم في ذلك الروم[١٠٦].

وحسب رأيي أن هذا الخلاف قد اختفى تدريجيًا بعد تولي المسلمين حكم المغرب، فلا نكاد نرى أي نزاع بين هاتين القبيلتين في المصادر التي دَوَّنت تاريخ المغرب الإسلامي.

ومهما يكن الأمر؛ فإن بربر لواتة كانوا ساخطين على البيزنطيين وكارهين لحكمهم الجائر، وتعسفهم في جباية الضرائب، كما ذكرنا سابقًا، ويبدو أيضًا أنهم أرادوا التخلص من سيطرتهم، وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر، فتطلعوا للخلاص منهم على أيدي العرب طائعين مختارين[١٠٧]، فصالحهم عمرو بن العاص نظير جزية يؤدونها، وهي دينار على كل حالم[١٠٨]. وفتحت مدينة أجدابية صلحًا مع برقة على خمسة آلاف دينار يؤدونها للمسلمين[١٠٩].

وتذكر أغلب المصادر أن عمرو بن العاص صالح أهل برقة على ثلاثة عشر ألف دينار جزية، على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم[١١٠]، ويستبعد الدكتور حسين مؤنس أن يطلب العرب منهم بيع أبنائهم في حالة عجزوا عن دفعها[١١١]. وفي رأيي أن ما قدموه من وفاء للعهد – حسب رواية ابن الحكم – وما قدموه من مساعدة للجيش الإسلامي لا يمكن أن يجعل المسلمين يرهقونهم بهذا الشرط القاسي.

وذكر ابن عبد الحكم نقلاً عن عثمان بن صالح "أن أهل برقة كانوا يبعثون له الجزية إذا جاء وقتها، وأنه لم يدخل برقة يومئذ جابي خراج" [١١٢]، مما يدل على أنهم رحبوا بالعرب، واطمأنوا إليهم[١١٣]. وربما كانت مبالغة السكان المحليين (البربر) في الخضوع للمسلمين دون حرب، ومبادرتهم إلى أداء الجزية بأنفسهم، أدلة على أنهم كانوا قد عرفوا قوة العرب من غاراتهم الصغيرة التي كثرت أثناء حصار الإسكندرية، وبعد الفراغ من فتحها، ومن الطليعة التي أرسلها عمرو إلى بلادهم بقيادة عقبة قبل الفتح، فعجلوا ببذل العطاء وأداء ما طُلب إليهم[١١٤].

٢/٣- اتخاذ برقة قاعدة الهجوم ونقطة التراجع للمسلمين

بعد فتح برقة سلميًا وتعاون أهلها مع الجيش الإسلامي، حيث مهدوا كل السبل للفاتحين لتسهيل مهمتهم، أصبحت برقة القاعدة الرئيسية للهجوم ونقطة التراجع الآمنة. وأول هذه الحملات هو انطلاق جيشين منها أحدهما يسير بحذاء الساحل، بقصد الاستيلاء على طرابلس وما يليها من مدن ساحلية، والثاني يتجه نحو جوف البلاد حيث الواحات الداخلية التي تؤلف مراكز للمقاومة في قلب البلاد، والتي لو تُركت وشأنها، لقطع أهلها خط الرجعة على الجيوش الإسلامية، وأهم هذه الواحات واحة فزان، فكانت هذه الحملة من نصيب عقبة بن نافع ونجح في مهمته، وأصبحت المنطقة بين برقة وزويلة مأمونة الجانب[١١٥]، وهذا العمل الحربي يدل على حنكة عمرو بن العاص وخبرته العسكرية [١١٦].

وعلى العكس من هذه الحملات السهلة في إقليم برقة، فقد وقفت ولاية طرابلس بقوة أمام العرب وتلقت حاميتها البيزنطية مساعدة قبائل نفوسة البربرية النصرانية في المناطق المجاورة،

وربما كان هذا بسبب رغبة هؤلاء في حماية تجارتهم واستمرار علاقاتهم مع البيزنطيين في الساحل[١١٧]، وفي رأيي أنه لولا مساعدة برقة وسكانها لاستعصى على الجيش الإسلامي إكمال فتوحاته بالمغرب وخاصة طرابلس لشدة مقاومتها.

وبعد فتح طرابلس على عهد عمرو بن العاص، عاد وانحسر سلطان المسلمين في المغرب إلى برقة، فخرجت طرابلس من طاعتهم عقب انصراف عمرو عنها إلى مصر، وكان عقبة قد اتخذ سرت ببرقة مركزًا لقواته وقاعدة لغزواته.

ظل عقبة مقيمًا في برقة حتى سنة (٢٨هـ/٦٤٨م) عندما قابل القائد عبد الله بن سعد بن أبي سرح[١١٨] عند قدومه إلى برقة في طريقه لفتح إفريقية، ولكن عقبة لم يشترك مع عبد الله بن سعد في حملته على إفريقية، وآثر البقاء في برقة ليراقب أهالي هذه البلاد، ويؤمن مؤخرة جيش المسلمين من أي هجوم يقوم به الروم أو البربر، حيث اكتسب خلال سنوات إقامته خبرة واسعة، نتجت عن تجاربه الكثيرة في محاربة البربر واحتكاكه بهم، وكان لذلك أثره الكبير في بقاء برقة على ولائها للعرب، وخاصة في الفترة الطويلة التي كان ينقطع فيها فتح العرب لبلاد المغرب من سنة (٢٣هـ إلى ٢٨هـ) ومن (٢٩ هـ إلى ٤٥هـ) وقد كسب الإسلام والعروبة بجهود عقبة مكسبًا كبيرًا، فقد كان قوي الإيمان شديد الحماس لدينه، محبًا للجهاد، وكان لذلك أعمق الأثر في فتح برقة، إذ لم يكن فتحًا حربيًا فحسب، بل كان فتحًا دينيًا، انتقل سكان هذا الإقليم على إثره إلى الإسلام والعروبة، واستطاع عقبة بفضل زهده وجهاده أن يُكَوِّنَ لنفسه أسطورة دينية عاشت منذ الفتح العربي لهذه البلاد حتى العصر الحاضر[١١٩].

وفي هذا الصدد يؤكد ابن الأثير ذلك بقوله أن عقبة كان مقيمًا ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص[١٢٠]. ومما يؤيد هذا القول؛ ما ذكره أبو الفداء حيث قال أنه قبل بناء مدينة القيروان في سنة (٤٩هـ) كانت برقة هي مقر الولاة وقادة الفتح الإسلامي[١٢١].

ومهما يكن الأمر؛ فإن الخليفة عثمان بن عفان[١٢٢] رضي الله عنه جهز جيشًا بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعُرِفَ هذا الجيش بجيش العبادلة، وأغلبه من أبناء الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا أغلبهم يسمون بعبد الله وعبد كذا، وأرسله إلى برقة، ومن برقة انطلقت سرية تقدَّمت الجيش إلى طرابلس، ولم تُحقق هذه الحملة الكثير، إلا أنها أوقفت المسلمين على حالة هذه البلاد[١٢٣].

وتبين تحركات الجيش الإسلامي سنة (٤٥هـ/٦٦٥م) بقيادة "معاوية بن حديج"[١٢٤] مدى تعاون برقة معه، وذلك لسرعة انتقاله ومروره من مصر إلى داخل المغرب[١٢٥]. حيث كانت هذه البعوث الفاتحة تغدو وتروح محملة بالغنائم من غير أن تلق مقاومة تُذكر[١٢٦]. وأما "سرت"[١٢٧] فيظهر أنها لقربها من برقة تأثرت بها، فهي منذ أن فتحها عمرو لم تبد نشاطًا عدائيًا لا ضد ابن أبي سرح في غزوتيه، ولا ضد ابن حديج، وأصبحت مسالمة كما سالمت برقة[١٢٨]. وفي سنة (٦٤هـ/٦٨٣م) انسحب المسلمون من القيروان إلى برقة، وذلك بعد فاجعة "تهوذة"[١٢٩] والتي قُتل فيها عقبة وأصحابه، وبقي "زهير بن قيس البَلَوي"[١٣٠] ينتظر المدد من الخليفة "عبدالملك بن مروان"[١٣١] حيث بقي مرابطًا بها حوالي خمس سنوات في قصره بسرت حتى وفدت عليه جيوش العرب وهو مقيم ببرقة[١٣٢].

وفي سنة (٦٩هـ/٦٨٨م) انطلقت الجيوش الإسلامية من برقة بقيادة زهير بن قيس البلوي، متجهة صوب إفريقية لتحريرها من قبضة "كسيلة"[١٣٣] وأثناء ذلك قام الروم بالهجوم على برقة[١٣٤] حيث أتوا بمراكبهم من جزيرة "صقلية"[١٣٥] ونزلوا ببرقة ليشنوا الغارات على من بها من المسلمين فأصابوا منهم سبيًا كثيرًا وقتلوا ونهبوا، وبلغت أخبارهم إلى زهير فأمر جيشه بالمسير لبرقة للقائهم، وكان زهير في ثُلَّةٍ قليلة من الجنود سار بهم على الساحل إلى أن بلغ "درنة"[١٣٦] بإقليم أنطابلس، وتوقف ينتظر بقية الجيش لكن الروم لم يمهلوه فلقيهم، وقاتلهم حتى استشهد هو وأصحابه، وقبورهم موجودة في مدينة درنه[١٣٧].

والتقى الجيش الإسلامي بجيش "الكاهنة"[١٣٨] في قتال شديد سنة (٧٥هـ/٦٩٤م) أسفر عن هزيمة المسلمين بقيادة "حسان بن النعمان"[١٣٩] وتراجع الجيش الإسلامي وتبعتهم حشود الكاهنة إلى إقليم برقة، حيث أقام بها حسان منتظرًا إمداداتٍ وعده بها الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان"، وأثناء إقامته في برقة أسس هناك ما يُعرف "بقصور حسان"[١٤٠].

وبعد أن أقام حسان ببرقة أربع سنوات ينتظر المدد من الخليفة[١٤١]، جاءته الإمدادات من المشرق وضَمَّ معها عدد كبير من البربر الذين أسلموا من قبيلة (البتر) وهاجم بهم جيوش الكاهنة التي التقى بها سنة (٨٢هـ/٧٠١م) عند بئر سُمّي فيما بعد ببئر الكاهنة، واستطاع هزيمتها هزيمة نكراء، وسحق جيشها وقتلها، وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأدنى، واستقامت له البلاد، وبعد أن فرغ حسان من استرداد إفريقية، والقضاء على مقاومة السكان المحليين (البربر) والوجود البيزنطي، أخذ يوجه عنايته لتنظيم البلاد إداريًا على نحو ما فعله العرب في مصر والشام والعراق وفارس، فَدَوَّن الدواوين، ونَظَّم الخراج[١٤٢].

وهكذا؛ فتح حسان بلاد المغرب حربيًا ومعنويًا في آن واحد، واستطاع أن يحول البلاد قلبًا وقالبًا إلى ولاية عربية إسلامية مستقلة نوعًا ما عن والي مصر[١٤٣]. وبهذا تكون بذرة الحرية التي بذرها الإسلام أكثر أهمية من هزيمة الروم العسكرية، فقد جاء الإسلام بقوانين تحمي حقوق وكرامة الإنسان وتؤمنها فالتحم الناس به وأصبحوا جزءًا منه، ولم تعد العلاقة بين الفاتحين وأهل البلاد علاقة بين مُحْتلٍ ومُحْتلاً أو بين مُعتدٍ ومُعتدىً عليه، بل أصبحت علاقة بين مُنقذٍ ومظلوم[١٤٤].

خاتمة

وهكذا، فولاية حسان بن النعمان تعتبر فاتحة فتح المغرب الحقيقي، فقد استقر المغرب بعد حسان وخاصة إقليم كيرينايكا (برقة)، ولقد توصلت من خلال دراستي هذه إلى العديد من النتائج، أهمها :

- إن إقليم كيرينايكا (برقة) ذو أهمية تاريخية كبيرة بالنسبة لليبيا، حيث يحتضن هذا الإقليم أروع الآثار الحضارية المتنوعة للعديد من الأمم التي أقامت به ردحًا من الزمن.
- كان الإقليم قاعدة الهجوم الإسلامي، ونقطة تمركز الجيوش الإسلامية به أثناء الفتوحات، وذلك لحصانته ووفرة خيراته، فكان أيضًا مكانًا تتزود منه الجيوش الإسلامية بالاحتياجات اللازمة لرحلتها في أعماق المغرب الكبير.
- كذلك كان نقطة تراجع حين تشتد هجمات البيزنطيين والبربر عليهم، وذلك عائد لحصانة هذا الإقليم ومناعته فهو نقطة دفاعية ممتازة ضد أي هجوم بري، نظرًا لارتفاعه حيث يكون قاعدة استطلاع ممتازة.
- إن ما قام به سكان الإقليم من تقديم العون والمساعدة للجيش الإسلامي، كان له أبعد الأثر في نجاح الفتوحات الإسلامية، وتمثل هذا الدور في قبيلة لواته البترية.

بحث بعنوان: "انتقال إقليم كيرينايكا من السيطرة البيزنطية إلى الحكم الإسلامي".- قُدم ضمن أعمال الندوة العلمية الثانية المنعقدة في قسم الدراسات التاريخية والأثرية بعنوان: "إقليم كيرينايكا عبر العصور"- كلية الآداب والعلوم (درنة) جامعة عمر المختار ، ١٦ مايو ٢٠١٣.

الهَوامِشُ:

(١) **بطليموس** أبيون: ابن بطليموس الثامن وهو ابن غير شرعي، أوصى له أبوه بحكم كيرينايكا قبل موته = الموسوعة الحرة، الرابط:/ بطليموس أبيون www.wikipedia.org/wiki/.

(٢) الهمشيري، منيرة محمد: **دبلوماسية البطالمة في القرنين الثاني والأول ق.م**، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة، ١٩٩٩) ص١٠٧.

(٣) يحي، لطفي عبد الوهاب: **دراسات في العصر الهلنستي**، دار النهضة العربية (بيروت، ١٩٧٨) ص٢٣٢.

(٤) الأثرم، رجب عبد الحميد: **محاضرات في تاريخ ليبيا القديم**، منشورات جامعة بنغازي (بنغازي، ١٩٩٤) ص١٨٥.

(٥) نفس المرجع والصفحة.

(٦) لطفي يحي، المرجع السابق، ص٢٣٢.

(٧) ناردوتشي، غوليام: **استيطان برقة قديمًا وحديثًا**، ترجمة: إبراهيم أحمد المهدوي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (سرت، ١٤٢٥) ص٨٨.

(٨) رجب الأثرم، المرجع السابق، ص١٨٦.

(٩) **طرابلس**: عاصمة ليبيا الحالية، يرجع تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد، عندما أسسها الفينيقيون كانت ثلاث مراكز تجارية (لبدة، أويا، صبراتة) ويطلق عليها " تري بوليس" = **الموسوعة العربية العالمية**، النسخة الإلكترونية، باب حرف الطاء.

(١٠) غوليام ناردوتشي، المرجع السابق، ص١٠١.

(١١) **كريت**: هي أكبر الجزر اليونانية، وخامس أكبر جزيرة في البحر المتوسط، مساحتها لا تزيد عن ٨٣٣٦ كلم٢ = الموسوعة الحرة، الرابط : / www.wikipedia.org/wiki/كريت.

(١٢) غوليام ناردوتشي، المرجع السابق، ص٨٦.

(١٣) رجب الأثرم، المرجع السابق، ص١٨٦.

(١٤) زيادة، نقولا: **برقة الدولة العربية الثامنة**، دار العلم للملايين (بيروت، د.ت) ص٣٧.

(١٥) رجب الأثرم، المرجع السابق، ص١٩٠، ١٩١.

(١٦) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص٣٨.

(١٧) غوليام ناردوتشي، المرجع السابق، ص١٠٠-١٠١.

(١٨) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص٣٨.

(١٩) **باركي** (Parce) : برقة وما يعرف الآن بالمرج القديمة، أسسها الإغريق في كيرينايكا في شرق ليبيا، لتصبح لاحقًا مدينة رومانية ومن ثم بيزنطية = الموسوعة الحرة، الرابط : / المرج القديمة/www.wikipedia.org/wiki.

(٢٠) **بنتابوليس** (Pentapolis): وتعني المدن الخمسة، وهي (قورينا) شحات الحالية، (أبولونيا) سوسة الحالية، (يوسبريدس) بنغازي، (بوتليموس) طليمثة، (برقة) المرج القديمة، وهي مدن أسسها الإغريق بداية القرن السابع ق.م. = الموسوعة الحرة، الرابط : / قورينائية/ www.wikipedia.org/wiki.

(٢١) **بتوليوماس** (طليمثة): مدينة أثرية في شمال شرق ليبيا، تبعد عن المرج ٢٠ كلم شمالاً = الموسوعة الحرة، الرابط : / طلميثة/ www.wikipedia.org/wiki.

(٢٢) **بارتينيوم**: عاصمة محافظة مطروح المصرية، وهي مدينة أثرية، وميناء بحري متوسطي = الموسوعة الحرة، الرابط : / مرسى – مطروح/ www.wikipedia.org/wiki.

(٢٣) المرتضى، محمد حسين: **طلائع الفتح الإسلامي في ليبيا**، مركز الجبل الأخضر للطباعة والنشر (البيضاء، د.ت) ص٤٧.

(٢٤) **الوندال** (Vandal) فرع من القبائل الأوروبية الجرمانية = الكاتب، سيف الدين: أطلس التاريخ القديم، دار الشرق العربي (بيروت، ٢٠٠٤) ص١٠٩.

(٢٥) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص٣٩.

(٢٦) **جوستنيان الأول** (٥٢٧-٥٦٥م) تولى العهد بعد "جُستين" واصبح الحاكم الفعلي، واكتسب خبرة واسعة في شؤون الحكم، وكان متواضعًا محبًا للعمل حتى أطلق عليه لقب "الإمبراطور الساهر" = عمران، محمود سعيد: **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية**، دار المعرفة الجامعية (القاهرة، ٢٠٠٠) ص٤٦.

(٢٧) الزاوي، الطاهر أحمد: **تاريخ الفتح العربي في ليبيا**، دار المدار الإسلامي (بيروت، ٢٠٠٤) ص٣١.

(٢٨) **فلافيوس بيليساريوس** (٥٠٠-٥٦٥م): كان أحد أعظم الجنرالات الرومان الشرقيين، كان مفيدًا لمشروع الإمبراطور جوستنيان الطموح = الموسوعة الحرة، الرابط : / بيليساريوس/www.wikipedia.org/wiki .

(٢٩) لم أعثر له على ترجمة.

(٣٠) الصلابي، علي محمد محمد: **صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي**، دار البيارق (عمان، ١٩٩٨) ص١٥٢.

(٣١) روسي، إتوري: **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب (د.م، ١٩٩١) ص٥١.

(٣٢) **هرقل** (Heraclius): إمبراطور بيزنطي، قاتل الفرس وهزمهم، هزمه العرب هزيمة حاسمة في معركة اليرموك (سنة ٦٣٦م) ولد سنة (٥٧٥م) وتوفي سنة (٦٤١م) = البعلبكي، منير: **معجم أعلام المورد**، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٢) ص٤٧٢.

(٣٣) الغزالي، السنوسي محمد: **برقة قديمًا وحديثًا**، دار الكتاب الليبي (د.م، ١٩٧٣) ص١١٢.

(٣٤) الطاهر الزاوي، المرجع السابق، ص٣٢.

(٣٥) من أشهر القبائل الليبية في إقليم قورينائية، وأكثرها عددًا، وموطنها لم يقتصر على المنطقة الساحلية فحسب بل امتد لمنطقة الدواخل = رجب الأثرم، المرجع السابق، ص١٠٣.

(٣٦) غوليام ناردوتشي، المرجع السابق، ص٩٢-٩٣.

(٣٧) فاضي

(٣٨) عبد العليم، مصطفى كمال: **دراسات في تاريخ ليبيا القديم**، منشورات الجامعة الليبية (بنغازي، ١٩٦٦) ص٩٩.

(٣٩) قصر المقدم، أو بني قديم: حصن روماني يقع غرب مدينة (ماسه) بحوالي ٣٠ كمل، شُيِّد هذا الحصن خلال الفترة الرومانية، ويبدو من خلال أسلوب البناء والشكل المعماري أنه استخدم في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ويتبين من خلال مقاومته تقلبات الدهر، قوة التحصينات الرومانية فيه = متاح على الرابط التالي:
http://www.facebook.com/National.Geographic.Cyrenaica

(٤٠) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص٩٥.

(٤١) المرجع نفسه، ص٩٧.

(٤٢) بازامه، محمد مصطفى: تاريخ ليبيا، مؤسسة ناصر للثقافة (د.م، د.ت) ٢٦/٨.

(٤٣) مؤنس، حسين: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، د.ت) ص٢١.

(٤٤) نفس المرجع والصفحة.

(٤٥) فوكاس: إمبراطور بيزنطي، حكم منذ (٦٠٢م حتى ٦١٠م) كان أكثر الأباطرة استنكارًا = **الموسوعة الحرة**، الرابط: فوقاس/www.wikipedia.org/wiki.

(٤٦) منير البعلبكي، المرجع السابق، ص٤٧٢.

(٤٧) محمود عمران، المرجع السابق، ص٦٩، ٧٠.

(٤٨) محمد المرتضى، المرجع السابق، ص٤٩.

(٤٩) **السلفيوم** : نبات بري منقرض كان ينبت في اقليم كيرينايكا (الجبل الأخضر) = الموسوعة الحرة، الرابط : / سلفيوم/www.wikipedia.org/wiki .

(٥٠) غوليام ناردوتشي، المرجع السابق، ص٨٩-٩٠.

(٥١) المرجع نفسه، ص٩٠-٩١.

(٥٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص٩٧.

(٥٣) غوليام ناردوتشي، المرجع السابق، ص٨٥-٨٦.

(٥٤) **الإمبراطور غايوس يوليوس قيصر**: (Gaius Julius Caesar) جنرال وقائد سياسي وكاتب روماني، ولد عام (١٠٠ ق.م) وتوفي عام (٤٤ ق.م) وهو أول من أطلق على نفسه لقب "إمبراطور" = الموسوعة الحرة، الرابط : / يوليوس – قيصر/www.wikipedia.org/wiki .

(٥٥) غوليام ناردوتشي، المرجع السابق، ص٨٦.

(٥٦) محمد المرتضى، المرجع السابق، ص٤٩.

(٥٧) ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: **المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس**، مطبعة الدولة التونسية (تونس، ١٢٨٦) ص٢٣.

(٥٨) **مُرقُس** (القديس) (Saint Mark) (القرن الأول للميلاد) صاحب إنجيل مرقس، أقدم الأناجيل Gospels الأربعة وأقصرها. لا نكاد نعرف عنه غير النذر اليسير، ويرجح الباحثون أنه كتب إنجيله في روما حوالي العام (٦٨م)، مركزًا فيه على أعمال يسوع أكثر من تركيزه على أقواله وتعاليمه = منير البعلبكي، المرجع السابق، ص٤٢٣.

(٥٩) محمد بازامه، المرجع السابق، ٦٠/٨.

(٦٠) البرغوثي، عبد اللطيف محمود: **التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي**، تاغمناست (المغرب، د.ت) ٣٧٩/١.

(٦١) **الموسوعة الحرة**، الرابط : تاريخ ليبيا القديم/www.wikipedia.org/wiki .

(٦٢) نفس المرجع والرابط.

(٦٣) قسطنطين العظيم (٢٧٢-٣٣٧م) إمبراطور روماني كان حكمه نقطة تحول في تاريخ المسيحية، وهو الذي أصدر مرسوم (ميلانو) = الموسوعة الحرة، الر ابط : / قسطنطين الأول/www.wikipedia.org/wiki .

(٦٤) **الموسوعة الحرة**، الر ابط : تاريخ ليبيا القديم/www.wikipedia.org/wiki .

(٦٥) **دوناتس**: رجل دين مسيحي أمازيغي ولد في الجزائر، قاد حركة الدوناتية ونجح أنصاره في تقليص نفوذ المذهب الكاثوليكي = المسوعة الحرة دوناتوس/www.wikipedia.org/wiki .

(٦٦) **الأريوسية** هي مذهب مسيحي وإحدى الطوائف التي لم يعد لها وجود في الوقت الحاضر، تُنسب إلى آريوس حوالي (٢٥٠-٣٣٦م) أحد كهنة الإسكندرية = الموسوعة الحرة الرابط : / آريوسية/ www.wikipedia.org/wiki.

(٦٧) عبد اللطيف البرغوثي: المرجع السابق، ٣٧٩/١، ٣٨٠.

(٦٨) المرجع نفسه، ٣٨١/١.

(٦٩) الفاضلي، فتحي: **جذور الصراع في ليبيا**، بدون معلومات نشر، ص١٤.

(٧٠) المرجع نفسه، ص١٥.

(٧١) نفس المرجع والصفحة.

(٧٢) **البرانس**: قبيلة كبيرة من الأمازيغ، ويقال أن العرب أسموهم البرانس لارتدائهم البرنس وقيل بأنه عائد للكلمة اليونانية (برانوس – Baranos) وهي تتفرع إلى عشرة بطون = الدراجي، بوزياني: **القبائل الأمازيغية**، دار الكتاب العربي (د.م، ٢٠١٠) ٤/٢.

(٧٣) **البتر**: قبيلة كبيرة من الأمازيغ، قيل بأن العرب أسموهم البتر نسبة للباسهم القصير الأبتر، وقيل خلاف ذلك يطول شرحه هنا، تتفرع هذه القبيلة إلى أربع بطون كبيرة، تكاد تكون مستوى شعب أو جمهرة = بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ١٠٢/١، ١٠٣.

(٧٤) سالم، السيد عبد العزيز: **المغرب الكبير**، دار النهضة العربية (بيروت، ١٩٨١) ١٣٩/٢.

(٧٥) نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٧٦) نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٧٧) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٦.

(٧٨) **جريجوريوس الثاني**: (جرجير) كما سماه العرب، خلفَّه والداه "نكيتاس" على حكم ولاية إفريقية خلال القرن السابع الميلادي = حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٣٩.

(٧٩) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص٤١.

(٨٠) الطاهر الزاوي، المرجع السابق، ص٣٤.

(٨١) نفس المرجع والصفحة.

(٨٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي: قائد عربي ولد سنة (٥٠ ق.هـ) فاتح مصر والمغرب، كان من دهاة العرب، توفي سنة (٤٣هـ) = الزركلي، خيرالدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين (بيروت، ٢٠٠٢) ٧٩/٥.

(٨٣) السيد سالم، المرجع السابق، ١٤١/٢.

(٨٤) نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٨٥) **عقبة بن نافع** بن عبد قيس الأموي القرشي الفهري: قائد فاتح من كبار القادة في صدر الإسلام، وهو باني مدينة القيروان، ولد سنة (١ ق.هـ) وهو فاتح أفريقية، استشهد على يد الإفرنج في تهودة سنة (٦٣هـ) = الزركلي، المصدر السابق، ٢٤١/٤.

(٨٦) ابن عذاري، أبو العباس أحمد المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ليفي بروفنسال وآخر، دار الثقافة (بيروت، ١٩٨٣) ٨/١.

(٨٧) ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص٢٢.

(٨٨) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٩٨٧) ٤٢٨/٢.

(٨٩) أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن علي: **المختصر في أخبار البشر**، تحقيق: محمد زينهم عزب وآخرون، دار المعارف (القاهرة، د.ت) ٢٠٥/١.

(٩٠) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: **النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية (بيروت، د.ت) ٩٤/١.

(٩١) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله: **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة، د.ت) ٢٣٢/١.

(٩٢) **بنتابولس** (Pentapolis) من الكلمة اليونانية (بنتا) وتعني خمسة (وبولس) وتعني مدينة وهي مدن أسسها الإغريق بداية القرن السابع قبل الميلاد في إقليم كيرينايكا بشرق ليبيا = الموسوعة الحرة، الرابط : / المدن الخمس/www.wikipedia.org/wiki. وذكرها ياقوت الحموي باسم أنطابلس، وهي عنده اسم لمدينة وليس لإقليم، وهو يضعها قريبا من برقة = الحموي، ياقوت بن عبد الله: **معجم البلدان**، دار صادر (بيروت، ١٩٧٧) ٢٦٦/١.

(٩٣) السيد سالم، المرجع السابق، ١٤٢/٢.

(٩٤) **لواته**: إحدى القبائل الأمازيغية التي كانت تقيم في برقة وسرت وهي أول قبيلة أمازيغية أسلمت = الموسوعة الحرة، الرابط : / لواته/ www.wikipedia.org/wiki.

(٩٥) ابن خرداذبه، عبيدالله بن عبدالله: **المسالك والممالك**، مطبعة بريل (ليدن، ١٨٨٩) ص٩١.

(٩٦) السيد سالم، المرجع السابق، ص/١٤٢-١٤٣.

(٩٧) حسان بن النعمان الغساني: قائد من رجال الحرب والسياسة، كان يلقب بالشيخ الأمين، ولي افريقية زمن معاوية، توفي بعد سنة (٨٦هـ) = الزركلي: المصدر السابق، ١٧٧/٢.

(٩٨) **الموسوعة الحرة**، الرابط : لواته/www.wikipedia.org/wiki .

(٩٩) أنطالاس: من أهم زعماء وملوك نوميديا والمقاومة المورية الأمازيغية، ظهر في القرن السادس الميلادي وعايش الغزوين البيزنطي والوندالي = الموسوعة الحرة/ أنطالاس/www.wikipedia.org/wiki

(١٠٠) **صولون**: بطريق بيزنطي، أسر وقتل على يد الملك أنطالاس النوميدي سنة (٥٤٦م) = الرابط: http://bendjoua.montadalhilal.com/t353-topic

(١٠١) السيد سالم، المرجع السابق، ١٤٣/٢.

(١٠٢) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ١٣٠/١.

(١٠٣) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: **فتوح البلدان**، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف (بيروت، ١٩٨٧) ص٣١٥.

(١٠٤) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص١٠٣.

(١٠٥) السيد سالم، المرجع السابق، ١٤٣/٢.

(١٠٦) المرجع نفسه، ١٣٩/٢-١٤٠.

(١٠٧) المرجع نفسه، ١٤٣/٢.

(١٠٨) ابن عذاري، المصدر السابق، ٨/١.

(١٠٩) الحموي، المصدر السابق، ١٠٠/١.

(١١٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ٤٢٩/٢. كذلك النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، وآخر، دار الكتب العلمية (بيروت، ٢٠٠٤) ١٩-٢٠/٢١٠. ابن عبد الحكم. المصدر السابق، ٢٣٠/١. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ٩٤/١.

(١١١) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٥٦.

(١١٢) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ٢٣٠/١.

(١١٣) السيد سالم، المرجع السابق، ١٤٣/٢.

(١١٤) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٥٦.

(١١٥) السيد سالم، المرجع السابق، ١٤٤/٢.

(١١٦) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٥٧.

(١١٧) طه، عبد الواحد ذنون: **الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس**، دار المدار الإسلامي (بيروت، ٢٠٠٤) ص٩٦.

(١١٨) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري: فاتح إفريقية، أسلم قبل فتح مكة، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أخو عثمان بن عفان رضي الله عنه في الرضاعة، توفي سنة (٣٧هـ/٦٥٧م) = الزهري، محمد بن سعد بن منيع: **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي (القاهرة، ٢٠٠١) ١٢٩/٦، ١٣٠.

(١١٩) السيد سالم، المرجع السابق، ١٩١/٢، ١٩٢.

(١٢٠) ابن الأثير المصدر السابق، ٢٨٢/٣.

(١٢١) أبو الفدا، المصدر السابق، ٢٣١/١.

(١٢٢) **عثمان بن عفان** بن أبي العاص بن أمية، من قريش: أمير المؤمنين، ذو النورين، ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ولد سنة (٤٧ ق.هـ/٥٧٧م) قتل على يد الثوار لاختصاصه أقاربه من بني أمية بالولايات بعد أن حاصروه بداره وذلك صبيحة عيد الأضحى سنة (٣٥هـ/٦٥٦م) = الزركلي، المرجع السابق، ٢١٠/٤.

(١٢٣) السيد سالم، المرجع السابق، ١٥٤/٢، ١٥٦.

(١٢٤) **معاوية بن حديج بن جفنة**، أبو نعيم: أمير، صحابي، والي مصر، له فتوحات بأفريقية، توفي سنة (٥٢هـ/٦٧٢م) = ابن العماد الحنبلي، عبدالحي بن أحمد بن محمد: **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب**، تحقيق: محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير (بيروت، ١٩٨٦) ٢٣٧/١. كذلك الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت، ١٩٨٩) ١٥٣/٤. الزركلي: المصدر السابق، ٢٦٠/٧.

(١٢٥) السيد سالم، المرجع السابق، ١٨٢/٢.

(١٢٦) الطاهر الزاوي، المرجع السابق، ص٦٦.

(١٢٧) **سُرْتُ**: مدينة على ساحل البحر الرومي (المتوسط) بين برقة وطرابلس، يقول البكري: مدينة كبيرة عليها سور وبها جامع وحمام وأسواق = الحموي، المصدر السابق، ٢٠٦/٣.

(١٢٨) الطاهر الزاوي، المرجع السابق، ص٨٠.

(١٢٩) **تهودة**، أو تهودا كما يصفها ابن عذاري: مدينة أزلية، بنيانها بالحجارة، لها أسواق كثيرة، وبها جامع وفنادق وسكانها من البربر = ابن عذاري، المصدر السابق، ٣٠/١.

(١٣٠) زهير بن قيس البَلَوي: أمير، من القادة الشجعان الفاتحين، تولى فتح برقة سنة (٦٩هـ/٦٨٨م) توفي سنة (٧٦هـ/٦٩م) = الزركلي، المرجع السابق، ٥٢/٣.

(١٣١) **عبد الملك بن مروان** بن الحكم الأموي: خليفة أموي، فقيهًا عالمًا ناسكًا تولى الخلافة سنة (٦٥هـ/٦٨٤م) توفي سنة (٨٦هـ/٧٠٥م) = الزركلي، المرجع السابق، ١٦٥/٤.

(١٣٢) ابن عذاري، المصدر السابق، ٣٠/١، ٣١.

(١٣٣) **كسيلة** أو أكسل: أمير أمازيغي، ولد في مدينة خنشلة الحالية، وكانت مملكته تضم كل الربوع التي بين تاهرت ووهران، قتل سنة (٦٧هـ/٦٨٦م) وخلفته الملكة الأمازيغية داهية = الموسوعة الحرة/كسيلة/www.wikipedia.org/wiki.

(١٣٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ٣١/١، ٣٢.

(١٣٥) **صقلية** "Sicile": جزيرة عظيمة ببحر الروم (البحر المتوسط) فتحها أسد بن الفرات سنة (٢١٢هـ/٨٢٧م) = واصف، أمين: **معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية**، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، د.ت) ص٧٢.

(١٣٦) **درنة**: مدينة جبلية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في شمال شرق ليبيا = الموسوعة الحرة، الرابط : /درنة/www.wikipedia.org/wiki .

(١٣٧) الثعالبي، عبد العزيز: **تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية**، تحقيق: أحمد بن ميلاد، وآخر، دار الغرب الإسلامي (بيروت، ١٩٩٠) ص٥٩.

(١٣٨) **الملكة ديهيا بنت تابنة** (٥٨٥م-٧١٢م) المشهورة بلقب الكاهنة ملكة أمازيغية وقائدة عسكرية قادت عدة حملات ومعارك ضد الرومان والبيزنطيين والعرب = **الموسوعة الحرة**، الرابط : /ديهيا/www.wikipedia.org/wiki.

(١٣٩) **حسان بن النعمان** بن عدي الأزدي الغساني: قائد من رجال الحرب والسياسة في الفتوحات الإسلامية ولي افريقية زمن معاوية، توفي بعد سنة (٨٦هـ/٧٠٥م) = الزركلي، المصدر السابق، ١٧٧/٢.

(١٤٠) البلاذري، المصدر السابق، ص٣٢١. كذلك السيد سالم، المرجع السابق، ٢٤٢/٢، ٢٤٤، ٢٤٥.

(١٤١) عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص٧٤.

(١٤٢) السيد سالم، المرجع السابق، ٢٤٦/٢، ٢٤٧، ٢٤٨.

(١٤٣) المرجع نفسه، ٢٥٠/٢.

(١٤٤) فتحي الفاضلي، المرجع السابق، ص١٦-١٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

دور البابوية والهيئات الدينية في إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية

أحمد جميات

أستاذ مشارك– قسم التاريخ
جامعة محمد بوضياف
المسيلة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

يتناول المقال البابوية ودورها في التحريض على إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، خاصةً بعدما أدرك الحكام المسيحيون أهمية العامل الديني في تماسك الجبهة الإسلامية، وأصبحت الممالك المسيحية في حاجة إليها لتدعمها في حربها ضد المسلمين، وكان في مقدمة الساعين لترسيخ هذا العامل في الصراع العسكري بين المسلمين والمسيحيين المنظمات الديرية؛ وعلى رأسها دير كلوني، حيث شجعت على إنشاء هيئات دينية تستلهم عزيمتها من سلوك الرهبان والقساوسة، وتكون بمعزل عن تقلبات السياسة، وتبقى دومًا في المركز المتقدم لمواجهة المسلمين، بحماية الثغور والجوسسة، وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت العديد من الجماعات والهيئات الدينية، ومن أهمها: فرسان الداوية، وقلعة رباح، وشانت ياقب، والقنطرة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ١٢ يناير ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٤ مارس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

دير كلوني، العامل الديني، قلعة رباح، شانت ياقب، القساوسة الكاثوليك

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد جميات. "دور البابوية والهيئات الدينية في إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٧٨ – ٨٤.

مُقَدِّمَةُ

ارتبطت منطقة شبه الجزيرة الإيبيرية منذ القدم بشمال إفريقيا بحكم الموقع الجغرافي والغزوات البربرية، حتى أنه يُعتقد أن أصل القبائل الإيبيرية من شمال إفريقيا، وأن سكان "الباسك" إحدى هذه القبائل. وزاد الارتباط بعد سنة (٩٢هـ/٧١١م) بعدها أصبحت تحت حكم المسلمين، إلا أن هذا الارتباط الأخير لم يدم طويلاً، نظرًا لتباعد وجهة نظرة العقيدتين في سيدنا عيسى "عليه السلام". فبدأت فكرة حروب الاسترداد تتجلى في مقاومة اشتوريس على يد رجل يدعى بلايو منذ البدايات الأولى لتواجد المسلمين، وزاد هذه المقاومة قوة، انهزام المسلمين في معركة بلاط الشهداء سنة (١٤٢هـ/٧٣٣م) على يد كارل مرتل[١]، بوضعه حدًا لفتوح المسلمين في غرب أوربا، وبهذا نمت المملكة المسيحية واتسعت حدودها، إلى أن أصبحت بعد معركة العقاب ثلاث ممالك مسيحية هي: (قشتالة، واراغون والبرتغال). بينما اتجهت البرتغال جهة الغرب، عملت اراغون وقشتالة على تحقيق الغاية القومية الدينية الكبرى، وهي إسبانيا المسيحية. وعليه نتساءل ما هي العوامل التي ساعدتها على تحقيق هذه الغاية، وهل للبابوية والكنسية دور في تحقيق أمنية تشكيل إسبانيا الكاثوليكية؟

أولاً: دور البابوية ورجال الدين

يعود اهتمام القساوسة الكاثوليك بشبه الجزيرة الأيبيرية، منذ أن كان القوط الغربيون[٢] على المذهب الأريوسي[٣]، فمد كلوفيس ملك الفرنجة يده نحو الجنوب لإزاحتهم ونظروا إليهم كهرطقيين[٤]، وفي يوم الأحد١٣ أفريل٥٨٧م أعلن الملك فلافيوس ريكاردو تحوله إلى المذهب الكاثوليكي[٥]، حيث أعتنق الكثير من الأساقفة الكاثوليكية[٦]، مما جعل البابا غريغوري الأول يهنئه -حسب رأيه- بالرجوع إلى العقيدة السليمة، ويرسل له بهدية هي قطعة من خشب الصليب ومفتاح كنيسة القديس بطرس.[٧] وبعد الفتح الإسلامي بدأت الروح الصليبية تتجلى في مقاومة أشتوريس،

وخاصةً حين ساد الاعتقاد باكتشاف جثمان القديس يعقوب[٨]، فأصبح مع الزمن محجا لمسيحيي شبه الجزيرة الأيبيرية وأوربا[٩]. وهنا يقول أمريكو كاسترو "وبذلك أسهموا في الإبقاء على إسبانيا المسيحية مرتبطة بباقي أوربا".[١٠]

كما ارتبط اسم جثمان القديس يعقوب بالحروب مع المسلمين من خلال إذكاء الحماسة الدينية، حتى أنهم أصبحوا يدعون لرعاياهم بأن القديس يعقوب يبشرهم بالنصر ويحارب معهم، حتى صار في نظرهم حامي إسبانيا،[١١] وأصبحت صيحة الحرب بين القوات الإسبانية عبارة "Saintiago y Cirre Espana"[١٢]. كما أظهروا بعض المعجزات، ومنها: ظهور القديس يعقوب، للملك راميرو الأول وقال له :" قام يسوع بإرسال باقي الرسوليين من إخوتي وأنا معهم إلى كافة أقاليم الأرض، وأعطاني أنا وحدي إسبانيا وطلب مني المحافظة عليها وحمايتها من أيدي أعداء الدين... وحتى لا تَشُك في شيء مما أقول لك حاول أن تراني وأنا أمتطي صهوة جواد أبيض وأضع خوذة بيضاء وأحمل سيفًا يتلألأ في يدي"[١٣].

ويضيف أمريكو كاسترو: لقد كان لتعاليم الكنيسة الفضل في تحويل نسبة كبيرة من حروب الحدود إلى حروب صليبية لنشر المسيحية، أو القضاء على غير المسيحيين[١٤]، وكثيرًا ما كان ينتحل الباعث الديني بقصد إلقاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية [١٥]، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب [١٦]، لأنهم كانوا يرون في المسلمين مجرد هراطقة[١٧]جامحين وأعداء ضاريين، حسب رأي نورمان كانتور[١٨]، وأغمضوا عيونهم عن المكاسب التي كانوا من الممكن أن يتحصلوا عليها من خلال الاتصال بالأمة الإسلامية[١٩].

وفتنة المستعربين[٢٠] سنة(٢٣٥هـ /٨٥٠م)، خير دليل على ذلك، حيث بانت نوايا البابوية ورجال الدين، وهذا بتحريض الشباب المسيحي على سب قيم الإسلام علنا، مما زاد في الفتن الداخلية.[٢١] ومنذ مطلع القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري تغير مفهوم الحرب الصليبية بدخول الأديرة وعلى رأسها دير كلوني[٢٢]، وذلك لتشجيع نظامهم، وطقوسهم[٢٣] الرومانية[٢٤] مستغلين وجودهم لدعم الحرب الصليبية ضد المسلمين.[٢٥]

كما منح البابا الإسكندر الثاني(Alexande II)(١١٥٩-١١٨١م) في سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٣م)، غفرانًا، للفرسان الفرنسيين الذين ذهبوا لقتال المسلمين في إسبانيا- أو ما تسمى بالحرب العادلة-[٢٦]، واستغل البابا غريغوري السابع (Gregory VII) (٤٦٥-٤٧٧هـ/١٠٧٣-١٠٨٥م)، عون ودعم الممالك المسيحية، ليعرض على المتطوعين ممثلون بابويون، مع تبعية الأرض التي يخضعونها للبابوية[٢٧]، لاستخلاصها من أيدي الوثنيين حسب زعمه- أي المسلمين-[٢٨]، وحسب ديفز: فإنه كان يُعد مشروع جديد ضد المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية خدمة للكنيسة الكاثوليكية [٢٩]، وهو أول مَنْ استخدم عبارة جيش المسيح- أي غريغوري السابع-[٣٠]، وبذلك صاغ فكرة الحرب المقدسة[٣١].

ومن ذلك الحين أصبحت الحرب ضد الإسلام، تنحى منحى صليبيًا، مما جعل غريغوري السابع، يقترح شن حملة ضد الشرق تقودها البابوية[٣٢]، وهذا ما زاد في تقرب البابوية بالممالك المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية[٣٣]. في حين كان يتأهب جموع الغرب للسير إلى الشرق، أصدر البابا إيربان الثاني (Urban II) مرسومًا، يحرم على الإسبان الاشتراك في الحرب الصليبية[٣٤]، لأن حسب رأيه أعداء المسيحية يهددونهم[٣٥]، هذا ما شجع رجال الدين، أن يتقدموا إلى ميدان المعارك، بل ويقودون الحملات أحيانًا مع الدوقات، والأشراف، والملك[٣٦]، واجتمعوا في جهة واحدة لقتال المسلمين[٣٧]، وهنا يقول يوسف أشباخ: "وقد كان لرجال الدين الإسبان الفضل في وحدة اللغة والدين، والأخوة التي بفضلها عاد السلام بعد الخصام بين الأمراء المسيحيين"[٣٨].

كما شجعت البابوية في عهد البابا أونسنت الثالث (Innocent III)، على إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس،حيث اصدر أمره إلى رئيس أساقفة طليطلة لصرف الأموال ، لقتال جيش الموحدين[٣٩]. مما جعل الخليفة الناصر يعتذر عن هزيمة العقاب على لسان الشيخ ابن عياش: "فبث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى، ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر غوثًا غوثًا ورحى رحى، فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق... وكان أولهم سبقًا الإفرنج في الشرق والشمال، ثم تبعهم البرجلوني بما عنده من العدة والرجال. وكان صاحب نبرة متعلقًا من الموحدين بذمام، ومنقادا إليهم أبدًا في أسمح زمام، فسخط عليه صاحب رومه إن لم يكن لقومه معسكرًا ولسواد أهل ملته مكثرًا، فلحق بتلك الجموع مرهجًا[٤٠]، وتوسط بحرهم المزيد ملججًا، كل ينادي الصليب، ونحن ننادي بالسميع المجيب."[٤١]

ولما أراد خايمي الأول ملك أراغون (Jaime I)(٦١٠-٦٧٥هـ/١٢٣١-١٢٧٦م)، أن يستولي على القواعد الأمامية لإقليم بلنسية، طلب من البابا غريغوري التاسع (Gregory IX)، أن يدعمه، فأصدر مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية على حروبه[٤٢]، فهرع إليه الفرسان والسادة، مع سن ضريبة الماشية العينية، مساهمة في نفقات الحرب[٤٣]. كما تحمس البابا سيكستوس الرابع، لإنهاء مملكة بني الأحمر، فسمح لإزابيلا (Isabella) وزوجها فرناندو الخامس(Fernando V) ملك قشتالة وأراغون، بتحصيل ضريبة الحرب ضد المسلمين[٤٤].

أما خلفه أنوست الثامن، فقد تلقى الخبر بإنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية من طرف الملك فرناندو الخامس، قائلاً ومبشرًا: "ولدك المطيع المخلص ملك قشتالة وليون وأراغون وصقلية وغرناطة، يقبل قدميك ويديك الطاهرتين خالصتي الطهارة... يبشرك بأن ربنا انعم علينا بنصر مبين على أندلسي غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكي الطاهر[٤٥]، وتم في هذا اليوم الثاني جانفي (١٤٩٢م /١ ربيع الاول٨٩٧هـ)"[٤٦]. وبعد نجاح الكنيسة ورجال الدين في تأجيج روح الحماس الديني، وتقوية الروح

الصليبية دفع بملوك الممالك المسيحية، إلى إنشاء جماعات دينية محاربة، تسلحهم عزيمتها من سلوك الرهبان والقساوسة.

ثانيًا: جماعة الفرسان الدينية

تعود فكرة إنشاء الجماعات الدينية، إلى النجاح الذي حققه الرهبان والقساوسة، بعد مشاركتهم في الحروب، مما جعل الملك الأراغوني الفونسو الأول الملقب بالمحارب، ينشىء أول جماعة دينية محاربة.[٤٧] في حين لم تكن قد قامت في المشرق الإسلامي أية جماعة من هذه الجماعات، حسب رأي يوسف اشباخ[٤٨] ويرى الكتاب المستشرقون بأن المسلمين أنشأوا قبل ذلك نوعًا من الفرسان لحماية الحدود يسمون بالمرابطة[٤٩]، بينما يخطئون - حسب ما يظهر- حين يقولون بأن كلمة الرباط هي في الأصل لكلمات إسبانية مثل (Arrebatar، Rabato)[٥٠]. وكان الباعث الديني والروحي هو الأساس في ميلاد هذه الجماعات، ما جعلها تتأثر بأقوال الكنيسة، ومنها: "سوف تُقتلون وأنتم تحاربون في سبيل الرّب لكنكم سوف تتلقون التاج الأعظم"[٥١].

ولما توفي الفونسو المحارب، خص في وصيته بنصيب من مملكته، إلى كل من الإستبارية (Hospital)[٥٢]، والمعبد(Temple)[٥٣]، باعتبارهم حماة المسيحية في بيت المقدس[٥٤]. مما جعل جماعة الفرسان تفكر في إنشاء هيئات دينية، في شبه الجزيرة الأيبيرية، فهيأ لهم رامون الثالث . حاكم أراغون . الفرصة بعد أن اعتنق مبادئ المعبد (الداوية)[٥٥]، ولما خلفه ابنه رامون الرابع (Ramon Berenguer)، سار في نفس الطريق الذي رسمه أبوه[٥٦]، فعمل على توطيد أعداد كبيرة منهم، حيث تقرر بصفة رسمية في مجلس ديني، منح الفرسان بعض الحصون المطلة على لاردة (Lérida)[٥٧] سنة (٥٢٧هـ /١١٣٣م)[٥٨]، وسرعان ما ظهرت أهمية العون الذي يقدمه فرسان الداوية في كل حرب، تنشب بين المسلمين، فعهد إليهم بحراسة معظم الحصون التي فُتحت[٥٩]، وعندما قام ألفونسو السادس (Alfonso VI)(٤٦٥-٥٠٢هـ/١٠٧٢-١١٠٩م) بالاستيلاء على قلعة رباح (Calatrava La Vieja)[٦٠] سنة (١١٣٤م/ ٥٢٨هـ) كلف جماعة الداوية بمهمة الدفاع عنها[٦١].

وهذا دليل آخر على أنه لم يكن في قشتالة أي نوع من الميليشيات المنظمة على شاكلة الجماعات الحربية، حسب رأي أمريكو كاسترو[٦٢]، بينما حسب رأي يوسف أشباخ، لابد من قيام جماعة مستقلة من الفرسان لتذود عن الدين المسيحي، تكون بمعزل عن تقلبات السياسة في الممالك المسيحية[٦٣]، وقد ساعدهم على ذلك رجال الدين، لأنهم كانوا يعيشون من أجل الحرب، والدعوة إلى الصليب[٦٤]. ولما عجز فرسان الداوية عن الدفاع عن قلعة رباح، أمام زحف الموحدين سلموها إلى ملك قشتالة سانشو الثالث (Sancho III)[٦٥]، مما جعل الراهب رامون(Ramon)يستغل الفرصة، وينشئ جماعة دينية[٦٦]، وبعدما أيده مطران طليطلة، بدأ في إلقاء الخطب والعظات حيث وعدهم بالغفران على كل من يدافع عن قلعة رباح، فاستجاب له الآلاف من المتطوعين كما قُدم له الخيل والسلاح[٦٧].

وهكذا قامت جماعة" فرسان قلعة رباح" سنة (٥٥٥هـ/١١٦١م)، وانتخب الراهب رامون أول رئيس لها، وصادق البابا إسكندر الثالث على قيامها[٦٨]، وطبقت عليها النظم الحربية لطائفة السسترسيان[٦٩]،[٧٠]، وحسب رأي أمريكوا كاسترو، أن المادة الإسلامية المسيحية يتم الآن وضعها من جديد في قوالب فرنسية[٧١]. ولما رأت الممالك المسيحية أهمية الدور الذي تضطلع به به هذه الجماعات، من خدمات للدين المسيحي، وصد هجمات المسلمين، وتقديم الدعم والمساندة، وبخاصةً في حماية الثغور والجوسسة، شجعت على إنشائها، ففي سنة (٥٥٢هـ/١١٥٨م) أنشأ الفونسو أنريكيث (Alfonso Enriquez)(٥٣٣-٥٨١هـ/١١٣٩-١١٨٥م) ملك البرتغال، جماعة دينية محاربة جديدة سميت بـ (Nova Milirja) وشعارها القتال من أجل الدين المسيحي[٧٢].

أما في سنة (٦٥٨هـ/١٢٦١م) قامت جمعية محاربة جديدة هي جمعية القديس ياقب (Santiago)[٧٣] في جليقية، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدة فرسان من قطاع الطرق[٧٤] لكنهم تابوا بعد وعظهم من طرف رجال الدين، وفق منهج القديس أوغسطين[٧٥]،[٧٦]. ومنذ القرن الثالث عشر الذي يوافق ظهور مملكة بني الأحمر، تفردت شبه الجزيرة الإيبيرية بظهور ثلاث جماعات هي: (جماعة قلعة رباح، وجماعة شانت ياقب، وجماعة القنطرة)، بصفتها قوة سياسية وعسكرية[٧٧]. حيث شاركت هذه الجماعات في الحملات العسكرية التي استهدفت الاستيلاء على مدن الأندلسية، وكان لفرسان قلعة رباح دور في سقوط مدينة بلنسية، تحت راية ملك أراغون خايمي الأول (Jaime I)(٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م)[٧٨]، ولما دخل ملك قشتالة فرناندو الثالث(Fernando III)(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) مدينة جيان، ابتهج رجال الدين بالنصر، وكلف الفرسان بحراسة المدينة ومعظمهم جماعة فرسان شانت ياقب، وقلعة رباح[٧٩].

وفي سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، قدّم فرسان شنت ياقب، وقلعة رباح، لملك قشتالة الدعم في غزو إشبيلية، حيث كلفهم بتخريب القرى، ولما احتلوها قاموا رفقة رجال الدين بتحويل المساجد إلى كنائس،[٨٠] وعبر يوسف أشباخ عن هذا الموقف بقوله "وشهد المسلمون بأفئدة حزينة، كيف أزيلت قبور آبائهم وأجدادهم خلال هذا التغيير"[٨١].

هذا وقد تجرأ، دون مارتن قائد جماعة فرسان القنطرة سنة٧٩٧هـ/١٣٩٤م، على أن يدعوا سلطان غرناطة، محمد السادس (٧٩٥-٨١٠هـ/١٣٩٣-١٤٠٨م) إلى الدخول في المسيحية، وإذا لم يستجب فليستعد للحرب[٨٢]، وفي ٢٦ أبريل (١٣٩٤م/ ٢٤ جمادى الثانية ٧٩٦هـ) سار إليه بجيش تعداده خمسة آلاف مقاتل، أسفرت هذه المعركة عن مقتل أعداد كبيرة من المسيحيين وعلى رأسهم قائد جماعة القنطرة[٨٣].

ومنذ انحصار مملكة بني الأحمر في الركن الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيرية كانت البابوية ورجال الدين والفرسان، دعمًا لملوك الممالك المسيحية، وقد تغنى رجل الدين "أنطونيو آغابيد" بالفرسان قائلاً: "إنه كان مشهدًا رائعًا للقضاء على هؤلاء الكفرة... من طرف فرسان البلاد ورعًا وتصميمًا وإباءً، وهؤلاء الفرسان يبدون من بعيد كأنهم يسبحون على بحر من أعلام الصليب باتجاه الهلال.. يهدف إلى انتزاع بذرة الشر المحمدي... لكي تعم سيطرة الكنيسة..."[٨٤]. وهنا يرى هُلستر، أن الحروب الطويلة ضد المسلمين ساعدت على إلهاب حماس القديسين والجنود على فتح المكسيك[٨٥]، لأن المسيحيين كانوا يعتبرون الإسلام دينًا منشقًا عن المسيحية[٨٦]، مما جعلهم يدونون على قبورهم عبارات الكراهية ضد الإسلام ومنها: "هنا يرقد في هذا الضريح فرناندو الأراغوني، وإيزابيلا القشتالية، زوج وزوجة عاشا متحدين ولُقبا بالكاثولكيين، وقد أطاحا بالطائفة المحمدية، ودحرا عناد البدعة"[٨٧].

وبالتالي نستنتج: أن رجال الدين وجماعة الفرسان كان لهما دور فعال في الحرب الصليبية، التي شنتها الممالك المسيحية ضد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية، بل أكثر من ذلك لم توف البابوية بعهودها التي قطعتها على نفسها في معاهدة تسليم غرناطة، ولم تمض إلا أعوام قليلة حتى بدت نية الكنيسة في تنصير المسلمين.

خاتمة:

ومما سبق يتضح: أن اسبانيا الكاثوليكية خرجت إلى حيز الوجود نتيجة لتمسكها بالدين المسيحي، فبعدما كانت تجد في تقديس "شانت ياقب" المصدر الذي يحرك حماستها ويشد أزرها، وجدت في البابوية دعمًا لها في تقوية الروح الأخوية بين المسيحيين من خلال المعاهدات والمصاهرات التي تسببت في اندماج الممالك المسيحية ببعضها البعض، ويعتبر زواج الملكة القشتالية ايزابيلا بفرناندو الوارث الشرعي لعرش اراغون إحداها ، لان هذه المرأة كانت تطمح أن يقترن اسمها بإنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولهذا تدخلت لدى البابا لتقديم الدعم والمساندة، وحمل الكنيسة على أن تتنازل عن ثلث حصتها من العشر لخزينة الحرب، ولهذا سُميت بالكاثوليكية.

بل أكثر من ذلك تعاونت مع البابوية في إنشاء محاكم التفتيش لتنصير المسلمين، ولم تف بعهودها التي قطعتها على نفسها في معاهدة تسليم غرناطة، وهي: "أن لا يرغم أي مسلم أو مسلمة على اعتناق المسيحية". ولم تمض إلا أعوام قليلة حتى بدت اسبانيا مسيحية كاثوليكية بدون مسلمين، لأن المسحيين كان ولاؤهم للوطن أكثر من غيرهم، بينما المسلمين كان ولاؤهم للقبيلة والعشيرة أكثر وأعمق من الوطن، وقد نبه إلى هذا عدد من المؤرخين الذين عاصروا تلك الأحداث ومن بينهم؛ لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب "الإحاطة في إخبار غرناطة"، وابن عاصم الغرناطي مؤلف كتاب "جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى".

الهوامش:

(١) وهنا يقول المؤرخ الانجليزي جوزيف ماك كيب: "لو أن عرب اسبانيا فتحوا أوربا وبقوا فيها قرنين من الزمن، وأقاموا فيها مدنيتهم، كما فعلوا في اسبانيا لكنا متقدمين ستة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم". انظر: **مدنية المسلمين في إسبانيا**، ترجمة، محمد تقي الدين الهلالي،ط٢، مكتبة المعارف، الرباط.١٤٠٥هـ/١٩٨٥م،ص٣١.

(٢) **القوط الغربيون**: دخل القوط الغربيون شبه الجزيرة الأيبيرية سنة٤١٤م، بعد هجرة الوندال إلى إفريقية، وكان القوط مثل غالبية القبائل ذات الأصل الجرماني، يؤمنون بالمسيحية تبعًا للعقيدة الآريوسية، أي أنهم لا يعتقدون بإلوهية المسيح. انظر: سهيل زكار: **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية**. المغرب والأندلس والبحر المتوسط. دمشق، ١٤١٦هـ/١٩٩٠م، ج٢، ص٢٣ فما بعدها؛ محمود شيت خطاب: **قادة فتح الإسلامي**، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، منار للنشر والتوزيع، دمشق، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٢٥ فما بعدها.

(٣) **الأريوسي**: نسبة إلى أريوس، ومبدأ، الأريوسية: عنده، أن الله غير مخلوق، وغير مولود، لا بداية له، حيث أنكر أريوس إلوهية المسيح. وهذا ما يؤكده القس المسلم أنسلم تورميدا بقوله: "وهذا في غاية الوضوح والدلالة على أن عيسى بشر من جملة البشر ورسول من جملة الرسل (صلى الله عليهم أجمعين). لمزيد من المعلومات، قارن: عبد الله علي بن علي الميورقي المعروف باسم عبد الله الترجمان: **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**، تقديم، محمود علي حماية، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٧٧؛ ج . ويلتر: **الهرطقة في المسيحية** . **تاريخ البدع الدينية المسيحية** . تعريب، جمال سالم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،٢٠٠٧م، ص٧٦-٨٠؛ نعيم فرح: **الحضارة الأوربية في العصور الوسطى**، ط٣، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٦٢.

(٤) إبراهيم علي طرخان: **دراسات في تاريخ أوربا العصور الوسطى**. دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص١٥١ فما بعدها.

(٥) **المذهب الكاثوليكي**: أصل كلمة كاثوليكي: هي اللفظة اليونانية (Katholikos)، كاثوليكوس، وتعني العالمي، وقد استخدمت هذه الكلمة لأول مرة من قبل القديس، أغناطيوس الأنطاكي، سنة ١١٠م، ثم أستخدمها اللاهوتي الإغريقي كليمنت الإسكندراني (١٥٠- ٢١٥م)، لكن الاستخدام الرسمي لها حدث قبل القرن الثالث الميلادي، وكانت الكنيسة الوحيدة آنذاك ويعتقد الكاثوليك بالثالوث، فيقولون بإله واحد، فيه ثلاثة أشخاص: الأب والابن (المسيح) وروح القدس، وهو ما يعرف بالاقانيم الثلاثة، ويعتقدون أن كل واحد من الثلاثة متميز، وأنه إله حقيقي انظر: سعد رستم: **الفرق المذهبية المسيحية** . منذ ظهور الإسلام حتى اليوم . ط٢، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ٦٨- ٧٢.

(٦) إبراهيم علي طرخان: **دولة القوط الغربيين**، ص١٦٢.

(٧) المرجع نفسه، ص١٦٤.

(٨) **القديس يعقوب**: تذكر الأسطورة أن هيرود الثاني ملك بيت المقدس، لما قتل القديس يعقوب (يعقوب الحواري) حمل تلامذته جثته في مركب، حتى وصلوا أرض جليقية، ودفنوه، حتى جاءت سنة ٨٣٥م ليزعم القس إبريا ثيودومير، أنه اكتشف القبر بهداية ضوء نجم، فذاعت الأسطورة، وبنيت كنيسة من أعظم الكنائس فخامة، وهي رمز الحماية ضد المسلمين. انظر: عادل سعيد بشتاوي: **الأندلسيون المواركة**، مطبعة انترناسيونال، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٦؛ عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس** . من الفتح إلى بداية عهد الناصر، ع١، ق١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٢٢٠.

(٩) عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق، ص٤٥، ٤٦.

(١٠) أمريكو كاسترو: **إسبانيا في تاريخها** . المسيحيون والمسلمون واليهود . ترجمة، علي إبراهيم منوفي، وحامد أبو أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٢٩.

(١١) عبد المحسن طه رمضان: **الحروب الصليبية في الأندلس**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،٢٠١١، ص٤١٩.

(١٢) المرجع نفسه.

(١٣) أمريكو كاسترو: **إسبانيا في تاريخها**، ص١٣٤.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) المرجع نفسه.

(١٦) هـ .و. ديفز،(H.W.C.Davis): **أوربا في العصور الوسطى**، عبد المجيد حمدي محمود، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٥٨م، ص١٨٣.

(١٧) **الهرطقة**: التعريف الكاثوليكي للهرطقة هو: رأي ديني مدان كنسيًا على أنه مناقض للإيمان الكاثوليكي، أو أيضًا: خطأ إرادي ومتشبث به، وبالتالي يعتبر الأرثوذكس هراطقة في نظرهم. انظر ج.ويلتر:المرجع السابق، ص١٧.

(١٨) **التاريخ الوسيط** . قصة حضارة: البداية والنهاية. ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط٥، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧، ق١، ص٢٠٨.

(١٩) نورمان كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٢٠٨.

(٢٠) **فتنة المستعربين**: تعود هذه الفتنة إلى قسيس إحدى الكنائس بقرطبة، اسمه برفكتو(Perfecto) الذي دخل في نقاش مع مجموعة من المسلمين، حول فضائل كل من محمد وعيسى [عليهما السلام] فأجابهم: "أما المسيح فهو ربي، وأما نبيكم فلا أجرؤ أن أسمعكم ما نقوله نحن المسيحيين عنه. لمزيد من المعلومات. انظر: أحمد مختار العبادي: **في تاريخ المغرب والأندلس**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص١١١.١١٢؛ رينهرت دوزي: **المسلمون في الأندلس** . المسيحيون والمولدون . ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.ج١، ص٩٥ فما بعدها.

(٢١) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، (الحاشية، ص١١٣).

(٢٢) **دير كلوني**:(Cluny) نسبة إلى مدينة في شرق فرنسا، وقد تأسس فيها هذا الدير سنة (٢٩٧هـ/٩١٠م)، في ركن مجهول من برغنديا، على يد وليام التقي دوق اكيتانيا، وصار مع الزمن الدير الذي يقود كل الأديرة، لأنه كان محصنًا ضد التدخل الكنسي والعلماني، ولأنه كان تحت إشراف البابا، وملتزم بالقاعدة البندكتية. انظر: نورمان.ف.كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣٠٨ فما بعدها.

(٢٣) **الطقوس**: سعت البابوية بكل جهد إلى إلغاء الطقوس المنسوبة للقديس ايزيدور الاشبيلي Isidore de Séville (١٤هـ/ت.٦٣٦م)، واستبدالها بالطقوس الرومانية، وبذل دير ساهخون البندكتي، ورئيسه الراهب برنار الفرنسي، أعظم جهد لتحقيق أغراض البابوية، وقد دعمته زوجة الفونسو الأول، وهي فرنسية، وبذلك حصل برنار،على مرسوم بابوي بتعينه في دير ساهخون، وبذلك استطاعت البابوية، أن تفرض رياستها على الممالك المسيحية. انظر: عبد الله عنان: **عصر الطوائف**،ج٢، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٤٠٢.

(٢٤) أمريكو كاسترو: المرجع السابق، ص١٦٧؛ عبد الله عنان: **عصر الطوائف**،ج٢، ص٤٠٢.

(٢٥) قاسم عبد قاسم: **ماهية الحروب الصليبية** (الإيديولوجية الدوافع . النتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة، ١٩٩٣، ص٤٤.

(٢٦) إدوارد بروي وآخرون: **تاريخ الحضارات العام** . القرون الوسطى . ط٢، تعريب، يوسف أسعد داغر، وفريد م.داغر منشورات عويدات، بيروت . باريس، ١٩٨٦م، مج٢، ص٣١٢؛ قاسم عبد قاسم: المرجع السابق، ص٤٤.

(٢٧) هـو.ديفز: المرجع السابق، ص١٨٨.

(٢٨) رأفت عبد الحميد: **الفكر السياسي في العصور الوسطى**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٧٤.٧٥.

(٢٩) **أوربا في العصور الوسطى**، ص١٨٨.

(٣٠) قاسم عبد قاسم: المرجع السابق، ص٤٤.

(٣١) المرجع نفسه.

(٣٢) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ج٢، ص٤٠٥.

(٣٣) المرجع نفسه.

(٣٤) المرجع نفسه.

(٣٥) عبد الله عنان: **عصر الطوائف**، ج٤، ص٤٠٢.

(٣٦) المرجع نفسه.

(٣٧) اشباخ يوسف: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة، محمد عبد الله عنان،ج٢، ص٣.

(٣٨) المرجع نفسه.

(٣٩) علي حسين الشطشاط: **نهاية الوجود العربي في الأندلس**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠١، ص٩١؛ عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق، ص٦٥.

(٤٠) **مرهجا**: رهج. الرَّهْجُ والرَّهَجُ: الغُبارُ، وقال في الحديث: ما خالط قلب امرئ رهج في سبيل الله إلا حرم عليه النار، وارهج إذا أكثر بخور بيته. انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، تحقيق، عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة مج٣، من ذ-س، ص١٧٥٠؛ ومن هنا نفهم أن كلمة، مرهجا، أي مرغوما، أي؛ تجرع السم أو الغبار جراء المشاركة في الحرب، بسبب لوم البابا، ونحن نعلم بأن نافار سكانها، بشكنس، ذوي أصول بربرية. إفريقية، حيث تختلف ثقافهم عن ثقافة القوط، ومازالوا إلى اليوم متمسكتين بثقافتهم.

(٤١) انظر: ابن عِذاري المراكشي: **البيان المغرب** . قسم الموحدين . تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥، ص١٦٣.٢٦٤.

(٤٢) عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس**، عصر المرابطين والموحدين . ق٢، ص٣١٨ فما بعدها.

(٤٣) المرجع نفسه.

(٤٤) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص٦٨.

(٤٥) **الكاثوليكي الطاهر** (Catolicos)، حسب دستور الإيمان عند المسيحيين، الذي وضعه الأساقفة في نيقية . مدينة بتركيا . سنة٣٢٥ وهو كالآتي: "نؤمن بإله واحد.آب ضابط الكل.خالق السماء والأرض. كلَّ ما يرى وما لا يرى. وبربٍّ واحد يسوع المسيح. ابن الله الوحيد. المولود من ألآب قبل الدهور.(إله من إله) نورٌ من نور. إله حق من إله حق. مولود خير مخلوق. مساو للأب في الجوهر... ومن أجل خلاصنا. نزل من السماء، وتجسّد من الروح القُدس، ومن مريم العذراء، وتأنس، وصلب عنا، على عهد بيلاطس النبطي. وتألم وقبر السماء، وجلس يمين الآب". ثم أضافت الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد كلمة (الابن) إلى دستور الإيمان، فعارضت الكنائس الشرقية الأرثوذكسية (القويم) هذه الإضافة. انظر: نعيم فرح:المرجع السابق، ص ١٧٨.١٧٩.

(٤٦) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص٦٨. ٦٩.

(٤٧) عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين**، ق١، ص٥١٨.

(٤٨) يوسف أشباخ: المرجع السابق،ج٢، ص٢.

(٤٩) أمريكو كاسترو: المرجع السابق، ص٢٢٥؛ يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج٢، ص٢.

(٥٠) أمريكو كاسترو: المرجع السابق، ص٢٢٥، نقلاً عن: أسين بلاسيوس.

(٥١) أمريكو كاسترو: المرجع السابق، ص٢٢٥

(٥٢) **الإستبارية**: يعود تأسيسها إلى سنة (٤٦٢هـ/١٠٧٠م)،عندما أسس تُجار مدينة أمالفي جمعية خيرية قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس، وذلك

بغرض العناية بالحجاج الفقراء، وكان هدفها علاج المرضى وإيواء الحجاج، ولم يلبثوا أن دخلوا تحت النظام الديري البندكتي. وفي (٢٦ شعبان ٥٠٦هـ/ ١٥ فيفري١١١٣م) أصدر البابا بسكال الثاني مرسومًا اعترف فيه بالهيئة، كما وضعها تحت الرعاية المباشرة للبابوية في روما، كما أقر المرسوم البابوي، منحها أملاكًا وامتيازات، وقد تحولت تدريجيًا من النشاط الخيري، إلى هيئة عسكرية. انظر: نبيلة إبراهيم مقامي: **فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام** . في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٣ فما بعدها؛ محمود سعيد عمران: **حضارة أوربا في العصور الوسطى**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٨، ص١١٢.١١٣.

(٥٣) **المعبد:** أو الداوية، ظهرت بعد عشرين عامًا من نشأة هيئة الإستبارية، في بيت المقدس، كما عرفوا بجنود المسيح، وقد نشأت سنة (٥٠٦هـ/١١١٨م) على أساس حربي، وفي سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م) وضعت أنظمتها وقواعدها في مؤتمر تروي (Troyes)، وفي بداية القرن الثالث عشر، تراكمت لدى الهيئة الهبات والعطايا والامتيازات، حتى أصبحت لها في الغرب الأوربي، عدة مراكز في بروفانس، وفرنسا، وأراغون، وقشتالة والبرتغال، والعديد من المدن الأوربية. انظر. محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص١١٣.١١٤؛ نبيلة إبراهيم مقامي: المرجع السابق، ص١٦ فمابعدها.

(٥٤) عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين**، ق١، ص٥١٨.

(٥٥) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج١، ص١٨٤؛ عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس** . عصر المرابطين والموحدين . ق١، ص٥٠١، ٥٠٢، ٥١٨؛ أمريكو كاسترو:المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٥٦) عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس** . عصر المرابطين والموحدين، ق١، ص٥٠٢.

(٥٧) **لاردة:** تقع لاردة غربي برشلونة، وكانت أيام العصر الإسلامي من ولاية الثغر الأعلى وعاصمته سرقسطة، ونظرًا لبعدها عن قرطبة، فقد كانت دائمًا في حالة حروب مع المسيحيين، ولما انهارت الخلافة الأندلسية، وقامت دول الطوائف، قامت مملكة بني هود في سرقسطة وما حولها من القواعد، مثل وشقة، ولاردة وتطيلة، وإفراغة، وطرطوشة، وطركونة ولكن هذه المملكة الصغيرة، لم تثبت طويلاً، وسقطت لاردة في يد كونت برشلونة، رامون برنغار الرابع، في سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م). انظر: عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار**، تحقيق، ليفي بروفنسال، ط٢، دار الجيل، بيروت، (١٤٠٨هـ/١٩٩٨م)، ص١٦٨؛ عبد الله عنان: **الآثار الأندلسية الباقية**-دراسة تاريخية وأثرية-ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة.١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١١٤ فمابعدها.

(٥٨) عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس** . عصر المرابطين والموحدين، ق١، ص٥٠٢.

(٥٩) يوسف أشباخ: المرجع السابق،ج١، ص١٣.

(٦٠) قلعة رباح: هي من مدن جيان، وموقعها بين قرطبة وطليطلة، وهي مدينة حسنة، ولها حصون حصينة. انظر: عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار**، ص١٦٣.

(٦١) أمريكو كاسترو: المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٦٢) المرجع نفسه.

(٦٣) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج٢، ص١٤.

(٦٤) المرجع نفسه.

(٦٥) عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين**، ق١، ص٥١٩.

(٦٦) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج٢، ص١٦؛ عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين**، ق١، ص٥١٩.

(٦٧) هشام أبو رميلة: **علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس**، دار الفرقان، عمان الأردن ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٣٨.

(٦٨) عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين**، ق١، ص٥١٩.

(٦٩) **السيسترسيان** (Cistercien): نشأت حركة السيسترسيان، علي يد روبير موليسم (١٠٢٩-١٠٧٥م)، وارتبط نموها بالقديس برنار دي كليرفوا (١٠٩١-١١٥٣م)، حيث يعتبر الروح التي تحرك الباباوت، ومن أقواله "كنيسة مخطئة خير من لا كنيسة على الإطلاق". وبفضل القديس برنار، أدى الرهبان السسترسيان خدمة كبيرة للحياة الاقتصادية في أوربا، وذلك باستصلاح الأراضي البور، وفلاحتها، فضلاً عن العناية بتربية الخيول والمواشي، وقد اشتهروا بتجارة الصوف، وامتلاكهم لأعظم مزارع الكروم في فرنسا، ثم بدأ الفساد يدب في المنظمة مثلما دب في أوصال هيئة كلوني قبلها.انظر: ادوار جونو: **الفلسفة الوسيطية**، ترجمة، علي زيعور، ط٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢، ص١٠١ فما بعدها؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **أوربا العصور الوسطى**، ج٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٣٤ فما بعدها.

(٧٠) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج٢، ص١٦؛ شكيب أرسلان: **خلاصة تاريخ الأندلس**، مطبعة لمياء، القاهرة، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، ص٢٣٤.

(٧١) **إسبانيا في تاريخها**، ص٢٣٠.

(٧٢) عبد الله عنان: **عصر المرابطين في المغرب والأندلس** . ق١، ص٥٢٨؛ يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج٢، ص١٧ ١٨.

(٧٣) **القديس يعقوب:** يعود إنشاء مدينة شنت ياقب إلى سنة ٨٣٥م حين زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف قبر القديس يعقوب، أو يعقوب الحواري. انظر.عبد الله عنان: **الآثار الأندلسية الباقية**، ص ٣٤٢ فما بعدها.

(٧٤) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج٢، ص١٦.

(٧٥) ولد أورليوس أوغسطين (Aurelius Augustinus) (٣٤٥-٤٣٠م) في مدينة . سوق أهراس حاليًا في الجزائر . وبعد أن أتم تعليمه عمل بالتدريس، ثم رحل إلى روما، وشجعه نجاحه على التحرر من قيود الاعتقاد، فتخلى عن المسيحية سنة ٣٨٦م متجهًا صوب البحث عن الحكمة، تحت تأثير كتابات شيشرون، فاعتنق المذهب المانوي، ولكن سرعان ما أفاق وتخلص منه، فرجع إلى الكنيسة مرة أخرى قديسًا وراهبًا. وحينما عاد إلى شمال إفريقيا . الجزائر. أسس جمعية رهبانية في مدينة ايبونا . عنابة حاليًا. حتى وصل إلى رتبة الكهانة، وإنتاج أغسطين أكثر من مائتي كتاب، وأكثر من خمسمائة موعظة، ومن بين كتاباته التي قرأها العصر الوسيط يمكن ذكر "الاعترافات" وفي الثالوث، ومدينة الله. لمزيد من المعلومات، انظر: إدوار جونو: المرجع السابق، ص٣١-٣٢.

(٧٦) يوسف أشباخ: المرجع السابق،ج٢، ص١٦.

(٧٧) أمريكو كاسترو: المرجع السابق، ص٢٢٣.

(٧٨) ابن عذاري: المصدر السابق، ص٤٤٤.

(٧٩) عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين**، ق٢، ص٤٦٩.

(٨٠) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٨.

(٨١) المرجع نفسه..

(٨٢) شكيب أرسلان: المرجع السابق، ص٢١٠.

(٨٣) المرجع نفسه.

(٨٤) أنطونيو أغابيدا: **أخبار سقوط غرناطة**، تحرير، واشنطن ايرفينغ، ترجمة، هاني يحي نصري، الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص٢٠٥.

(٨٥) **أوربا في العصور الوسطى**، ترجمة، محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٧٢.

(٨٦) خايمي كاثيريس إنريكيت: **الحضارة الأندلسية في البيرو**، جمعها، خوسي بيراوون أرانيبار، ترجمة، مصطفى فرحات، دار القصبة للنشر الجزائر،٢٠٠١، ص٥٤.

(٨٧) المرجع نفسه، ص٥٥.٥٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

التنافس السياسي بين الصنهاجيين والسودانيين
على منطقة الساحل الصحراوي خلال العصور الوسطى

د. المصطفى ولد يكبر

أستاذ متعاون – قسم التاريخ والحضارة

كلية الآداب – جامعة نواكشوط

الجمهورية الإسلامية الموريتانية

مُلَخّصْ

كان اختيار هذا الموضوع انطلاقًا من أهمية منطقة صحراء الملثمين في التفاعل الحضاري الذي كان قائمًا بين المغرب والسودان الغربي ذلك التفاعل الذي بدا جليًا خلال العصر الوسيط وخاصةً في فترة قيام الدولة المرابطية. أضف إلى ذلك الحضور القوي والفاعل للقبائل الصنهاجية والتي لم تحظى من البحث بما يتناسب مع دورها -حسب اعتقادنا- فالمراجع ركزت أثناء حديثها عن العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها على تاريخ المغرب من جهة والسودان الغربي من جهة أخرى. ولقد شكلت منطقة الساحل ساحة للتنافس بين المجموعتين وذلك ما يفسره تقارب العاصمتين الغانية كونبي صالح والصنهاجية اودغشت، وقد كان لوجود مادة الذهب المحرك الفعلي للعلاقات التجارية في تلك الفترة ضمن نفوذ السودانيين ووجود مادة الملح العنصر المهم في الحصول على الذهب ضمن نفوذ الصنهاجيين دور مهم في توجيه علاقات المجالين فلم تفوت إمبراطورية غانة فرصة إلا وحاولت توسيع نفوذها شمالاً على حساب المجموعة الصنهاجية، وذلك ما يتضح من خلال احتلالها لمدينة أودغست، كما أن الصنهاجيين حاولوا مرات عديدة التوغل جنوبًا وذلك ما سيتحقق لهم بعد قيام الدولة المرابطية باحتلالهم لعاصمة غانة مدينة كونبي صالح. ولقد اتفقت المصادر الوسيطية على أن زعماء الأحلاف الصنهاجية وخاصةً الحلف الأول كانوا يسيطرون على بعض مناطق السودان، وقد كان لانتشار الإسلام في المنطقة منذ بداية القرن الثاني للهجرة دور حاسم في تعزيز حضور الصنهاجيين جنوبًا، حيث حملوا لواء نشر هذا الدين خاصةً إذا علمنا أن طلائع الفتح الإسلامي توقفت على مشارف السودان. وتعتبر فترة قيام الدولة المرابطية فترة ازدهار هذه العلاقات إلا أن التوازن فيها كان لصالح الصنهاجيين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ يونيو ٢٠١٥

تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ يوليو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

مملكة غانة، المرابطين، قبائل الصحراء، الأحلاف الصنهاجية، السودان الغربي

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

المصطفى ولد يكبر. "التنافس السياسي بين الصنهاجيين والسودانيين على منطقة الساحل الصحراوي خلال العصور الوسطى".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٨٥ – ٩٢.

مُقَدِّمَةٌ

منذ أن هاجرت القبائل الصنهاجية جنوبًا تحت ضغط الرومان وهي ترتبط بالقبائل السودانية ارتباطًا وثيقًا فقد شكلت منطقة الساحل نقطة تماس بينهما، وإذا كانت فترة ما قبل التاريخ الوسيط ظلت غامضة ولا نمتلك عنها ما يكفي من المصادر لكي نتلمس المستوى الذي كانت عليه علاقات هذه الشعوب ببعضها البعض، إلا أن مرحلة التاريخ الوسيط وبداية انتشار الإسلام وما رافقه من ازدهار تجاري جعل من منطقة الصحراء والسودان مناطق جذب للتجار والدعاة والكتاب المسلمين الذين وفروا لنا كمًا هائلاً من المعلومات عن تاريخ هذه المنطقة، وإن كان بعضه يتميز بنوع من الاضطراب والتناقض أحيانًا، إلا أن الدارسين المحدثين تمكنوا من معرفة حياة هذه المجتمعات وعلاقاتها البينية من خلال مقارنة وفحص هذه المصادر.

وقد كان لوجود سلطة سياسية في السودان الغربي كإمبراطورية غانة دورًا مهمًا لمعرفة علاقة هذه الإمبراطورية بجيرانها الشماليين المصاقبين لها، كما مثلت "الأحلاف الصنهاجية"

الإطار السياسي الموازي لهذه الإمبراطورية على مستوى الصحراء وقد فرض البعد عن المغرب الأقصى وسلطاته المركزية التي قامت في فترة متقدمة من وصول الإسلام إليه على هذه القبائل وجود هذا النوع من التنظيمات لتسيير شؤون أفرادها وتنظيم تجارتها وعلاقاتها بجيرانها الجنوبيين الذين كانوا يتربصون بها بين الحين والأخر. وقد حاولت المصادر العربية وخاصةً التي كتبت ما قبل القرن الخامس الهجري أن تطلق على هذه الأحلاف اسم "مملكة انبية" تارة، و"مملكة اودغست" تارة أخرى، إلا أن الأمر لا يعدو كونها تنظيمات سياسية عشائرية توفر للصنهاجيين قدرًا من التنظيم يمكنهم من الوقوف في وجه الحراك الذي شهدته المنطقة خلال الفترة موضوع الدراسة.

أولاً: علاقات الأحلاف الصنهاجية بمملكة غانة

يسود الاعتقاد بأن علاقات الصنهاجيين بالسودان الغربي ما قبل ازدهار التجارة الصحراوية كانت مبنية على شكل من "التعايش السلمي" إذ استثنينا بعض المحاولات التي تقوم بها القبائل الصنهاجية للانزياح جنوبًا من أجل إيجاد المراعي الخصبة في مناطق السودان الرطبة هذا الانزياح الذي قد لا يعجب السودانيين المهتمين بالزراعة، إلا أن الأمر سيزداد تعقيدًا بعد ازدهار التجارة القوافلية، خاصةً بعد أن احتكر السودانيون الذهب، واحتكر الصنهاجيون الملح، وهما المادتين الأساسيتين في عملية التبادل التجاري في المنطقة، لذلك ظلت العلاقات ما بين الإمبراطورية الغانية والمجموعات الصنهاجية مبنية على التنافس للاستفادة من عائدات التجارة الصحراوية. ولعل ما يفسر ذلك التقارب الجغرافي بين العاصمة الصنهاجية "أودغست" والعاصمة الغانية "كومبي صالح"، وسعي كل منهم للسيطرة على هاتين المدينتين، وقد عبر صاحب صورة الأرض عن هذا التقارب بقوله "وملك اودغست هذا يخالط ملك غانة".(١) ولعل هذا التقارب الجغرافي ما بين العاصمتين قد أثر سلبًا على علاقات السودان بصنهاجة، فإمبراطورية غانة لم تفوت فرصة إلا وحاولت السيطرة على مدينة اودغست(٢)، والصنهاجيون سيطروا على كومبي صالح عندما آنسوا من أنفسهم قوة بعد قيام الدولة المرابطية.(٣)

ولقد مثل احتكار الصنهاجيين لمادة الملح الحجري عاملاً مهمًا، فلعبوا دورًا أساسيًا في عملية التبادل التجاري نظرًا لأهمية هذه المادة عند السودانيين "وحاجتهم إلى ملوك اودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به، وربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار".(٤) وقد كان احتكار الصنهاجيين للملح يقابله احتكار السودانيين للذهب، فقد ظل ملوك غانة يحتكرون تجارة الذهب(٥) ولا يسمحون لرعيتهم ببيع القطع المتماسكة منه، وإنما رخصوا لهم بيع الدقيق والتبر، ولعل ذلك ما حافظ على استقرار أسعار الذهب مقابل أسعار الملح "وإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استنصفاها الملك وإنما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون".(٦)

إن عملية احتكار الملح من طرف صنهاجة، واحتكار الذهب من طرف غانة حافظت على نوع من التوازن التجاري بين المجالين، ولعل ذلك ما زاد من نفوذ زعماء صنهاجة، فوصفتهم المصادر بالملوك حيث يطالعنا اليعقوبي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما تحدث عن الحلف الصنهاجي الأول قائلاً "ثم يصير إلى بلد يقال له غسط وهو واد عامر فيه المنازل وفيه ملك لا دين له ولا شريعة يغزوا بلاد السودان وممالكهم"،(٧) ويتبعه في ذلك ابن حوقل الذي عبر عن قوته وكثرة المنضوين تحت سيطرته من صنهاجة.(٨) أما البكري فيصفه قائلاً "وكان صاحب اودغست في عشر الخمسين وثلاث مائة تينيروتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكًا من ملوك السودان كلهم يؤدون له الجزية، وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتد في مائة ألف نجيب".(٩)

ولعل هذه القوة التي تميز بها صاحب الحلف الصنهاجي الأول جعلته دائمًا على عداء مع جيرانه الجنوبيين. فالمصادر تفيد أنه كان يسيطر على مناطق وممالك من السودان، لكننا لا نعلم هل كان لهذه السيطرة انعكاس على عملية احتكار السودانيين للذهب، وهل كانت هذه الممالك تدفع له الجزية مقابل السيطرة عليها ذهبًا، يقول ابن أبي زرع "ملك بلاد الصحراء بأسرها ودان له بها أزيد من عشرين ملكًا من ملوك السودان يؤدون له الجزية".(١٠) وقد ذهبت المصادر في وصفها لصاحب هذا الحلف إلى أنه كان يتدخل في الخلافات الداخلية لإمبراطورية غانة، حيث كان يدعم الموالين له من الممالك التابعة للإمبراطورية، وقد بالغت المصادر في قوته وعدد جيشه، حيث أنه كان باستطاعته استنفار خمسين ألف مقاتل "فأستمده بعرين ملك ماسين على ملك اوغام فأمده بخمسين ألف نجيب فدخلت بلد اوغام وعساكره غافلة فغنمت البلد وأحرقته".(١١)

وتعطينا هذه الشهادات المصدرية معلومات مهمة عن حجم التدخل الصنهاجي في المجال السوداني، وكيف أن زعيم الحلف الأول كان من القوة بحيث يستطيع الوقوف بجانب الممالك السودانية التي تحالفت معه، لكن ما لم نستطع الوقوف عليه من خلال هذه الإشارات هو ردة الفعل الغانية اتجاه هذا التدخل أم أن الفترة الزمنية التي كان فيها زعيم الحلف الصنهاجي على هذه الدرجة من القوة كانت فيها إمبراطورية غانة تعاني من ضعف أو محاولات انفصال من طرف الممالك التابعة لسلطانها. ورغم أننا لا نستطيع أن ننفي وجود فترات ودية في علاقات غانة مع هذه الأحلاف الصنهاجية وخاصةً الحلف الأول، فإنها في الغالب الأعم كانت تتميز بالتوتر نظرًا للتقارب الجغرافي بين المجالين وحدة التنافس على عائدات التجارة الصحراوية.

وقد لجأ الصنهاجيون في بعض الأحيان وخاصةً عندما تتوسع إمبراطورية غانة على حساب مجالاتهم إلى إرباك سير التجارة القوافلية من خلال اللجوء إلى قطع الطريق على القوافل المارة من الطرق الصحراوية التي تشق مجالات هذه القبائل "ونزامين (...) وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق، ويتخذونه مرصدًا لهم لعلمهم بإفضاء الطرق إليه، وحاجة الناس إلى الماء فيه."[١٢] ونحن وإن كنا نعلم أن الحلف الصنهاجي الأول ضم أغلب القبائل الصنهاجية فلا نستبعد أن تكون عمليات قطع الطريق على القوافل التي تقوم بها لمطة وجزولة منظمة من طرف فلول هذا الحلف لإرباك التجارة من أجل الضغط على غانة للحصول على أكبر قدر ممكن من العائدات الاقتصادية. الشيء نفسه كانت تقوم به بعض القبائل السودانية، فقد تحدثت المصادر عن مجموعات سودانية تغير على القوافل التجارية القادمة من الشمال "ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى بلد يقال له افرتندي تفسيره مجتمع الماء (...) ثم تسير منه يوما في جبل يقال له ازجونان يقطع فيه السودان."[١٣]

وإذا كانت القبائل الصنهاجية التي تمارس قطع الطريق في بعض الفترات كانت تمارسها في مجالات تسيطر عليها، إلا أن المجموعات السودانية التي تحدث عنها البكري كانت تقطع الطريق في مناطق متوغلة شمالاً في مجالات الصنهاجيين، ولا نجد لذلك تفسيرًا إلا أن تكون الممالك السودانية هي المسؤولة عن إرسال مجموعات من أجل هذه المهمة فلا يمكن أن تكون هذه المنطقة التي يقطع فيها السودان تحت سيطرتهم بأي حال من الأحوال، خصوصًا في تلك الفترة التي كان فيها حضور الأحلاف الصنهاجية قويًا، فجبل ازجونان هذا يبعد مسيرة أربعة أيام شمال اودغست "في جبل يقال له ازجونان يقطع فيه السودان ثم تمشي يومًا في رمال شجرة إلى ماء يقال له بيروران ماؤها زعاق ثم تمشي في أرض لصنهاجة كثير الماء من الآبار ثلاثة أيام ثم تسير منه إلى شرف عال تشرف منه على اودغست."[١٤]

لقد استطاع الصنهاجيون خلال حلفهم الأول الذي امتد منذ ولاية تيولتان بن تلاكاكين المتوفى ٢٢٢ هـ حسب رواية ابن أبي زرع[١٥] إلى ربط علاقات سياسية بالإمبراطورية الغانية تغيرت طبيعتها حسب الظروف، وتحكمت فيها المنافسة التجارية بينهما وكانت تتميز بالمواجهة أحيانًا، وتتخللها فترات من الود، وقد استمر هذا الوضع حتى نهاية هذا الحلف الأول، والذي انتهى بعد حكم تميم ابن الأثير الذي قتل على يد بعض القبائل الصنهاجية التي ثارت عليه لأسباب مازالت مجهولة.[١٦] لكن سقوط هذا الحلف والذي يرجعه البعض إلى خلافات داخلية بين القبائل الصنهاجية المكونة له، إلا أننا لا نستبعد أن وجود أسباب خارجية كانت مساعدة أو لنقل كانت فاعلة بقوة في انفضاض هذا التحالف الذي أمضى حوالي قرن من الزمن، ومن بين هذه الأسباب التحالف الغاني الزناتي الذي اِلتقت فيه مصالح الطرفين في القضاء على سيطرة الصنهاجيين على مسالك وطرق التجارة القوافلية.

١/١- التحالف الغاني الزناتي ضد الحلف الصنهاجي الأول:

الخلاف بين الزناتيين والصنهاجيين قديم قدم تقاسم القبيلتين لمجالات متعددة من الغرب الإسلامي، ولقد كانت إفريقية مجالاً للصراع بين هاتين القبيلتين، وخاصةً أثناء حكم آل زيري الصنهاجيين في إفريقية، لذلك حاول الزناتيون الانتقام من أبناء عمومة آل زيري من صنهاجة اللثام بتوجيه قوة عسكرية لإخضاعهم أو كسر احتكارهم لعائدات التجارة القوافلية على الأقل.[١٧]

وقد سجل لنا ابن حوقل إحدى هذه المحاولات التي قام بها الزناتيون ضد الحلف الصنهاجي الأول "... وحدثني أيضًا أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الله أن قبيلة من قبائل البربر قصدت ناحية اودغست للإيقاع بآل تنبروتان في جمع كثيف وعدة قوية وعدة عظيمة تلتمس غرة وتبتهل فرصة عن طوائل حدثت مع بعض صنهاجة، وبلغ ذلك تنبروتان ملكهم هذا وأوعيد عليه ذكرهم وحالهم ومقصدهم في طريقهم دفعات فلم يعد جوابًا فيه"[١٨] وقد استخدم زعيم الحلف الصنهاجي خطة في مواجهة الجيش الزناتي يبدو أنها قضت على آمالهم في السيطرة بالقوة على صنهاجة اللثام "... ودعا برعاة كانوا لأخته، وكانت أيسر أهل قبيلتها، وأكثرهم مالا من حيث لا يعلم احد وقال لهم (...) بنو فلان يريدون ناحيتكم ليلة كذا وكذا فإذا كان في سحرة تلك الليلة فاعتمدوا هيج الإبل هناك بأجمعها على الشرف الفلاني ونفارها على القوم (...) ونفر الرعاة الإبل فصوبت على المكان والجيش الذي به فأتت على جميع من كان منهم مع إبلهم وسلاحهم دوسًا لهم ووطئا عليهم (...) حتى جعلوه شذر مدر".[١٩]

ويبدو بعد هذه الواقعة أن الزناتيين تخلوا عن الحل العسكري ولجئوا إلى التسرب سلميًا إلى العاصمة الصنهاجية اودغست وإلى العاصمة الغانية كومبي صالح بوصفهم تجارًا حتى كونوا جاليات كبيرة تحالفت مع الغانيين من اجل إنهاء سيطرة صنهاجة على مدينة اودغست التي سقطت في يد الغانيين في القرن الرابع الهجري، وسمحت غانة للزناتيين بممارسة التجارة في هذه المدينة الحيوية مقابل تبعيتهم السياسية لها.[٢٠]

ويبدو أن صنهاجة الذين ذكر ابن حوقل والمهلبي أنهم كانوا يمثلون أغلبية سكان مدينة اودغست في بداية القرن الرابع الهجري قد تقلص وجودهم في هذه المدينة أو كاد يختفي بعد ذلك بفترة ليست بالطويلة، أي في النصف الثاني من القرن الرابع حيث ذكرت بعض المصادر في القرن الخامس سكانًا جددًا للمدينة لم نجد بينهم ذكرا لصنهاجة و"كان يسكن هذه المدينة زناته مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين"[٢١] ولعل هذه الإشارة تفيد؛ أن الزناتيين هم مَنْ كان يسكن اودغست منذ أن سقطت في يد الغانيين، وكانوا هم القائمين على تسيير التجارة بها وهناك ملاحظة يجب الوقوف

عندها وهي التنافر والتباغض الذي ذكره البكري بين الزناتيين والعرب داخل اودغست، والذي نفترض انه كان بفعل التنافس الاقتصادي بين المجموعتين بيد أننا لا نستبعد حضور العامل المذهبي في الجفاء الذي عبرت عنه هذه المصادر بين سكان المدينة، فمن المعلوم أن مجموعات من العرب قدمت إلى المنطقة منذ فترة مبكرة من ازدهار التجارة القوافلية، وكانت اودغست احد أهم المدن التي استقطبت هؤلاء التجار، وكان ذلك في فترة الحلف الصنهاجي الأول، ويبدو أن التعايش كان سلميًا بين هؤلاء التجار والسلطة الصنهاجية التي كانت متحكمة في اودغست، إذ لا نجد في المصادر ما يشير إلى عكس ذلك في هذه الفترة على الأقل، ونفسر ذلك بحضور العامل المذهبي فأغلب التجار العرب الذين استوطنوا اودغست قدموا من فضاءات "سنية" ونعتقد أن ذلك كان سببًا في خلافهم مع المجموعات الزناتية التي سكنت المدينة بعد فقدان الصنهاجيين للسيطرة عليها، والمدعومين من طرف الإمبراطورية الغانية والذين تذهب المصادر إلى أنهم كانوا يعتنقون مذهب الخوارج.

ويبدو أن المدينة قد عرفت ازدهارًا تجاريًا كبيرًا أثناء السيطرة الغانية الزناتية،[٢٢] ونعتقد أنه في هذه الفترة بالذات لجأ الصنهاجيون إلى استخدام وسيلة قطع الطريق على القوافل من أجل إرباك هذا الازدهار الذي شهدته المنطقة.[٢٣] ففي هذه الفترة كانت القبائل الصنهاجية تفتقر لأي نوع من التنظيم في غياب أي مشيخة قبلية جامعة أو ما يعرف بالحلف، ذلك أنه بعد وفاة تميم ابن الأثير ٣٠٦ هـ انفض الحلف الصنهاجي لمدة مائة وعشرين سنة "... فقتلوه وافترق أمرهم (...) مدة من مائة وعشرين سنة".[٢٤] ولم تكن نهاية هذا الحلف بداية لشغور سياسي سيعاني منه الصنهاجيون فحسب وإنما أثرت أيضًا على حضورهم الاقتصادي المتمثل في ما كانوا يجنونه من السيطرة على طرق ومدن التجارة القوافلية في الصحراء، بالإضافة إلى خسارتهم لأغلب مناطق الساحل الذي يوفر مناخًا ملائمًا لرعي مواشيهم، وممارسة بعض أنواع الزراعة كزراعة النخيل مثلاً، فقد تمكنت الإمبراطورية الغانية من الضغط عليهم حتى توغلوا في الصحراء شمالاً ونظرًا لشح مصادر العيش في هذه المنطقة بالذات فقد عاد الصنهاجيون إلى حروبهم البينية السابقة للحلف الأول، حيث احتدم التنافس بينهم على مناطق الرعي مما وأد كل محاولة من أجل التوحد في حلف جديد يضمن لهم مصالحهم الاقتصادية وحضورهم السياسي في المنطقة.

لذلك فقد كانت هذه الفترة فترة ازدهار للإمبراطورية الغانية فتوسعت شمالاً على حساب المجموعات الصنهاجية، إلا أن محاولة احد شيوخ صنهاجة لإحياء نظام الأحلاف سوف تنجح بعد قرن ونيف ليتمكن أبو عبد الله محمد ابن تيفاوت اللمتوني من توحيد القبائل الصنهاجية لأول مرة بعد سقوط حلفهم الأول، وإنشاء ما عرف "بالحلف الصنهاجي الثاني"، ولا شك في أن أول عمل سيقوم به ابن تيفاوت هو محاولته لإعادة السيطرة على مدينة اودغست، وقد اختلف حلف ابن تيفاوت عن سابقه حيث أن الأسس التي أنبنى عليها تختلف عن الأسس التي قام عليها الحلف الصنهاجي الأول.[٢٥]

فمن المعلوم أن الحلف الصنهاجي الأول قام على أساس العصبية الصنهاجية وبدافع اقتصادي، فكانت علاقته بالجار الجنوبي مبنية على التنافس من أجل الاستئثار بعائدات التجارة الصحراوية، إلا أن الحلف الجديد قد غير الأسس التي كانت تربط صنهاجة ببعضها البعض، إذ أصبح الدين الإسلامي هو الطابع العام الذي يحدد العلاقة بين هذه القبائل، كما أن علاقاتهم بالإمبراطورية الغانية أصبحت مبنية على الجهاد من أجل نشر الدين الإسلامي، وذلك ما تريد لنا المصادر أن نفهمه "وهم على السنة مجاهدون للسودان".[٢٦]

ونعتقد أن هذا العامل الجديد الذي أصبح يوجه الصنهاجيين نحو جيرانهم الجنوبيين هو ما ساعدهم في التغلب على الفرقة التي عصفت بهم منذ نهاية حلفهم الأول، فيبدو أن العصبية والدافع الاقتصادي عجزا عن توحيد الصنهاجيين مرة أخرى تحت راية واحدة لذلك استطاع قائدهم الجديد الذي وصفته المصادر بأنه "... من أهل الفضل والدين والحج والجهاد"[٢٧] أن يلم شتاتهم ويوجه قوتهم نحو الجنوب ليس من أجل السيطرة على الطرق التجارية والمدن الحيوية فحسب، وإنما أيضًا من أجل نشر الدين الإسلامي في هذه الربوع الوثنية.

إلا أن فترة ابن تيفاوت لم تدم طويلاً حيث توفي سنة ٤٢٦ هـ ولم يدم حكمه سوى ثلاث سنوات، إلا أنه وبالرجوع إلى مكان وفاته يتضح لنا أنه قطع أشواطًا مهمة في التوغل جنوبًا حيث أنه "هلك بموضع يقال له قنقارة من بلاد السودان".[٢٨] بعد وفاة محمد بن تيفاوت تولى بعده صهره يحي ابن إبراهيم لكدالي الذي سوف تشهد الصحراء في فترته معطى جديدًا سوف يقلب الموازين لصالح المجموعات الصنهاجية، حيث سيؤسس هذا الزعيم رفقة الفقيه عبد الله ابن ياسين ما سيعرف بالدولة المرابطية التي كانت السيطرة على غانة من أولى أولوياتها، فدخلت معها مبكرًا في حروب كثيرة أعادت بها اودغست، ثم تطورت العلاقات العدائية بينهما حتى استطاع المرابطون أن يسقطوا العاصمة الغانية ليضعوا بذلك حدًا لأقوى إمبراطوريات السودان الغربي.

ثانيًا: علاقة المرابطين بمملكة غانة

لا يخفى على المتتبع لتحركات الصنهاجيين منذ قيام حلفهم الأول في مدينة اودغست سعيهم الحثيث للسيطرة على مجالات السودانيين في الجنوب، سواء فسر ذلك برغبة الصنهاجيين بنشر الإسلام، أو بسعيهم إلى السيطرة الاقتصادية على المناطق السودانية الغنية بالذهب لذلك فإن الاهتمام بالجنوب ظل من أولى أولويات زعماء صنهاجة الصحراء بدءًا من تيلوتان بن تلكاكين[٢٩] وانتهاءً بمحمد بن تيفاوت[٣٠] إلا أن ذلك الاهتمام

سيشهد توقفًا أثناء المخاض العسير الذي مر به قيام الحركة المرابطية بالصحراء، فأثناء رحلة حج الأمير يحي ابن إبراهيم لا تذكر المصادر أي شيء عن وضع الصحراء من بعده سوى أنه ترك أخوه على زعامة قومه، فلا يمكننا في هذه الفترة أن نتحدث عن علاقات من أي نوع بين الصنهاجيين والغانيين، كما أن فترة رجوع ابن إبراهيم والفقيه ابن ياسين لم تشهد أيضًا أي نوع من الاحتكاك بينهما، حيث اهتما بمرحلة تأسيس الحركة المرابطية، ونظرًا لتفرق أمر صنهاجة في تلك الفترة بين مؤيد لابن ياسين ومعارض له، بالإضافة إلى لجوء الأخير إلى رباط منعزل في مصب نهر السينغال من أجل تنظيم صفوف أتباعه كلها عوامل أبعدت الصنهاجيين عن جيرانهم الجنوبيين، ونلفت الانتباه إلى أن هذه الفترة شهدت فيها غانة ازدهارًا كبيرًا خاصةً إذا علمنا أنها تسيطر على مدينة اودغست الإستراتيجية.

بعد أن نظم ابن ياسين أتباعه سارع إلى بسط السيطرة على قبائل الصحراء الأمر الذي تحقق له في فترة قياسية، وما إن تم له ذلك حتى وجد نفسه أمام خيارين الأول يتماشى مع تطلعات الصنهاجيين، وهو السيطرة على اودغست وإنهاء نفوذ غانة على منطقة الساحل، والخيار الثاني . والذي يذهب البعض إلى أنه كان الخيار الأقرب عند ابن ياسين . هو التوجه شمالاً للقضاء على الجيوب "البدعية" في المغرب، لكن ابن ياسين لم يجد بدًا من مسايرة تطلعات الصنهاجيين في البداية فتوجه إلى الجنوب وتمكن من إسقاط اودغست وانتزاعها من يد الغانيين لكن تلك المسايرة لم تدم طويلاً فسرعان ما توجه إلى الشمال. إلا أن اهتمام بالجنوب سيظهر بشكل واضح بعد عودة الأمير أبو بكر ابن عمر إلى الصحراء بعدما بلغه نبأ اختلال أمرها وتمرد قبائلها، بعد أن استخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين على المغرب.

عاد الأمير أبو بكر إلى الصحراء برفقة نصف جيش المرابطين رغم أن عودته هذه كان الدافع لها بالأساس هو ثورة لكداليين، إلا أنه كانت لديه رغبة في مواصلة الجهاد في بلاد السودان[٣١]، لذلك لم يتأخر في عودته إلى الصحراء بعد وصول هذه الأنباء إليه وهو في غمرة انتصاراته في المغرب لأنه يعلم جيدًا أن أي اختلال في أمر قبائل الصحراء سيؤدي إلى عدة نتائج أهمها: فصل الصحراء - المكان الأصلي للحركة- عن الدولة التي هي في طور التشكل، وما يمثله ذلك من خطورة على الحركة المرابطية الناشئة، كما أن أي انقلاب في الخريطة السياسية في الصحراء يعني بالطبع سيطرة لكداليين -مصدر الإزعاج القديم للأحلاف الصنهاجية- على الصحراء، وهو ما قد يؤدي بهم إلى التفكير في الاستقلال، هذا بالإضافة إلى أن الاضطراب في الصحراء يعني انقطاع المدد البشري، وذلك ما سينعكس على الجيوش المرابطية في الشمال.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن ابن عمر كان يعرف جيدًا أثناء عودته إلى الصحراء أنه لا قبل له بحسم الموقف لصالحه، وبالتالي فعودته إلى الصحراء إنما كانت بهدف الدفاع عن لمتونة في وجه اكدالة.[٣٢] لكن هذا الرأي لا يستقيم أمام ما لدينا من معطيات تفيد بتفوق اللمتونيين العددي على كدالة بالإضافة إلى قوتهم وسعة المجال الذي يسيطرون عليه، كما أن توجه أبو بكر إلى الجهاد في السودان بعد رجوعه إلى الصحراء دليل على أن اختلال أمر الصحراء انتهى بعد وصول القائد اللمتوني إلى مضارب قومهم، خاصةً إذا علمنا أنه محاط بنصف جيشه يقول ابن أبي زرع "... وسار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء فهدنها، وسكن أحوالها وجمع جيوشًا كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان،[٣٣] فيبدو من رواية صاحب القرطاس أن إعادة الأمور إلى نصابها في الصحراء لم تأخذ من الأمير اللمتوني وقتًا طويلاً، وذلك بدليل توجهه إلى بلاد السودان "فجاهدهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر"[٣٤].

وإذا قارنا ما جاء لدى صاحب القرطاس مع ما جاء لدى البكري نجد اختلافًا في الروايتين، فابن أبي زرع يفيد أن أبا بكر لما أعاد أمر الصحراء إلى طبيعته، بدأ بفتح بلاد السودان حتى أتته الأخبار عن استفحال أمر يوسف بالمغرب "أقبل إليه من الصحراء ليعزله ويولي غيره"،[٣٥] وهذا ما نفهم منه أن الأمر في الصحراء مستتب لأبي بكر فلو كان الأمر غير ذلك لما فكر في أن يعود إلى المغرب ليعزل ابن عمه يوسف عند ما علم باستفحال أمره، وهذا ما يتناقض مع ما جاء على لسان البكري من عودة اختلال أمر الصحراء وافتراق كلمة صنهاجة في التاريخ نفسه تقريبًا "وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربع مائة أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر غير ملتئم"،[٣٦] إلا أن التسلسل والوضوح لدى ابن أبي زرع يجعلنا نرجح روايته على البكري، إلا أن ما جاء على لسان صاحب القرطاس خلال حديثه عن فتح المرابطين للسودان يستوجب منا بعض التوضيح.

فمنذ الاستيلاء على مدينة اوداغست من طرف المرابطين سنة (٤٤٦هـ/ ١٠٥٥م)[٣٧] . والذي لم يستغله ابن ياسين أحسن استغلال[٣٨]. أصبحت من جديد مكان استقرار للصنهاجيين، وإن كنا لا نعلم شيئًا عن وضع المدينة أثناء توجه ابن ياسين إلى الشمال، إلا أن البعض يرى أن أبا بكر توجه إليها أثناء عودته الأولى إلى الصحراء، ونحن نرجح السير في هذا الاتجاه إلا أن استقرار أبي بكر في اوداغست أثناء عودته إلى الصحراء[٣٩] لم يأتي إلا بعد أن عادت كدالة للهدوء، فلو لم يكن الأمر كذلك لما توجه إليها بحكم بعدها الجغرافي عن مضارب لكداليين، لكن استقراره في اودغست سيمكنه بلا شك من الوجود على مشارف بلاد السودان، ومن الواضح أن الزحف المرابطي نحو الجنوب كان باتجاه مجالات مملكة غانة وإن كان البعض يشكك في غزو المرابطين لها،[٤٠] إلا أن أغلب المصادر تفيد أن المرابطين غزوها وسيطروا على عاصمتها "كومبي صالح"، ونشروا الإسلام فيها إلا أن ابن أبي زرع بالغ كثيرًا حين وصف المناطق التي سيطر عليها المرابطين بمسيرة ثلاثة أشهر، فإذا حكمنا أن الانطلاقة الجديدة نحو بلاد السودان كانت من مدينة اودغست فإن السيطرة على المسافة التي ذكرها صاحب

القرطاس تعني أن المرابطين وصلوا إلى أدغال إفريقيا وذلك ما لا يمكننا الجزم به.

بعد ذلك سيتوقف التوغل المرابطي نحو الجنوب بسبب عودة الأمير أبو بكر إلى المغرب سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) تلك العودة التي ستنتهي بسرعة عندما قرر ابن عمر العودة إلى الصحراء نهائيًا بعد توليته ليوسف على المرابطين في المغرب. جعل أبو بكر ابن عمر الجهاد ضد السودان من أوكد همه بعد عودته الأخيرة إلى الصحراء، إلا أننا سنجد أنفسنا في صمت رهيب لدى أصحاب مصادرنا عن تحركات ابن عمر نحو الجنوب، وذلك يعود في نظر الدارسين إلى أن المصادر اهتمت اهتمامًا كبيرًا بتسجيل انتصارات يوسف ابن تاشفين في المغرب والأندلس[٤١]، وإن كانت هناك إشارات إلى حملات قادها أبو بكر وابنه في بلاد السودان، وبالتحديد باتجاه غانة التي من المفترض أن عاصمتها سقطت على أيديهم سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٧٧م).[٤٢]

المهم أن مسيرة أبو بكر وجهاده في السودان أثناء عودته الأخيرة إلى الصحراء يلفها كثير من الغموض لعدم وجود مصادر تتحدث عن المنطقة في تلك الفترة بالذات، إلا أنه ومما لا شك فيه أن الحدود المرابطية امتدت إلى مناطق بعيدة داخل أرض السودان، بسبب الحملات العسكرية التي قام بها ابن عمر وأحفاده في الجنوب. إلا أن وفاة أبي بكر والتي من المرجح أنها سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٨م)[٤٣] شكلت نهاية لحيوية الجناح الصحراوي للدولة المرابطية، إلا أن تلك المناطق سواء الصحراوية منها أو السودانية ظلت تحت نفوذ المرابطين حتى سقوط دولتهم.

ثالثا: علاقات الصحراء بالسودان الغربي ما بعد سقوط المرابطين

لقد ظلت علاقات الصنهاجيين بالسودانيين تتناسب مع مدى قوة هذه القبائل وحضورها السياسي في المنطقة، وإذا كانت العلاقات بين المجالين في فترة الأحلاف الصنهاجية وفترة قيام الدولة المرابطية واضحة من خلال الإشارات المصدرية واهتمام الكتاب والمؤرخين بالمنطقة، إلا أن علاقاتهما ما بعد سقوط المرابطين يلفها كثير من الغموض وذلك راجع إلى تراجع دور صنهاجة خاصةً بعد سيطرة الموحدين على أغلب مجالات الدولة المرابطية بما في ذلك الصحراء.

ورغم أن السودان الغربي قد ازدهر بشكل كبير في هذه الفترة بالذات حيث شهد قيام أقوى إمبراطورياته وهي "مالي"، إلا أننا لا نجد في المصادر أي إشارة ذات أهمية إلى علاقات هذه الإمبراطوريتين بالقبائل الصنهاجية المنتشرة إلى الشمال من حدودهما، إذا استثنينا المنطقة الشرقية من صحراء الملثمين والتي كانت تقطنها قبيلة مسوفة والتي ستربطها علاقات بهذه الإمبراطوريات وخاصة فرعها المعروف بالطوارق. ونحن نعتقد أن ازدهار إمبراطورية مالي والعلاقات الوطيدة التي ربطتها مع كل من الموحدين والمرينيين في المغرب ساهم بشكل كبير في تجاوز القبائل الصنهاجية المنتشرة في الصحراء بعد أن فقدت حضورها السياسي بعد سقوط المرابطين، وكانت علاقاتها بالممالك السودانية تدخل ضمن إطار علاقات هذه الأخيرة بالسلطة المركزية في المغرب.

فإذا عدنا إلى الصحراء ما بعد سقوط المرابطين نجد إشارات طفيفة عن مستقبل هذه القبائل سياسيا، فقد أدت وفاة أبي بكر ابن عمر إلى افتراق شمل هذه القبائل وانقسامها إلى إمارات صغير،[٤٤] وفي مناطق متوغلة في الصحراء بعيدة عن المناطق التي من المفترض أنها كانت تابعة للممالك السودانية هذا بالإضافة إلى اختلال أمر الطرق التجارية التي كانت تشق الصحراء. فالطريق الساحلي الذي يمر على مضارب لكداليين قد انتهى أو على الأقل فقد كثيرًا من حيويته، ونعتقد أن قبيلة "انيرزك" قد سيطرت عليه بحكم الموقع الذي أشارت المراجع إليه.[٤٥] كما أن الطريق الغربي أو الطريق اللمتوني والذي أصبح تحت سيطرة قبيلة ايديشلي والتي تعتبر جزءًا من قبيلة لمتونة فقد هو الآخر حضوره وفي المقابل ازدهر الطريق الشرقي الذي يمر من مجالات مسوفة، والذي نعتقد أن نهاياته جنوبًا كانت تحت سيطرة الماليين نظرًا لقربه من مجالاتهم، ولتوفر تلك المنطقة على أهم وأكبر مناجم الملح لوجود مملحة تغازا بها، أما الأنباط الذين سيطروا على منطقة تكانت فإن منطقتهم كانت معزولة وهامشية ولا تمر بها أي من الطرق التجارية المعهودة، كما أنها في منطقة جبلية وعرة مما قد يكون ساهم في عزلتها عن الشمال والجنوب.

أما ابدوكل فقد كانت مضاربهم في شمال الصحراء ونتيجة لقربهم من السلطة المركزية للموحدين نعتقد أنهم لم يستطيعوا ممارسة أي نشاط يخول لهم ربط علاقات بالمجال السوداني، أما المجال الترابي الذي يشمل مابين محيط ولاتة شرقًا إلى الساحل الأطلسي غربًا فكان عمليًا تحت نفوذ مملكة مالي القوية.[٤٦] وهناك ملاحظة مهمة ينبغي التنبيه إليها وهي أن هذه الفترة تميزت بسيطرة الإسلام بشكل مطلق على المنطقة، فالممالك السودانية التي قامت كانت تتخذ من الإسلام دينًا رسميًا لها مما جعل المجموعات الصنهاجية التي توغلت جنوبًا لم تكن هذه المرة بهدف نشر الإسلام في هذه المناطق، وإنما من أجل التعلم والتعليم وخاصة المجموعات التي سكنت مدن السودان الغربي في تلك الفترة كتنبكتو وولاتة مثلاً، فالمتتبع للوجود الصنهاجي في هذه المدن يلاحظ بجلاء الحضور العلمي للصنهاجيين، فالإمامة والقضاء كانت من نصيب أسر صنهاجية معروفة كأسرة آل أقيت على سبيل المثال.

وبالعودة إلى العلاقات السياسية، فإننا نلاحظ سيطرة مملكة مالي على بعض المدن التي أسسها الطوارق في الجنوب الشرقي لمنطقة الساحل الصحراوي، مما أدى إلى تراجع نفوذهم إلى حدود "تادمكة" شرقًا وشمالاً، وقد عينت الإمبراطورية المالية أمراء على هذه المناطق كانوا يسمون "بالفوربا"،[٤٧] أو "الفومانا" ومعناها في لغتهم نائب الملك،[٤٨] لكن الملاحظ أن ملوك مالي قد أصبحوا منذ آخر عهدهم على الأقل يولون على السكان حكامًا منهم مثل

"محمدن الله" الذي كان حاكمًا لتنبكتو من قبل سلطان مالي قبل أن يستعيد طوارق مقشرن السيطرة عليها.(٤٩)

ويبدو أن الاحتكاك في هذه الفترة بالذات مع الممالك السودانية قد اقتصر على مسوفة في الشرق بعد توغل المجموعات الصنهاجية الأخرى شمالاً، حيث أن مسوفة انتشرت فروعها في منطقة السودان والساحل الصحراوي وانشغلوا بهموم التجارة على المحور الشرقي، كما كانوا يشكلون أغلبية سكان مدن الساحل إن لم يكونوا مؤسسيها الفعلين، وقد عظم دور المسوفيين في هذه المرحلة حتى صاروا هم مَنْ يتحكم فعليًا في هذه المدن التي تتبع سياسيًا في الغالب الأعم لسلطان مالي. إلا أن مجموعة الطوارق وهي فرع من قبائل مسوفة ظلت على عداء مستمر مع الإمبراطورية المالية والسونغاي من بعدها حيث حاولت هذه المجموعة مرات عديدة السيطرة على مدينة تنبكتو الحيوية التي يعتبرون أنهم هم مَنْ أسسها،(٥٠) لكنها سقطت في يد الماليين منذ بداية تأسيس إمبراطوريتهم.

ومن بين الحملات التي قامت بها إمبراطورية مالي نحو الشمال من أجل إخضاع الطوارق ومن في ناحيتهم من الصنهاجيين نجد الحملة التي قام بها القائد المالي ساكوره الذي تمكن من إخضاع الطوارق ومد سلطان مالي على مجالات صحراوية، ولعل ذلك كان السبب المباشر في اغتيال الطوارق له أثناء عودته من الحج في منطقة تاجوراء.(٥١) وقد واصل حكام مالي بعد ذلك محاولاتهم لإخضاع مسوفة لسيطرتهم ويبدو أن فترة المنسا موسى والمنسا سليمان كانت فترة وئام بين المجموعتين، فقد ذكر ابن بطوطة أنه عندما وصل إلى ولاتة شاهد نائب ملك مالي على ولاتة يخاطب التجار ووراءه كبراء مسوفة،(٥٢) مما يعني أنهم كانوا مشركين في تسيير المدينة التابعة لسلطة الماليين، وقد لا تختلف وضعية المسوفيين في ولاتة مع وضعية الطوارق في تنبكتو خلال هذه الفترة على الأقل.

خاتمة

ومجمل القول: فإن علاقات السودان بالصحراء في هذه الفترة كانت محصورة في المنطقة الشرقية من مضارب الملثمين وبالتحديد بين المسوفيين والسودان، وذلك يعود في الأساس لأسباب عديدة أهمها أن بقايا اللمتونيين ولكدليين قد انتظموا في مشيخات قبلية محدودة التأثير خاصةً بعد توغلهم في الصحراء شمالاً.

الهوَامِشُ:

(١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي): "**صورة الأرض**"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢ ص: ٩٨.

(٢) احتلت هذه المدينة مكانة مهمة لدى السودانيين من جهة والصنهاجيين من جهة أخرى، وكانت السيطرة عليها متبادلة بينهما فعندما تزداد قوة غانة تبدأ بالسيطرة على المدينة وإبعاد الصنهاجيين عنها، وعندما تنتظم هذه القبائل وتتوحد تبدأ في محاولة استعادة سيطرتها، ولعل هذه الأهمية هي التي جعلت بعض الباحثين يعتبر اودغست عاصمة للضفة الجنوبية للصحراء، أي أنها حسب اعتقادنا تعتبر عاصمة الساحل الصحراوي والسيطرة عليها من طرف أي قوة تعتبر مؤشرًا على الازدهار، وفقدان السيطرة عليها يعني عكس ذلك.- انظر: ناعي مصطفى: "**الصحراء من خلال بلاد تكنة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**"، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨م، ص: ٣١ / النانى ولد الحسين: "**صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي**"، أطروحة دكتوراه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص: ٣٢٧ / دندش: "**دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا مع نشر وتحقيق رسائل ابي بكر بن العربي**"، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٨٨، ص: ٥٠. زليخا بنرمضان: "**أودغست: دراسة منوغرافية لمركز تجاري في الجزء الجنوبي من مغرب العصور الوسطى**"، مجلة بحوث كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، العدد التاسع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، ص: ٦٥.

(٣) البكري: "**المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**"، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، المطبعة الحكومية، الجزائر، ١٨٥٧، الناشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص: ١٦٨.

(٤) ابن حوقل: مصدر سابق، ص: ٩٨.

(5) J. DEVISSE: "*In Tegdaaoust I Recherche sur Awdaghost*", A.M.G , Paris, 1970, p : 115

(٦) البكري: مصدر سابق، ص: ١٧٦ . ١٧٧.

(٧) اليعقوبي (أحمد أبي يعقوب إبن واضح): "**كتاب البلدان**"، دار الطتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ ، ص: ١٩٩.

(٨) **صورة الأرض**: مصدر سابق، ص: ٩٧.

(٩) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**: مصدر سابق، ص: ١٥٩.

(١٠) ابن أبي زرع الفاسي (علي ابن محمد): "**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**"، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص: ١٢٠.

(١١) البكري: مصدر سابق، ص: ١٥٩.

(١٢) نفسه، ص: ١٥٧.

(١٣) نفس المصدر نفس الصفحة.

(١٤) نفسه، ص: ١٥٧.

(١٥) القرطاس: مصدر سابق، ص: ١٢٠.

(١٦) حماه الله ولد السالم: "**تاريخ موريتانيا العناصر الإسلامية**"، منشورات الزمن، العدد ٩، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ٢٠٠٧ ، ص: ٤١.

(١٧) ماجدة كريمي: "**تجارة القوافل**"، دار نشر الجسور، وجدة ١٩٩٦، ص: ٢٧.

(١٨) **صورة الأرض**: مصدر سابق، ص: ٩٧.

(١٩) نفسه: ص: ٩٨.

(20) J. DEVISSE: in Tegdaoust, op, cit, p: 122.

(٢١) البكري: مصدر سابق، ص: ١٦٨.

(22) J. DEVISSE. Op.cit. p : 128.

(٢٣) البكري: مصدر سابق، ص: ١٥٧.

(٢٤) ابن ابي زرع: مصدر سابق، ص: ١٢١.

(٢٥) الناني ولد الحسين: مرجع سابق، ص: ٥٠٤.
(٢٦) البكري: مصدر سابق، ص: ١٦٤.
(٢٧) نفسه.
(٢٨) نفسه.
(٢٩) ابن ابي زرع: مصدر سابق، ص: ١٢٠.
(٣٠) نفسه: ص: ١٥٣.
(31) J. CUOQ:." Histoire de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest des origines jusqu' a la fin du XVIe siècle", Librairie Orientaliste, Paul Guethner, SA, Paris 1984 p : 41.
(٣٢) أحمد الشكري: "**الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي**"، المجتمع الثقافي، أبو ظبي ١٩٩٩ ص: ٥٩.
(٣٣) القرطاس: مصدر سابق، ص: ١٧١.
(٣٤) نفسه.
(٣٥) نفسه.
(٣٦) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**: مصدر سابق، ص: ١٧٠.
(٣٧) نفسه: ص: ١٦٨.
(38) J. CUOQ: Histoire de l'islamisation..., op. cit. p: 40.
(٣٩) دندش: مرجع سابق، ص: ١٠١.
(٤٠) أحمد الشكري: "**مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية**"، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ١٩٩٧، مرجع سابق، ص: ٥٨.
(٤١) دندش: مرجع سابق، ص: ١١٢.
(٤٢) مجهول: "**الحلل الموشية في الأخبار المراكشية**"، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء ١٩٧٩، ص: ٧.
(٤٣) **الحلل الموشية**، مصدر سابق، ص: ١٦، ابن عذاري، "**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**"، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م مج ٤، ص: ٢٦، ابن ابي زرع، مصدر سابق، ص:١٨١، ابن خلدون "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذو السلطان الأكبر**"، ضبط ومراجعة الأستاذين خليل شحادة و سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ٢٠٠١ مج ٦، ص: ٣٧٧ الناصري، "**كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**"، ج ٢ تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار، البيضاء ١٩٥٤ مج ٢، ص: ٢٤، حسن أحمد محمود، "**قيام دولة المرابطين**"، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧ ص: ٢٢٥، دندش، مرجع سابق، ص: ٣٦ وغيرهم.
(٤٤) البكري: مصدر سابق، ص: ١٧٠
(٤٥) الخليل النحوي: "**بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاظر)**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧. مرجع سابق، ص: ٢١/ حماه الله ولد السالم، مرجع سابق، ص: ٧٦.
(٤٦) حماه الله ولد السالم، مرجع سابق، ص: ٧٧.
(٤٧) ابن بطوطة، "**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**"، الشركة العالمية للكتاب الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩١، ص: ٢٩٨.
(٤٨) السعدي: (عبد الرحمن ابن عبد الله ابن عمران ابن عامر): "**تاريخ السودان**"، وقف على طبع السيد هوداس، باريز ١٩٨١، ص: ٢٢.
(٤٩) حماه الله ولد السالم: مرجع سابق، ص: ٩٧.
(٥٠) السعدي: مصدر سابق، ص: ٢٢.
(٥١) ابن خلدون: مج ٦، مصدر سابق، ص: ٢٦٧.
(٥٢) تحفة النظار: مصدر سابق، ص: ٢٩٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

العنصر العربي في إقليم متيجة
خلال العصر الوسيط

بشير مبارك

باحث دكتوراه تاريخ وسيط إسلامي
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة الجيلالي يابس– الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

العرب من الأجناس السامية أطلق هذا الاسم على الأقوام التي عاشت في شبه الجزيرة العربية. خلال هذه الدراسة سأركز على ذكر مواطن بني هلال وبني سليم باعتبارهم انتقلوا من الحجاز إلى مصر ومن مصر إلى المغرب الإسلامي بما فيه المغرب الأوسط ومتيجة. طرحنا في هذه الدراسة عدة تساؤلات وللإجابة عنها اعتمدنا منهج تاريخي خاص وذلك بالرجوع إلى المادة العلمية المبثوثة في مختلف أنواع المصادر التاريخية، وحينما يتعذر علينا ذلك نميل إلى استقراء مختلف الأفكار واستنتاج بعض الحقائق بمقارنة النصوص مع بعضها البعض. وقبل تحديد مواطن العرب في متيجة فضلنا الحديث عن أول اتصال لهم بالمنطقة، ثم قمنا بتحديد المعالم الجغرافية لمتيجة وذكر أهم مدنها، والقبائل العربية التي استقرت بها في مقدمتها قبيلة الثعالبة، فحددنا نسبها وتاريخ دخولها لمتيجة، ورئاستها وطبيعة حياتها، وكذا علاقاتها بالسلطات السياسية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٨ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ مارس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

بني هلال، بني سليم، الثعالبة، عرب المعقل، بني مزغنة، المغرب الأوسط

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بشير مبارك. "العنصر العربي في إقليم متيجة خلال العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٩٣ – ١٠٢.

مُقدِّمةُ

الجنس العربي هو أحد الأجناس السامية، ولعلّه أكثرها محافظة على خصائص الساميين، واللّغة العربية هي أحد اللّغات السامية، والعرب هم الجنس الأول الذي تلقى الإسلام وحمل ألويته ودعوته ويطلق هذا الاسم – العرب- على الأقوام التي عاشت في شبه الجزيرة العربية[١] هذا الوطن يقع في الطرف الغربي من آسيا يحده شمالا الشام وشرقا العراق والخليج العربي وجنوبا المحيط الهندي وغربا البحر الأحمر[٢] ويتكون من اليمن في الجنوب وتشمل حضرموت وسهرة والشحر وعمان من أشهر مدنه صنعاء وعدن، ثم تهامة وهي غرب الجزيرة على بحر قلزم بين اليمن والحجاز، ثم الحجاز وهو يلي تهامة شمالا على البحر ومن مدنه الطائف ومكة وجدة والمدينة، ثم نجد في وسط الجزيرة وهو هضبة فسيحة، ثم اليمامة وهي بين نجد واليمن[٣] .

إنّ المصادر التاريخية تذكر لنا سبب تسميتهم بالعرب فترجع ذلك إلى البيان في الكلام والفصاحة في النطق حيث يقول ابن خلدون "... ثم إنّ العرب لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في النطق ولذلك سموا بهذا الاسم فإنه مشتق من الإبانة لقولهم أعرب الرجل عما كان في ضميره إذ أبان عنه... فالبيان سمتهم".[٤]

لقد قسّم المؤرخون العرب إلى أربع طبقات: الطبقة الأولى هم العرب البايدة،[٥] والطبقة الثانية هم العرب العاربة،[٦] والطبقة الثالثة هم العرب المستعربة،[٧] والطبقة الأخيرة العرب المستعجمة، وهم اللّذين انتقلوا إلى بلاد المغرب مع الهجرات الهلالية سموا بالمستعجمة لما تبدل لسانهم ومالوا إلى العجمة، يقول ابن خلدون: "...هي قبائل من العرب موفورة العدد... فتحوا الأمصار والأقاليم... أما من مضر فقريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتمميم وغطفان وسليم وهوزان وبطونها من ثقيف وسعد بن بكر وعامر بن

صعصعة، وأما من ربيعة فبنو ثعلب بن وائل... هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية... أكلتهم الأقطار المتباعدة... ثم إن اللّسان المضري الذي وقع به الإعجاز ونزل به القرآن فثوى فيهم وتبدّل إعرابه فمالوا إلى العجمة... واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أجل الإعراب. فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة..."[٨]

أرسل الله تعالى إلى العرب أربعة رسل وهم: شعيب، هود، صالح عليهم السلام ومحمد (ﷺ)، فهود عليه السلام أرسل إلى قوم عاد بالأحقاف بعدما عبدوا الأصنام قال تعالى: "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ. مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ"[٩] واستمروا في طغيانهم حتى أهلكوا، أما صالح عليه السلام فأرسل إلى ثمود التي عبدت الأصنام وطلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من صخرة صماء فأخرج الله المعجزة ومع ذلك بقوا على كفرهم فقتلوا الناقة لذلك أهلكوا قال تعالى: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا* إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا* فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا* فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا* وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا"[١٠] أما شعيب عليه السلام فأرسل إلى أهل مدين، الفاسدين عرفوا بقطع الطريق وإنقاص الكيل وعبدوا شجرة ضخمة " الأيكة"، قال تعالى: "وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ"[١١] فاستمروا في تكذيبهم فأبادهم الله.

أما القسم الثاني من العرب الباقون حتى الآن وهم بنو قحطان وبنو عدنان، فبنو قحطان هم العرب العاربة أي العرب الأصليين موطنهم الأصلي جنوب الجزيرة ومنهم ملوك اليمن والمناذرة والغساسنة وملوك كندة ومنهم الأزد اللّذين تفرع منهم الأوس والخزرج، أما بنو عدنان فهم العرب المستعربة اللّذين اكتسبوا اللّسان العربي وهم عرب الشمال وموطنهم الأصلي مكة المكرمة، وهم ذرية إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ومنه انحدرت القبائل العربية[١٢]. وقد انتشر على يد إسماعيل ديانة أبيه إبراهيم عليه السلام، ثم عبدت العرب الأصنام والأوثان والطواغيت، هذه الوثنية لم يرضاها المولى عز وجل فأرسل إليهم ولكافة المعمورة نبيه محمد (ﷺ) ليمحوها من قلوبهم.[١٣]

لقد كتبت بعض الدراسات الحديثة عن العرب تصف تقويمهم الفسيولوجي" والعرب هم الممثلون الرئيسيون لما دعاه أوغين فيشر (Eugen Fischer) الجنس الشرقي "الذي يمتاز بالرأس الطويل والوجه الضيق بنتوء مؤخرة الجمجمة كما يمتاز بالقامة المربوعة والبنية المهزولة إنه ضرب من جنس البحر الأبيض المتوسط السائد في الشمال الإفريقي ولقد اختلطوا بالجنس المعروف بجنس الشرق الأدنى"[١٤]، أما ابن خلدون في ديوانه نجده يطيل الحديث عنهم فيصف طريقة عيشهم ومناطق وطبيعة سكناهم حيث يقول: "اعلم أنّ العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة، أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والأنعام لكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها ويحملون أثقالهم على ظهورها... يبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص، ويختطف الناس من السبل، ويتقلبون دائمًا في المجالات... وانتجاعًا لمراعي غنمهم، وارتيادًا لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم..."[١٥]، ويجعل موطنهم الجغرافي في الإقليم الثالث الممتد ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند " فاختصوا لذلك بسكنى الإقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق، فمصر واليمن والحجاز ونجدا وتهامة وما وراء ذلك مما دخلوا إليه في المائة الخامسة...وصحاري برقة وتلولها وقسنطينة وأفريقية والمغرب الأقصى والسوس، لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف...".[١٦]

أما عن مواطنهم بشبه الجزيرة العربية فسنركز على قبائل بني هلال وبني سليم[١٧] باعتبار هذه القبائل هي التي انتقلت من الحجاز والشام إلى صعيد مصر ومنه هاجرت إلى المغرب الإسلامي، فأما مواطن بني سليم فكانت فيما بين المدينة وخيبر وتيماء، أما بني هلال فمجالهم كان في بسائط الطائف إلى جبل غزوان شرق مكة، هذه مواطنهم في الجاهلية، وبعد الإسلام حافظوا عليها مع توسعهم في غيرها[١٨]، والملاحظ على العرب – بني هلال وبني سليم- انتقلت طائفة من بني سليم إلى مصر ثم لحق بهم بني هلال وأحلافهم واشتغلوا بالفلاحة، ودخل إخوانهم بشبه الجزيرة في دعوة القرامطة سنة (٣١٦ هـ/ ٩٢٨م)، وحارب الفاطميون القرامطة بالشام وانتصر عليهم العزيز بن المعز فنقل كثيرا من بني سليم وهلال إلى صعيد مصر، ومن الصعيد هاجروا نحو منطقة المغرب الإسلامي بما فيه المغرب الأوسط وإقليم متيجة.

اعتبارًا لذلك كان موضوع التواجد العربي في المغرب الأوسط عامة وإقليم متيجة خاصة هو محور دراستنا هذه الموسومة بـ: "العنصر العربي بإقليم متيجة خلال العصر الوسيط". إنّ ما يلاحظ على الدراسات المتخصصة أنّها لم تفرد لموضوع التواجد العربي في إقليم متيجة دراسة خاصة مستقلة، وإنما وجد الموضوع ضمن دراسات عامة مثل: ما تناوله مبارك الميلي في كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث: الجزء الثاني"، وما تطرق إليه أحمد توفيق المدني في كتابه "كتاب الجزائر"، وخالدي عبد الحميد في كتابه "الوجود الهلالي السليمي في الجزائر" أو المقال الذي كتبه الدكتور علاوة عمارة بعنوان "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"، وخلال هذه الدراسة أريد أن أرسم لوحة عن تاريخ وجغرافية إقليم متيجة، وأهم القبائل العربية التي استقرت به، نشاطاتها وتنقلاتها وعلاقتها بالسلطات السياسية.

تتمحور الإشكالية التي يطرحها الموضوع في: التواجد العربي في إقليم متيجة للبحث في: واقع حياة العرب في الإقليم، وللإجابة عن هذه الإشكالية يترتب علينا الإجابة عن تساؤلات فرعية أهمها: - كيف حدّدت المصادر الجغرافية إقليم متيجة ؟ - متى كان أول اتصال للعرب بالإقليم؟ - ما هو حظ الإقليم من الهجرات الهلالية

بعد قطع المعز للدعوة الفاطمية ؟ - هل حافظ العرب على عاداتهم وتقاليدهم المشرقية بعد استقرارهم بالمنطقة ؟ - هل تأثر السكان الأصليون بعاداتهم وتقاليدهم ؟ - ما طبيعة علاقاتهم بالسلطات السياسية ؟

أسئلة تطرح نفسها بإلحاح في هذه الدراسة، وللإجابة عن إشكالات البحث وتساؤلاته كان لا بد من اعتماد واستخدام منهج تاريخي معين بالرجوع إلى المادة العلمية المبثوثة في مختلف أنواع المصادر التاريخية التي تناولت الموضوع أو طرقته في إحدى جوانبه، وحينما يتعذر علينا الحصول على المادة التاريخية نميل إلى استقراء مختلف الأفكار واستنتاج بعض الحقائق وذلك بمقارنة النصوص التاريخية مع بعضها البعض.

العنصر العربي في إقليم متيجة

قبل الخوض في الحديث عن مواطن العرب في إقليم متيجة يتوجب علينا الحديث عن حركتهم من المشرق الإسلامي إلى منطقة المغرب الإسلامي مع الفتوحات الإسلامية أولاً، ثم مع الهجرات الهلالية من صعيد مصر نحو المنطقة ثانيًا.

كان أول اتصال للعرب بالشمال الإفريقي- المغرب الإسلامي- مع الفتوحات الإسلامية، في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث أصدر سنة (٢٧هـ / ٦٤٧ م) أمرًا لواليه على مصر عبد الله بن أبي سرح العامري بالهجوم على إفريقية، فقدمها بعشرين ألف مقاتل تمكن من خلالها دخول سبيطلة، ثم وجّه العرب حملات أخرى نحو المنطقة أيام الأمويين على عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان الذي وجّه جيشا بقيادة معاوية بن حديج السكوني الكندي سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥ م) تمكن من خلالها فتح العديد من المناطق كسوسة وبنزرت وجربة واستمر فتح المنطقة مع بقية القادة وعلى رأسهم عقبة بن نافع الفهري خلال الولايتين، فيعتبر أول مَنْ ثبّت قدم العرب هناك خاصةً بعد تأسيس مدينة القيروان سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)[١٩] وخلال هذه المرحلة اقتصر سكنهم على المدن غير مزاحمين للبربر، وبعدما أخضعوا البربر أسّسوا دولاً مستقلة كالأغالبة والرستميين والأدراسة، إلى أن جاء الشيعة الفواطم فقضوا على هذه الدول[٢٠] ثم انتقلوا إلى مصر.

إذن فما علاقة الفاطميين بالهجرات العربية – بني سليم وبني هلال- من صعيد مصر نحو المغرب الإسلامي؟

لما رحل بنو عبيد إلى مصر كان ملوك صنهاجة يدعون لهم على المنابر في إفريقية، وكان المعز ابن باديس صغيرًا إذ ولي الحكم وهو ابن الثمانية، ومنذ صغره كان حريصًا على الاهتمام بمذهب مالك، وفي بعض الأعياد خرج إلى المصلى وهو غلام فتعثر فرسه فقال: "أبو بكر وعمر" يعني بذلك الخليفة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب "رضي الله عنهما"، فسمعته الشيعة فبادروا إليه ليقتلوه فجاءه عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضعوا السيف في الشيعة فقتل منهم الكثير..."[٢١]، وخلال سنة (٤٣٣هـ /١٠٤١م) أظهر الدعوة للعباسيين، ثم أمر بقطع الخطبة لصاحب مصر ولعن الفاطميين في الخطب سنة (٤٤٠هـ /١٠٤٨م) وقد أوردت لنا مصادر التاريخ قوله هذا: "اللّهم العن الفسقة الكبار، المارقين الفجار، أعداء الدين وأنصار الشيطان، المخالفين لأمرك... وأن سيدنا أبا تميم المعز بن باديس بن المنصور القائم لدينك والناصر لسنة نبيك والرافع للواء أوليائك..."[٢٢].

كانت هذه الأخبار قد وصلت الخليفة الفاطمي في القاهرة، وكان العرب من هلال وبطونهم بصعيد مصر، وقد زاد ضررهم على الدولة، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري[٢٣] على الخليفة بتولية هؤلاء أعمال إفريقية[٢٤] خاصةً وأن الصعيد أصبح لا يسعهم وما تنتجه الأرض لا يكفيهم[٢٥] يقول ابن خلدون: "فبعث المنصور وزيره على هؤلاء سنة (٤٤١هـ /١٠٤٩م) وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم بعيرًا ودينارًا لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل. وقال لهم أعطيتكم المغرب..."[٢٦]، فوافقت العرب على ذلك وأجازوا النيل ونزلوا في برقة، ثم كتبوا لإخوانهم بمصر يرغبونهم في اللحاق بهم فأجازوا إليهم بعدما دفعوا ديناران لكل رأس، وتنافسوا على البلاد، ووصلوا إفريقية سنة (٤٤٣هـ/١٠٥١م)، واقتسموا البلاد سنة (٤٩٦هـ/ ١١٠٢م)[٢٧] فحصل بني سليم على شرق المنطقة وبني هلال على غربها[٢٨]، وهؤلاء العرب الذين دخلوا إفريقية وما يليها هم من الطبقة الرابعة[٢٩] – العرب المستعجمة - وقد وصف ابن خلدون الطريقة الفوضوية التي دخلوا بها "أقامت لهب بني سليم وأحلافها... بأرض برقة وسارت قبائل دياب وعوف وزغبة وجميع بطون هلال إفريقية كالجراد المنتثر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إفريقية سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م)"[٣٠]. ثم واصلوا تحركاتهم إلى أن انتشروا في كامل أنحاء المغرب الإسلامي.

والسؤال المطروح هنا متى كان أول اتصال للعرب بالمغرب الأوسط ؟

إنّ أوّل اتصال للعرب بالمغرب الأوسط هو الآخر كان في خضم الفتوحات العربية الإسلامية، حيث دخل إليه أبا المهاجر دينارا وعقبة بن نافع الفهري وحسان بن النعمان فاتحين[٣١]، لكن تواجدهم في المنطقة برز بشكل كبير مع الهجرات الهلالية حيث دخلوه من ثلاث جهات وهي: "الجهة الأولى جهة الساحل حيث تقطن كتامة تقدموا إليها من باجة فانتشروا بالقالة وعنابة وقسنطينة، أما الجهة الثانية فهي جهة الهضاب ما بين الأطلسين التلي والصحراوي حيث الحماديين، تقدموا إليها من ناحية الأربس، أما الجهة الثالثة هي جهة الصحراء حيث تكثر خيام زناتة تقدموا إليها من ناحية سبيبة إلى تبسة وانتشروا جنوب أوراس على قرى الزاب."[٣٢]

إذن فما حظ إقليم متيجة من هذه الهجرات ؟

قبل الحديث عن مواطن العرب بإقليم متيجة، يتوجب علينا تحديد المعالم الجغرافية للإقليم، وهنا الباحث أو المؤرخ يحتار وهو يحاول أن يحدد معالمه الجغرافية خلال العصر الوسيط، حيث يجد نفسه تائهًا وضائعًا بين مجموعة نصوص تكتفي بعضها بذكر

مصطلح متيجة من دون تحديد مدنه وقراه، وأمام هذه الضبابية يضطر الباحث لعرض كافة ما اطلع عليه من نصوص، ومن ثَمَّ يعمل على تحديد معالمه ومدنه وقراه بما توفر لديه من وثائق تثبت ذلك بالدليل والحجة.

يقول يقوت الحموي عن متيجة: "بفتح أوله وكسر ثانيه وتشديده ثم باء مثناة من تحت ثم جيم بلد في أواخر إفريقية من أعمال بني حماد، قال البكري: الطريق من أشير إلى جزائر بني مزغناي ومن أشير إلى المدية وهي بلد جليل قديم، ومنها إلى فرزونة، وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ويقال إنها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي أكثر تلك البلاد كتانا ومنها يحمل وفيها عيون سائحة وطواحين ومنها إلى مدينة أغزر ومنها إلى جزائر بني مزغناي ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن عيسى المتيجي، سمع أبا الفضل عبد الحميد بن الحسين بن يوسف بن دليل الحطي وعبيدة سمع منه ابن نفطة بالإسكندرية"(٣٣)، وهنا نجد صالح بن قربة يذكر أن فرزونة هي مدينة قريبة من البليدة الحالية.(٣٤)

أما ابن حوقل، فنجده يذكر متيجة ضمن مدن إفريقية: "... وأما إفريقية فقصبتها القيروان ومن مدنها صبرة، أسفاقس، المهدية...المسيلة، أشير، سوق حمزة، متيجة، تنس..."(٣٥)، ثم يذكر متيجة والنهر الجاري بها وبساتينها وما تنتجه أراضيها فيقول: "متيجة في مرج لهم مالا جاري عليه أرحية وشعبة من النهر تدخل الدور كثيرة البساتين وهياجة على اسم رستا قها وهو واسع كثيرة القموح".(٣٦)

أما البكري فيذكر مدينة المدية على أنها من متيجة: "المدية وهي بلد جليل قديم ومنها إلى فرزونة وهي على مدينة على نهر كبير عليه الأرحا والبساتين ويقال لها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي أكثر تلك النواحي كتانا يحمل، وفيها عيون سايحة وطواحين ماء ومنها إلى مدينة أغزر ومنها إلى مدينة جزاير بني مزغنى وهي مدينة جليلة قديمة البنيان..."(٣٧) ، وتقريبًا هو الكلام نفسه عند صاحب وصف إفريقيا فيقول عنها: "مدينة بناها الأفارقة على تخوم نوميديا على بعد نحو ثمانون ميلاً من البحر المتوسط تقع في سهل خصيب جدا تحيط بها جداول ماء كثيرة وبساتين، سكانها أثرياء ويسكنون دورا جميلة إلا أن الأعراب يثقلون كاهلهم بالأتوات".(٣٨)

أما ليون الإفريقي، فيذكر مدينة جزائر بني مزغناي(٣٩) ضمن متيجة مع ذكر القبيلة التي بنتها – قبيلة بني مزغنة- والبساتين المحيطة بها فيقول: "معناها الجزر سميت بذلك لأنها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة، والمدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مزغنة، وهي كبيرة تضم حوالي أربع آلاف كانون فيها دور جميلة وأسواق ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه قرب المدينة من الشرق نهر نصبت عليه طاحونات ويزود السكان بالماء للشرب والأغراض الأخرى، وفي الضواحي سهول جميلة جدًا لاسيما سهل متيجة يبلغ طوله خمسة وأربعون ميل وعرضه ستة وثلاثون ميل حيث ينبت القمح الجيد بكثرة...".(٤٠)

وفي موضع آخر نجده يذكر نهر الشفة ومنبعه الذي يجري في متيجة فيقول: "وهو نهر ليس بالطويل ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى متيجة مجاور لمدينة الجزائر ثم يصب في البحر المتوسط قرب مدينة عتيقة تدعى تمندفوست"(٤١)، لكن في إطار الكلام عن نهر الشفة نجد أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر يقول: "واد الشفة ينزل من جبال موزايا(٤٢) ويخترق مضيق من أبرع ما تراه العيون ويتصل بوادي سيدي الكبير ثم ينصب في وادي الجر قرب القليعة ويتكون من ذلك وغيره وادي مزفران في البحر شرقي القليعة غرب مدينة الجزائر، أما النهر الذي لا يبعد عن أطلال المستعمرة الرومانية المعروفة عند البربر بتمندفوست فهو وادي حمير في خليج الجزائر في رأس ماتيفو"(٤٣)، ويذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر وادي الحراش ولا ندري إن كان هذا الوادي موجود وبنفس التسمية خلال العصر الوسيط أم لا، لكن يذكر في موضع آخر أن المنطقة كانت تسمى سابقا برج القنطرة وبرج آغا، هذا الوادي يتكون في جبل البليدة ويخترق سهول متيجة وينصب على بعد ثمانية كيلومتر من مدينة الجزائر.(٤٤)

إذن من خلال ما تم عرضه من نصوص نستطيع القول أن متيجة سهل خصب ضمن أراضي المغرب الأوسط من مدنه وقراه نذكر: المدية، جزائر بني مزغنة، تمندفوست، فرزونة وأغزر، والملاحظ على المصادر التاريخية والجغرافية أنّهالم تذكر مدينة البليدة إطلاقًا كأحد مدن الإقليم، فلا ندري ما سبب ذلك، هل أنّ المدينة كانت تعرف باسم آخر أغفلناه أو أغفلت ذكره المصادر؟ لكن بعض الكتابات التاريخية المعاصرة تقدم لنا إجابات تجعلنا نقول أن المدينة لم تكن معروفة خلال العصر الوسيط بهذا الاسم، وإنما أسسّت خلال العهد التركي العثماني بدعم من المهاجرين الأندلسيين" بليدة من أهم وأجمل مدن الناحية الجزائرية عند سفح الأطلس التلي وإلى جانب الوادي الكبير الذي يسقي بمياهه الدافقة البساتين البديعة... والبليدة مدينة أندلسية أسسّها سنة (٩٦١هـ/ ١٥٥٣م) سيدي أحمد الكبير بإعانة مهاجي الأندلس واتخذوها لأنفسهم دارًا وملاذا وجعلوها مركزًا لصناعتهم وغرسوا بها حسب النظام الأندلسي البساتين، حطّم زلزال سنة (١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م) هذه المدينة النظرة فأعاد أهلها بناءها بإعانة أتراك الجزائر"(٤٥) وقد اشتهرت متيجة بانتشار الأرحاء والبساتين وتجارة الكتان، وزرع القموح بأنواعها، ومن أهم الأنهار التي تجري فيه نهر الشفة.

أما عن مواطن العرب في الإقليم فتذكر المصادر أنّ هؤلاء هم من الطبقة الرابعة أي العرب المستعجمة، وهم ثلاث قبائل: حكيم وهلال ومعقل، هذه الأخيرة استقرت أحد قبائلها بمتيجة وفروعها ثلاث مختار وعثمان وحسان، تشتمل مختار على روحة وسليم وعثمان وكنانة، أما حسان فعلى ذوي حسان وذوي عبيد الله،

وذوي حسان على دليم والأودية والرابش والرحامنة وأحمر، ويشتمل ذوو منصور على العمارنة والمنابهة وأولاد حسين وأولاد أبي الحسين، وينقسم بنو عبد الله بدورهم إلى: خراج وحدج وثعلبة وجعوان تتفرع كل هذه القبائل إلى بطون عديدة[٤٦] يقول ابن خلدون: "هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية ... وأكلتهم الأقطار المتباعدة."[٤٧]

ويعتبر الثعالبة[٤٨] من أبرز القبائل العربية التي استقرت بمتيجة خلال العصر الوسيط وهي ذات شرف وشجاعة بلغ عدد فرسانها ثلاثة ألف فارس[٤٩]، لها عدة فروع مثل: ثعلبة في بني أسد، وثعلبة في بني تميم، وثعلبة في طيئ، وثعلبة في بني ربيعة[٥٠]، يقول صاحب تاج العروس: "بهاء العصعص بالضم والثعلبة اسم خلق لا يحصون عدا من العلماء والمحدثين قال السهيلي في الروض: ثعلبة في العرب في الرجال قلّما سموا بثعلب وإن كان القياس كما سمو بنمر وذئب وسبع. لكن الثعلب مشترك إذ يقال: ثعلب الرمح وثعلب الحوض، وبنو ثعلبة قبائل شتى خبر مبتدأ أو معطوف على خلق ويقال لهم الثعالب فثعلبة في أسد وثعلبة في تميم وثعلبة في ربيعة وثعلبة في قيس ومنها الثعلبان: قبيلتان من طيئ وهنا ثعلبة بن جدعاء بن ذهل ابن رومان بن جندب بن خارجة ابن سعد بن فطرة بن طيئ وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور، والثعالب في طيئ يقال لهم مصابيح الظلام... وأما القبائل ففيهم ثعلبة بكر بن ريث بن غطفان وفيهم بغير هاء ثعلب بن عنروا، وثعلبة اثنان وعشرون صحابيا منهم ثعلبة بن سهيل الطهوي أبو مالك الكوفي سكن الري، وثعلبة بن مسلم الخثعمي الشامي، وثعلبة الأنصاري والأشجعي والثقفي صحابيون."[٥١]

أما الثعالبة اللّذين استقروا بمتيجة وتنقلوا في الصحراء حتى تكديت، وهنا لا ندري ما المقصود بها، هل يقصد توات البعيدة عن الجزائر، أو تكدمت القريبة من تاهرت، سيطروا على الجزائر ودلس[٥٢]، يرجعهم ابن خلدون إلى عرب المعقل جدهم الذي له من الأولاد سحير أو (صقيل) ومحمد ومن سحير عبيد الله وثعلب فيقول: "أن معقل جدهم له من الولد سحير ومحمد، فولد سحير عبيد الله وثعلب، فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم ومن ثعلب الثعالبة اللّذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر وولد محمد مختار ومنصور وجلال وسالم..."[٥٣]، أما نسبهم فيرجع ولد ثعلب بن علي بن بكر بن سحير أخي عبيد الله بن صقيل[٥٤] ويذكر ابن خلدون انتسابهم إلى جعفر بن أبي طالب، ويؤيد هذا الرأي مبارك الميلي حيث يقول: "... نسب جعفر في الثعالبة صحيح وأنّ جعفر أخو عبد الله الكامل الذي ملك أبناؤه متيجة خلال القرن (٣٠هـ/٩٠م) فلا يستبعد أنهم بقوا هناك بعد ذهاب ملكهم حتى نزل عليهم الثعالبة"[٥٥]. وتذكر لنا نصوص التاريخ أن موطنهم كان بتيطري ثم نزلوا إلى متيجة بعدما تغلب عليهم بني توجين.[٥٦]

إن النصوص التاريخية لا تمدنا بمعلومات عن تاريخ دخول الثعالبة إلى متيجة، لكن في المقابل تذكر بعض الدراسات الحديثة أنهم دخلوها أواخر القرن (٧٠هـ / ١٣ م) ، حيث كانوا عاجزين عن الترحال فاستقروا بمتيجة وأدّوا الضرائب للحفصيين والمرينيين اللّذين تداولوا ملك متيجة[٥٧]. لقد دخل الثعالبة إقليم متيجة وهم تحت سلطة مليكش أو ملكيش من صنهاجة، إلى غاية أن تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط وقضوا على مليكش، فتغلب الثعالبة على متيجة وملكوه.[٥٨]

كانت رئاستهم في الإقليم في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغير، وتذكر النصوص عن سباع هذا أنه إذا ما وفد على الموحدين استقبلوه بحفاوة وكرموه إذ يجعلون من فوق عمامته دينارًا يزن عددًا من الدنانير وذلك أنه أكرم وفادة المهدي بن تومرت لما مرّ بهم[٥٩] وتزودنا بعض النصوص بأن سباع هذا منح ابن تومرت حمارًا " ولما اجتاز المهدي في طريقه إلى المغرب بالثعالبة عرب الجزائر كان ساعيًا على رجليه فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه اركبوا الحمار يركبكم الخيول المسمومة"[٦٠]، وبعد ذلك استقرت رئاستهم في بني يعقوب بن سباع، ثم في عقب حنيش، ولما غلب السلطان المريني أبو الحسن على ممالك الزيانيين نقلهم إلى المغرب وصارت الرئاسة لأبي الحملات بن عائد بن ثابت وهو ابن عم حنيش، ثم ولي عليهم إبراهيم بن نصر وبعد أن هلك قام برئاستهم ابنه سالم ابن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن محمد بن سباع كبير الثعالبة وصاحب وطن متيجة، هكذا ذكره ابن خلدون، عاقد سالم هذا الزيانيين كثيرا- أبو حمو- ثم نقض عهده معهم مرارا، ولما تغلب بنو مرين على تلمسان تحيز لهم، ولما استرجع أبو حمو ملكه استدعى سالم أبا زيان محمد بن عثمان الثاني ابن عم أبي حمو ونصبه على الجزائر[٦١] فزحف إليه أبو حمو سنة (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) وحاصره بجبال متيجة أياما فاعتقله وأخذه إلى تلمسان فقتله رميًا- قعصا- بالرماح، ثم تتبع أهله وعشيرته بالقتل والسبي والنهب إلى أن قضوا على بكرة أبيهم.[٦٢]

لقد برز من الثعالبة دفين جزائر بني مزغنة عبد الرحمان الثعالبي (٧٨٦- ٨٧٥هـ / ١٣٣٤ – ١٤٧٠م) ارتبطت هذه الشخصية بالتصوف، وأسسّت في المدينة مدرسة تحمل اسمه[٦٣]، إضافة إلى أبو مهدي عيسى عالم القرن (١١هـ/ ١٧م) وعبد الرحمن من فرع محمد بن سباع الذي يرفع البعض نسبه إلى علي بن أبي طالب "رضي الله عنه."[٦٤] إضافة إلى قبيلة الثعالبة فقد استقرت قبيلة يزيد العربية بمتيجة وهي ذات بطون كثيرة منها: جواب بنو كرز وبنو موسى وبنو سعد مواطنهم كانت أرض بني حسن من صنهاجة إلى متيجة،[٦٥] هذا ما استطعنا الحصول عليه من معلومات حول هذه القبيلة.

إنّ المصادر نجدها تذكر بشكل واضح أنّ الثعالبة قد استقروا في متيجة، لكن هذا ما لم نجده في ذكر بقية القبائل مثل قبيلة حصين[٦٦] بن زغبة، وقبيلة بنو حسين من بنو مالك بن زغبة، حيث تسود الضبابية حول استقرارهما بمتيجة من عدمه، لكن إذا ما اعتمدنا على ما ذكرناه في تحديد مدن إقليم متيجة ومنها المدية،

وخاصةً إذا ما علمنا أنها عاصمة التيطري، وبالاعتماد على ما ذكره ابن خلدون حول نزول قبيلة حصين بالتيطري المحاذي للمدية مواطن الثعالبة" ... ونزل هؤلاء حصين بالتيطري وهو جبل أشير ملكوه وتحصون به"(٦٧)، وذكره كذلك أن بنو حسين نزلوا بالمدية(٦٨) يمكننا القول أن حصين وبنو حسين من بين القبائل العربية التي استقرت بمتيجة.

أما عن طبيعة حياتهم في الإقليم يجعلنا نتساءل هل حافظ هؤلاء على عاداتهم المشرقية التي ذكرتها مصادر التاريخ، أم تأثّروا بحياة البربر لمّا اختلطوا بهم ؟

لتحديد ذلك سنعتمد على نصين؛ النص الأول للحسن الوزان، والنص الثاني لابن خلدون، فالحسن الوزان في وصف إفريقيا نجده يقرر أن حياة العرب تختلف من منطقة لأخرى فيذكر طبيعة حياة العرب بليبيا فيقول: "... فعرب ليبيا ونوميديا يعيشون عيشة بؤس وفقر مدقع، يتاجرون بالجمال بالسودان ويملكون كمية وافرة من الخيول ويخرجون لصيد الغزال وحمار الوحش والنعام شبّه لباسهم لباس النومديين... (٦٩)، أما في حديثة عن الصنف الآخر من العرب وهم القاطنون ما بين الأطلس والبحر المتوسط، وهي المنطقة التي يدخل ضمنها إقليم متيجة فيقول عنهم: "... إنهم أكثر هناء وغنى من العرب المذكورين آنفا لاسيما فيما يخص اللّباس وأسراج الخيول وجمال الخيام، يملكون خيولاً أحسن من خيول الصحراء بكثير إلاّ أنّها أقل سرعة في السباق، فيحرث هؤلاء العرب أرضهم فيحصلون منها على كميات وافرة من الحبوب ويكسبون عدد لا يحصى من الغنم والبقر الأمر الذي جعلهم لا يستقرون في مكان واحد بحثًا عن أماكن الرعي، وهم أكثر وحشية وخيانة من عرب الصحراء، إلا أنهم كرماء".(٧٠)

إذن هذه هي عمومًا طبيعة حياة عرب إقليم متيجة حسب ليون الإفريقي، أما ابن خلدون في الديوان فنجده يتكلم عن أعمالهم التخريبية في المغرب الأوسط دون ذكر منطقة متيجة، لكن ما دامت جزءًا من المغرب الأوسط فلا نستبعد قيامهم بالأعمال نفسها فيها حيث يقول: "... ثم لحقوا القلعة فنازلوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، ثم طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكينها، فعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد... ولم يزل هذا دأبهم حتى لقد هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة، واختط بالساحل مدينة بجاية...".(٧١)

وفي موضع آخر، يصور ابن خلدون حياتهم حيث يذكر أنّهم ركبوا الخيل وحملوا السلاح وفلحوا الأرض(٧٢) كما أغاروا على الضواحي وأفسدوا السابلة وأغاروا على الحجاج أيام الحج(٧٣)، وفي هذا السياق أشارت بعض الدراسات الحديثة إلى طبيعة حياة قبائل بني هلال بالمغرب الأوسط التي لا تختلف عن حياة القبيلة العربية في المشرق، حيث حافظوا على نفس نمط عيشهم المعتاد حياة البدو والظعن، أما في قضية اللّسان فإن القبائل التي استقرت في متيجة ذات اللّسان المضري لسان الهلاليين قد فسد لمّا اختلطوا بالبربر، وفيما يخص أخلاقهم فبقت تقريبا نفسها بقبحها خاصةً أعمالهم التخريبية مباشرة بعد دخولهم إلى المغرب الأوسط، وحسنها كالشجاعة، وعزة النفس، وحفظ العهد، وحسن الجوار، والاعتراف بالجميل، وعنايتهم بالأنساب.(٧٤)

وعمومًا؛ يمكننا تلخيص طبيعة حياة العرب بمتيجة بما أورده أحمد توفيق المدني في كتابه الجزائر حيث يقول: "العرب مخالطون ولا يختلطون، فالعربي صعب الاندماج في غيره شديد المحافظة وقوي الغيرة على عروبته"(٧٥)، فالعرب اللّذين سكنوا في الجزائر تقريبًا حافظوا على نفس عيشة أسلافهم في المشرق، إذ ما استثنينا فساد لسانهم المضري، تخلقوا بعين أخلاق أسلافهم، وبعبارة أخرى حافظوا على كل الجزئيات والكليات التي كانت لبني هلال فالصبي العربي مثل الصبي العربي النازح مع أهله من الحجاز نحو مصر، والراعي العربي يمثل لك الراعي الهلالي، والسيد العربي بالمشرق هو نفس السيد العربي في الجزائر".(٧٦)

إنّ علاقاتهم بالسلطة السياسية لم تكن واضحة، فتميزت بالصراع تارة وبالتحالف تارة أخرى، فلم يعترف أي طرف باستقلال الطرف الآخر، فكانت علاقة ملوك هذه الدول مع العرب تتسم بتقريبهم أيام الحرب فيقطعونهم الأراضي ويمنحونهم الهدايا ويقربوهم بالمصاهرة، أما أيام السلم فقلبوا لهم ظهورهم وجردوهم من امتيازاتهم(٧٧)، وهذا ما رأيناه في علاقة الثعالبة برئاسة سالم ابن إبراهيم مع السلطة الزيانية أيام أبي حمو موسى الزياني.

لكن يبدوا أن علاقة الثعالبة مع الموحدين كانت جد متميزة حسب ما ذكرناه سابقًا من كلام ابن خلدون عن سباع زعيم الثعالبة عند نزوله عليهم كانوا يستقبلونه بحفاوة ويكرموه إذ جعلوا من فوق عمامته دينارًا يزن عددًا من الدنانير، وذلك أنّه أكرم وفادة المهدي بن تومرت لما مرّ بهم، وأفادتنا بعض الدراسات أنّ عبد الله بن عبد المؤمن بن علي كان في متيجة عائدًا إلى مراكش فوصلته أخبار مفادها أن بني هلال خرجوا لحرب قواته بباجة التونسية فتوقف عن السير وأرسل جيشًا مكونًا من ثلاثين ألف فارس مددًا لأبنه(٧٨) وهنا لا يستبعد مشاركة عرب متيجة في هذه الحملة باعتبار العرب من مكونات الجيش الموحدي،(٧٩) أما عن دولة المرابطين فلم نعثر على نصوص توضح علاقة عرب متيجة بهم.

إنّ التشكيل القبلي لعرب متيجة لم يخرج عن تشكيلهم بكامل المغرب الإسلامي، فقد أخذ نفس سمات التشكيل القبلي المشرقي، فكانت القبيلة تحت حكم الرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد، يقاسمه الرئاسة إخوة أو ذوو قرابة من انتخاب مجلس القبيلة، وكان من حق سلطان الدولة الذي تتحالف معه القبيلة إقرار هذا الاختيار.(٨٠) لقد أثّر العرب في اقتصاد متيجة من جهتين الأولى سلبية حيث خرّبوا العديد من المدن منها متيجة فعطّلوا نشاطها

الاقتصادي، ولعل الأثر السلبي كان نتيجة مباشرة للهجرة وما أعقبها من حروب وانعدام الأمن،[٨١] والثانية إيجابية تملت في بعث النشاط الاقتصادي حيث اهتمت بالنشاط الزراعي وتربية الحيوانات خاصةً الخيول.[٨٢] كما أثّر العرب في المنطقة من ناحية تعريب اللّسان حيث نجحت هذه القبائل في نشر اللّغة العربية لاتفاق أساليب حياتهم وتجانسها مع الحياة البربرية في السهول والجبال. فقد كان العرب والبربر شعوبًا بدوية رعوية، مما سهل امتزاج العنصرين حيث تكون جنس خليط واستعرب البربر.

خاتمة

من خلال هذه الدراسة المتواضعة يمكننا الخروج بالنتائج التالية:

- يُعَدّ ديوان العبر لابن خلدون خاصةً الجزء السادس منه المصدر الأول لتحديد مواطن العرب في المغرب الأوسط عامة ومتيجة خاصة.
- إنّ أوّل اتصال للعرب في المغرب الأوسط كان في خضم الفتوحات العربية الإسلامية ثم مع الهجرات الهلالية.
- إنّ الفاطميين هم مَنْ أخرجوا العرب من المنطقة، ثم أعادوهم إليها مع الهجرات الهلالية من صعيد مصر بإيعاز منهم.
- إنّ دخول القبائل الهلالية إلى المغرب الأوسط لم يكن بنفس القوة التي دخلوا بها إلى إفريقية.
- إن العرب المستوطنون في المغرب الأوسط غالبيتهم من بني هلال وأحلافهم.
- الطبقة الرابعة من العرب- المستعجمة- هم مَنْ استقروا في المغرب الأوسط ومتيجة.
- إنّ المصادر الجغرافية والتاريخية لم تحدد بدقة المعالم الجغرافية لمتيجة.
- تعتبر قبيلة الثعالبة من أبرز القبائل العربية التي استقرت في متيجة خلال العصر الوسيط.
- يعتبر سهل متيجة من أخصب سهول العالم من الناحية التاريخية والناحية الاقتصادية.
- علاقة عرب متيجة مع السلطة السياسية كانت قائمة على أساس المصالح.
- تميزت علاقة العرب بسكان المنطقة بالتأثير والتأثر لكن تأثير القبائل العربية كان واضحًا.
- لم يشمل هذا التأثير الجانب السلبي فقط بل كان لهجراتهم آثار إيجابية.
- اختلفت التسمية حول انتقال العرب إلى المنطقة بين الهجرات الهلالية والغزوة الهلالية والتواجد الهلالي وغيرها من التسميات.

الملاحق

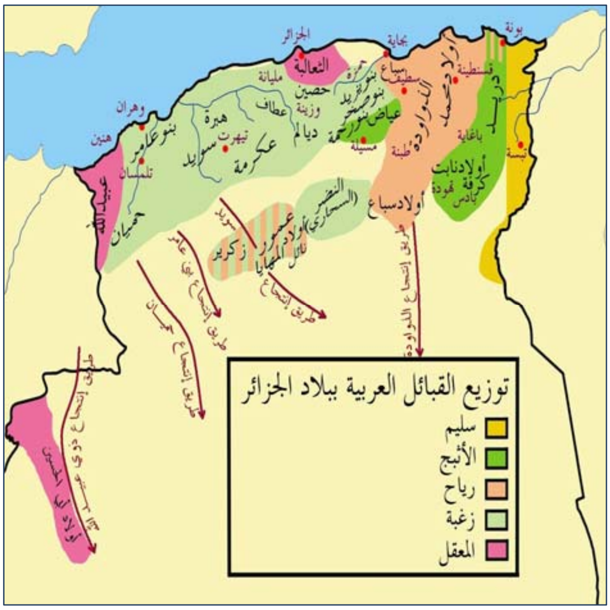

خريطة رقم (١)

توزيع القبائل العربية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط

خريطة رقم (٢)

توزيع القبائل العربية بالمغرب الأوسط خلال القرن ٨ هـ/ ١٤م

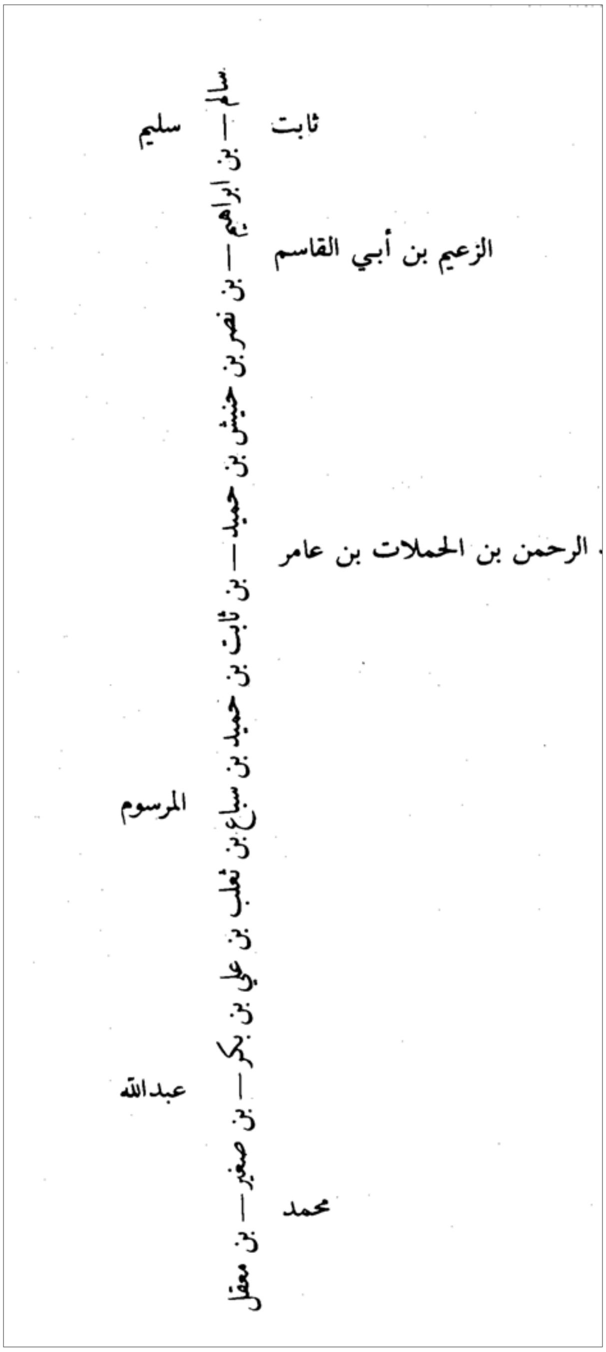

شكل رقم (١)

شجرة النسب لقبيلة الثعالب العربية

المصدر: ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء السادس، ٨٦.

الهَوامِشُ:

(١) أحمد معمور العيسري، **موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام تاريخ ما قبل الإسلام إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م**. فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الدمام، السعودية، ط ٠١، ١٩٩٦م، ص ٣٨.

(٢) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج ٠٢، مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٣م، طبع على مطابع بدران وشركاه، بيروت لبنان، ص ١٤.

(٣) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ١٣ – ١٤.

(٤) ابن خلدون عبد الرحمن (٧٣٢- ٨٠٨هـ / ١٣٣٢- ١٤٠٦م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**،ج ٠٢، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة ومراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠، ص ١٧.

(٥) العرب البايدة من أبي أرفخشند بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشد، أما العرب البايدة أو المندثرة فمنهم عاد وثمود وطسم وجديس وأصحاب الرس وأهل مدين، ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٣٢ - أحمد معمور العسيري، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٦) هذه الأمة من أقدم الأمم من بعد قوم نوح عليه السلام سميوا بالعرب العاربة إما بمعنى الرساخة في العروبية، أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها، ابن خلدون المصدر السابق، ص ٢١- ٢٢.

(٧) سموا بهذا الاسم لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت إليهم ممن قبلهم، بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم وهي اللّغة العربية، ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٥٢.

(٨) ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٠٦، ص ، ٤ – ٦.

(٩) الأعراف، الآية رقم (٦٥).

(١٠) الشمس، الآية رقم (١١- ١٥).

(١١) هود، الآية رقم (٨٤).

(١٢) أحمد معمور العسيري، المرجع السابق، ص ٤٠.

(١٣) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص، ١٥ - ١٦.

(١٤) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية نبيد أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٠٥، ١٩٦٨، ص ١٥.

(١٥) ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ١٦ -١٧.

(١٦) نفسه، ص ١٧.

(١٧) بنو سليم هؤلاء من أوسع بطون مضر وأكثرهم جموعا وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس رياستهم في الجاهلية لبني الثريد ابن رباحى ابن ثعلبة بن عطية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهنة بن سليم ومن بطونهم عطية ورعل وذكوان كانوا لعهد الخلافة العباسية شوكة فتنة ثم صاروا حلفاء لأمراء البحرين من القرامطة ولما انقرض القرامطة غلبوا على البحرين ولما غلب بنو الأصفر على البحرين طردوا عنها بني سليم فلحقوا بصعيد مصر ثم أجازوا النيل على يد اليازوري الفاطمي إلى افريقية لحرب المعز بن باديس فأقاموا ببرقه وجهات من طرابلس ، انظر ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٠٦، ص ، ٩٤ – ٩٥.

(١٨) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ، ١٤٧ – ١٤٨.

(١٩) الحسن الوزان بن محمد الفاسي، **وصف إفريقيا**، ج ٠١، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ٠٢، ١٩٨٣م، ص ٤٠ - مبارك الميلي، المرجع السابق، ص، ٢٢- ٢٤.

(٢٠) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ٠٩.

(٢١) المراكشي ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج٠١، تحقيق ومراجعة ج. س كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ٠٣، ١٩٨٣م ، ص ٢٧٤ – ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٠٦، ص١٩.

(٢٢) ابن عذاري، المصدر السابق، ص ٢٧٧ – ٢٧٨.

(٢٣) أبو محمد الحسن وهو الحسن بن علي اليازوري قاضي قضاة مصر عين وزيرًا سنة (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) وقُتل سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ١٩.

(٢٥) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢٦) ابن خلدون المصدر السابق، ص ٢٠.

(٢٧) أحمد توفيق المدني، **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة المصرية، دون تاريخ، ص، ٢٩ – ٣٠.

(٢٨) ابن خلدون، المصدر السابق، ص، ٢١- ٢٢.

(٢٩) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣٠) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٢٠.– ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٧٨.- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٣١) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ، ٢٤- ٢٦ - ٣٢.

(٣٢) نفسه، ص ١٥١.

(٣٣) ياقوت الحموي الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، **المجلد الخامس**، دار صادر بيروت، لبنان، ١٩٧٧م، ص ٥٣.

(٣٤) صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠٧ م ، ص ٢٥٥.

(٣٥) ابن حوقل أبي قاسم النصيبي، **كتاب صورة الأرض " المسالك والممالك والمفاوز والمهالك "، جزء المغرب والأندلس**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص – ص، ٢١٦- ٢١٧.

(٣٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٣٧) البكري أبي عبيد، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص، ٦٥ - ٦٦. – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

(٣٨) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج ٠٢ ، ص ٤١.

(٣٩) مدينة عليها صور على سيف البحر أيضا وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر شربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم، ولهم من العسل، انظر ابن حوقل، المصدر السابق، ص، ٧٧ – ٧٨.

(٤٠) ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص ٣٧ – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص، ٢٥٥ – ٢٥٦.

(٤١) صالح بن قربة، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٤٢) بهذا التجمع السكاني سويقة ومنها إلى حصن موزية قرية قصر من بناء الأول قرية مدينة خالية من السكان قد بنيت بالصخر ، راجع صالح بن قربة، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(٤٣) أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظاماتها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية**، طباعة ونشر المطبعة العربية، الجزائر، ١٩٣١، ص، ١٧١.

(٤٤) أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤٥) أحمد توفيق المدني، ص، ١٩٨ -١٩٩.

(٤٦) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج ٠١، ص ٤٩.

(٤٧) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٠٥.

(٤٨) جنس من الحيوانات مشهورة من فصيلة الكلبيات ورتبة اللواحم يضرب به المثل في الإحتيال، لكم ما يهمنا نحن قبيلة الثعالبة العربية كما نذكر ذلك في المتن انظر: الأستاذ شوقي ضيف وآخرون، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م، ص ٩٦.

(٤٩) الحسن االوزان، المصدر السابق، ٥٦.

(٥٠) ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري الإمام العلامة، **لسان العرب**، **المجلد الأول**، دار صادر، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص ٢٣٨.

(٥١) الحسين الزبيدي السيد محمد مرتضي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج ٠٢، تحقيق علي هلالي ومراجعة عبد الله العلايلي وعبد الستار محمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط ٠٢، ١٩٨٧م، ص، ٩١- ٩٢- ٩٣.

(٥٢) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ٥٦.

(٥٣) السلاوي الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية**، ج ٠٢، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، ١٩٥٤م ، ص ١٦١.- ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٠٦، ص ٧٩.

(٥٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٥٥) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٥٦) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٨٤ – مبارك الميلي، نفسه، ص ٢٩٦.

(٥٧) مبارك الميلي، نفسه، نفس الصفحة.

(٥٨) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٥٩) ابن خلدون، نفسه، نفس الصفحة.- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٦٠) السلاوي ناصر الدين، المصدر السابق، ص ٩٠.

(٦١) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٦٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ص، ٨٤ – ٨٥.

(٦٣) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ج ٠١، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط٠٢، دون تاريخ، ص ٤٣٠.- يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج٠١، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٢١٨.

(٦٤) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ٢٩٧.

(٦٥) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ٢٩٧.

(٦٦) لحصين زغبة بطنان عظيمان، جندل وخراش، فمن جندل أولاد سعد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل رياستهم في بني خليفة، ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل بن خراش ريلستهم في ولد رحاب بن عيسى بن أبي بكر بن زمام بن مسعود، انظر ابن خلدون، نفسه، ص ٥٩. – مبارك الميلي، ص ١٦٤.

(٦٧) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٥٨.

(٦٨) نفسه، ص ٦٤.

(٦٩) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج ٠١، ص - ص ٦١ -٦٢.

(٧٠) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص - ص ٦٢- ٦٣.

(٧١) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٢٧.

(٧٢) نفسه، ص٠٧.

(٧٣) نفسه، ص ١٨.

(٧٤) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ١٥٤- ١٥٧.

(٧٥) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٧٦) أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ١٤١.

(٧٧) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ٢٨٣.

(٧٨) عبد الحميد حاجيات وآخرون، **كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط**، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ١٧٠.

(٧٩) مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢م، ص ٣٠٢- ٣٠٣.

(٨٠) مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

(٨١) عبد الحميد خالدي، **الوجود الهلالي السليمي في الجزائر**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص، ١٩٠- ١٩١.

(٨٢) عبد الحميد خالقي، المرجع السابق، ص، ١٩١- ١٩٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

التصوف في التاريخ المغربي الوسيط
بعض ملامح المشروع السياسي

د. رشيد اليملولي
كاتب وباحث في التاريخ الوسيط
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

يكتسي موضوع التصوف أهمية قصوى في تاريخ المغرب الوسيط باعتباره ظاهرة حضارية أسهمت في تشكيل نسق المجتمع والسلطة معًا؛ من هذا المنطلق حاولنا في هذا الجهد المتواضع رصد وتتبع السلوك السياسي الصوفي خطابًا وممارسةً مقللين في الآن ذاته من قيمة الفكرة التي دافع عنها العديد من الدارسين وهي حصر المتصوفة في الخطاب الأخلاقي والقيمي الذي ارتضاه المتصوفة سبيلاً للتغيير وبناء دولة الولاية الدائمة الوجود، هذا المسعى تتأكد حجيته في العديد من الإشارات السياسية التي استثمرت التصوف لتأكيد أحقيتها ومشروعيتها السياسية، فجرى تتبع ملامح هذا المشروع في المصادر المعتمدة خاصةً التشوف إلى رجال التصوف للتادلي والمقصد اللطيف للبادسي والمستفاد للتميمي، كما أن تعامل السلطة بالمنطق الصوفي يوضح ويوحي أن الهداية شكلت مقومًا سياسيًا صاغ جانبًا مهمًا من التاريخ الوسيط المغربي، وقدم نفسه كنموذج قابل للاستثمار في مختلف الفترات، مما قد يعني أن تصرفات الأولياء لم تكن فقط أسيرة الجانب الديني، بقدر ما رنت ببصرها نحو نقد السلطة والبحث في ثغراتها أملاً في إسقاطها وتعويضها وهو ما انتبهت إليه السلطة التي "لغمت" هذا الامتداد، وأسهمت في إفشال هذا المشروع عن طريق تحييد سلطته ارتباطًا بالأساليب التي نهجتها الدولة والمبثوثة في ثنايا هذا المقال.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٦ أبريل ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ١٩ يونيو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
التجربة الصوفية، السلطة المرابطية، الحكم المريني، التصوف المغربي، العلماء والسلطة

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
رشيد اليملولي. "التصوف في التاريخ المغربي الوسيط: بعض ملامح المشروع السياسي".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١٠٣ – ١١١.

مُقَدِّمَةُ

تستعرض هذه الصفحات بعض ملامح المشروع السياسي الصوفي، ضمن مبحث التاريخ المغربي الوسيط في شقه الاجتماعي والساعي إلى نفض الغبار عن بعض القضايا التي لم تنل حظها من الدراسة، من خلال الرغبة في مساءلة المتن الصوفي انطلاقًا من المؤشرات السياسية الثاوية خلف الكرامات والرموز التي استعان بها المتصوفة لتبرير تدخلهم في المجال السياسي العام بما هو حقل للصراع الرمزي والمادي، وإن كان العديد من الدارسين يتجنبون الخوض في مثل هذه القضايا، والتي لم نرم إلا إثارة السؤال حولها واستنطاق مكنونها في أفق تعميق البحث فيها مستقبلاً، على أن هذا المجهود لم يدع قول الحق الذي لا مَجْمَجَةَ فيه كما قال الشيخ ابن سينا، بقدر ما هو محاولة التي لا تخلو من الالتباس والغموض كما قال المناطقة.

ويهدف المقال إلى مناقشة بعض ملامح المشروع السياسي عند متصوفة العصر الوسيط المغربي خاصةً في التجربة التاريخية المرابطية والموحدية والمرينية. واستنادًا إلى ذلك؛ سعينا في المرحلة الأولى تفسير الممارسة السياسية على اعتبار أن الخطاب السائد حول التجربة الصوفية هو الابتعاد عن المجال السياسي لصالح تكريس مجتمع القيم الأخلاقية والروحية، ومن هذا المنطلق حسبنا أن التصوف بالإضافة إلى ذلك يحمل بين طياته مشروعًا له ملامحه السياسية حسب ما تعكسه الإشارات الواردة في بعض المصادر، وانطلاقًا من بعض الوقائع التاريخية، وإن افتقر إلى

الوسائل القمينة بتنفيذ هذا المشروع، على أن الأهم ليس الحسم في وجود هذا المشروع بشكل متكامل، وإنما معالم مشروع تباينت مستويات ظهوره في التجارب التاريخية، ليقدم في الأخير أرضية تروغ البحث في التاريخ الإشكالي.

أولاً: المدخل السياسي للتصوف

فشا الميل والاعتقاد بأن التصوف في العصر الوسيط مشروع يدنو من السياسة ليبتعد عنها غايته إصلاح المجتمع وتقويم ما اعوج في الإنسان من انهيار القيم، ديدنه إرساء تغيير أخلاقي وإشاعة روح التضامن والعدالة وقيم المجتمع المتماسك. وإذا كان من المرجح مسايرة هذا الطرح، فإن الواجب التاريخي في طابعه المعرفي والمنهجي يدعونا لمساءلة حجية هذا الرأي محاولين قدر المستطاع تقديم تصور نعتقد أن له أهميته رؤية وقراءة، فنعرض أولاً للمدخل السياسي للتصوف، ونقف في مستوى ثاني عند بعض المؤشرات الدالة على هذا المشروع، على أن نسأل في الأخير "مصداقية" وأفق هذا النزوع السياسي، وذلك ضمن الفترة المرابطية والموحدية والمرينية.

لا تفهم السياسة بالممارسة فقط انطلاقًا من آليات اشتغالها في الحقل السياسي الإسلامي وفي تجربته التاريخية المباشرة، ولكن قد تعني ذهاب السياسة إلى المتصوف تُسَأله رأيًا ومشورة وتطلب منه موقفًا،[١] خاصةً وأن الطابع العام الذي ميز المتصوفة عمومًا هو النفور من السلطة ومجالها ظنًا منا أن الممارسة الصوفية تَمتَح من معين اجتماعي وانتربولوجي على الرغم من طابعها الديني وهذا ما يضفي عليها معنى ودلالة،[٢]، ويبدو أن القضايا الدينية والاجتماعية التي انطلق منها المتصوفة تستبطن صراعًا حول المشروعية[٣] داخل الحقل العام بما هو مجال للصراع الرمزي والمادي معًا، وبما هو أيضًا إرادات للتنافس من أجل امتلاك المجتمع وتوجيهه واستشراف اليقين الساعي إلى تحسين الواقع وتغييره نحو الأفضل[٤] بما يتماشى وأفق مرجعيتها، إذ النص المناقبي فعل تاريخي له خصائصه ومفاهيمه وغاياته والتي ليست بالضرورة موقفًا نفسيًا وشخصيًا، بل هي في مستوى أول سعي حثيث نحو احتواء الثقافة الفقهية وتغيير مضمونها وأفقها قصد إنشاء معرفة جديدة تتجاوز السلطة الفقهية والسياسية معًا التي غالبًا ما تغذى منها الجسم السياسي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.[٥]

أما المسعى الثاني والكامن في الروافد المرجعية، فقد لا يختلف في وظيفته عن المرجعية الوسيطية التاريخية منها بالخصوص من حيث سعيها المتوالي إلى تثبيت ملامح السلطان المثال، وإن تباين مستوى البوح والإضمار في مجمل تلك النصوص،[٦] فمعلوم أن الخليفة المفضل هو القطب لما فيه من علو الهمة وسمو السلوك وحنكة السياسة وصحة العقيدة،[٧] ولقب القطب والغوث والولي لا تكتسي ذلك الطابع الصوفي الصرف بقدر ما هي في الآن ذاته رتب اجتماعية وسياسية تجعل من صاحبها مقدما للزعامة[٨] حسب ما درج عليه النص المناقبي من إعلاء سلطة المتصوفة ووضعها ضمن موقع الحكم المتعالي الذي يلجأ إليه.[٩] هذا الموقع يستمد من الإجماع حول شخصه في ظل تآكل مشروعية السلطة انطلاقًا من الشروخ والندوب المتأتية من تعارض فعلها مع مشروعها وتباين الممارسة مع شرعية التأسيس، لذلك يمعن الولي والقطب والغوث في تجسيد سياسة "القرب" نهجًا وسلوكًا مستفيدًا من طابع الترويج والتلويح المنافي للعمل الذي نهجته الدولة،[١٠] وهو ما سمي بالمجال الحيوي للأولياء أي الطابع الاجتماعي للكرامة رحابتها وفعاليتها وامتدادها الجغرافي[١١] وهذا ما سيضمن لهم شروط التجدر والحيوية ومن ثم الانتشار، لكل ذلك نزعم أن بعض الرؤى جانبت الصواب وحسبت أن التجربة الصوفية خالية من ميول سياسي إما بنفي المنافسة عن العلاقة بين الحكم والصوفية[١٢] أو إبعاد الطموحات السياسية المباشرة المؤدية سواء إلى التنازل عن الحكم أو الدخول في مغامرة سياسية،[١٣] فالعديد من الكرامات تضعن في الفضاء السياسي الوسيطي بشكل واسع.

تؤرخ العديد من المصادر للمتصوفة ومناقبهم، غير أن أصالتها تكمن في التشوف والمستفاد والمقصد بما يزيد عن أربعمائة متصوف[١٤]، هذه العينة تختلف درجة ارتباطها بالسياسة، فكرامات التشوف تحمل طابعًا سياسيًا واضحًا من خلال رصد طبيعة العلاقة بين السلطة والأولياء وأولى علاماتها في هذا السياق الإعراض عن إطلاق صفة الموحدين عن السلطة الموحدية، كما يشترك المستفاد مع التشوف في هذا الإعراض[١٥] وهو ما يمكن أن يدرج ضمن الرفض الرمزي الصامت، لذلك نساير القول بأن مادة وخطاب التشوف ملتزمان باختيار معين يوجه محتواه المحايد في ظاهر الأمر،[١٦] ويأخذ هذا الرأي وجاهته من الإطار القبلي . ركراكة . الذي استقى منه التشوف مادته وهو المغضوب عليه من طرف الموحدين.

أما المستفاد وإن عبر عن موقف معارض (صامت) من الموحدين، فإن كراماته ذات المضمون السياسي الواضح تظل شاحبة أمام كثافة الكرامات ذات الطابع الاجتماعي . الأخلاقي، يفسر ذلك استنادًا إلى أحد الدارسين[١٧] انطلاقًا من الظرفية العامة التي تحكمت في نسج كراماته دفعته إلى الإحجام عن الكرامات الإصلاحية ذات النزعة الاعتراضية سياسيًا. وعلى الصعيد التاريخي . الوسيط تحديدًا . لجأت السلطة السياسية إلى توظيف التصوف والمتصوفة لتأسيس المشروعية الاجتماعية : فمؤسس الدولة المرابطية عمد إلى تربية صوفية تمزج بين التصوف والفروسية لتكوين الكتلة التي قادت المشروع المرابطي وأمنت له النجاح والتفوق السياسي، فقد ورد عن ابن عذاري[١٨] رواية تقول: "سافر مع قوم كانوا معه فعطش جميعهم فشكوا إليه فقال: عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا ثم سار بهم ساعة وقال احفروا فحفروا فوجدوا الماء بأدنى فعدوا ذلك كرامة له فشربوا جميعًا وسقوا دوابهم وانصرفوا".

بل إن الأثر المرابطي في هذا السياق لا يكمن في الوحدة السياسية والمذهبية فقط، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك امتداد للوحدة السلوكية[١٩] ولم يحد الموحدون عن هذا النهج، إذ أضفوا على سيرة المهدي ابن تومرت طابع الولاية والزهد والتقشف والكرامة والتنبؤ كل ذلك بغرض السمو به ووضعه على قدم المساواة مع الأولياء والمتصوفة، فقد تنبأ حسب البيدق[٢٠] بعبد المومن وقوته وهزم المرابطين بحفنة تراب، وسار المرينيون على المنوال ذاته حين ربطوا مؤسس الحركة عبد الحق المريني بالتيار الصوفي السائد آنذاك وإفراد كرامات تتماشى مع الطابع الميثي لتأسيس تلك السلطة فابن الأحمر[٢١] يقول في رواية له عن عبد الحق بن محي وجد سلاطين بني مرين: "ولم يلبس إلا ثياب الصوف وكانت عنده امرأة واحد ولم تكن له جارية ولم يزن قط، وكانت الحوامل بمراكش إذا عسرت عليهن الولادة يأخذن سراويله ويجعلنها في أرجلهن فيلدن من حينهن".

ولعل الأمر ذاته كرس عند الثوار، إذ اندلعت بعض الثورات بإيعاز من الرمزية الصوفية، من أهمها ثورة بن قسي وبن هود الذي اِدعى الهداية وسمى نفسه بالهادي،[٢٢] وطال الأمر حتى المستقلين والمتزين ويبرز أبو القاسم بن أبي العباس أحمد العزفي الذي استقل بالأمر في سبتة سنة (٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م) بعد أن تزوج من مريم ابنة القنجائري الذي توفي سنة (٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠م) خاصة إذا علمنا أن هذا الصوفي كانت له مواقف مع السلطة الموحدية[٢٣] حاول العزفي استثمارها لتأكيد شرعية استقلاله مستفيدًا من روح العصر وسياق المرحلة.

مدار الأمر؛ إن الغاية لدى السلطة والمتصوفة معًا كانت كسب ولاء الناس وضمان التبعية والانقياد، غير إن كلتا السلطتين سعتا إلى الهيمنة على المستوى العملي والتاريخي، ومن ثَمَّ يمكن أن تفسر حرب المشروعية وحرب المواقع وإن كانت النية السياسية ضامرة وغير معلنة بشكل صريح، فقد كان المجال مرتعًا للصراع الذي ترتفع وتيرته ودرجته بالنسبة للمتصوفة في فترات انهيار الدولة و"مؤسساتها".

ثانيًا: التصوف السياسي المرابطي

ترد بعض الإشارات الدالة على التوتر والصراع الخفي والمعلن في طبيعة العلاقة بين السلطة المرابطية والتيار الصوفي من خلال التشوف[٢٤] الذي يصف أشخاص أبي عبد الله الأصم وأبي عبد الله الدقاق زمن تاشفين بن علي (٥٣٧ - ٥٤١ هـ/ ١١٤٣ .١١٤٧م) إلى فاس وسجنهما، بالإضافة إلى ابن العريف الذي وصل مراكش فأقبل عليه السلطان وأكرمه وأمره أن يعرض عليه حوائجه.[٢٥]

يعد أشخاص بعض رموز التصوف إلى مراكش امتدادًا طبيعيًا لحادثة إحراق إحياء الغزالي وواجهة لخلفيات سياسية واجتماعية متباينة[٢٦] قوامها مضمون الظرفية التاريخية التي واكبت الاحتضار المرابطي المتميز مثالاً لا حصرًا بالاختناق الاجتماعي الناجم عن السياسة المتبعة في جلّ الميادين، مع ما يوازيها من تنامي بؤر التوتر التي استنزفت المقدرات المالية والحربية للسلطة ودفعتها إلى الإمعان في إقبار الحكم ومشروعيته، بشكل وظفه المتصوفة في إعادة بناء العلاقة مع مختلف الشرائح الاجتماعية انطلاقًا من إعادة التوازن وإلغاء مبدأ التهميش والتأكيد على التكافل والتضامن والتشبث بالقيم الإنسانية ومناهضة الظلم والطغيان في الآن ذاته[٢٧] وهذا ما أضفى على رسالتهم طابع الجدة والبريق والامتداد، ويوحي بـ "حرارة ودفء" المشروع الاجتماعي ووضوح الخطاب السياسي الموجه أساسًا للأمراء والولاة والقضاة بغض النظر عن طبيعة الأداة (الكرامة)، لذا فالقصد عندهم . وفقًا للكرامات . لا يأبه إلى مصداقية الوقائع بقدر ما يتأسس على الاستجابة لأفق انتظار تغذيه الرسالة الإخبارية المغلفة في الخرقة الخيالية،[٢٨] والتي تجد سندها وإطارها المرجعي في المعطيات الواقعية على اختلاف أنواعها ومصادرها[٢٩] وبالرغم من صورتها "السوريالية" التي تتجاوز نواميس الكون وقواعده فهي واقع متخيل[٣٠] يبطن النقد ويسعى التعبير عن موقف ويطرح تصورات بديلة بعيدة عن العنف جانحة للسلم[٣١] تبتغي ترشيد السلطة ولجمها في أفق الحد من طابع التجاوزات الصادرة عن رموزها والمنتفعين من سياستها.[٣٢]

يتضح أكثر النزوع السياسي الصوفي في الميدان المالي باعتباره واجهة خصبة ومشروع نضال يهفو إقرار العدالة الاجتماعية من خلال الوقوف في وجه الشطط المتعلق بتدبير الشأن العام تشكل الضرائب إحدى واجهاته ومقتضيات صراعه؛ إذ عارض رموز التيار الصوفي الضريبة التي تخالف المبدأ الديني ولا تنسجم مع أسلوب الاستحصال الذي دعا إليه، فأدانوا وفقًا لذلك الابتزاز والاغتصاب الضريبي[٣٣] وكالوا التهم للجباة فوصفوهم بالفسق والشر ونعتوهم بآكلي السحت والربا،[٣٤] ولعل المعارضة الشديدة التي أبداها القاضي الزاهد ابن الفراء ضد يوسف بن تاشفين (٤٦٠ - ٥٠٠ هـ/ ١٠٥٨ . ١١٠٦م) في مسألة المعونة[٣٥] تُعَدّ نبراسًا اقتفى أثره المتصوفة، فاستنادًا إلى وجاهة رأي أحد الدارسين[٣٦] أدين المكس من طرف الأولياء في عهد علي بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ/ ١١٠٦ .١١٤٣م) ثلاث مرات وكذلك الأمر في عهد ابنه تاشفين بن علي (٥٣٧ - ٥٤١ هـ /١١٤٣ . ١١٤٧م)، ويتضح أن سياسة الجور التي اتبعها بعض ولاة أمر علي بن يوسف كانت وراء لجوء السكان إلى الشيخ تنفيت اليرصجي[٣٧] وشكل الدعاء في هذا المقام وسيلة من وسائل التخلص من التعسف والابتزاز الذي مارسه أحد الولاة بشكل أفضى إلى موته.[٣٨]

حاولت السلطة المرابطية بالموازاة مع ذلك امتصاص الامتداد الصوفي على أساس التخفيف من بريقه عن طريق التقرب من بعض رموزه كما حصل عند زيارة السلطان لأغمات وريكة وتقديم المال لعبد الجليل بن ويحلان وأبي محمد عبد الله المليجي[٣٩]، أو المشاركة في تشييع جنازة أحدهم وهو موسى بن عبد الرحمن بن حماد الصنهاجي[٤٠] (ت. ٥٣٥ هـ/ ١١٤١م)، ومباركة إسهامات بعضهم المالية في مسألة تسوير مراكش حسب ما تعكسه حالة

الشيخ أبي البدلاء أبي عبد الله محمد بن إسحاق[٤١]، وحتى تحاصر النفوذ الصوفي وضعت السلطة نفسها موضع الدفاع عن التصوف وتزكية رموزه القوية حسب ما تشي به رسالة التوقير التي بعثها علي بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ/ ١١٠٦ - ١١٤٣م) إلى الشيخ أبي عبد الله أمغار بعيد الفطر سنة (٥٢٧ هـ/ ١١٣٣م)[٤٢]، ويبدو أن سنة ظهائر التوقير والاحترام لم تكن من ابتداع السلطة المرابطية إذ خص تميم بن زيري (٤٢٤ - ٤٨٨ هـ/ ١٠٣٣ - ١٠٥٣م) الأمغاريين بظهير لأبي جعفر إسحاق الأمغاري وأوكل إليه مهام من اختصاص الدولة ولم يكتف بذلك، بل استشار الأمير علي بن يوسف ابنه عبد الله أمغار (ت. ٥٧٣ هـ/ ١١٤٢م) في أمر تسوير مدينة مراكش[٤٣] وأمام فشل السلطة في وقف النفوذ الصوفي ابتدعت وسائل أخرى اصطلى بنارها بعض المتصوفة منها المراقبة والمتابعة والإبعاد والسجن والتعذيب والاغتيال.[٤٤]

إلا أن الطموح السياسي الصوفي يجد سنده في ثورة ابن قسي التي هددت الوجود المرابطي،[٤٥] فمعلوم أن هذا الثائر استند إلى مقوم "الهداية" لتأسيس مشروعيته مستفيدًا من الامتعاض الاجتماعي الذي أبدته منطقة غرب الأندلس من تكالب السياسة الضريبية والجور السياسي الذي مارسه عمال المرابطين في الأندلس وهو ما قد يفسر ثورة عامة المدن الأندلسية[٤٦]، لذا استكان المريدون لهذا الثائر مستغلين ظرفية المغرب الأقصى التي اتشح سياقها بالحركة الموحدية المتوثبة والمنطلقة بدورها بإيعاز من مبدأ الولاية في تأسيس سلطتها السياسية، ويتضح أن كلا الثورتين تغذتا على المقوم نفسه وسعتا إلى الغاية ذاتها أي إقامة دولة الولاية على الأقل في رسم شرعية الحكم ومشروعيته على أنقاض المرابطين الذين تهاوت سلطتهم بين فكي ابن قسي وابن تومرت على مستوى الأندلس والمغرب الأقصى مما قد يعني أن الحضور السياسي لم يكن غائبًا، إذ إن نجاحه أو فشله لم يرتبط بالأشخاص وإنما بطبيعة ونوعية الأدوات والوسائل المؤسسة للمشروع وفق السياقات الاجتماعية والسياسية الخاصة بالغرب الإسلامي في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وفقًا لذلك هل استمرت الخصائص نفسها في التجربة الموحدية ؟

ثالثا: التصوف السياسي الموحدي

تزامن "الدخول" السياسي الموحدي مع ثورة ابن قسي وترافق هذا التأسيس مع الذهنية والسياق الاجتماعي وتماشى مع التأويل السياسي الموحدي للمشهد الصوفي، ومن ثَمَّ نحسب أن هذا التأويل "قاعدة" قاس عليها الموحدون لتدبير مقتضيات الحياة الاجتماعية عبر نهج سياسة التوجس والحذر والريبة على الأقل خلال مرحلة وضع لبنات الدولة في عهد عبد المومن (٥٢٤ - ٥٥٨ هـ/ ١١٢٩. ١١٦٣ م).

استدعى عبد المومن بعد الاستيلاء على مراكش سنة (٥٤١ هـ/ ١١٤٧م) رمزي التصوف آنذاك أبوشعيب الأزموري وتلميذه أبو يعزى، يذكر التادلي الصومعي[٤٧] أن أبا يعزى انقاد لعبد المومن بعد استدعائه بل وعرض على الخليفة الوصول إلى منزله بحكم التشريف والقيام بالواجب من التضييف حسب رواية العزفي[٤٨]، فإذا جارينا القول[٤٩] بالصراع الذي وسم العلاقة بين أبي يعزى والسلطة الموحدية انطلاقًا من الرغبة في التحكم في العامة وتوجيهها حسب ما تجسده كرامات أبو إسحاق إبراهيم بن سليمان البلنسي وأبو محمد عبد الله وأبو يعزى في علاقة أبيه بالسلطان وأبي عبد الله بن صناديد، أمكن لنا مجانبة الرأي[٥٠] القائل بأن العلاقة بين الجهاز الموحدي الحاكم والصوفية لم تكن تتجاوز في الغالب الهوس الأمني ووشايات رجال السلطة، فهل بهذا المعنى فقط يمكن أن نفسر رواية التشوف:[٥١] "وحدثني غير واحد أن أبا يعزى قدم مراكش بعد عام أحد وأربعين وخمسمائة فحبس في صومعة الجامع أيامًا ثم خلي سبيله"، خاصةً وأن التوتر الاجتماعي الذي ظل سائدا إلى غاية سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م قد وجه بطابع صوفي، إذ إن العديد من الكرامات المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية تمحورت في غالبيتها حول موضوع السلطة ورموزها وممثليها[٥٢] سواء اتخذت هذه المواقف طابع رفض هبات الدولة وأعطياتها حسب ما تجسده حالة محمد بن علي بن عبد الكريم الفندلاوي[٥٣] ومحمد بن ذي النون الحجري،[٥٤] ورفض ومحاشاة السلطة ورجالاتها مع محمد بن أحمد البلوي[٥٥]، وموسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسي المرتلي (ت. ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م) الذي رغم وصول السلاطين والأمراء إليه وترددهم عليه: "ما فتح لأحد في ذلك بابا ولا ألوى إليه في شيء منه رأسا".[٥٦]

على أن هذه المواقف لا تعكس مواقف مبدئية منسجمة وجذرية، إذ وجد متصوفة آثروا التعامل مع السلطة وانخرطوا في "دنيويتها" بشكل قد يوحي بقدرة السلطة الموحدية على النفاذ إلى المجتمع الصوفي وتوجيه سلوكه؛ فأبو العباس السبتي كان له مرتب خاص ورسم في بيت المال مع طلبة الحضر[٥٧] واستفاد محمد بن أحمد بن محمد اللخمي من الجرايات التي قدمت له ولعقبه من طرف عبد المومن والناصر والمستنصر[٥٨] ومحمد بن عبد الحق بن سليمان اليعفري (ت. ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦م) الذي كان له اختصاص بالملوك وقرب لديهم،[٥٩] ومنهم من نال بخدمة السلطان كعبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري[٦٠] (ت. ٥٧٤ هـ/ ١١٧٩م) وعلي بن محمد بن عبد الله،[٦١] وتمتع أبو خزر الأوربي (ت. ٥٧٢ هـ/ ١١٧٧م) بظهير يسقط عنه الخراج،[٦٢] وفي هذا السياق يمكن أن نفهم سر رفض السلطة تدخل الأولياء لإطلاق سراح الأفراد المسجونين في قضايا الضرائب أو التخفيف منها[٦٣]، وإمعانًا في تكريس سلطتها وتسويق فعلها الصوفي لم تتوان الدولة في مباركة متصوفتها ولو بالمشاركة في تشييع الجنازة كما حصل مع موسى بن محمد بم مروان الهمذاني[٦٤]، وإن كان هذا لا يعني نجاح السلطة التام إذ استمر إعراض المتصوفة عن السلطة فقد استعاض أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري الخزرجي عن صلات وأعطيات عبد المومن (٥٢٤ . ٥٥٨ هـ/ ١١٢٩ . ١١٦٣م) التي وصلت في المرة

الواحدة خمسمائة دينار[٦٥]، وكان واضح بن عام مهاب الجانب والموضع من طرف أمراء الوقت وجباة الأموال[٦٦]، بل تدخل بعضهم للفصل بين بعض التجار والقواد الظلمة في الرشوة[٦٧] ووصل الأمر بآخرين إلى الإقدام على الملوك والسلاطين غير مبالين بأحد في الحق كأبي علي عمر بن النجار الفاسي (ت. ٦٢٥ هـ/ ١٢٣٠م)[٦٨]، ورفض أجرتهم وكل ما يتصل بهم من مبرات[٦٩]، وقد ترجمت هذه المواقف إلى صيغة ثورية قادها متصوف يدعى عتاب الذي اندلعت ثورته أواخر عهد السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف (٥٨٠. ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤. ١١٩٩م)[٧٠]، هذا المنحى سيأخذ طابعًا تصاعديًا . منحى الممانعة والرفض . في فترة اضمحلال وتقهقر السلطة مستفيدًا من السياق التاريخي المرتبط بالانكسار الموحدي في العقاب (٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م) وتآكل مشروعيته الاجتماعية والسياسية، يفسرها تعدد بؤر التوتر وتنامي النزعات الاستقلالية، ومن الطبيعي أن يتم استثمار هذه الوضعية من طرف متصوفة ما بعد العقاب منهم أبو إبراهيم إسماعيل الرجراجي الذي كان سببًا في عدم مطالبة العامل لسجين بما عليه من خراج بعد تحطم جدار السجن[٧١]، ورفض محي الدين بن عربي ميرة السلطان أبي العلا إدريس المأمون.[٧٢]

وكان عياض بن موسى اليحصبي (ت. ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٩م) شديدًا على أهل الجاه وذوي السلطة[٧٣] ويبقى الشيخ أبو إسحاق إبراهيم السلمي البلفيقي المعروف بابن الحاج (ت. ٦١٦ هـ/ ١٢٦٩م) نموذجًا ساطعًا لطبيعة العلاقة المتوترة بين السلطة المتهاوية والمتصوفة سواء كان ذلك نتيجة تزايد أتباعه أو تصديه لتجاوزات أحد المشرفين[٧٤]، وأمام تصاعد وثيرة الاحتجاج والرفض الاجتماعيين حاولت السلطة الموحدية التخفيف من غلواء الامتداد الصوفي عبر اللجوء إلى الأسلوب الزجري حسب ما تمثله حالة عبد الله بن أبي صالح الماجري (ت. ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣م) مؤسس رباط آسفي الذي سجن بعد أن تطاول على هيبة السلطة بتوفير البنية التحتية لصالح الحجاج المتجهين للمشرق بشكل تجاوز فيه حدود الإمبراطورية[٧٥]، وفي السياق ذاته دعمت السلطة مكانة الأمغاريين بتمتين صلاتها وتحريرها من الضرائب خاصةً مع تصاعد الصراع بين عمر المرتضى (٦٤٦ . ٦٦٥ هـ/ ١٢٤٦ . ١٢٦٦م) وأبي دبوس (٦٦٥ . ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٦. ١٢٦٩م).[٧٦]

ويبدو أن هذه السياسة وهذا الإجراء تحكمت فيه خلفية الصراع الموحدي . المريني على الرغم من طابعه الديني الظاهري، فهو يبطن خوفًا من ميل هذه الطائفة وطوائف أخرى إلى الخصم المريني، وطبعًا لم تكن هذه الإجراءات الاحترازية من التصوف طيلة العصر الموحدي أن تأخذ ذلك الطابع لولا الإيحاءات الثورية السياسية التي تبتدئ بابن قسي وتمر بابن عتاب وتنتهي عند ابن هود (ت. ٦٧٥ هـ/ ١٢٣٨م) وابن أحلى وعزيز بن خطاب وهي أسماء تستغرق هدفًا سياسيًا منشودًا ومشروعًا اجتماعيًا قد تكون سلطة السيف والقلم قد عانت في طمس معالمه ومؤشراته الكبرى التي تحيل على معنى سياسي يندس بين ثنايا المواقف العملية والرموز والكرامات التي اختارت أن تضع السلطة عن قصد في موضع الاتهام، فهل استمر الأمر على المنوال نفسه في التجربة المرينية ؟

رابعًا: التصوف السياسي المريني

لا شك أن تجربة الحكم السياسي المريني تختلف في تأسيسها عن نظيرتها المرابطية والموحدية، لأنها مشوبة بالعديد من السمات والخصائص ذات المرجعية النفعية الصرفة البعيدة عن المقومات التي حددت الغلبة السياسية في العصر الوسيط ومن ضمنها المثل الأعلى الديني (الدعوة الدينية)، هذا العوز فرض على المرينيين البحث عن إعادة بناء المشروعية السياسية بعد تفاقم وتعاظم التقاليد الرعوية في الحكم، لذا كانت مطالبة بالتعامل مع التيار الصوفي الذي انتقل إلى مرحلة مهمة من الامتداد في اتجاه التنظيم والهيكلة المفضية إلى نحت رغبة سياسية دفينة لها مطامحها ووسائلها التعبيرية والتي وإن كانت لا تصدح بها فهي تستبطن نزوعًا نحو السلطة بإعادة خلقها بما ينسجم ودولة الولاية الدائمة الوجود، فقد عمل رواد ورموز صوفية العصر المريني على مجابهة السلطة ودفعها لمجاراة اختياراتهم على الأقل في توجهاتها العامة بما في ذلك التخفيف من شطط السلطة في التعامل مع الفئات الاجتماعية وترشيد السلوكات والانحرافات المرتبطة بالمعيش اليومي، وهكذا ونتيجة للمضاعفات الخطيرة المتأتية من حصار تلمسان توجه عبد الرحمن بن عبد الكريم الهزميري إلى السلطان أبي يعقوب لثنيه عن هذا الإجراء والعقاب وذلك بعد أن بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير من الذهب[٧٧]، غير أن رفض السلطان كان إيذانًا بقتله ووفاته، هذا الأمر تكرر مع السلطان يوسف بن عبد الحق الذي سجن أيام حصار تلمسان عبد الله القرقوني فكان أن مات من جراء ذلك.[٧٨]

لم يقف الموقف من السلطة عند هذا المستوى فحسب، بل تطور إلى أسلوب الرفض المباشر للسلاطين مثلما هو الأمر مع الصوفي ابن عاشر الذي كان كثير النفور من أصحاب الولاية في الأعمال[٧٩] ومن السلطان أبي عنان الذي ارتحل إليه عام سبعة وخمسين ووقف عند بابه ولم يأذن له[٨٠] بل وتبعه يوم الجمعة من الجامع الأعظم على قدمه أمام مرأى من الناس وهو لم يره فرجع عنه.[٨١] أما عمر بن محمد بن واجب القيسي البلنسي فقد عرف عنه الانقباض عن السلطان[٨٢] وفي سنة (٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧م) قصد السلطان محمد بن علي بن يحي الحسني بعد الفراغ من صلاة الجمعة ليقبل يده وهو يلتفت يمينًا كالمتحرز من النجاسة[٨٣]، ولم يأل محمد المشنزائي جهدًا في مسايرة ابن عاشر في إغلاق الباب في وجه السلطان.[٨٤]

يتأكد سياق التصعيد تجاه السلطة في المسألة الضريبية والتي تأخذ فيها المواقف طابعًا نضاليًا؛ فابن الأبار[٨٥] يورد موقفًا جريئًا لعبد الرحمن بم محمد بن عبد الله بن الإمام أبي زيد الذي جهر في وجه السلطان أبي الحسن (٧٣١ . ٧٥٢ هـ/ ١٣٣١ . ١٣٥٢م) حين

طلب الأموال للإعانة على أعمال الجهاد قائلاً: "لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلي ركعتين كما فعل علي"، كما واجه السلطان نفسه معارضة شديدة من الشيخ عبد العزيز القروي حين طلب من تتبع القضاة والفقهاء باستحصال الزكاة ورفع التقارير عما يروج من تصرفات هؤلاء الجباة فقال: "أما تستحي من الله تعالى تأخذ لقبًا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم"،[٨٦] وإلى جانب هذه المواقف ينبري ابن عباد الرندي (٧٣٣ . ٧٩٢ هـ/ ١٣٣٣ . ١٣٩٠م) الذي تفصح رسائله عن عمق سياسي، إذ عرت على سياسة الولاة والجباة وتعسفهم في عهد السلطان أبي فارس المريني (٧٦٧ . ٧٧٤ هـ/ ١٣٦٦ . ١٣٧٣م)؛ فقد أشارت الرسالة الأولى إلى ضرورة تدخل السلطة لإزالة مظلمة الرتب التي أحدثت في طرق المسافرين[٨٧]، إلا أن الرسالة الثانية توجهت إلى السلطان وولاته وجباته تقول في هذا الصدد: "عليكم أن تتفقدوا عمالكم وتعتقدوا ذلك من صالحات أعمالكم ومما يجب لرعيتكم عليكم فإنه قد ظهر منهم الغش وعدم النصيحة لكم ولرعيتكم وحاصل أمرهم أنهم تمكنوا من الرعية كل التمكن وأحدثوا سننا غير مشروعة وفعلوا عليه مما يوافق أغراضهم مما يكسبهم المال والجاه".[٨٨]

من اللافت للانتباه أن إدانة العمال والجباة والسلطة سمة ميزت العصر المريني سواء من طرف المتصوفة أو الفقهاء حسب ما تعكسه العديد من نوازل الونشريسي[٨٩] حتم هذا التهديد من الرموز الدينية موقفًا حازمًا من السلطة التي سنت تدابير رامت من خلالها الحد من تصاعد عقيرة الاحتجاج؛ فسارعت في البداية إلى التموقع في إطار الصلاح من خلال الاعتناء بالتصوف ورجالاته، إذ أثر عن السلطان أبي سعيد (٧١١ . ٧٣١ هـ/ ١٣١١ . ١٣٣١م) حبه لمحمد بن أحمد بن علي حبًا عظيمًا لدرجة مخاطبته بسيدي.[٩٠]

أما أبو الحسن المريني وأثناء رجوعه من وقعة طريفة نزل عن فرسه عند لقائه بعبد الرحمن بن عفان الجزولي أبي زيد (ت. ٧١٤ هـ/ ١٣١٤م) إجلالاً وإكرامًا له[٩١] في وقت نوه أبو عنان (٧٥٢ - ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٢ . ١٣٥٨م) بمحمد بن يحي بن محمد بن يحي وملأ بالخير يده،[٩٢] وكان السلطان عبد العزيز المريني يقصد الشيخ الصالح عبد العزيز الصنهاجي ويكاشفه بأشياء يعجب منها بسببها[٩٣] في وقت لم يرد أبو العباس أحمد القبقاب (ت. ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٨م) زيارة السلطان يجلس معه يحضه على الخير ويمتثل السلطان لأوامره.[٩٤]

لم يكتف بنو مرين بهذه الإجراءات بل أردفوها بأخرى أشد قوة وقسوة ومن بينها السجن وثبت في حق عبد الله القرقوني زمن يوسف بن عبد الحق (٦٥٦ . ٦٨٥ هـ/ ١٢٥٨ . ١٢٨٦م)،[٩٥] وأعرض السلطان أبو الحسن عن طلب الشيخ أبي هادي بالتراجع عن غزو إفريقية[٩٦]، كما تعرض محمد بن أحمد بن علي للسجن في عهد أبي عنان[٩٧]، وعبد الرحمن الهزميري (ت. ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٧م) لمصادرة أمواله[٩٨]، وبالمقابل نهجت أسلوب الاحتواء في حق متصوفة آخرين كأحمد بن الحسن بن سعيد المديوني الذي استعمل في الإدارة المالية في عهد أبي الحسن (٧٣١ - ٧٥٢ هـ/ ١٣٣١ .١٣٥١م)[٩٩]، ومتع بعضهم بظهائر الإقطاع والتحرير الجبائي كما حصل مع أبي علي منصور بن علي الزواوي الذي تركت له حرية فتح الرباطات حتى انتهى به الأمر إلى تحبيس أملاكه على ذريته وأهله[١٠٠]، إلى أن توجت هذه السياسة بتأسيس تصوف حضري مسالم مثله بشكل واضح كتاب السلسل العذب المرفوع إلى السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن لمؤلفه الحضرمي[١٠١]، ولم يحد عمر بن موسى بن محمد الرجراجي (ت. ٨١٩ هـ/ ١٤١٧م) عن هذا المنحى إذ يؤكد في مقدمة مؤلفه "هداية من تولى غير الرب المولى" أن مقام السلطنة نائب عن مقعد النبوة وأن توفر الإمام ضروري وأن يكون واحدًا لا متعددًا[١٠٢]، وللإشارة فقط هذا الصوفي كان تلميذًا لابن عاشر وابن عباد الرندي المعروفين بمواقفهما من السلطة المرينية.

نخلص إلى أن: الرسالة السياسية التي حاول متصوفة العصر الوسيط إبلاغها وهي القدرة على الإصلاح والزعامة والحكمة في الآن ذاته، ولا أدل على ذلك من الإشارات التي رنت ببصرها نحو السلطة وممارساتها فيما يمكن أن يشبه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي اتخذ ذريعة في العصر الوسيط لتقويض السلطة القائمة وإيجاد السند الذي يخدم مشروعية التدخل وشرعية الغاية والهدف معًا، إلا أن الإشكال الذي يرتبط بالرسالة السياسية الصوفية هو أفقها ومآلها الذي فشل سواء في طرح بديل سياسي أوفي فرض قيم العدالة الاجتماعية وترشيد ممارسات السلطة بإعادة ترتيب العلاقة بين الدولة والمجتمع على الأسس والمعايير التي ارتضتها "المنظومة" الصوفية سبيلاً للتغيير.

قد توصف اللغة الرمزية[١٠٣] من داخل الكرامة الصوفية بأنها ثورة إيجابية ضد الفقر والانهار أمام السلطة القامعة[١٠٤]، لكنها في حقيقة الأمر لغة وعي مزدوج يزاوج بين الواقع المأزوم والرغبة في تحقيق واقع جديد، هذه المسعى لا يُعَدّ إلا إجراءً وصك هروب نحو الولادة الصوفية بما هي رغبة في التجدد والبحث عن امتداد مفقود مع الأصول والبدايات[١٠٥] الذي تتكامل فيه كل الأزمنة وتعاد صياغتها في زمن موحد يرفع كل الحدود ويزيل كل الموانع ويشرع الأبواب أمام أقصى درجات الإشباع والتعويض عن ضغوط الواقع وفقره وقهره،[١٠٦] بحيث تفيد هذه الآلية استحالة تفرد الشخصية وتعاليها، إذ تهاجم السلطة وتعانق واقعها وقد تتبنى بعض اقتناعاتها (عدم الخروج عن الإمام) وتحاول جاهدة أن تضفي عليها مسحتها الأخلاقية والقيمية، بغرض الانفراد بصبغة الكمال والصلاح والقدرة على خلق النموذج البشري المعجز[١٠٧] بإيعاز من النزوع الجامح في إنشاء عالم محمي ومصون وموجه وواعد[١٠٨] يستنجد بطاقات الخوارق التي لا تميز بين المقدس الذي يرضى التضحية بذاته بدلاً من قهر الإنسان وبين المقدس الذي يثبت ذاته بقهر الإنسان[١٠٩] وهي فلسفة صوفية تماهي بين الاعتقاد والوجود[١١٠] قصد إنتاج المجتمع النموذجي الذي يتناسى بموجبه

الصوفي غياب تشكيلات اجتماعية منسجمة أشد الانسجام تعيد إنتاج نفسها ووفق صورتها الأصلية دون تاريخ أو تبدل.[١١١]

لكل ذلك نحسب أن المشروع السياسي الصوفي افتقر إلى الوسائل المادية الفعالة واعتمد أساسًا على الطاقة الروحية التي تروم تحرير الأفراد أكثر من اهتمامها بالمجتمع ومستويات ذهنياته، بحيث إن انتقاده لم يكن ناجعًا وإنما هفا نحو خلق وهم الانتصار على كل مظاهر القسوة والفظاظة الواقعية[١١٢] متوسلاً في ذلك بالتمني والرؤى والأحلام وتمجيد الفقر واستساغة الموت.[١١٣] وارتباطًا بذلك لم تكن المعارضة الصوفية موسومة بالحبك والإبرام السياسي والمبدئية الجذرية، بل كانت رخوة تتهادى على ساحل القضية السياسية دون النفاذ إلى إشكالاتها الكبرى بحكم انصرافها عن تحدياتها إلى رسم الزعامة والاستقواء الأخلاقي. فالأصالة ليست جحودًا لواقعية الظاهرة ولا نكرانا لتاريخيتها، هذا ما قد يحيل على أن أزمة الصوفي ومنطق صراعه لم يكن مع عدو خارجي بل مع ذاته التي أبدعت تصوفًا يعنى بالخلاص الفردي وثانوية العقل والاستسلام[١١٤]، إذ لا يمكن خلق حقيقة الأشياء بالسهولة نفسها التي يمكن بوساطتها نفي حقيقة الواقع، فأزمة التصوف ليست في طبيعة المشروع الحضاري وإنما في آلية الفهم وفق خصوصية ومنطق العصر وأيضًا في مضمون الوسيلة التي كانت عاجزة عن التغيير وتقديم أفق مطبوع بطموحات الكتلة التاريخية، فعموم النشاط الصوفي لا يستند على تحرير العقل وتمكينه من الأدوات الفعالة بل يهفو خلق الأتباع والمردين وتوسيع دائرة الولاية بآلية شمولية تسعى احتواء المجال رمزيًا، يضاف إلى ذلك أن "الجماعة" الصوفية كانت مشوبة بالتبعثر والتشظي الذي يفيد غياب الانسجام في الرؤى والتصورات بالرغم من تشابه المواقف والرموز والكرامات، والتي لا تعكس في حقيقتها التنوع في الوسائل واجتراح السبل الكفيلة بأنسنة السلطة وإضفاء القيم الأخلاقية عليها، بل تعكس بنية ذهنية ومنطق تفكير العصر.

خاتمة

من واقع ما سبق؛ بدءًا بمشروعية الحديث عن ملامح المشروع السياسي الصوفي، وتحذيرًا من التوقف أو التمادي والتعميم يمكن أن نعد هذه المحاولة جنوح نحو التجديد في المسألة لا محبة في التجديد وإنما رغبة في التعمق في المعرفة، لأن هذه الصفحات تنبؤ عن تغطية كل الحالات فحسبنا من القلادة إحاطتها بالعنق وهو رهان نصفه بالنتيجة والمحك في الآن ذاته كما قال بول ريكور، مع رغبتنا في تجنب الانسياق غير المحدود مع استنتاجات بعيدة لا تنسجم وروح المتون التي اعتمدناها إطارًا مرجعيًا لهذه المحاولة، لكل ذلك نحسب . دون القطع . أن التصوف باعتباره ثقافة ومشروع لم يخل من الرغبة في تسطير معالم مشروع سياسي ظهرت مؤشراته في العديد من الكرامات والرموز وإن لم تتخذ مسارًا متكاملاً وموحدًا في أدواته ومراحله وغاياته.

الهَوامِشُ:

(١) جورج كتورة، **التصوف والسلطة: نماذج من القرن ٦هـ في المغرب والأندلس**، مجلة الاجتهاد، س٣، ع١٢،١٩٩١، ص١٨٢.

(٢) محمد جحاح، **الرمزي والمتخيل في بنية اشتغال الحقل الصوفي**، مجلة مسالك، ع٤، ٢٠٠٤، ص ١٥٢.

(٣) أحمد البوزيدي، **التصوف في المغرب المريني وجدل المشروعية**، ضمن التصوف السني في تاريخ المغرب إشراف إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن ٢٠١٠، ص ١٠٤.

(٤) محمود إسماعيل، **إشراقات التصوف في الفنون الإبداعية**، مجلة المحجة، ع ١٣، بيروت ٢٠٠٥، ص ٥٨.

(٥) عبد المجيد الصغير، **إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين ١٨ و ١٩**، ج١، ط٢ دار الآفاق الجديدة المغرب ١٩٩٤، ص١١.

(٦) عبد الأحد السبتي، قضايا في دراسة التاريخيات، مجلة أمل، س٥، ع١٥، ١٩٩٨، ص ١١.

(٧) بن عتو عبد الله، **التصوف المغربي من عمق السياق إلى قوة الرمز**، ضمن الزوايا في المغرب، مجلة المناهل، ج١، ع ٨٠ . ٨١ منشورات وزارة الثقافة المغرب ٢٠٠٧، ص ٢٩٢.

(٨) جورج كتورة، **التصوف والسلطة**، ص١٩٠.

(٩) علي أومليل، **السلطة الثقافية والسلطة السياسية**، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٦، ص ١٨.

(١٠) محمد القبلي، **حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط**، منشورات الفنك، الدار البيضاء ١٩٩٨، ص٣٠.

(١١) سعيد بنحمادة، **المجال الحيوي للأولياء بالمغرب الأدوار الدينية والعسكرية بالمغرب**، ضمن التصوف السني في تاريخ المغرب/ إشراف إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن ٢٠١٠، ص ١٤٢.

(١٢) عبد الجليل لحمنات، **التصوف المغربي في القرن ٦هـ/ ١٢م**، (دبلوم الدراسات العليا)، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٩ . ١٩٩٠، رسالة مرقونة، ص ٢٣٤.

(١٣) محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة في المغرب والأندلس في عصر الموحدين** (دكتوراه دولة) جامعة محمد الخامس- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ٢٠٠١ . ٢٠٠٢، رسالة مرقونة، ص ٣٥٩.

(١٤) إبراهيم القادري بوتشيش، **ثقافة الوسطية في التصوف السني في المغرب**، ضمن التصوف السني في تاريخ المغرب، منشورات الزمن ٢٠١٠، ص ١٧.

(١٥) محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة**، ص ٣٦.

(١٦) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال**، دار توبقال ١٩٨٧، ص ٢٧.

(١٧) محمد الشريف، **المستفاد في مناقب العباد**، القسم الأول، ط١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- تطوان ٢٠٠٢، ص ٢٣٥.

(١٨) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٤، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ١٩٨٠، ص١٢.

(١٩) محمد البركة، **التصوف السني في المغرب مقدمات في الفهم والتأويل**، ضمن التصوف السني في تاريخ المغرب، منشورات الزمن ٢٠١٠، ص ٨٢.

(٢٠) البيدق أبو بكر الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧١، ص ١٥.٣٥.

(٢١) ابن الأحمر، **بيوتات فاس الكبرى**، الرباط ١٩٧٢، ص ٣٠.

(٢٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، تحقيق مجموعة دارسين، ط١، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ودار الثقافة الدار البيضاء ١٩٨٥، ص٣٠.

(٢٣) للتوسع أكثر، انظر: محمد الشريف، **ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب**، الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحدي، ضمن الزوايا في المغرب، مجلة المناهل، ج١، ع٨١.٨٠، منشورات وزارة الثقافة ٢٠٠٧.

(٢٤) ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، ط٢، منشورات كلية الآداب- الرباط ١٩٩٧، ص١٥٥.

(٢٥) نفسه، ص١٢٠.

(٢٦) عبد الجليل لحمنات، **التصوف المغربي**، ص٢٥٠.

(٢٧) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ط١، دار الطليعة- بيروت ١٩٩٣، ص ١٢٥.

(٢٨) عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر**، منشورات جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء ١٩٨٩، ص٥٦.

(٢٩) محمد مفتاح، الواقع والممكن، ص٣٢.٣٣.

(٣٠) بن عتو، **التصوف المغربي من عمق السياق إلى قوة الرمز**، ص٢٩٧.

(٣١) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص١٤١.

(٣٢) إبراهيم القادري بوتشيش، **ثقافة الوسطية في التصوف السني في المغرب**، ص ٣٣ . ٣٩.

(33) Halima ferhat; le Maghreb aux XII et XIII siècles les siècles de la foi wallada Casablanca, P. 134- 141.

(٣٤) عبد الهادي البياض، **تجليات المقاربة الوسطية**، ضمن التصوف السني في تاريخ المغرب، منشورات الزمن ٢٠١٠، ص ٢١٥.

(٣٥) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج٢، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء ١٩٥٥، ص ٥٨ .٥٧.

(36) Halima ferhat: le Maghreb P.134

(٣٧) ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، ص ١٥١.

(٣٨) نفسه، ص١٣١.

(٣٩) نفسه، ص١٤٥.

(٤٠) ابن الزبير، **صلة الصلة**، القسم الثالث/ تحقيق: عبد السلام الهراس، سعيد أعرا ب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٩٣، ص٥٧.

(٤١) ابن رشد الجد، **مسائل أبي الوليد ابن رشد**، تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٩٣، من مقدمة التحقيق، ص٣٦.

(٤٢) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص١٧٩.

(٤٣) محمد نعايم، **الحركة الصوفية في دكالة ملاحظات أولية**، مجلة أمل، ع٤٢، ٢٠١٤، ص ٣٥.

(٤٤) للتوسع انظر: إبراهيم القادري بوتشيش، **حول محن المتصوفة المغاربة في العصر المرابطي**، ضمن الزوايا في المغرب، مجلة المناهل، ج١، ع ٨١ .٨٠، منشورات وزارة الثقافة ٢٠٠٧.

(٤٥) حول تأطير أحداث هذه الثورة انظر: المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة**، ص١٩.

(٤٦) محمد العمراني، **الفتن والتمردات في المغرب الأقصى والأندلس خلال القرن ٦هـ/ ١٢م** (دبلوم الدراسات العليا) جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٩٥ .١٩٩٦، رسالة مرقونة، ص١٠٢.

(٤٧) الصومعي التادلي، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب ابن زهر أكادير ١٩٩٦ ، ص١٢٦.

(٤٨) العزفي أبو العباس، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ص٥٢.

(٤٩) محمد مفتاح، **السياسة الحيوانية قراءة في كرامات أبي يعزى**، ضمن التاريخ واللسانيات تنسيق وتقديم عبد الأحد السبتي، منشورات كلية الآداب- الرباط ١٩٩٢، ص٦٩.

(٥٠) محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة**، ص٤٠٦.

(٥١) ابن الزيات، **التشوف**، ص٢١٥.

(٥٢) محمد الشريف، **نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**، ط ١، كلية الآداب تطوان، ١٩٩٦، ص٣٩.

(٥٣) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، القسم ١، تحقيق: محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية ١٩٨٤، ص٣٣٢.

(٥٤) ابن الزبير، **صلة الصلة**، ص١٢٢.

(٥٥) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، ص٢٧١.

(٥٦) ابن الزبير، **صلة الصلة**، ص ٥٣.

(٥٧) الصومعي، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، ص٢٣٣.

(٥٨) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، ص٢٦٦.

(٥٩) ابن الزبير، **صلة الصلة**، ص٢٩.

(٦٠) التنبكتي، أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تقديم عبد الحميد عبد الله الهدامة، ج٢.١، ط٢، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ص٢١١، ٣١٧.

(٦١) نقلاً عن: محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة**، ص٤٣٥.

(٦٢) الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، (دكتوراه دولة) كلية الآداب والعلوم الإنسانية أبي شعيب الدكالي- الجديدة ١٩٩٩. ١٩٩٨، رسالة مرقونة، ص٤٠٣.

(٦٣) نفسه، ص٤٠٣.

(٦٤) ابن الزبير، **صلة الصلة**، ص٥٣.

(٦٥) ابن فرحون، **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة، ص٢١٣.

(٦٦) الصومعي، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، ص٢٠٣.

(٦٧) نفسه، ص٢٥٥.

(٦٨) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، ص٥٥٠.

(٦٩) ابن الزبير، **صلة الصلة**، ص٢٠٦، وحول نماذج أخرى انظر: محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة**، ص٤١٢.٤١١.

(٧٠) نقلاً عن: محمد الشريف، من تحقيق المستفاد، ص٥٣.

(٧١) ابن الزيات، **التشوف**، ص٣٥٥.

(٧٢) نقلاً عن: محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة**، ص٤١١.

(٧٣) ابن الزبير، **صلة الصلة**، ص٣٨.

(٧٤) حول طبيعة ومضمون هذا الصراع، انظر التفاصيل: محمد الشريف، ما قبل هيكلة الزوايا.

(٧٥) محمد الشريف، **ما قبل هيكلة الزوايا**، ص ٣٠ .٣١.

(٧٦) محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة**، ص٤٤٣.

(٧٧) الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمَنْ أقبر من العلماء والصلحاء في فاس**، ج٣.٢، تحقيق مجموعة دارسين، دار الثقافة الدار البيضاء ٢٠٠٤، ص٦١.

(٧٨) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٤٢٤.

(٧٩) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح: محمد الفاسي، أدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ١٩٦٥، ص٩.

(٨٠) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٩٦.

(٨١) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، ص٩.

(٨٢) نفسه، ص٤١.

(٨٣) ابن إبراهيم العباس، **الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام**، ج١، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط ١٩٨٤، ص١٧٨.

(٨٤) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، ص٤١.

(٨٥) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، ج١ . ٢، مكتبة الخانجي والمثنى، بغداد، ص٢٦٥.

(٨٦) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٢٦٩.

(٨٧) محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، ط٢، منشورات كلية الآداب الرباط ١٩٩٦، ص٣٩٧.

(٨٨) نفسه، ص٣٩٨.

(٨٩) انظر الونشريسي، **المعيار المغرب**، ج٦، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٨١، ص١٣٩،١٥٠، ١٧٩،١٧٥،١٨٥.

(٩٠) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٤٣٩.

(٩١) نفسه، ص٢٤٤.

(٩٢) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٤٤٩.

(٩٣) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، ص٨٤.

(٩٤) نفسه، ص٧٩.

(٩٥) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٤٢٤.

(٩٦) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، ص٥٠ . ٥١.

(٩٧) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٤٣٩.

(٩٨) نفسه، ص٢٤٢.

(٩٩) نفسه، ص١٠٥.

(١٠٠) نقلاً عن: محمد فتحة، **النوازل والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي**، منشورات كلية الآداب الدار البيضاء ١٩٩٩، ص٢٣١ إحالة ٣٥٦.

(١٠١) نفسه، ص١١٣.

(١٠٢) نقلاً عن: محمد مفتاح، **التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن ٨ هـ / ١٤م**، (دكتوراه دولة) القسم الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٠.١٩٨١، ص١٩٦.

(١٠٣) يعتقد الأستاذ عبد الفتاح كيليطو ومحمد المصطفى العزام أن علاقة الأولياء باللغة علاقة غير عادية تقوم على الإشارة في تبليغ رسالتها وفي التلميح إلى القضايا والظواهر: محمد المصطفى العزام، **مصطلح العقل بين الفلسفة والتصوف**، ضمن المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٩٥ . عبد الفتاح كيليطو، **الولي والجمل**، ضمن التاريخ وأدب المناقب. منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي الرباط ١٩٨٩.

(١٠٤) علي زيعور، **قطاع الاقتصاديات داخل العقل العملي في الفلسفة الإسلامية**. مجلة الاجتهاد (٣.٢)، ع٣٥.٣٤، ١٩٩٧، ص٩٥.

(١٠٥) محمد جحاج، **الرمزي والمتخيل في بنية اشتغال الحقل الصوفي**، ص١٥٦.

(١٠٦) الميلودي شغموم، **المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي**، منشورات المجلس البلدي مكناس ١٩٩١، ص٢٦٢.

(١٠٧) بن عتو عبد الله، **التصوف المغربي من عمق السياق إلى قوة الرمز**، ص٢٩٨.

(١٠٨) مشير عون، **المقدس الوظائفي والمقدس الإلهي**، مجلة المنطلق الجديد، ع ٧، ٢٠٠٤، ص١١٥.

(١٠٩) نفسه، ص١٢٣.

(١١٠) حسن جابر، **أوهام القداسة وعنفها**، مجلة المنطلق الجديد، ع٧، ٢٠٠٤، ص١٢٥.

(١١١) بول باسكون، **تكوين المجتمع المغربي**، ترجمة أحمد احمايمو، مجلة المشروع، ع ٤، يونيو ١٩٨١، ص٥٥.

(١١٢) بن عتو عبد الله، **التصوف المغربي من عمق السياق إلى قوة الرمز**، ص٣٠٩.

(١١٣) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص١٤٦ . ١٤٩.

(١١٤) مصطفى النيفر، **معايش الصوفية من خلال الرسالة القشيرية**، مجلة الاجتهاد، س٥، ع ٢٠، ١٩٩٣، ص ٤٥ . ٥٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

الأرواحية عند مجتمع إفريقيا الغربية
السمات والخواص

عبد الله عيسى

باحث في الدراسات الإفريقية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

إنَّ دراسة المعتقدات الدينية الخاصة في مجتمع إفريقيا الغربية خلال العصر الوسيط، يتضح منها أنَّ الإنسان القديم قد آمن بوجود قدرات فوق الطبيعة، تساعده على الشفاء من الأمراض سواء أكانت صلوات مرفوعة إلى الإله، أو قرابين مقدمة على ذبحه، أو طقوس سحرية وتعاويذ، ولكن لم تكن هذه فحسب هي ما اعتقد به المجتمعات القديمة في إفريقيا الغربية، فهناك إلى جانب ذلك صنف لا يقل أهمية عن ذلك وهو عبادة الملوك والأسلاف، وهناك أيضًا عدد من الرموز الطقسية والدينية، وعبادة قوة الطبيعة كالشمس والقمر، وأدوات جامدة كالأصنام، أو الحيوانات وغيرها التي اعتقد الأقدمون بدورها الهائل في حياتهم اليومية. وتعرض هذه الدراسة لدور المعتقدات الأرواحية في حياة الفرد في إفريقيا الغربية. وخلص البحث إلى أنَّ علاقة الأرواحية بمجتمع إفريقيا الغربية هي علاقة وطيدة، فتحليل عناصر هذه الديانة يمكننا من فهم أفضل للبنيات الذهنية والفكرية للمجتمع المدروس، والميكانيزمات المتحكمة في مجالات الحياة اليومية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٩ يونيو ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ يوليو ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الأرواحية الإفريقية، المجتمعات القبلية، عبادة الأسلاف، تقديس الكواكب، إفريقيا الغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الله عيسى. "الأرواحية عند مجتمع إفريقيا الغربية: السمات والخواص".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١١٢ – ١١٦.

مُقَدِّمَةٌ

عندما جاء الإسلام إلى إفريقيا في بداية الفتح الإسلامي،(١) لم تكن هذه الأخيرة خالية من أية حركة تعبدية؛ فقد تحدث أوائل المؤرخين، والجغرافيين، والرحالة العرب الذين زاروا المنطقة عن وجود أشكال مُتعدّدة من العبادات والآلهة المحلية، التي لم يكن لها ارتباط بالديانات السماوية. وفي إطار هذه العبادات المحلية، عبد بعض الأفارقة الشجر والحجر، والأحياء والأموات من البشر وفق طقوس تعبُّدية مخصوصة كان يتم التقرب من خلالها إلى عدد هائل من الآلهة . المفترضة . عبر تقديم عدد كبير من القرابين الحيوانية والبشرية والنباتية، أو غيرها من أصناف القرابين والأضاحي التي كانت تُشكل جسرًا مشتركًا، ربط إفريقيا الغربية مع باقي ما عرفته قارات العالم في هذا الميدان قبل وبعد نزول الرسائل السماوية، هذه الأخيرة التي يعتبر الإسلام آخرها وأكثرها بُعدًا عن التحريف، وأقواها تميزًا في ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل، من خلال رفضه لوساطة أيِّ كهنوتٍ قد يحتكر المعرفة الدينية، ومن خلال فتحه باب الدعوة أمام كل مُحسِن وعالم وفقيه وتاجر دون إمكانية الرجوع إلى جهة رسمية ما، أو سلطة فقهية ما.(٢)

ونعتقدُ أنَّ النجاح الذي عرفه الإسلام في إفريقيا الغربية، يرجع في قسم كبير منه إلى المشاركة الجماعية الحُرَّة في نشر هذا الدين بالحوار، والمعاملة الحسنة البعيدة عن مبدأ العنف والصراع، حيث نسج المسلمون هناك علاقاتٍ طيبةً -في عمومها- مع السكان إلى حدِّ أنَّ التعايش بين المسلمين وغيرهم من الأرواحيين صار يبدو عاديًا في كثير من القرى والمدن والغابات،(٣) ففي قرية "بالي" الأرواحية(٤) في مالي -على سبيل المثال- كان للمسلمين خمس

مساجد، وما كان طارئًا في بالي، كان طارئًا في غيرها من مدن وقرى إفريقيا الغربية، التي كان لها وضع ديني متميز وغامض.

فما هي إذن أهم مظاهر الديانة الأرواحية التي وجّهت السلوك اليومي للإنسان في إفريقيا الغربية قبل ظهور الإسلام؟ وكيف مورست الشعائر والطقوس الدينية؟ وكيف تمّ تنظيم المجتمع في ظل هذه الديانة ؟

أهداف الدراسة:

الأول: معرفة أهم مظاهر وأشكال الديانة الأرواحية في منطقة الدراسة.

الثاني: الكشف عن الأثر الذي أحدثه هذا الاعتقاد الديني على مجتمع غرب إفريقيا.

أسباب اختيار الدراسة:

- التعرف على الحالة الدينية لمجتمع إفريقيا الغربية قبل الإسلام.
- الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ إفريقيا القديم، ولملمة حلقاته المفقودة.
- قلة الدراسات والأبحاث العربية المتعلقة بالجانب الديني في فترة ما قبل الإسلام.

أولاً: مظاهر الأرواحية

١/١- عبادة الأصنام:

يبدو من خلال فحص واستقراء بعض النصوص، أنَّ الفرد الإفريقي كان يعبدُ ما يحلو له من نباتات وحيوانات وكواكب. وفي ذات المسعى، احتلت الأصنام مكانة مرموقة لدى مجموع أرواحي إفريقيا، سواء عند الزنج والبجة في الشرق، أو عند زغاوة في الوسط، أو عند إفريقيا الغربية في الغرب. وأنَ أشكال تلك الأصنام وطبيعتها تختلف من مجموعة إلى أخرى؛ حيث نجدها عند البعض على شكل تماثيل بشرية،(٥) وقد تكون من طين أو حجر أحيانًا، وكثيرًا ما تكون من خشب، ربما لأن المنطقة كانت كثيرة الغابات، وتوفر بالتالي الكثير من الأخشاب. والملاحظ أنَّ الأصنام لعبت دورًا كبيرًا في حياة السكان، فكانوا يقدمون لها الطعام والقرابين، وكان هناك أصنام ترمز إلى الأمراض والحروب والأسلاف والعدل، وأصنام خاصة بالشيوخ، وأخرى بالنساء، وضعت في معابد لا يدخلها الرجال. بيد أنَّ أهالي إفريقيا الغربية لم يترددوا في مقايضة أنواع من أصنامهم بسلعٍ كانت تأتي بها السفن البرتغالية إلى المنطقة.(٦)

٢/١- تقديس الكواكب والحيوانات:

ومن مظاهر الأرواحية أيضًا، عبادة الكواكب والحيوانات؛ وخاصة الثعبان. وأورد البكري في هذا الصدد مثالاً عن جماعة من السودان، كانت تُقدس هذا النوع من الزواحف. فدأب السكان المحليون على عبادته، وتقديم الطعام والشراب له، وتعليق نفائس الثياب والمتاع على مدخل المغارة حيث كان يعيش، معتقدين في ذلك أنَّ الثعبان وحده يملكُ القدرة على إنزال المطر، وأنَّه المسؤول عن حمايتهم من كل مكروه، وحراسة كنوزهم، بل كان مصدر السعادة والشقاء، ومانح النجاح والفشل.(٧) وغير خافٍ، أنَّ تقديس الثعابين لم يكن خصوصية إفريقية فحسب، وإنما كان معروفًا أيضًا في بلدان وسيطية أخرى، مثل الصين والهند، حيث كانت تحظى بنفس التعظيم. ونفس الأمر يصح عن مصر القديمة، حيث كانت تُعبد آلهة في صورة حية (كوبرا)، تلعب دور حماية الفراعنة، وتحضر في احتفالات تتويجهم، إلى جانب آلهة أخرى.

٣/١- عبادة قوى الطبيعة:

فوق هذا وذاك، لم تكن عبادة النار والكواكب غائبة في الديانة الأرواحية، ولكن يظهر أنَّ الشمس حظيت فيها بمنزلة خاصة. ومن هنا، تكرر ذكر تعظيمها لدى كثير من الشعوب، ولا سيما بمدينتي أدوغست وشواطئ خليج غينيا.(٨)

ودون الخوض في التفاصيل الدقيقة المقترحة بهذا الشأن، يُمكننا القول إجمالاً، إنَّ هناك ارتباط وثيق بين الأرواحية وعبادة الملوك بإفريقيا الغربية. فكانت الرعية تعتقد أنهم قدموا من السماء؛ أي أنَّ لهم طبيعة إلهية تجعلهم قادرين على جلب النعمة والنقمة، كالحياة والموت والعافية والمرض. كما منحتهم تلك الطبيعة سلطة مطلقة على الرعية التي أحاطتهم -نتيجة لذلك- بكثير من مظاهر العبادة والتعظيم، واعتقدت بالتالي أنّهم يُحيونَ بدون طعام. ولعدم المساس بهذا الاعتقاد، كان بعض الملوك يأكلون خفية، وكان آخرون يوهمون الناس أنَّ غذاءَهم يقتصر على كأس من الخمر في اليوم، بينما كان منهم من يتظاهر بأنّه لا يأكل البتة، مثلما هو الأمر عند "زغاوة". بيد أنَّ الملكية المقدسة هذه -رغم مظاهر الخضوع المطلق فيها- كانت لها ضوابط صارمة، تمس على الخصوص مسألتي القدرة والعدل، فقد لاحظ البكري أنَّ الماندينغ في الضفة الجنوبية من نهر غامبيا يقتلون ملكهم، ويستبدلونه بأحد أفراد أسرته إذا تبين لهم عجزه عن ممارسة السلطة بسبب تقدم بالسن، أو مرض عضال.(٩)

٤/١- عبادة الملوك والأسلاف:

وبالمقابل، تظل قُدسية الملك عند الأرواحيين قائمة بعد وفاته؛ إذ يدفن بطقوس خاصة، ويحظى بالعبادة والقرابين، إلى درجة تسمح بمقاربتهم بمنزلة الفراعنة عند قدماء المصريين. وبعد الوفاة يدخل الملوك في إطار الأسلاف الذين كانوا يُعبَدون أيضًا، وكانت عبادتهم تشكل إحدى دعائم الديانة الأرواحية في إفريقيا الغربية قبل دخول الإسلام إليها. فالأجداد بالنسبة للإفريقيين هم المسؤولون عن وضع أسس تقاليد الجماعة وأعرافها، وربوا خَلَفَهم على تلك الأعراف والتقاليد، وموتهم لا يعني بالنسبة لأبنائهم وأحفادهم الفناء، وإنما تبقى أرواحهم بعد انتقالها إلى عالم آخر تُراقب تصرفات الأبناء، فمن حاد منهم عما سنُّوه له من تقاليد أوقعوا به الشر، ومن التزم أحاطوه برعايتهم، مما جعل الإفريقيين

يتقربون إلى أسلافهم بالذبائح عند قبورهم،[١٠] فهذا تفكير ديني يعكس في نظرنا مجموعة من القضايا:

- التقسيم الاجتماعي لشعوب إفريقيا الغربية القديمة.
- أنَّه لم يكن الإنسان الإفريقي بدائيًا كما يحلو للبعض نعته.
- وأنَّ الفرد الإفريقي قد نظّم أموره الدينية وفق عقلية معينة، كما نظّم من شؤونه السياسية والاقتصادية؛ حيث انفتح على العالم المجاور بواسطة تجارة الذهب والعبيد.

٥/١- اعتقاد أهالي إفريقيا الغربية بالسحر والعرافة:

وفي هذا المنحى، غالبًا ما تقترن الأرواحية في إفريقيا الغربية بظاهرة السحر والعرّافة لشرح بعض ضوابط الحياة الاجتماعية مثل الزواج والطلاق، والسلم والحرب، والمرض والاستشفاء، والحمل والولادة، والعلاقة بين أفراد العشيرة، وارتبطت العرّافة ارتباطًا وثيقًا بالسحرة؛ إذ ساهم العرّاف في حل بعض المشاكل اليومية، والحفاظ على التنظيم الاجتماعي السائد، فعزز المفاهيم السائدة، وأيّد الحكم القائم، وساعد في حل الخصومات، فإذا كان القصد من السحر هو تحقيق خير، أو إلحاق شر، فالقصد من العرّافة هو الكشف عن أمر مجهول بمساعدة الأرواح، واستمدت العرّافة قوتها من اعتقاد الإفريقيين فيها.[١١]

ثانيًا: تنظيم المجتمع في ظل الديانة الأرواحية

١/٢- تنظيم الأسرة والعائلة:

تكونت الأسرة في إفريقيا الغربية خلال هذه الفترة من الأب والأم والأبناء، وكذلك الأحفاد. وعاش الجميع في منزل واحد، وانتمى هؤلاء إلى جد مشترك، وارتبطوا فيما بينهم إما برابطة أمومية أو أبوية، فكانوا يرثون أملاك الأم أو الأب. ومن أهم المجتمعات التي طغت عليها العلاقة الأمومية في إفريقيا الغربية مجتمع السرير (La Sérer).[١٢] والغالب على الظن، أنَّ العامل الذي كان يحسم الانتماء الأسري هو جنس الجد المشترك، وكان رب الأسرة المسؤول عن تسييرها، وعن حل كل خلاف قد ينشأ بين أفراد هذه الخلية الاجتماعية، وهو الذي كان يحافظ على الأملاك، ويوزع العمل. وكانت له مهام أخرى تتجاوز أحيانًا حدود بيته، منها المشاركة في مجلس شيوخ القبيلة.[١٣]

لقد كانت الأسرة الممتدة أول مؤسسة اجتماعية تتكون من أفراد متعددين، تجمعهم علاقات متنوعة، ويوحدهم الانتماء إلى جد مشترك. بمعنى آخر، إنَّ مجتمع إفريقيا الغربية في الفترة السابقة للإسلام كان مجتمعًا ترتبيًا، لكن هذا المجتمع لم يكن موحدًا؛ لتعدد الأسلاف والأجداد، ولتنوع الاعتقادات، وكثرة الشعوب. لذلك حاول الإسلام الانتقال بقبائل إفريقيا الغربية من مرحلة التجزؤ في العقائد إلى مرحلة الوحدة الدينية، كما عوض نظام الأسرة الممتدة بالأسرة المحدودة الأفراد.[١٤]

٢/٢- تنظيم القبيلة:

القبيلة هي الشكل الثاني للتنظيم الاجتماعي للشعوب الأرواحية في إفريقيا الغربية، وقد تكونت هذه القبيلة من مجموعة من العشائر. لكن ما هو التعريف الذي يمكن اعطاءه لمصطلح العشيرة؟ يجيب دولافوس (Delafosse) على ذلك، إذ يقول: "إنَّ العشيرة هي في حقيقة الأمر مجموعة من العائلات التي تنتمي إلى جد واحد، وترتبط فيما بينها بعدة علاقات، منها على سبيل المثال، اختيار زعيم القبيلة."[١٥] إنَّ الروح الترابطية التي لمسناها أثناء حديثنا عن الأسرة الأرواحية، نلمسها مرة أخرى في العشيرة التي كانت تتوحد فيما بينها على أساس ديني أولاً، لأنها كانت تنتمي إلى جد مشترك يكون أساس الممارسة الدينية. لكن هذا الجد تعدد بتعدد العشائر والقبائل والمجموعات بإفريقيا الغربية وسوف يحاول الإسلام أن يغير هذه الرابطة التضامنية برابطة أوسع وأعمق، لكل العشائر والقبائل هي رابطة الدين الواحد. كما أنَّ هذه القبائل كانت تستغل مسألة الزواج فيما بينها، لتعزز وتنمي علاقاتها، فرابطة الدم أيضًا لها حضور سياسي في المسألة.

٣/٢- حول بعض المجتمعات ذات القرابة الأمومية:

هناك ملاحظة مهمة يجب إبدائها بهذا الصدد؛ وهي أنَّ جل المجتمعات القبلية كانت تجعل القرابة من ناحية الأم، فالأبناء لا يعتبرون أعضاء في جماعة أبيهم وإنما يعتبرون أفرادًا في جماعة الأم، لذا فإنَّ أقاربها يلعبون في حياة الأبناء دورًا يفوق في أهميته دور أقارب الوالد. ولا أدل على ذلك، من أنَّ للخال في هذه المجتمعات من الحقوق وعليه من الواجبات ما يتجاوز كثيرًا حقوق الأب وواجباته تجاه أطفاله. وقد أثارت هذه الملاحظة انتباه بعض الجغرافيين والرحالة العرب منذ مطلع العصر الوسيط، إذ يقول البكري في هذا الصدد: "وبسي هذا خال تنكامين [ملك غانة ٤٦٠هـ]، وتلك سيرتهم ومذهبهم أنَّ الملك لا يكون إلا في ابن اخت الملك."[١٦]

وقد أبدى الرحالة المغربي ابن بطوطة اندهاشًا كبيرًا للمكانة التي حظيت بها المرأة في مجتمع إفريقيا الغربية، وخصوصًا في مدينة ولاتة. إذ يقول: "ولنساء ولاتة الجمال الفائق، وهن أعظم شأنًا من الرجال، وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجال إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شئ ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود."[١٧] ولقد ظلت الزوجة في هذه المجتمعات تحتفظ بانتمائها إلى قبيلتها حتى بعد زواجها، وتمارس سلطة غير محدودة على أبنائها إلى درجة يمكنها أن تختار زوجة لأبنها دون استشارة أحد.

نستنتج إذن بأنَّ إفريقيا الغربية قد عرفت في عصورها القديمة انتشارًا واسعًا للأرواحية، والتي نظمت الممارسة الدينية وحددت عناصرها وأهدافها وطقوسها. كما أثرت على تنظيم الأسرة

والقبيلة، ولا بأس الآن ونحن بصدد هذا الموضوع أن نتعرف على أهم الشعوب الأرواحية التي ظلت تحتفظ بمعتقداتها الوثنية.

٤/٢- نموذج من بعض الشعوب الأرواحية:

لقد وجد الرحالة المسلمون شعوب إفريقيا الغربية تدين بمعتقدات مختلفة، تتفرع في مجملها عن الديانة الأرواحية. وقد خلَّف لنا لهؤلاء نصوصًا قليلة تخبرنا عن هذه المجتمعات؛ فنجد البكري يصف لنا سكان مملكة غانة بأنهم كانوا يعبدون ثعبان كبير، وأنهم كانوا يعتقدون في استمرار الحياة بعد الموت، لذلك كانوا يزودون الملك المتوفى بما يحتاجه من طعام وخدم. أما ملك مالي فقد حطم الدكاكير "أي الصنم" عند إعلانه لإسلامه.[١٨] وفي نص آخر ذكر، ذكر المؤرخ عبد الرحمن السعدي في كتابه "تاريخ السودان" بأنَّ أهالي مملكة سنغاي[١٩] كانوا يعبدون قبل إسلامهم، حوتًا عظيمًا.[٢٠]

وإذا كانت هذه الشعوب الكبرى (غانة – مالي- سنغاي) قد اعتنقت الإسلام منذ حوالي القرن الحادي عشر الميلادي، فهناك مناطق أخرى ظلت ترتبط بمعتقداتها الأرواحية القديمة مثل شعب الموسي (Mossi)،[٢١] والصوصو (Sosso)، والبمبارا (Bambara).[٢٢] فلا بأس إذن من التعرف على بعض هذه الشعوب، ولنأخذ شعب الموسي كنموذج؛ حتى يسهل علينا تفسير مسألة استمرارية بعض المظاهر الأرواحية بمنطقة الدراسة، وشرح أسباب معارضتها للإسلام بأراضيها. لكن الباحث في هذا الموضوع يعاني من ندرة النصوص المكتوبة، ولقد لاقى المؤرخ السوداني محمود كعت نفسه صعوبة تحديد أراضي الموسي بدقة. واكتفى بالقول بأنهم كانوا يُغيرون في عهد مملكة مالي على الجزء الغربي من ثنية نهر النيجر بقيادة موسي كي [أي ملكهم].[٢٣]

والغالب على الظن، أنَّ قبائل الموسي قد توحدت ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل، فكونت كيانًا سياسيًا خضع لمملكة مالي إبان قوتها، بدليل أنَّ حاكمها كان يحمل نفس المنصب الإداري الذي حمله حُكام الولايات على العهد المالي. ولا ريب أنَّ أيضًا قد استقلت بمجرد ضعف الماليين، وهذا ما يفسر لنا محاولة الموسي السيطرة على تنبكت؛[٢٤] لمكانتها الاستراتيجية وذلك في سنة ١٣٣٧م. يقول السعدي: "ثم غزا إليها [أي تنبكت] في أيام مملكة مالي سلطان الموسي في جيش عظيم، فخاف منهم أهل مالي، وهربوا وتركوا البلد لهم، فدخل فيها وأفسدها وحرقها وقتل من قتل وأكل ما فيها من الأموال، وولى إلى أرضه ثم رجع إليها أهل مالي".[٢٥]

وتواجهت قبائل الموسي خلال القرن ١٥م مع سني علي مؤسس مملكة سنغاي، وانتهت المعركة بانهزام الملك الموسي واندحار جيشه وملاحقته إلى العاصمة. يقول كعت: "وسمع سني علي بخبر سلطان موسي والمسى كمداع، وارتحل من دياره، والتقيا في كب وهزم جيشه، وتبعه إلى البنبارا، ونجا بنفسه حتى دخل في بلده في دار مملكته المسمى أرقم".[٢٦] إنَّ ما استهدفت الوصول إليه من وراء تقديم هذه الإشارات عن التاريخ السياسي لشعب الموسي، هو أن أظهر أنَّ هذا الكيان كان قويا من الناحية العسكرية في معظم الفترات، وهذا ما يفسر لنا معارضتهم لنشر الإسلام.

أما من الناحية الدينية، فقد احتفظ شعب الموسي بعبادة الأسلاف؛ فقد كان لهم معبد خاص يقيمون فيه طقوسهم الدينية، ويستشيرون فيه أجدادهم في أمورهم الهامة. من ذلك ما ذكره مؤرخ تنبكت، عبد الرحمن السعدي عندما استقبل ملكهم"نعسر" رسولاً من طرف الأسكيا [أي الملك] الحاج محمد[٢٧] (١٤٩٣-١٥٢٨م)، يطلب إليه الدخول في الإسلام. لكن الموسين فضلوا التشبث بديانة أسلافهم التي اعتادوا عليها منذ قرون خلت. يقول السعدي في هذا الصدد: "وفي السنة الرابعة من الهجرة، غزا الأسكيا الحاج محمد غزوة نعسر وهو سلطان الموسي، ومشى معه السيد المبارك مور صالح جور، فأمره أن يجعلها جهادًا في سبيل الله، فلم يخالفه في ذلك، فطلب أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد من السيد المذكور أن يكون رسولاً بينه وبين سلطان الموسي، فقبل ووصل إليه في بلده وبلغه رسالة أسكيا الحاج محمد في الدخول في الإسلام، فقال له حتى يشاور آباءه الذين في الآخرة، فمشى إلى بيت صنم مع وزرائه ومشى هو معهم ليرى كيف يشاور الأموات، فعملوا ما يعملون من عوائدهم في صدقاتهم، فقال نعسر للسيد المبارك: إرجع وقل له: ما بيننا وبينه إلا الحرب".[٢٨]

نلمس إذن من هذا النص، إنَّ هناك إصرارًا كبيرًا على التشبث بالأرواحية ورفض الإسلام، لأن من شأن اعتناقه أن يفقدها وحدتها العضوية؛ مما يعني أنَّ هناك شعوب إفريقية ظلت تعتنق الأرواحية بالرغم من ظهور الإسلام، وخصوصًا شعب الموسي، وهذا على عكس ممالك (غانة، ومالي، وسنغاي)، التي اعتنقت الإسلام طواعية. إذًا يمكننا القول، أنَّ شعوب إفريقيا الغربية قد اقسمت ما بين قبائل احتفظت بديانتها الأرواحية، وأخرى اعتنقت الإسلام، وعملت على نشره والعمل بمؤسساته ونظمه.

خاتمة

هذه إذن هي صورة الأرواحية الإفريقية بمختلف عناصرها ومظاهرها، وهي صورة قد تتغير تفاصيلها قليلاً أو كثيرًا من جماعة إلى أخرى، وحتى داخل الجماعة الواحدة نفسها. لهذا، فإنَّ أغلب الأصنام والآلهة والشعائر التي استعرضناها، إنما تهم جهة بعينها، على الأقل من خلال المصادر. ورغم ذلك، فإنَّ الأرواحية الإفريقية تجمعها قواسم جوهرية مشتركة، تضفي عليها نوعًا من الانسجام على مستوى النظرة إلى الحياة والكون. وعلى الرغم من تدين الأفارقة الشديد، وارتباطهم بدينهم، وملامح العنف البادية على ممارساتهم الدينية؛ فإنَّ لتلك الديانة فلسفة سامية ظهرت جليًا في النظم السياسية والاجتماعية المحلية. وتدعونا هذه الخُلاصة إلى طرح سؤال هام -سنعمل على مناقشته في دراسة لاحقة- وهو: **عندما اعتنق الفرد الإفريقي الإسلام، هل تخلى بشكل كُلي عن عقيدته الأرواحية هذه؟ أم أنَّه احتفظ ببعض مظاهرها؟ وما أثر هذا الاحتفاظ على مستقبل الإسلام في إفريقيا؟**

الهَوامِشُ:

(١) أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، (القاهرة: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٧)، الجزء الخامس، ص٢٨٤.

(٢) عبدالله عيسى، "**الإسلام والوجود الأوروبي بفضاء السنغامبيا ما بين القرنين ١٥ و١٧م**"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الدراسية (٢٠١٣- ٢٠١٤)، ص٤٩.

(٣) Marty (P.), **Etudes sur l'islam et les tribus maures: les Brakna,** (Paris: E. Leroux, 1921), p. 141.

(٤) **الأرواحية**: مصطلح حديث، يستعمل في حقل الدراسات الإفريقية للدلالة على المعتقدات الإفريقية القديمة، والاصطلاح ترجمة للكلمة الفرنسية: (Animisme) أو (Fétichisme).

(٥) أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، تحقيق دوسلان، (باريس: ميزونوف، ١٩٦٥)، ص١٨٣.

(6) Ca Da Mosto (A .De), **Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique**, (Paris : publié par M. Charles Schefer, 1895) , p 161.

(٧) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص ١٧٣. مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**،(الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ١٩٨٥)، حققه، سعد زغلول عبد الحميد، ص ٢١٨.

(٨) كربخال مارمول، **إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، (الرباط: دار نشر المعرفة، ١٩٨٤)، الجزء الثالث، ص ٢٤٣.

(٩) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص. ١٧٤.

(10) Vincent (L.T.) Luneau (R.), **La terre Africaine et ses religions,** (Paris: L'Harmattan), P. 100.

(١١) سامي سعيد، "**مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط: الدين والعلم في عصر الأسكيين ١٤٩٣ - ١٥٩١م**"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية ١٩٩١ - ١٩٩٢، (مرقونة)، ص. ٧٢.

(12) Ca Da Mosto, **Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique ,** op.cit, p 175.

(13) Delafosse (M), **Haut – Sénégal – Niger : Le pays, les peuples, les langues**, (Paris : Maisonneuve et Larose, Nouvelle édition,1972), p 39.

(14) Ibidem, p 60 .

(15) Ibidem, p 60 .

(١٦) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ١٧٥.

(١٧) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق محمد عبد الرحيم، (دمشق: دار الأرقم، الطبعة ١، ٢٠٠٩)، ص ٣٧٦.

(18) Ca Da Mosto, **Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique ,** op.cit, p167.

(١٩) **مملكة سنغاي**: تأسست هذه المملكة في القرن السابع الميلادي من قبل قبائل سنغاي المقيمة على وادي النيجر بين بوريم وساي، دخلها الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي على يد المرابطين على المرجح ، ولقب أمراؤها بـ "زا" حتى سنة ١٣٣٥م ثم بـ "سني". وكانت عاصمتهم كوكيا على نهر النيجر الأدنى ثم انتقلت إلى كاغ وقد حكمت مملكة سنغاي عائلة ضياء التي يظن أنها من منطقة طرابلس حتى سنة ١٣٣٥م حيث أعقبتها أسرة سني. وعرفت هذه المملكة ذروة مجدها وتوسعها في عهد أسرة الأسكيا التي امتدت حدودها إلى المغرب الأقصى تقريبًا، وشملت مناجم الملح في تغازة وكانت أراضيها شرقا تشمل بلاد الحوسا وتتصل بأراضي سلطنة برنو. سقطت هذه المملكة نتيجة هذا الصراع بعد الحملات التي وجهها أحمد المنصور السعدي أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وذلك في إطار الرغبة في الاستيلاء على مصادر ثروة المنطقة والذي كان منذ القديم مصدر تزاحم بين قبائل ودول المنطقة. راجع: محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس** ، (باريس: ميزونوف، ١٩٨١)، ص ٣- ٤٣

(٢٠) **تاريخ السودان**، ص ٤.

(٢١) **الموسي**: تكتب بالمصادر السودانية بهذا الشكل: موش. والموسي هي قبائل أتت من الشرق حسب بعض الروايات الشفوية، استقرت في البداية على الضفة اليسرى من نهر النيجر. راجع: **تاريخ الفتاش**، ص ١٥٤.

(٢٢) **البمبارا**: هي إثنية وثنية سوداء، تقطن ببلاد كارطا (Karta) في شمال شرق نهر السنغال. راجع: **عبدالله عيسى، "الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال"**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة الحسن الثاني (الدار البيضاء - المغرب)، العام الدراسي ٢٠٠٨- ٢٠٠٩هامش صفحة ٢٩

(٢٣) **تاريخ الفتاش**، ص ١٥٤.

(٢٤) **تنبكت**: تأسست على نهر النيجر الأعلى، كان لها دور كبير في الحركة الثقافية والتجارية في المنطقة. تأسست في القرن ٥هـ/ ١١م على أيدي الطوارق، وأصبحت تنبكت في القرن ١٠هـ/ ١٦م منارًا للعلوم والثقافة الإسلامية في إفريقيا. راجع: **تاريخ السودان**، ص٢١.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٨.

(٢٦) **تاريخ الفتاش**، ٤٥.

(٢٧) **الأسكيا الحاج محمد (٨٩٩- ٩٣٥هـ/ ١٤٩٣- ١٥٢٨م)**: هو أول ملوك آل أسكيا ومؤسس حُكم دولتهم، تولى السلطة سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م، بعد الإطاحة بسني بارو، آخر ملوك أسرة سني، أشار المؤرخ محمود كعت إلى أنَّ هذا السلطان كان جليل القدر بين أهله، كما كانت له من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثيل لا من قبل ولا من بعد. أجمعت أغلب المصادر على حنكته وقدرته على إقامة تنظيمات إدارية جيدة، إلى أن أصيب بالعمى وعزله ابنه أسكيا موسى، وتولى الحُكم محله، وبعد الإطاحة به دخلت مملكة سنغاي منعطفًا جديدًا، تميزت بالصراع المرير بين الأمراء حول الحُكم، لهذا انتشرت في صفوفهم الحرب والفتن، وهو ما أدى إلى انهيار كل ما بناه هذا السلطان. راجع: **تاريخ الفتاش**، ص ٥٩.

(٢٨) **تاريخ السودان**، ص ٧٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

ملاحظات حول السياسة الوحدوية للسلطان أبي الحسن المَريني (٧٣١ – ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ – ١٣٤٨م)

د. سلوى الزاهري

أستاذة التعليم العالي مساعدة

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين- طنجة تطوان – المملكة المغربية

مُلَخصْ

تُعَدّ التجربة الوحدوية لبلاد المغرب التي رأت النور على عهد السلطان أبي الحسن المريني تجربة فريدة من نوعها، بالمقارنة مع تلك التي دشنها سلاطين مغاربة قبله، ومختلفة عن تلك التي طبقها الموحدون. فهي تجسد هيمنة أكثر انفتاحا نحو الانصهار، ليست عسكرية بتاتًا، ولا عصبوية ضيقة. ذلك أن حملة السلطان المريني ضد بلاد الزيانيين وبلاد الحفصيين لم تكن مجرد حملة عسكرية، وإنما كانت حملة دينية فقهية شارك فيها أشهر علماء المالكية في المغربين الأوسط والأقصى في نفس الوقت، بل نجح السلطان المريني في استقطاب جزء من الرأي العام المغاربي لصالحه، بما في ذلك قسم هام من المتصوفة، قبل أن يبدأ حملته نحو المناطق الشرقية من بلاد المغرب. بيد أن الفشل كان مصير هذه التجربة الوحدوية الفريدة في تاريخ المغرب الكبير، وقد خسر أبو الحسن في هذه الحملة سمعته وعرشه والساحل المغاربي، حينما تعرض لخيانة أهله، ولهزيمة منكرة على يد عدوه: عرب إفريقية، قرب القيروان سنة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م).

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ يوليو ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ١٣ أكتوبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الإدارة المرينيـة، المغـرب المرينـي، أبـي الحسـن المرينـي، الدولة الموحدية، أرض الأندلس

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سلوى الزاهري. "ملاحظات حول السياسة الوحدوية للسلطان أبي الحسن المريني (٧٣١ – ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ – ١٣٤٨م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١١٧ – ١٢٥.

مُقَدِّمَةُ

يمثل عهد السلطان أبي الحسن علي المريني - الذي وصل إلى الحكم في ذي الحجة (٧٣١ هـ/ شتنبر ١٣٣١م) - بداية مرحلة جديدة من حياة الدولة المرينية، ذلك أنه بدأ منذ توليته مقاليد الحكم يخطط لسياسة قوامها التوسع والقضاء على أي خطر يهدد الدولة، وبالتالي كانت له رغبة – كسابقيه من السلاطين المرينيين- في تحقيق وحدة بلاد المغرب، وإعادة تكوين إمبراطورية الموحدين، تحت لواء العصبية الزناتية؛ سواء من حيث اتساع نفوذها أو من حيث عظمة خلفائها، وكذلك من حيث قوتها العسكرية والاقتصادية. من هذه الزاوية يمكن اعتبار تجربة أبي الحسن الوحدوية تجربة فريدة من نوعها في التاريخ المغربي. فقد وصلت عسكريًا إلى الحدود الشرقية لإفريقية، ونجحت دبلوماسيًا في كسب الرأي العام للأمة الإسلامية، والظهور بمظهر حامي الإسلام في منطقة الغرب الإسلامي.[1]

وقبل أن نفصل القول في هذه المعطيات، لعله من المناسب التذكير بأن الطابع العام الذي ميز الحياة السياسية ببلاد المغرب في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، هو الفوضى وعدم الاستقرار، وما يتبع ذلك من تدهور في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. بل إن التراجع والانحطاط هي أهم سمات العالم الإسلامي قاطبة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. فقد كان هذا القرن قرن تفكك الوحدات السياسية الكبرى التي حملت مشعل الحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق. فالدولة العباسية أصبحت أثرًا بعد عين، والإمبراطورية الموحدية بدورها تلاشت واضمحلت، والحروب بين الدويلات والإمارات المنبثقة عنها كانت لا تهدأ إلا لتشتد، والضغط المسيحي يستأصل

الوجود الإسلامي في أهم الحواضر الأندلسية. وفضلاً عن هذا وذاك، كان القرن قرن مجاعات وأوبئة، مع انعكاساتها السلبية على مختلف الميادين.

وبهذا الصدد لا بأس من إيراد نص بليغ من مقدمة ابن خلدون، يبرز فيه، بقتامة منقطعة النظير، أهم معالم القرن الثامن في بلاد المغرب. يقول صاحب "المقدمة": "وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض عن أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم. هذا إلى ما نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلها وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة".[٢]

أولاً: الصراع المريني - الزياني على زعامة بلاد المغرب

خلف تفكك الدولة الموحدية - التي كانت قد تمكنت من بسط سلطتها على بلاد المغرب الإسلامي وجزء من الأندلس- ثلاث وحدات سياسية وهي: الدولة الحفصية (إفريقية) والدولة الزيانية (المغرب الأوسط) والدولة المرينية (المغرب الأقصى). وحاول الحفصيون والمرينيون، عبثًا، إحياء وحدة الإمبراطورية الموحدية بعد انهيارها، طارحين أنفسهم ورثة شرعيين للحركة الموحدية ولمشروع المهدي ابن تومرت. ولم تقنع أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، بل حاولت ضمّ بقية التركة الموحدية، إما بادعاء تمثيل استمرارية للدولة الموحدية (الشرعية الموحدية)، كما هو الأمر بالنسبة للدولة الحفصيّة، أو رغبة في التسلط والزعامة على الملك وعرش زناتة، كما هو الحال بالنسبة للدولتين المرينية والزيانية.

وعلى الرغم من أن هذا الصراع لم يغيّر الخريطة الجيو-سياسية للمنطقة جذريًا، ولم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة والمستمرة على بقية الدول، لأن "الظروف العامة لم تكن مواتية"[٣]، أو بسبب توازن القوى[٤]، إلا أن هذا الصراع خلّف حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها، وأهدر طاقات كبيرة، في وقت كان العالم الأوربي يشهد تحولات سوف تكون لها انعكاسات خطيرة على مستوى توازن القوى المسيحية والإسلامية، وكذا بين ضفتيْ البحر الأبيض المتوسط، الشمالية والجنوبية.[٥] وكانت الدولة الزيانية (العبد-الوادية) أكثر تأثرًا بالصراع بين القوى المغاربية، وأكثر عرضة له، بسبب موقعها الجغرافي الوسطي بين الدولتين الحفصية والمرينية، وبالتالي تعرضت إلى ضغط مستمر من هاتين الدولتين، منفصلة أحيانًا ومتحدة أحيانًا أخرى.[٦]

أما الصراع المريني- الزياني، فكان أشد وأنكى، ودار على اختلاف بواعثه المعلنة حول رياسة زناتة، وملك المناطق التي تنتشر بها هذه القبيلة البربرية الكبيرة[٧]. ومما أجج ذلك الصراع تجاور الحيين، وعدم تكن أحدهما من فرض سيطرته المطلقة على الآخر. وبهذا الصدد يؤكد الدكتور محمد القبلي أن "القرن الرابع عشر يمتاز على مستوى المغرب الكبير بتطاحن دائم على جميع المستويات بين فاس وتلمسان"[٨]. إذ إن الحملات المرينية الموجهة ضد دولة بني عبد الواد لم تنقطع طوال القرن الثامن الهجري، حتى عدٌ هذا الأخير قرن الحروب بين الدولتين[٩]. ومن الواضح أن هذه الصراعات كان محركها الأساسي هو رغبة المرينيين في انتزاع زعامة المغرب الإسلامي من يد الحفصيين بعد وفاة المستنصر الحفصي، وظهور بوادر الضعف والانقسام بتونس وتلمسان. فقد سير المرينيون أكثر من أربعة عشر حملة ضد تلمسان، ابتداءً من سنة (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، وانتهاءً بحملة سيرها أحد الوطاسيين سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، وهي آخر حملة قبل نهاية الدولة المرينية[١٠]. يتعلق الأمر إذا بمجهود كبير، صرف في حروب مكلفة، لم تسفر في مجموعها سوى عن عشرين سنة من السيطرة المرينية الفعلية على عاصمة الزيانيين طيلة قرنين من عمر الدولة المرينية.[١١]

ولا بد من التذكير بأن أولى المحاولات التي سيرها المرينيون لاقتحام تلمسان قد تمت على يد السلطان أبي يوسف يعقوب (٦٥٦- ٦٨٥ هـ) الذي قام بمجهودات خارج المغرب الأقصى بمجرد استيلائه على مراكش سنة ٦٦٨هـ. وتخبرنا المصادر أن هذه المحاولة كانت بسبب عرقلة يغمراسن بن زيان لتحركات أبي يوسف في بلاد المغرب. وعلى هذا الأساس تقدم أبو يوسف بجيوشه إلى تلمسان لحصارها. واقتصر الأمر على عمليات تخريبية، وفشلت هذه المحاولة، إذ عاد أبو يوسف إلى المغرب بمجرد امتناع العاصمة العبدلوادية.[١٢] بعد الفشل الذي لقيه أبو يوسف في الأراضي العبدلوادية، وجه اهتمامه إلى المسألة الأندلسية، بحيث دخل في منافسة مع المسيحيين على مضيق جبل طارق، واصطبغت هذه المنافسة بصبغة الجهاد، والدفاع عن القضية الإسلامية. ولقد فشلت سياسة أبي يوسف الأندلسية بسبب موقف الحاكم الغرناطي المتقلب والمتخوف من أطماع السلطان المريني[١٣]؛ ولكنها فشلت بصفة خاصة، بسبب العداوة العبدلوادية التي كان حكام تلمسان يهدفون من ورائها إبعاد المرينيين عن مياه الزقاق.[١٤]

مع وصول السلطان أبي يعقوب يوسف إلى السلطة في بداية سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) عرفت السياسة المرينية تغيرات جذرية، تجلت في التخلي عن الأندلس، وإعطاء الأولوية للمسائل المغاربية. وهناك مجموعة من المؤشرات الدالة على أن المسألة الأندلسية لم

تعد تحظى عنده بنفس الأهمية التي أضحت تكتسيها المسألة المغاربية لديه.[١٥] فعلى الرغم من الصراع الحفصي الزياني عقب بداية انحلال الخلافة الحفصية بعد وفاة المستنصر (١٢٧٧م)، وانشغال الزيانيين بالجانب الغربي من افريقية، فإن حكام تلمسان لم يتخلوا عن إيقاد الكثير من الفتن في وجه السلطان أبي يعقوب، وإيوائهم للمعارضين من أفراد البيت المريني. إذ نجد أن جميع الثورات التي قامت في وجه أبي يعقوب قد وجدت تأييدا لها في تلمسان. فلا غرابة أن وجدنا الثائرين، الذين تحركوا إما في أقصى الشمال، أو في الجنوب الشرقي من المغرب الأقصى، يلتجئون إلى تلمسان بعد فشل محاولاتهم (أولاد بن ادريس، الأمير عمر بن عثمان، الأمير أبو عامر، محمد بن عطو...).[١٦]

وأمام رفض عثمان بن يغمراسن تسليم ابن عطو الثائر، اندلعت الحرب بين المرينيين والزيانيين. ونشير إلى أنه إذا كان السلطان الزياني قد أبقى على رفضه التام لطلب السلطان المريني بتسليم الثائر، فإن موقفه كانت له مبررات موضوعية. إنه كان يدرك بدون شك الخطر الذي يمكن أن يشكله المرينيون، إن هم تحرروا من القيود التي كانت تحد من تحركاتهم بسبب هذه الفتن الداخلية؛ خصوصا وأنهم كانوا، في هذه الفترة، قد تحرروا من شباك المشاكل الإيبيرية. فالحاكم العبدلوادي كان يساند أي ثورة من شأنها أن تؤذي بني مرين، أو تشغلهم عن المغرب الأوسط.

كانت حملة أبي يعقوب الأولى هذه ضد عاصمة العبدلواديين جد قصيرة (١٥ يومًا من رمضان ٦٨٩ هـ/ بداية شهر سبتمبر ١٢٩٠م) ولم تسفر عن نتائج حاسمة، ما عدا "نسف الآثار، وتخريب القرى، وتحطيم الزروع."[١٧] ولما امتنعت عليه، رفع حصاره عنها وانكفأ راجعًا إلى المغرب بسرعة، خصوصًا وأن ابتعاده عن عاصمته في بداية حكمه كان من شأنه أن يثير تمردات أفراد عائلته، وقبائل المغرب التي كانت تمر بفترة عصيبة بسبب المجاعة التي كانت تجتاح البلاد خلال سنوات (٦٨٧ - ٦٩٠ هـ/ ١٢٨٨-١٢٩١م).[١٨]

ثم إن الأوضاع في الأندلس كانت تتطور لغير صالح المغرب؛ إذ إن تكتلا يضم كلاً من أرغون وقشتالة وغرناطة قد رأى النور سنة ١٢٩١م، وكان هدفه انتزاع ثغر طريف من يد المرينيين وتسليمه إلى حاكم غرناطة. وهي السنة نفسها التي تم فيها عقد اتفاق بين جاك الثاني الأرغوني وسانشو الرابع القشتالي، عرف باتفاق مونتياغدو *Monteagodo* الذي يقسم المغرب الكبير سرًا إلى منطقتيْ نفوذ: الأولى لقشتالة، وتضم الأراضي المحصورة بين الأطلسي وملوية، والثانية أرغونية، وتغطي باقي المناطق المغاربية[١٩]. وأخيرًا فإن محمد الثاني، سلطان غرناطة، استطاع استقطاب عثمان بن يغمراسن ليضمه إلى حلفهم بهدف استرجاع ميناء طريفة من يد المرينيين.[٢٠]

نتيجة هذا التحالف، سقط ثغر طريف في شوال (٦٩١ هـ/ أكتوبر ١٢٩٢)، لكن ليس بيد ابن الأحمر، كما كان مقررًا، وإنما بيد قشتالة[٢١]. واستتبع ذلك محاولة صلح بين بني الأحمر والمرينيين لاسترجاع هذه المدينة[٢٢]. وساعد أبو يوسف النصريين من بعيد لاسترجاع ذلك الثغر بإرسال عدد من العساكر بقيادة عمر بن السعود خرباش الجشمي الذي نازل طريف سنة ٦٩٢هـ[٢٣]. وما أن امتنعت عليه حتى أفرج عنها؛ وأمام عدم جدوى النصريين، فضل السلطان الانسحاب كليًا من الصراع، وذلك بالتخلي عن مجموع باقي الممتلكات المرينية في الأندلس (694 هـ/ ١٢٩٥)[٢٤].

يدخل هذا القرار في برنامج استراتيجي لأبي يعقوب، يعطي الأولوية للأمور ذات الأسبقية، ويأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل المحددة لعملة السياسي، وكذلك إمكانياته المادية لتنفيذ هذا العمل[٢٥]. فبدون أسطول حربي قوي، وبدون حلفاء أقوياء وثقاة، فإن كل وجود مريني في الأندلس مآله الفشل، ويمكن أن يكون له نتائج وخيمة على الحالة السياسية بالداخل، خصوصًا وأن الزيانيين كانوا شوكة في شرق المملكة، يرتمون في أي تكتل ضد المرينيين لإبعادهم عن مياه الزقاق. فأبو يوسف يعقوب كان يرى أن الخطر كله آت من جهة الشرق[٢٦]، بينما كان المسيحيون في نظره يشكلون خطرًا أقلّ، ما داموا منشغلين في حروبهم مع الغرناطيين. وقد زاد يقين السلطان المريني من خطر جيرانه الشرقيين بعد ثورة بني وطاس . المنافسين للبيت المريني الحاكم . سنة (٦٩١هـ/ ١٢٩٢)، في منطقة تازوطة بالريف بقيادة بني الوزير، وفرارهم إلى تلمسان بعد إخماد ثورتهم (٦٩٢/ ١٢٩٣م).[٢٧]

ثانيًا: الحصار "التاريخي" لتلمسان

استمر حصار تلمسان لسنة ٦٩٦هـ ما يقرب من ستة أشهر. وأمام صمود المدينة، أمر السلطان برفع الحصار في بداية سنة (٦٩٧ هـ/١٢٩٧م)، مع إعطاء الأوامر لأخيه أبي يحي بتسيير حملات فجائية ضد الأراضي العبدلوادية؛ وهي حملات كانت ترمي إلى تخريب "أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها"[٢٨]، وإخضاع القبائل التي كانت تدين بالطاعة لعثمان بن يغمراسن الزياني، وكانت تهدف بالأساس تخويف القوافل التجارية، والإضرار بالحركة التجارية بصفة عامة. وقد أعطت الخطة أكلها سريعًا، إذ بدأت القبائل الواقعة بين ندرومة وتوات تتوافد على فاس سنة ١٢٩٩ تقدم بيعتها للمرينيين، مع التماس "الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوهم ابن يغمراسن"، ومن عدائه وجوره لهم.[٢٩]

هذا الانتصار الذي حققه أبو يعقوب شجعه على القيام بحصاره "التاريخي" لتلمسان، الذي بدأ في الثاني من شعبان (٦٩٨ هـ/ ٥ مايو ١٢٩٩). ولتقوية الأثر النفسي للحصار، قرر السلطان عزل المحَاصرين عزلاً تامًا[٣٠]، كما استعملت الحرب الاقتصادية ضدهم، وذلك ببناء مدينة "المنصورة" وجعلها محطة للقوافل التجارية، حتى أن ابن خلدون يصف هذه المدينة التي اتّسع عمرانها وقويت مكانتها الاقتصادية بقوله: "اتسعت خطة مدينة المنصورة... ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بمالم تبلغه مدينة"[٣١]، كما عمَد السلطان المريني إلى السيطرة على

منافذ تجارة تلمسان الواقعة على الساحل، مثل وهران وشرشل والجزائر، وإحكام المراقبة على مزونة ومستغانم ومليانة.(٣٢)

في الوقت الذي كان أبو يعقوب يسعى فيه لتثبيت سيطرته، كانت القوى الإيبيرية تعمل على إنهاء خصوماتها، وتنقية أجوائها الداخلية. حقيقة أن المصالحات والتوجهات الجديدة للقوى الإيبيرية قد حدّدتها عوامل داخلية. ومع ذلك لم تكن قشتالة ولا غرناطة لتقبل بوجود هيمنة مرينية على المغرب الكبير، بسبب المضاعفات التي ستترتب عن هته الهيمنة على القوى بغرب حوض البحر المتوسط، سواء على المستوى الجيو سياسي، أو على المستوى الاقتصادي.(٣٣) لهذا نجد أن السلطان النصري يتحالف مع قشتالة (٧٠٢ هـ/ ١٣٠٣م)، الأمر الذي أدخل خللاً على مخططات أبي يعقوب، خصوصًا وأن ملك قشتالة كان معروفًا بأطماعه المغربية، ونجح في التحالف مع ملك أرغون سنة ١٣٠٤ هـ، الذي كان، من جانبه، يحاول السيطرة على مياه الزقاق.(٣٤)

هذه المستجدات في السياسة المتوسطيّة سيكون من نتائجها المباشرة إعلان سبتة استقلالها (٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م)، تم احتلال النصريين لها سنة ١٣٠٦م، وتسليمها لشيخ غزاة مالقة، عثمان بن أبي العلا، للمطالبة بعرش المغرب. وسرعان ما اعترفت به منطقة الريف، وبسط سيطرته على أصيلا، والعرائش، والقصر الكبير، ونواحي تازة، بينما سيهاجم الأسطول النّصري بعض نقط الساحل المغاربي، وخصوصًا هنين.(٣٥)

من مختلف هذه المعطيات التاريخية يتّضح أن الأمر كان يتعلّق أساسًا بمنع المرينيين من بسط هيمنتهم على الساحل، سواء في المغرب الأوسط، أو في المغرب الأقصى نفسه(٣٦). ولم يكن أمام السلطان المريني سوى الانتهاء بسرعة من حصار تلمسان لاسترجاع سبتة، وإنقاذ سلطته في المغرب، ودفع الأطماع الغرناطية القشتالية.(٣٧) لكن الحصار انتهى باغتيال السلطان المريني، في ذي القعدة (706هـ/ أبريل ١٣٠٧م)، على إثر "ملابسات غامضة، كان الحريم مسرحًا لها"(٣٨)، أو "بسبب مؤامرة دبّرها خصيان القصر السلطاني"(٣٩) انتقامًا لضياع مكانتهم داخل البلاط المريني(٤٠)، أو نجد من يربط ذلك الاغتيال بتصفية أخِلاء السلطان من بني وقّاصة اليهود في شعبان (٧٠١ هـ/١٣٠٢م). أما الأسباب الحقيقية لعملية الاغتيال فغالبًا ما أبقِيَت في الظل(٤١). لكن ما يلفت الانتباه في حصار تلمسان التاريخي هي المدة غير العادية التي استغرقها(٤٢). فحصار تلمسان الذي لا نجد له مثيلاً في تاريخ المغرب، كان قد أصبح طويلاً جدًا عند نهاية (٧٠٥ هـ/ ١٣٠٦م). فيما بعد، سيتم الكلام عن حصار دام مائة شهر، أو ألف شهر، لإصباغ طابع فريد على هذا الحدث.

ويذهب بعض المؤرخين(٤٣) إلى أن المدة الطويلة التي استغرقها الحصار كانت راجعة إلى خيانة بعض الشخصيات المرموقة في البلاط. فقد كانت هناك تجارة منظمة ولكن سريّة، تقوم بها شبكة التهريب، كانت تعمل خصوصًا بالليل، وكانت لها علاقات مع بعض "رجال البطانة"، وبالتالي كانت محميّة من طرف سلطات عليا داخل الحاشية السلطانية وداخل البلاط المريني. ولا يستبعد أن يكون لاكتشاف هذه العملية عواقب تجلت في تنحية بعض الشخصيات المستفيدة من العملية. فابن خلدون يوضح كيف "استراب السلطان بكثير من حاشيته الملابسين لداره" عند أخريات أيامه. ولا يستبعد أن يكون هؤلاء المستفيدون هم الذين استبقوا الأحداث في شهر ذي القعدة (٧٠٦ هـ/ مايو ١٣٠٧م) باستعمال أحد الخصيان لاغتيال السلطان، والتخلي عن حصار تلمسان. والثابت هو أن حصار تلمسان لم يصبح واقعيًا إلا عند السنة الأخيرة من الحصار، حيث ظهر أثره على المحاصَرين الذين كانوا، عند نهاية سنة (٧٠٦ هـ/ ١٣٠٧م)، على حافة ذبح نسائهم، بطلب منهن، لتجنب الشروط المهينة للهزيمة.(٤٤)

وكيف ما كان الأمر، فإن اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب كان حادثًا مدبّرًا ومخطَّطًا له، ولم يكن أبدًا مجرد حادث عرضي. بعد اغتيال السلطان أبي يعقوب، انفجرت السياسة المرينية وأفصحت جليًا عن عوامل اغتيال هذا السلطان. ذلك أن بني مرين انقسموا بين مساندي السياسة المغاربية لهذا السلطان، وبين الداعين للصلح مع تلمسان. وحسب الرواية القريبة من الأحداث (رحلة التجاني) أُعدِم أبو سالم بن يعقوب "بعد أيام يسيرة" من اغتيال السلطان، كما أُعدم أبو يحيى، أخ السلطان، وقد كانا يساندان بقوة سياسة متابعة الحصار. "وانتقل أبو ثابت إلى مدينة فاس بعد أن سلم مدينة تلمسان الجديدة لأبي زيان محمد بن عثمان"(٤٥)، كأن الأمر يتعلق بتركة ثقيلة كان يجب التخلص منها بسرعة.

واستطاع أبو ثابت عامر (٧٠٦ هـ- ٧٠٨هـ)، وهو حفيد السلطان المغتال، الوصول إلى الحكم بمساعدة شيوخ بني مرين(٤٦) ودعم زناتي. وتنازل المرينيون عن جميع ممتلكاتهم في المغرب الأوسط، بما في ذلك مدينة المنصورة. أما ما يذهب إليه ابن أبي زرع من كون الصلح اشترط أن تبقى المدينة في قبضة المرينيين(٤٧)، فإنه لا يدخل في منطق الأشياء، لأن الزعيمين قد أبرما اتفاقية في نهاية سنة (٧٠٦ هـ/ ١٣٠٧م)، وأن هذه الاتفاقية قد جددت في أقل من سنتين. كما إن احتلال المنصورة، ولو شكليا من طرف المرينيين، لم يكن من شأنه أن يشجع هذا الانفراج في العلاقات الزيانية المرينية.

والواقع إن وجود السلالة المرينية نفسها كان مهددًا عقب وفاة أبي يعقوب. فأبو ثابت كان ما يزال شابًا، وواجه أول أزمة عميقة متعلقة بالنزاع على العرش. فقد استقل ابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد، بمراكش في جمادى الأولى (٧٠٧ هـ/ نوفمبر ١٣٠٧م). ثم إن الوضعية في المغرب كانت متأزمة بسبب تمردات القبائل شمال وجنوب ووسط البلاد.(٤٨) ومن هذه الزاوية، كان قرار التفاوض مع تلمسان إجباريًا وضروريًا بقوة الأشياء. فقد كان من الصعب الاستمرار في تطبيق سياسة أبي يعقوب العدائية ضد بني عبد الواد والبلاد تتخبط في مشاكلها الداخلية. ونجح أبو ثابت في

إبرام اتفاقية صداقة مع أبو حمو الزياني في شوال من سنة (٧٠٧ هـ/ أبريل ١٣٠٨م).(٤٩)

والواقع أن المغرب المريني كان قد دخل "فترة ضعف ملحوظ" أرغمته إلى غاية سنة (٧٣١هـ/١٣٣١م)، على الاهتمام بشؤونه الداخلية. فقد اشتغل كل من أبي ثابت عامر وأبي الربيع سليمان من بعده (٧٠٨ هـ - ٧١٠ هـ) بقضية سبتة، إلى أن استُرجعت في (١٠ صفر ٧٠٩ هـ/ ٢١ يوليوز ١٣٠٩م).(٥٠)

توفي السلطان أبو الربيع في (٢٩ جمادى الثانية ٧١٠ هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٣١٠م)، وخلفه أبو سعيد عثمان (٧١٠ - ٧٣١ هـ) الذي تعتبر مرحلة حكمه من أهم مراحل التاريخ المريني، وأكثرها دلالة. ففي هذه المرحلة وخاصةً بين سنة (٧١٤ - ٧٢٥ هـ/ ١٣١٤ - ١٣٢٥م) دخلت إفريقية مرحلة انهيار، بينما نلاحظ تقوية الجانب التلمساني، وتوطيد بطيء للسلطة المرينية. وطوال مرحلة التقوقع المريني، حاولت مملكة تلمسان -التي أصبحت أكثر ازدهارًا على المستوى التجاري من باقي أجزاء المغرب(٥١)- التوسع على حساب الممتلكات الحفصية، ونجحت في الاستيلاء على عاصمة الحفصيين مرتين (١٣٢٥ و ١٣٢٩). ولم يكن أمام الحفصيين سوى الاستنجاد بالمرينيين. وابتداءً من سنة (٧٣٠ هـ/ ١٣٣١م)، توجه أبو سعيد نحو تلمسان مرغمًا الزيانيين على التخلي عن سياستهم التوسعية على حساب إفريقية. بموازاة ذلك، ارتبط عائليًا بالأسرة الحفصية عبر زواج ابنه وولي عهده، أبي الحسن، بإحدى بنات أبي يحيى الحفصي،(٥٢) وهو ارتباط مماثل لذلك الذي كان قد عقده أبو يعقوب مع زعيم مغراوة سنة (٦٩٦ هـ/ ١٢٩٧م).

ولقد حاصر السلطان أبو سعيد تلمسان سنة ٧١٤ هـ، ولم تكن محاولته ناجحة، إذ اقتصر على تخريب العمران ونهب وتحطيم الزرع.(٥٣) وانصبت جهود السلطان بعد ذلك على حل مشاكله الداخلية، كثورة ابنه أبي علي عمر، وانتفاضة بني العزفي بسبتة(٥٤). وانتهى الأمر إلى الإحجام عن الدخول في صراع مع منافسه الزياني. وهذه السياسة الوفاقية مع الجار الشرقي سمحت بظهور ذلك الثراء في المغرب على عهد السلطان أبي سعيد عثمان. كما أن التوازن المريني الزياني، هو الذي يفسر الطابع السلمي لمرحلة حكم أبي سعيد(٥٥)، والذي تشير إليه كل المصادر، وهيأ ظروفًا مواتية لأبي الحسن لبسط نفوذه شرقًا.

ثالثا: تجربة أبي الحسن المريني الوحدوية وفشلها

من المعلوم أن وصول السلطان أبي الحسن إلى الحكم قد احتفل به في نفس الوقت الذي تزوج فيه بالأميرة التونسية، فاطمة بنت أبي يحيى الحفصي(٥٦)، وأنه في السنة التالية أتى محمد الرابع، سلطان غرناطة، بنفسه إلى المغرب ليطلب من أبي الحسن التدخل في الأندلس(٥٧) مما يؤكد الوضعية الحرجة بالنسبة للأندلس وللحفصيين. هذه الظرفية تتمثل في تقدم قشتالة نحو مياه الزقاق، وتدخل الزيانيين في موانئ بجاية وتونس. لذلك، فرغم مراقبتهم المتحسنة لعنق التجارة الصحراوية، فإن المرينيين كانوا يرون أنفسهم، على المدى البعيد، مبعدين عن بلاد الساحل. وإذا كانت هناك طريقة للتحكم في التجارة المغاربية، فإنها، في نظر السلطان أبي الحسن، لم تكن لتجرب عند المنبع، أي في بلاد توات أو درعة، وإنما عند المنافذ الساحلية المتوسطية.(٥٨)

لهذه الأسباب كلها، سيغدو الصراع مع الزناتيين محتمًا على المستوى الاقتصادي، بعبارات أخرى، سوف يجد أبو الحسن نفسه -كأبي يعقوب ولو بدرجة قل- يهتم بالساحل الإفريقي(٥٩). والواقع أنه منذ شعبان (٧٣٢ هـ/ مايو ١٣٣٢م) أصبحت سواحل الإمارة التلمسانية تحت رحمته، بفضل أسطوله البحري الذي كان أقوى قوة بحرية في شمال إفريقيا آنئذ(٦٠)؛ وبعد ذلك، سيتخذ من الهجمات المتكررة لأبي تاشفين على مجال الحفصيين ذريعة ليطالب بإعادة ميناء دليس للتونسيين. وأمام رفض السلطان الزياني، سيحتل أبو الحسن ندرومة أواخر ٧٣٥ هـ، ووجدة في بداية (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، وأقام حصارًا على تلمسان، وبسط سيطرته على الساحل في السنة نفسها، من هنين حتى الجزائر، مجددًا بذلك تجربة أبي يعقوب.

نجح أبو الحسن في السيطرة على عاصمة الزيانيين في (٢٧ رمضان ٧٣٧ هـ/ أبريل ١٣٣٧م) بعد سنتين من الحصار، انطلاقًا من مدينة المنصورة المجدد بناؤها. وبعد توقيف أميرها، أُعدِم بسرعة، ولم يعد هناك معارضة تلمسانية البتة. وأدى هذا الحادث إلى انقطاع الدولة الزيانية، إلى أن تم بعثها سنة ٧٤٩ هـ على يد الأخوين أبي سعيد عثمان الثاني وأبي ثابت.

أصبحت الطريق مفتوحة بعدئذ نحو تونس. وحسب ملاحظة هامة أوردها العمري، وربما تعكس الرأي العام الذي ساد هذه الفترة، أي عقب فتح تلمسان، لم يكن الحفصيون متحمسين كثيرًا لانتصارات أبي الحسن، واقترابه من دولتهم: "كان صاحب افريقية مع انقياده إلى المريني، وعداوته لسلطان بني عبد الواد، وقيام المريني على عدوه في هواه، لا يؤثر في الباطن أن المريني يظفر بصاحب تلمسان عدوه ليكون له به شغل عن قصده، وانتزاع افريقية منه"، ويضيف العمري بخصوص أبي يحيى هذا أنه كان يعلم "أن تلمسان حجاب بينهما، وإنه لا طاقة له بالمريني ولا قبل له به، ويحق له الخوف فإنه في قبضته متى أراد"(٦١).

وبذلك أصبح السلطان المريني يعتبر منذ استيلائه على تلمسان، سلطانًا على المغرب الكبير، تمتد مملكته من البحر المحيط إلى برقة، "وإفريقية هي داخلة في هذا الحد"، حسب ملاحظة العمري(٦٢) ذلك أن الفتح شمل عمليًا جميع المنطقة حتى تونس، بفعل سقوط تلمسان وحدها، مع السيطرة على بلاد الساحل الوسطى. وعندما توفي أبو يحيى في رجب (٧٤٧ هـ/ أكتوبر ١٣٤٦م) أصبح التدخل المريني العسكري تدخلا صوريا، ومن أجل الأبهة فقط. والأمر الذي سهل، مع ذلك، هذا التدخل العسكري هو ذلك التفتت الحفصي، وضرورة الانتقام لأبي العباس الذي ذهب ضحية أخيه أبي حفص. وتحت ذريعة إعادة الأوضاع إلى نصابها بتونس،

نظم أبو الحسن حملة في بداية (٧٤٨ هـ/١٣٤٧م)، انطلاقًا من تلمسان، وعند الوصول إلى وهران استقبل السلطان من قبل الوفود التي أتت من بعيد، من بلاد الجريد. ومن جهة أخرى، لم تبد لا بجاية ولا قسنطينة، أية مقاومة.

واقترب المرينيون من العاصمة الحفصية، وحاولوا اقتحامها. وحوصرت المدينة برًا وبحرًا، ولم تتأخر في الاستسلام، ونظم استعراض عسكري توج المسيرة الطويلة لأبي الحسن في (٨ جمادى الثانية ٧٤٨ هـ/ ١٥ شتنبر ١٣٤٧م) حتى "صاحت الأرض بالجيوش، وهو يومًا لم ير مثله فيما عقلناه"[٦٣] حسب الشهادة المتأخرة لابن خلدون، الذي عاين هذا الاستعراض المدهش للجيش المريني.

وتُعَدّ التجربة الوحدوية التي رأت النور على عهد هذا السلطان المريني تجربة فريدة من نوعها، بالمقارنة مع سابقاتها، ومختلفة على كل حال، عن تلك التي طبقها الموحدون. فهي تجسد "هيمنة أكثر انفتاحا نحو الانصهار، ليست عسكرية بتاتا، ولا عصبوية ضيقة"[٦٤]. ذلك أن حملة السلطان المريني ضد بلاد الزيانيين وبلاد الحفصيين "لم تكن مجرد حملة عسكرية، وإنما كانت حملة دينية فقهية شارك فيها أشهر علماء المالكية بالمغربين الأوسط والأقصى في الوقت نفسه"[٦٥]، بل نجح السلطان المريني في استقطاب جزء من الرأي العام المغاربي لصالحه، بما في ذلك قسم هام من المتصوفة[٦٦]، قبل أن يبدأ حملته نحو المناطق الشرقية. فكان حدث جلاء المسيحيين عن جبل طارق سنة (٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣م) بعد انتصار أبي الحسن البحري حدثًا مدويًا، "صار خبره في الآفاق، وسارت بهذه البشرى الرفاق."[٦٧]

والحقيقة أنه بالإضافة إلى ارتباط "رجال الدين" بشخص أبي الحسن، فإن السلطان المريني الفاتح كان يهدف -حسب تصريحه- "استجلاب" أهل تلمسان، و"تأنيسهم"[٦٨]، ذلك لأنه كانت بينه وبينهم "رحمى سابقة"[٦٩]، ولكنه كان كذلك يعمل -بوعي تام- على خلق "الوحدة الزناتية" عبر إشراك العبدلواديين في مشروعه المغاربي[٧٠]. ولتحقيق هذا الهدف تم إدماج بعض العناصر الزيانية على مستوى القيادة العسكرية[٧١]، والإدارة العامة للولايات المغربية ذاتها.[٧٢]

ومع ذلك؛ فإن نشوة الانتصار لم تدم طويلاً، وكان فشل الحملة المرينية في إفريقية أكثر ذهولاً من تقدمها السريع، وسيخسر أبو الحسن في هذه الحملة سمعته وعرشه والساحل المغاربي، حينما تعرض لخيانة أهله، ولهزيمة منكرة على يد عدوه: عرب إفريقية، قرب القيروان سنة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م). ونجا هذا السلطان، وهو "سيد المنطقة الساحلية"، من الغرق على سواحل الجزائر إثر رجوعه الهروبي عبر البحر "في قلب فصل الشتاء"، في بداية شوال (٧٥٠ هـ/ منتصف دجمبر ١٣٤٩م)، ليموت في شهر ربيع الأول (٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م) موتة بؤس وشقاء في جبال الأطلس، عند هنتاتة، متابعًا ومطاردًا من طرف ابنه وخلفه أبي عنان.[٧٣]

جرت العادة على تفسير هزيمة أبي الحسن بعدم تماسك عسكره، وفساد رجال بلاطه، وزوال محبة العناصر الحضرية الإفريقية تجاهه، وإلى "الفوضى الزناتية"، وتمرد العرب الذين مسوا في امتيازاتهم التقليدية، والمحرومين من "الرواتب التقليدية المعتادين على جبايتها من المستقرين"[٧٤]. ومن الباحثين من يعتقدون أن وباء الطاعون -الذي اندلع في بداية (٧٤٩/ أبريل -ماي ١٣٤٨م)، كان قد بلغ ذروته في ربيع الأول من العام نفسه (يونيو ١٣٤٨م) في العاصمة تونس، إن لم يكن في باقي الولايات- قد ساهم في الفتك بجيش السلطان، وعزل السلطان عن باقي أطراف مملكته، وأن تأثيره قد انضاف، على الأقل إلى تأثير الهزيمة العسكرية.[٧٥]

حاول السلطان أبو عنان فارس أن يتم ما بدأه والده، فاستعاد تلمسان سنة (٧٥٦ هـ/ ١٣٥٢م) واستولى على كامل المغرب الأوسط، حتى بلغ بجاية. وبعد أربع سنوات شرع في تحقيق مشروعه الأكبر بالسيطرة على افريقية، فدخل قسنطينة (٧٥٨ هـ/ صيف ١٣٥٧)، وجاءته بيعة كل المناطق الجنوبية، ودخل الجيش المريني تونس (شتنبر ١٣٥٧)، لكن الحملة المرينية سرعان ما انكسرت، بسبب التناقضات الحاصلة على مستوى السلطة العليا المرينية، وخذلان الجيوش، الذي رفضت مواصلة القتال بعيدًا عن أهلها وبلادها[٧٦]، وقفل أبو عنان راجعًا إلى المغرب الأقصى، وحينما استعد مرة ثانية للتوجه إلى إفريقية لم يتجاوز مدينة تلمسان، واضطر مرة أخرى على الرجوع إلى المغرب، وما أن وصل إلى فاس حتى اغتيل خنقا على يد أحد وزرائه أواخر سنة (٧٥٩ هـ/ ١٣٥٩م)، وبموته ستدخل الإمبراطورية المرينية طور الانحلال التدريجي، وبتلاشى الحلم الذي طالما راوده وراود والده السلطان أبا الحسن، والمتمثل في إعادة تجسيد فكرة الإمبراطورية الإسلامية في الغرب الإسلامي، كما حققتها الإمبراطورية الموحدية.

وكما دخل المغرب المريني طور الاحتضار، دخلت الأندلس كذلك في مسار الانحلال والتفكك والهزائم المتتالية أمام هجمات الممالك المسيحية، والذي سيكون من آخر محطاته سقوط غرناطة سنة (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢م) ونهاية الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وما خلفته هذه الهزائم من صدى عميق في نفوس المسلمين - نخبا وعامة- في المغرب الإسلامي. ولقد تزامنت هذه السياسة الهجومية للممالك المسيحية الغربية في شبه الجزيرة الإيبيرية مع ما يجب اعتباره الامتداد الغربي للحروب الصليبية، والمتمثلة في الاعتداءات المتكررة على سواحل وموانئ المغرب الإسلامي، والتي عكست تغيرًا على مستوى سياسة هذه المماليك في البحر الأبيض المتوسط، وعزوفًا عن سياسة التوازن التي كانت تطبع الوضع في تلك المنطقة في بداية القرن الثالث عشر للميلاد.[٧٧]

واضطر المرينيون للتخلي شيئًا فشيئًا عن المسألة الأندلسية، لاستحالة الحرب على الواجهتين، الأندلسية والإفريقية، في آن

واحد. ولئن كانت أنشطة السلطان أبي الحسن المريني البحرية قد توجت بانتصار كبير بمياه جبل طارق، الذي استرده أبو مالك -أحد أبناء السلطان- سنة (٧٣٣ هـ/١٣٣٣م)، وذلك بعد أكثر من عشرين سنة من الاحتلال القشتالي، فإن ذلك الانتصار تبعته انتكاسة كبرى، وقعت يوم سابع جمادى الثانية (٧٤١ هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٣٤٠م)، ليس بعيدًا عن طريفة، عند ريو سالادو *Rio de Salado*، أسفرت عن مذبحة للمسلمين، وأسر عدد من الجنود، ومن بينهم أحد أبناء أبي الحسن، ووفاة زوجة السلطان الحفصية التي قتلت مع زوجة أخرى، وهروب السلطان بنفسه نحو سبتة، وميله للتخلي، منذ هذه الفترة، عن الشؤون الأندلسية، أو على الأقل، جعلها ثانوية بالنسبة إليه.

والواقع أنه سيكتفي بمساعدة الأندلسيين من بعيد. فعندما حوصرت الجزيرة الخضراء في بداية سنة (٧٤٣ هـ/ يوليوز ١٣٤٢م) اكتفى أبو الحسن بمساعدة المحاصرين من مدينة سبتة، وإرسال المؤونة لهم بحرًا، بانتظار استسلام المدينة للعدو. ومع السقوط النهائي لهذه المدينة في بداية شوال (٧٤٣ هـ/ مارس ١٣٤٣م) استدعي السكان للمجيء إلى المغرب، الشيء الذي تم بالفعل، وأدى ذلك إلى ارتياح الجميع، بمَنْ فيهم أبي الحسن نفسه.[٧٨] وبسقوط الجزيرة الخضراء فقد المغرب المريني نقطة هامة للعمليات العسكرية ولانتقال الجيوش، وأصبح ألفونسو الحادي عشر سيد مياه الزقاق بدون منازع.

منذ هذه لفترة لا نجد اهتماما كبيرًا بالنقطتين اللتين كانتا ما تزالان تحت الإدارة المرينية، باستثناء استقبال السلطان لوفد من رندة في بداية سنة (٧٤٥ هـ/ ماي ١٣٤٤م)، ومساعدته الخاطفة سنة (٧٤٩ هـ/١٣٥٠م) لفك حصار جبل طارق، وهو حصار لم يرفع إلا بسبب تهديد الوباء المندلع في صفوف القشتاليين، والذي كان من ضحاياه الملك القشتالي نفسه[٧٩]. وما لبث المرينيون أن تنازلوا عن رندة للنصريين سنة ١٣٦١م وفي سنة ١٣٧٤ تنازلوا لهم عن جبل طارق، وبذلك لم يعد هناك وجود مريني في أرض الأندلس. بل أصبح المغرب نفسه، وقد دخل مرحلة الانحلال والضعف، ميدان تدخل ودسائس نصرية لا تنتهي.

خاتمة

وبصفة عامة يمكن القول: إن المرينيين كانوا أقرب إلى تحقيق الحلم الوحدوي في المغرب الكبير، إلا إنهم لم يستطيعوا تحقيق ذلك الهدف في شقه الأندلسي. لقد حدت مجموعة من العوامل المعقدة من جدوى التدخل المريني في الأندلس، وعلى رأسها: الانشغال في الحروب مع الجار الزياني، والفتن الداخلية بالمغرب، والصراع على السلطة، والتناقض المريني النصري، وعدم توفر المرينيين على أسطول كبير، واختلال التوازن بين ضفي البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة[٨٠]. ومع ذلك فإننا لا ننفي أن المغرب المريني "استطاع أن يؤخر كارثة الأندلس بنحو قرنين من الزمن، لما بذله من دفاع مجيد عن الفردوس المفقود"[٨١]، لكن انقطاع العبور المغربي إلى الأندلس ترك الأندلسيين يواجهون لوحدهم زحف حركة الاسترداد الجارف الذي توج بسقوط غرناطة، عاصمة النصريين، سنة ١٤٩٢م.

الهَوامِشُ:

(1) M. Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986, p.129

(٢) **المقدمة**، طبعة علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٦٥، ج ١، ص ٤٠٥-٤٠٦؛ وانظر كذلك د. محمد رزوق، "**الرؤية الخلدونية للحضارة الإسلامية**". أعمال الملتقى الدولي الثاني عن ابن خلدون، المنعقد بفرندة، ١٩٨٦، ط. الجزائر، ١٩٩٢، ص ٤٥-٥٨.

(٣) العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ط.٢، الدار البيضاء ، ١٩٩٤، ج٢، ص ١٩٣

(٤) بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٣، ص١٥٦.

(5) Viguera, María Jésus.,"*Le Maghreb mérinide: un processus de transfèrement*", in La signification du bas Moyen Age dans l'histoire et la culture du monde musulman, *Actes du 8e Congrès de l'Union Européenne des Arabisants et Islamisants*, Edisud, 1978, p. 309

عبد السلام الشدادي، "**المسلمون والبحر الأبيض المتوسط**"، ضمن كتابه: **ابن خلدون من منظور آخر**، ترجمة محمد الهلالي وبشير الفكيكي، دار توبقال، ٢٠٠٠، ص ٦٣-٦٨.

(٦) بوداود عبيد، م. س. ص ١٥٧.

(٧) نفسه، ١٥٩.

(٨) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص ٨٢ – ٨٣.

(٩) عبد الله شريط ومحمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، قسنطينة، ١٩٦٥، ص ١٠٠.

(١٠) الحملات المرينية الأخرى وقعت في عهد أبي يعقوب يوسف سنة، ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ وسنة ٦٩٤ هـ /١٢٩٥، وسنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨، وسنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ وفي عهد السلطان أبي سعيد سنة ٧١٤ هـ/١٣١٤ وسنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ وفي عهد السلطان أبي الحسن سنة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٥ وفي عهد السلطان أبي عنان فارس سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ وفي عهد السلطان أبي سليم سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٦٠ وفي عهد السلطان أبي فارس سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ وفي عهد السلطان أبي العباس سنة ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ وسنة ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٧. (**العبر**، ج ٧ و**بغية الرواد**، في مواضع مختلفة من الكتابين)

(١١) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ٢/ ٢٠٥.

M. J. Viguera, « *Le Maghreb mérinide: un processus de transfèrement* », p. 312

(١٢) ابن خلدون، **العبر**، ٢٥٣/٧ – ٢٥٤.

(١٣) يعبر ابن خلدون عن ارتياب السلطان النصري من أبي يوسف المريني بهذه العبارات الدالة: "ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له ما لم يكن يحتسب، وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس، وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه، وانقيادهم لأمره، فشرق بمكانه وحذر غوائله، وتكدر الجو بينهما، وأجاز الإجازة الثانية فانقبض ابن الأحمر عن لقائه" (**العبر**، ١٩٨/٧).

(14) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 100

(١٥) فقد قبل السلطان أبو يعقوب بتثبيت اتفاقية السلام المرينية القشتالية المعقودة مع والده سنة ١٢٨٥م، بل ذهب أبعد من ذلك عندما جدد هذه الاتفاقية مرة أخرى سنة ١٢٨٨ لمدة أربع سنوات أخرى. كما عقد اتفاقا مع النصريين في أبريل ١٢٨٦، اعترف لهم بسلطتهم على الأندلس، ولكن في إطار نوع من السيادة المرينية، وتنازل لهم عن جميع ممتلكات المرينيين، باستثناء الجزيرة الخضراء وطريفة ورندة وقادس. ابن أبي زرع الفاسي، علي (ت. حوالي ٧٤١ هـ)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣، ٣٧٦؛ - ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. ٨٠٨ هـ)، **كتاب العبر** ...، دار الكتب العلمية، ج ٦، بيروت، ١٩٩٢، ٢٥١/٧ – ٢٥٢.

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIVe siècles*, Paris, 1966, p. 216, Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 100-101

(١٦) عن هذه الثورات، انظر: محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني**، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٨٣ - ٨٤.

(١٧) **القرطاس**،٢٧٩؛ **العبر**، ١١١/٧، ٢٥٩ – ٢٦١.

(١٨) **القرطاس**، ٤٠٨.

(19) Ph. Gourdin, "Le partage du Maghreb entre l'Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291) », in, *Le partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, publications de la Sorbonne, Paris, 1998, pp. 399-409 ; Dufourcq, *L'Espagne*, 218-221 ; R. Arié, *L'Espagne musulmane*, p. 77

(٢٠) **القرطاس**، ٣٨٠، ٣٨١.

(٢١) **العبر**، ٧ / ٢٥٥، ٢٥٦؛ **القرطاس** ٣٨٠.

(٢٢) **العبر**، ٧ / ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢٣) نفسه، ٧ / ٢٨٢.

(24) Arié, Rachel, L'Espagne musulmane au temps des Nasrides, (1232- 1492), Paris, 1973 . p. 78-79

(25) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p.103

(26) Ibid, p.104

(٢٧) **العبر**، ٧ / ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢٨) **العبر**، ٧/ ٢٦١.

(٢٩) **العبر**، ٧/ ٢٦١؛ **القرطاس**، ٣٨٧.

(٣٠) انظر شهادة معبرة عن ذلك في : **المناقب المرزوقية**، تحقيق ودراسة دة. سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، ٢٠٠٨، ص ٧١.

(٣١) **العبر**، ٧، ص ١١٤.

(٣٢) خرجت جيوش بني مرين للاستيلاء على مدن وأقاليم دولة بني عبد الواد، فاستولت على "ندرومة وهنين ووهران وتاوانت ومزغران ومستغانم وتنس وشرشال وبوشك والبطحاء ومازونة وونشريش ومليانة والقصبات والمدية وتازجدت وجميع بلاد بني عبد الوادي وبلاد تجين وبلاد مغراوة" (**العبر**، ٧، ص٢٦١).

(33) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 113

(34) Dufourcq, *L'Espagne*, op. cit. 362, 363.

(٣٥) **العبر**، ٧، ص ٢٧٠،٢٧١ ؛ **القرطاس**، ٣٨٧؛ ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط٢، القاهرة، ١٩٧٣، ٤، ص ٢٤١، ٢٤٣.

(36) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p.114

(37) Ibid

(٣٨) جوليان، شارل أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠ م**، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر ١٩٦٩، ٢/ ٢٢٦؛ الحريري، د. محمد عيسى، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المَرِينيّ**، ط١، الكويت، ١٩٨٥، ص ٩١

(٣٩) إبراهيم حركات، **تاريخ المغرب**، ١/ ٣٢-٣٣

(٤٠) محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ص ٩٢

(٤١) محمد ياسر الهلالي، "اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني: قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة"، ضمن كتاب: **التاريخ والفقه**.

أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، تنسيق محمد حجي، منشورات كلية الآداب الرباط، ٢٠٠٢، ص ٢٢٩-٢٥٩

(42) Ibid.

ومن المعلوم أن أي حصار لم يكن يتجاوز أبدا مدة سنتين في العالم الأوربي من حوض للبحر المتوسط الغربي،

Philipe contamine, *La guerre au Moyen Age*, Paris, 1980, p. 207-8 cité par Kably, *Société*, op. cit. p. 115

(43) Ibid, 114-115 ; Dufourcq, *L'Espagne catalane*...op. cit. p. 384

(٤٤) ابن خلدون، **العبر**/ ٧، ص ١١٤.١١٥؛

- Kably, *Société*...op. cit. p. 116

(٤٥) عبد الله التجاني، **رحلة التجاني**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١، ص ١٩٧-١٩٨

(٤٦) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٧٦

(٤٧) **القرطاس**، ٣٩٠

(٤٨) ابن خلدون، **العبر**،٧/ ٢٧٧؛ **الإحاطة**، ١/ ٥٥٠

(٤٩) ابن خلدون، **العبر**، ٧/٢٧٧

(٥٠) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٨٤

(51) Dufourcq, *L'Espagne catalane*... op. cit. p. ٤٧١-٤٧٣

(٥٢) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٩٧-٢٩٩

(٥٣) **القرطاس**، ٣٩٩؛ **العبر**، ٧/ ٢٨٧-٢٨٨

(٥٤) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٩٢.

(55) Kably, *Société*...op. cit, p.126

(٥٦) ابن خلدون، **العبر**، ٧/٥٢٥ – ٥٢٦.

(٥٧) نفسه، ٥٣١.

(58) Kably, *Société*...op. cit, p.129

(59) Ibid, p. 131

(٦٠) المقري، أحمد بن التلمساني ت (١٠٤٠ هـ)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٨، ٦/ ٢١٦؛ المنوني، محمد، **ورقات عن حضارة المَرِينِيّين**، منشورات كلية الآداب الرباط، ط٢، ١٩٩٨، ٧٧، لقد اعتبر السلطان أبو الحسن المهندس الحقيقي لتطور القوى البحرية بالمغرب والمؤسس الدؤوب للأسطول، إذ شجع إنشاء الأساطيل في دور الإنشاء المغربية حتى إنه "لا تمر سنة إلا وله فيها تجهيز أسطول وتجهيز غزاة"، حسب ابن مرزوق (**المسند**، ٣٨٨، وكذلك ص ٣٩٣)

(٦١) العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق د مصطفى أبو ضيف أحمد، ١٩٨٨، ص ١٢٢

(٦٢) نفسه، ص ١٢٣

(٦٣) ابن خلدون، **العبر**، ٧/٣٢٠

(64) Kably, op. cit, 137

(٦٥) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، ١٩٨٧ص ٦١

(٦٦) ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. ٧٨١ هـ)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق دة. ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، ١٥٢،٢٦٥،١٩٨١-٢٦٨، ١٦٣ إلا أن قسما آخر من المتصوفة كان معارضا للسياسة التوسعية نحو الشرق، مثل الشيخ بوهادي، الوالي بتونس الذي طلب من أبي الحسن المريني الرحيل عن إفريقية، فلم يسعفه، مما حدا بهذا المتصوف إلى الرحيل عنه إلى قسنطينة حيث اختلى بنفسه... وقيل إنه لازم خلوته من أجل التوجه إلى الله تعالى في السلطان المذكور (**أنس الفقير**، ص ٥١).

ولعل مثل هذه المواقف المعارضة هي التي جعلت بعض الباحثين يعممون ويرون "بشيء من الاستغراب أن متصوفة المغرب عارضوا المحاولات التوسعية لملوكه، لا سيما في العهد المريني". انظر مثلا: محمد فتحة، " **المؤسسة السلطانية والمجال: أمثلة من العصر الوسيط**"، مجلة البحث التاريخي، العدد ٢، ٢٠٠٤، ص ١٩

(٦٧) ترك لنا ابن مرزوق وصفا دقيقا لهذه الظاهرة إذ يقول: " كنت يوما في مجلس الإمام العلامة القدوة أبي زيد ابن الإمام بتلمسان، والمجلس بالمسجد الذي كان يقرأ فيه من مدرسته، قد غص بمن عوائده الحضور، ونحن ننتظره، وإذا به قد جاء على عادته، رضي الله عنه، فلما استوى جالسا، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: " أبشروا معشر المسلمين، هذا جبل الفتح قد أعاده الله للمسلمين وجبر صدعهم وعاد الفتح الأول كيف كان". فارتفعت الأصوات بالحمد والشكر وجرت العبارات، عبرات السرور. ثم قال للشيخ الفقيه الصالح العالم الولي المجاب أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي، وكان من أولياء الله الصادقين... " يا فقيه أبا محمد، ادع الله لنؤمن على دعائك لمن فتحه الله على يديه"، فارتفعت الأصوات بالدعاء، وانطلقت الألسنة بالثناء". **المسند**، ٣٩٠-٣٩١

(٦٨) **المسند**، ٣١٤

(٦٩) نفسه، ٢٠٢

(٧٠) القبلي، ١٣٦؛ ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج١، تحقيق د. عبد الحميد حاجيات، الجزائر، ١٩٨٠؛ ج ٢، نشره ألفريد بل، مطبعة فونطانة، الجزائر، ١٩١٠، ٢٣٤ لما استولى أبو الحسن على تلمسان "استخدم قبيل بني عبد الواد، فلم شعثهم، وحفظ عليهم رتبتهم، وأبقى لشعوبهم وقبائلهم المراسم التي ألفوها بأيامهم، **تفاخرا بملك القبيلتين وتشرفا بإمرة زناتة أجمعين"**

(٧١) تم إدماج أميرين تلمسانيين وهما: أبو سعيد والأمير أبو ثابت، حفيدي يغمراسن (**بغية الرواد**، ٢٣٤ -٢٣٥)

(٧٢) نجد أن بعض الولاة الزيانيين عُينوا على رأس ولايات صعبة الحكم بالمغرب الأقصى، مثل السوس وغمارة، كما نجد أن بعض الزناتيين غير المرينيين أصبحوا من بين حاشية السلطان أبي الحسن. (**المسند**، ١٨٤)

(٧٣) العرض المفصل حول هذه الحملة هو الذي نجده في **العبر** ٧/٥٧٥-٥٩٨، وينقله الناصري في **الاستقصا**، ٣/ ١٦٢-١٧٤

(٧٤) برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٨٨، **تاريخ إفريقية الحفصية**، م. س. ١/ ١٩٨-١٩٩؛ شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ٢/ ٢٣٢

(75) Kably, *Société*...op. cit. p. 142-144

(٧٦) برونشفيك، **تاريخ إفريقية الحفصية**، ١/٢٠٧-٢٠٩

(٧٧) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ٢/ ١٩٣؛ - العامري، دة. نللي سلامة، **الولاية والمجتمع**:مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي، تونس، ٢٠٠١، ص ٥٧-٥٨

(78)١٣٠ - Kably, *Société*, op. cit,

(79) Idem.

(80) M. J. Viguera, « *Le Maghreb mérinide*... », op. cit. p. 310-311

(٨١) المنوني، **ورقات**،م. س. ١٩

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

مقالات

الإنتاج الزراعي في المغرب الأوسط
من خلال كتاب المعيار للونشريسي

عبد الغني حروز

أستاذ مساعد – قسم التاريخ
جامعة المسيلة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

كان سكان المغرب الأوسط في فترة العصر الوسيط يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على الفلاحة، التي ارتبطت بالأرض والماء والتقنيات والمجهود البشري، وتختلف التقنيات المتبعة من منطقة إلى أخرى، وربما داخل المنطقة الواحدة، لأن المهارات أيضًا تختلف كما هو الشأن أيضًا في طبيعة الأرض وعطائها ودرجة غنى تربتها وقابلية مناخها لهذا النوع الزراعي أو ذاك. وقد دخل الفقه الإسلامي بكل ثقله من أجل حل المشكلات الزراعية والاروائية التي تكاد لا تنتهي في بلاد المغرب الإسلامي، وعمل هذا الفقه على تناول كل المسائل الطارئة والمتعلقة بالأرض والحرث والعمال ورب الأرض، ومن بينها الإنتاج الزراعي في المغرب الأوسط، وقد حمل كتاب «المعيـار» الكثير من هذه المسائل، ومن ثَمَّ فإن المعلومات التي تنقلها النوازل والإجابات التي قدمها الفقهاء في هذا الكتاب تسمح بالتعرف على الكثير من مظاهر النشاط الفلاحي. ومما لا شك فيه؛ أن وضعية الأرض، وطبيعة التنظيمات الفقهية التي تؤطرها، له تأثير على النشاطات الفلاحية، كما أن طريقة توزيع الملكية للعقار الفلاحي له كذلك انعكاس لا محال على توزيع إنتاج هذا النشاط والثروة العائدة من خلاله. لقد اتسمت الفلاحة في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، بنوع من الازدهار، وهذا ما يشير إليـه معظم الجغرافيين من خلال وصفهم للحالـة الزراعيـة في المنطقـة، ومما عزز هذه الحقيقـة هو حصول نوع من الاكتفاء الذاتي في المنتجات الزراعيـة، بل كان يوجه الفائض في غالب الأحيان إلى التصدير نحو كل من الأندلس وبلاد السودان وغيرها من المناطق، إلا أن هذه الحالة لم تحض بالاستمرارية في المرحلة محل الدراسة نظراً لحدوث حالات كان الإنتاج الفلاحي يعرف فيها تقلصًا لأسباب بشرية وطبيعية مختلفة، إضافة إلى الأزمات السياسية، ومع ذلك ظل النشاط الفلاحي محل اهتمام سكان المغرب الأوسط.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ أكتوبر ٢٠١٣
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ ديسمبر ٢٠١٣

كلمات مفتاحية:

المذهب الشيعي، الدولة العبيدية، المغرب الإسلامي، كتامة، البربرية، الزيريين

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الغني حروز. "الإنتاج الزراعي في المغرب الأوسط من خلال كتاب المعيار للونشريسي".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١٢٦ – ١٣١.

مُقَدِّمَةْ

كان سكان المغرب الأوسط[١] في فترة العصر الوسيط يعتمدون اعتمادا كبيرا على الفلاحة، التي ارتبطت بالأرض والماء والتقنيات والمجهود البشري، وتختلف التقنيات المتبعة من منطقة إلى أخرى، وربما داخل المنطقة الواحدة، لأن المهارات أيضا تختلف كما هو الشأن أيضًا في طبيعة الأرض وعطائها ودرجة غنى تربتها وقابلية مناخها لهذا النوع الزراعي أو ذاك.

وقد دخل الفقه الإسلامي بكل ثقله من أجل حل المشكلات الزراعية و الاروائية التي تكاد لا تنتهي في بلاد المغرب الإسلامي، وعمل هذا الفقه على تناول كل المسائل الطارئة والمتعلقة بالأرض والحرث والعمال ورب الأرض،[٢] ومن بينها الإنتاج الزراعي في المغرب الأوسط، وقد حمل كتاب المعيار المعرب خاصة منه الجزء

الخامس كاملاً وقسم من الجزء السادس الذي تناول نوازل المعاوضات والبيوع والكثير من هذه المسائل، ومن ثَمَّ فإن المعلومات التي تنقلها النوازل والإجابات التي قدمها الفقهاء في هذا الكتاب تسمح بالتعرف على الكثير من مظاهر النشاط الفلاحي خاصةً فيما يتعلق بالمنتجات الزراعية.

ومما لا شك فيه؛ أن التنوع الطبيعي والإقليمي الذي يتمتع به المغرب الأوسط، انعكس إيجابًا على مردوده الفلاحي النباتي منه والحيواني على مر العصور التاريخية، وهذا ما أظهرته معظم أسواقه التي عرفت رواج أنواع مختلفة مما جادت به أراضيه من فواكه وخضر، أو مما جادت به فصائله الحيوانية الممتازة كمًا ونوعًا. وقبل الحديث عن الإنتاج الزراعي في المغرب الأوسط رأينا أن نورد أهم مناطق الإنتاج به وهي:

أولاً: أهم المدن الزراعية في المغرب الأوسط

١/١- تاهرت:(٣)

كانت تنتشر في ربوع تاهرت العديد من البساتين، واشتهرت بفواكهها الجيدة، وكان السفرجل بها يشهد له بالحسن طعمًا ورائحة، ومنتوجها ينافس منتوجات المناطق الأخرى.(٤) وكان في مدينة تاهرت ناس وجمل من البرابر لهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة وبأرضها مزارع وضياع جمة، وبها من نتاج البراذين والخيل كل شيء حسن، وبها البقر والغنم كثير جدًا، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة، وبها مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر الديار، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبًا من الفواكه الحسنة.(٥)

٢/١- القلعة:(٦)

تعتبر الفلاحة من العوامل التي ساعدت على الاستقرار في القلعة، التي تعتبر عامل جذب، حيث كانت القلعة وأحوازها مزدهرة فلاحيًا(٧) مثلاً في زراعة الحنطة والأشجار المثمرة والشعير إضافةً إلى تربية الحيوانات،(٨) دون أن ننسى القمح الذي كان يحفظ لسنة أو سنتين دون أن يفسد، بسبب كثرة غلتها منه وهذا حسب ما قاله الإدريسي: "... كانت بكثرة غلتها تكفي لسنة أو سنتين دون أن تفسد".(٩)

وكان الحماديون يقومون بطمر المحصول الزائد عن حاجتهم من القمح و هذا ما تؤكده الحفريات التي عثر عليها لوسيان قولفين(١٠) في قلعة بني حماد، وهي عبارة عن مطامير كثيرة محفورة في صحن دار قريبة من قصر السلام(١١) كما أنها كانت تنتج العديد من الفواكه والخضروات مثل الكروم والزيتون والبقوليات، إضافةً نبات الفوليون الحراني الذي يشربه أهل المنطقة ليتحصنوا به من ضرر العقارب.(١٢) كما أنها كانت مشتهرة بتربية الغنم والبقر والإبل والنحل وحتى البغال.

٣/١- بجاية:(١٣)

وصف الشريف الإدريسي المدينة: «وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلكين وهي التي تنسب دولة بني حماد إليها والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم والحنطة تختزن وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الإنسان بالثمن اليسير ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف إليها تصلح فيها السوائم والدواب لأنها بلاد زرع وخصب وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت فأهلها أبد الدهر شباع».(١٤)

٤/١- تلمسان:(١٥)

اشتهرت مدينة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية التي ظلت محل إشادة بعض الجغرافيين الذين وصفوا تنوعها الطبيعي، وذكروا بعض ما اشتهرت به من منتجات فلاحية، فالبكري (ت.٤٨٧هـ/١٠٩٤م) يصفها بأنها «محاطة بأشجار الجوز» ، وإلى هذا أشار صاحب «الاستبصار» الذي عاش في القرن السادس الهجري بأنها «كثيرة الخصب والثمار، والجوز بها كثير»، وهذا تأكيد على أن إنتاج الجوز بها كان وفيرًا، وظلت البلاد محافظة على هذا المستوى الإنتاجي إلى غاية عصر الدولة الزيانية، وهو ما أكد عليه القلقشندي حين ذكر أن بها «شجر الجوز على كثرة». وقد رتبها «الإدريسي» من حيث الأهمية الاقتصادية والاجتماعية كثالث مدينة في كل من بلاد المغرب بعد مدينتي أغمات وفاس، فذكر أن غلاتها ومزارعها كثيرة، وفواكهها جمة، وخيراتها شاملة، ولحومها شحمية سمينة.

وذكر «يحي ابن خلدون» أن تلمسان كانت «تحفها الخمائل والألفاف، والحدائق الغلب بما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من الفواكه والرمان، والتين، والزيتون»، وعن الأرض التي تتوسطها تلمسان يضيف قائلاً أنها: "مُنْجِبَة للحيوان والنبات، كريمة الفلح زاكية الإصابة، فربما انتهت في الزوج الواحد بملاءة منها إلى أربعمائة مد كبير... من البر، سوى الشعير والبقلاءس"، ومن خلال إشارة «عبد الرحمان ابن خلدون» إلى معظم المنتوجات الفلاحية التي نالها الغلاء، من جراء الحصار الذي فرضه السلطان المريني يوسف بن يعقوب (٦٨٥-٧٠٦هـ/١٢٨٦-١٣٠٦م)(١٦) على تلمسان والتي أظهر سكانها أثناء هذه المحنة بسالة وشجاعة وصبر، يمكن أن نستشف أن سهول هذه المدينة كانت تزرع فيها شتى أنواع الخضراوات والفواكه، وكانت هذه الأخيرة تمون أسواقها المحلية، وجملة الخضروات والفواكه التي أشار إليها هي كالتالي: الفول، الكرنب، الخس، اللفت، القثاء، الفقوس، الخيار، البطيخ، التين، الإجاص.(١٧)

٥/١- وهران:

كانت مدينة وهران معروفة بغناها الفلاحي عند الجغرافيين القدامى، فابن حوقل ذكر: «أن غلتها من القمح والشعير، وبها جميع الفواكه»، وأشار البكري أن «مياهها سايحة وبها بساتين»، وذكر الإدريسي كذلك أن «بها فواكه ممكنة... والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير».

٦/١- مستغانم:[١٨]

كما عرفت بادية «مستغانم» على عهد البكري بزراعة القطن، وقد ساهمت وفرة المياه وخصوبة التربة بها على وفرة هذا المحصول. وظل الشريط الساحلي وحوض «شلف» أخصب جهات هذه البلاد، كما سجل ذلك الإدريسي في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وقد لفت نظره كثرة المزارع وامتدادها إلى جانب تعدد المراكز الحضرية، وقال عن ميناء "تنس" إن به حطًا وإقلاعًا وأنه منطقة فواكه، وكانت «تنس» المدينة واقعة على منطقة خصبة معروفة بوفرة الإنتاج الفلاحي بها، وظلت على عهد الدولة الزيانية من المدن الهامة اقتصادياً، وكان إنتاجها يغذي سوقها الداخلي على الدوام بما جادت به أراضيها .[١٩]

٧/١- طبنة:[٢٠]

يذكر الإدريسي: كانت طبنة كثيرة البساتين والحنطة والشعير وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة.[٢١] وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع، والقطن، والحنطة، والشعير، وعليها سور تراب، وبها أخلاط من الناس، وبها صنائع وتجارات، ولأهلها تصرف في ضروب من التجارات، والتمر وسائر الفواكه بها كثير.[٢٢]

٨/١- المسيلة:[٢٣]

يذكر ابن حوقل مسيلة فيشير إلى أن من غلات أهلها الحنطة والشعير.

ثانيًا: نماذج من المحاصيل الزراعية في المغرب الأوسط

ومما تجدر ملاحظته؛ أن ما ذُكر سابقًا هو إشارات عابرة تدل على وفرة الخيرات في بلاد المغرب الأوسط، وهذه المدن التي ذكرناها هي صورة واضحة ودالة عن غيرها من القرى والمدن الأخرى التي لم نذكرها، وقد كانت بساتين ومزارع هذه المدن تحتوي على المحاصيل محاصيل ومنتجات وردت في كتاب المعيار للونشريسي في شكل نوازل أشارت لبعض منتجات بلاد المغرب عامةً والمغرب الأوسط على وجه الخصوص.

١/٢- القمح والشعير:

اشتهر المغرب الأوسط بزراعتهما ودليل ذلك ما ورد في المعيار فيما يتعلق بنازلة تحت عنوان: "معاوضة قمح بدنانير"[٢٤] التي فيها دلالة واضحة على وجود هذا المنتج رغم إهمال الرحالة ذكر ذلك، ولأن زراعتهما أمرًا مفروغًا منه بدافع ضرورة العيش، لذا نجد هذا المنتوج كان يزرع في مدن المغرب الأوسط فقد ذكر ابن حوقل بونة: "أن القمح بها والشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له"، وذكر الإدريسي أن أهل وهران: "غلاتهم من القمح والشعير"، وأفاد الإدريسي في الكشف عن حقول القمح والشعير فذكر أن بجاية لها بواد ومزارع الحنطة والشعير بها موجودان كثيران، وكان زراعة سكان جزائر بني مزغنة الحنطة والشعير وقد عبر عن وفرة القمح والشعير في مناطق السهول المرتفعة حين ذكر قسنطينة، وأن حنطتها تختزن في المطامير مائة عام. كما أن الحنطة تختزن في قلعة بني حماد "فيبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها التغيير.[٢٥]

٢/٢- البقول:

ذكر الونشريسي نازلة تخص البقول تحت عنوان: "حكم بيع اللفت والبصل في أحواضه"، وكانت الإجابة عليها الجواز،[٢٦] نستشف من النازلة وجود زراعة هذا الصنف من المنتجات وهذا ما يؤكد ذكر الإدريسي مسيلة وأشار إلى أن لأهلها بقولا وهذا دليل على أن هذه المزروعات كانت تعم أرجاء المغرب الأوسط خاصةً المعروفة منها: اللفت، والجزر، والفجل، والثوم، والبصل، والكرات، والكرنب، والقرنبيط، والسلق، والخس، وغيرها.

وهذا ما يؤكده ابن خلدون حين يذكر الفول، والكرنب، والخس، واللفت، والقثاء، والفقوس، وغيرها عند إشارته إلى حصار المرينيين لمدينة تلمسان و يبدوا أن الرحالة كانوا يكتفون عند ذكرها بذكر الجنان أو المزرعة أو البستان هروبًا من تعدادها.[٢٧] كما وردت إشارات عديدة تدل دلالة واضحة عن وجود زراعة الثمار بكل أصنافها من خلال العديد من نوازل منها: (بيع الثمار قبل بدو صلاحها)، [٢٨] (تعدي السلطان على الثمر المبيع هل يعد جائحة).[٢٩]

٣/٢- الجوز:

كان في جبل تلمسان شجر الجوز، وكانت مستغانم بها الجوز على كثرة، وكذلك سطيف بها الجوز الكثيرة، ومنها ما يحمل إلى سائر البلاد، ويصف الإدريسي جوزها بأنه: "بالغ الطيب حسن ويباع بها رخيصًا"، واشتهرت نقاوس بالجوز الذي كان على كثرته، كما كانت مدينة تبسة مشتهرة به ولاسيما الجوز فإن المثل يضرب بجلالته هناك ويكبره بطيبه، كما توجد إشارات إلى وجود الجوز في بجاية وجيجل.

٤/٢- الرمان:

كان الرمان من منتوجات المشتهرة في المغرب الأوسط، فكانت مدينة تلمسان تشتهر برمانها.

٥/٢- المشمش:

اشتهرت مدينة مستغانم بزراعته فمشمشها يقارب في الحسن مشمش دمشق.

٦/٢- السفرجل:

اشتهر المغرب الأوسط بإنتاج السفرجل ذو الجودة العالية وأشاد بذلك الكثير من الرحالة في مدينة تنس بها من السفرجل المعتق ملا أزال أحكيه لحسنه ونعومته وحلاوته وطيب رائحته، وكذلك سفرجل المسيلة المعنق الذي يحمل إلى القيروان وأصله من تنس، ومثلها كانت مدينة شرشال التي كان فيها سفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وهو من الطرائف غريب في ذاته.[٣٠]

٧/٢- التفاح:

عرفت بلاد المغرب الأوسط زراعة التفاح، فاشتهرت جيجل بإنتاجه منه.

٨/٢-حب الملوك:

اشتهرت مدينة قسنطينة بإنتاجه، وقد ذكره ابن حوقل حين أشار إلى أن بها جميع الفواكه كاللوز والجرز والكروم، ويطلق الجرز في المشرق على هذه الفاكهة.

٩/٢- الزيتون:

أشار الونشريسي للزيتون في نازلتين الأولى جاءت تحت عنوان: (من اشترى زيتونة ليقطع أعودها فتواني في القطع حتى أثمر الثمر)، والثانية (الاستيجار على جمع الزيتون بجزء منه)،[٣١] وهذا دلالة علة توفر هذا المنتج في المغرب الأوسط. كما وردت إشارات إلى وجود الزيت في تاهرت فذكر أن الإمام عبد الرحمن بن رستم اشترى زيتًا ووزعه على الفقراء، وهذه دلالة واضحة على انتشار زراعة الزيتون بها، و كذلك الأمر في تلمسان في جبل مديونة (وادي الزيتون)، وكانت مدينة مقرة زيتها أطيب الزيوت، وكانت مدينة بسكرة كثيرة النخيل والزيتون، وتركز الإنتاج الأهم منه في جبال كتامة التي اشتهرت بزراعته.[٣٢]

١٠/٢- التمر:

اهتم سكان المغرب الأوسط بزراعة النخيل وجني تمره، وتعتبر مدينة بسكرة من أشهر مواطنه فهي تعرف ببلدان النخيل وأن أكثر ثمارها التمر. وكانت مدينة ورجلان- ورقلة- كذلك مدينة نخيل، فقد ملأ أبو صالح جنون بيت الشيخ أبي نوح عند فراره من المعز الفاطمي إلى السقف تمرًا. كما اشتهرت مدينة طبنة بزراعة النخيل.

١١/٢- العنب:

برزت زراعة الكروم في بلاد المغرب الأوسط بشكل جلي واهتم سكانها بها فكانت واسعة الانتشار، ففي بني واريفن كروم كثيرة ومعظمها مطل على واد الشلف، وتمتد حتى مدينة شرشال وقلعة هوارة، كما اشتهرت تلمسان فالدائر بالبلد كله مغروس بالكروم وأنواع الأشجار، وكانت جيجل مدينة كثيرة العنب في الغدير وجبل زلدوي.[٣٣]

١٢/٢- القطن:

انتقلت زراعته إلى بلاد المغرب عن طريق المشرق، وقد اشتهرت مدينتي طبنة والمسيلة بمزارع القطن، فكان أهل المسيلة معروفون بجود القطن عندهم، وكذلك مستغانم يبذر في أرضها القطن فيجود.

١٣/٢- الكتان:

كانت زراعته واسعة في بلاد المغرب الأوسط، فمدينة بونة كان يزرع بها الكتان، كما أن أهل طبنة يزرعونه، وكانت منطقة متيجة أكثر النواحي كتانا ومناه يحمل إلى مناطق أخرى، وقد ورد أن مدينة مقرة مشتهرة بزراعته فأهلها يزرعون الكتان وهو عندهم كثير.

١٤/٢- السمسم:

تركزت زراعته على وادي الشلف، وهذا دليل على إمكانية زراعته في مناطق أخرى من بلاد المغرب الأوسط.[٣٤]

خاتمة

من خلال ما سبق نستنتج:

- كانت بلاد المغرب الأوسط مزدهرة في المجال الزراعي، فانتشرت البساتين والمزارع، وظهر هذا من خلال كتب النوازل ومن خلال إشارات الرحالة المسلمين، دلالة على وفرة الإنتاج به، وهذا ما يؤكده ابن أبي زرع بقوله في سنة ٣٨٠هـ: "كان الزرع لا يوجد مَنْ يشتريه لكثرته، وكان الحراثون يتركونه..... ولا يحصدونه".
- تضافرت عدة عوامل في التنوع الطبيعي والإقليمي الذي يتمتع به المغرب الأوسط، والذي انعكس إيجابًا على مردوده الفلاحي النباتي منه والحيواني على مر العصور التاريخية.
- برزت عدة مدن زراعية في المغرب الأوسط كتاهرت وبجاية والقلعة وغيرهم، والتي كان لها الدور الكبير في رواج الإنتاج الزراعي فكانت بمثابة الوسيط بين مختف مدن المغرب الأوسط وبقية مدن المغرب الإسلامي.
- تشكل النوازل المتعلقة بالفلاحة في كتاب المعيار مصدرًا مهما يمكِّن الباحث من تحديد الإنتاج الزراعي، وخصوصًا ما يتعلق بعلاقات الإنتاج، وتمكنه من الوقوف على الجانب الاقتصادي لهذه النوازل، الذي يمكننا في الوقوف على أسلوب توسيع قاعدة الاستثمار والإنتاج، وتنمية رأس المال الذي اتبعته المجتمعات الإسلامية في المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة.

الهَوامِشُ:

(١) **المغرب الأوسط**: أول مَنْ استعمل مصطلح المغرب الأوسط هو الجغرافي الأندلسي الشهير المعروف باسم البكري (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، وذلك في توضيحه لحدود فضاء المغرب الواسع الممتدة من برقة إلى طنجة، ثم قسمه إلى ثلاث مناطق هي: افريقية وقاعدتها القيروان، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان، والمغرب الأقصى الذي يمتد من غرب تلمسان إلى البحر المحيط. أما عبد الرحمن بن خلدون فيؤكد على أن قاعدة المغرب الأوسط هي تلمسان، ثم يعدد لنل بعض مدنه الساحلية كهنين والجزائر وبجاية وبونة آخرها، ومن مدن الجنوب أشير والمسيلة والزاب وقاعدته بسكرة، وجبل أوراس وبسكرة فهو لم يستند في تحديده للمجال الجغرافي للمغرب الأوسط على الحالة السياسية، التي كان يعيشها المغرب الإسلامي فترة القرن الثامن هجري، بل اعتمد على تجمعات القبائل البربرية داخل هذا الكيان الجغرافي. للمزيد انظر: مزدور سمية: **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (٥٨٨هـ - ٩٢٧هـ /١١٩٢م / ١٥٢٠م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والآثار جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩م، ص٢٥، ٢٩.

(٢) بلبشير عمر: **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغرب الأوسط والأقصى من القرن (٦ - ٩هـ/ ١٢- ١٥م) من خلال كتاب المعيار للونشريسي**، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار وهران، ٢٠١٠- ٢٠١١م، ص١٥٥، ١٧٧.

(٣) **تيهرت**: مدينة كبيرة من مدن المغرب الأوسط، كانت عاصمة بني رستم تأسست سنة (١٦٠هـ/٧٧٦م)، كانت فيما سلف مدينتين كبيرتين، إحداهما قديمة والأخرى محدثة، فالقديمة منها ذات سور على قمة جبل ليس بالعالي، وبها خيرات المزارع والمياه المتدفقة، وهي في سفح الجبل يدعى جزول ولها ثلاثة أبواب باب الصفا وباب المنازل وباب المطاحن، وتتميز بقساوة المناخ، وتيهرت الحديثة في قبلها لواتة وهوارة وغربها زواغة ومطماطة وزناتة ومكناسة وفي شرقها حصن هو تاهرت القديمة: **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢٨.

(٤) بلبشير عمر: المرجع السابق، ص١٨٠، ١٨١.

(٥) محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ، ط٢، مطبعة هيدلبرغ بيروت، ١٩٨٤، ص١٢٦.

(٦) **القلعة**: بنيت قلعة بني حماد أو قلعة أبي الطويل كما يسميها البكري في سنة (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) على منحدر وعر، على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على مسافة (٣٦) كلم من المسيلة- حاليًا تقع قلعة بني حماد شمال شرق مدينة المسيلة. وهي مدينة اختطها حماد بن بلكين (ت.٤١٩هـ/١٠٢٨م)، لقول عبد الوهاب النويري (ت. ٧٣٢ هـ/١٣٣١م): "وهي على جبل عجيسة البرنسية"، وهو جبل عظيم من جبال كيانة. في حين أطلق عبد الرحمن بن خلدون (ت.٨٠٨هـ/١٤٠٥م) على الجبل الذي اختطت فيه مدينة القلعة (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) اسم كتامة. غير أن هذا الاسم هو اسم لقبيلة والأصح هو كيانة وهذا ما تؤكده فيما بعد المصادر الجغرافية والتاريخية الأخرى ويحيط بقلعة بني حماد من ناحية الشمال قمة تاقربوست الحصينة، التي ذكرها ياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في وصفه لموقع القلعة: "قلعة حماد مدينة متوسطة بين أكم وأقران، ولها قلعة عظيمة على قمة جبل تسمى تاقربوست... "أما من ناحية الشرق فهي تشرف على وادي فرج، ويحضنها من الناحية الغربية جبل الغورين. وتطل من ناحية الجنوب على شط الحضنة وسهوله الفسيحة لقول أبو عبد الله الشريف الإدريسي (٥٨٧هـ/١١٥٢م): "... وأمامها في جهة الجنوب أرض سهلة متصلة بالانفراج، لا يرى الناظر فيها جبلاً عاليًا ولا شرفًا مطلاً، إلا على بعد منها، وعلى مسيرة أربع مراحل يرى جبالاً لا تبين". انظر: عبد الغني حروز: **الحياة العلمية في قلعة بني حماد (٤٠٨-٤٦١هـ/١٠١٧-١٠٧٠م)** مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر، ٢٠١٠ /٢٠١١م، ص ٢٢.

(٧) الإدريسي: "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣م. ص١١٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٠٩، ١١٧.

(9) Rchid Bouriuiba: Cites disparues, Tahart, Sedrata, Achir kal'a des Bani hamad, Arts et culture ministre de l'information, Alger, 1982, P.110.

(١٠)**لوسيان قولفين**: أستاذ باحث في الآثار الإسلامية في جامعة الجزائر، كان قد أجرى حفريات في سنوات ١٩٥١،١٩٥٢،١٩٥٦ وأخيرًا من سنة ١٩٦٠-١٩٦٢م قام بحفريات بقصر السلام وقصر المنار ونشر كتابين عن القلعة بني حماد، الأول تناول فيه المغرب الأوسط في عهد الزيريين صدر سنة ١٩٥٧م، والثاني قدم "أبحاث أثرية بقلعة بني حماد" صدر سنة ١٩٦٥م؛ أنيسة بركات: **محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٥، ص٢٨١، ٢٨٢.

(١١)رشيد بورويبة: **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٧٧م. ص١٣٠.

(١٢)المرجع نفسه: ص١٣٥.

(١٣)**بجاية**: تقع على ساحل البحر المتوسط، وهي من أهم مدن المغرب الأوسط يقول الإدريسي: "مدينة بجاية في وقتنا هذا هي مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد"، وكانت عاصمة لدولة بني حماد الصنهاجية، واشتهرت بنشاطها الاقتصادي، فيذكر الإدريسي أن أهلها مياسير تجار وبها الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد كما أن لها بوادي ومزارع تتوفر فيها المحاصيل الزراعية والفاكهة؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص ٩٦ ؛ كمال السيد أبو مصطفى: **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، ١٩٩٩، ص٢٥.

(١٤)الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص٢٦١.

(١٥)**تلمسان**: بكسرتين فسكون مركبة من تلم بمعنى تجمع وسان بمعنى اثنين أي تجمع بين التل والصحراء وهي في سفح جبل بني ورنيد المار جنوبًا، ويسمى قابلتها بالصخرتين، وينحدر منه نهر سطفسيف المار بشرقها ليلتقي بنهر يسر ثم بنهر تافنا، وينحدر منه ساقية النصراني وتلمسان مدينتان أحدهما قديمة تعرف بالأقادير أسسها بنو يفرن وهم أوسع بطون زناتة قبل الإسلام، والثانية أجادير كما سميت تاقرارت باسم معسكر في العهد الإدريسي، وقد تأسست مدينة تاجررات تلمسان الجديدة من قبل يوسف بن تاشفين سنة (٤٧٣هـ/١٠٨١م)، وعرفت الحركة الفكرية بها نشاطًا في عهد المرابطين، فأصبحت تلمسان مقرًا لولايتهم في المغرب الأوسط إذ شيدوا القصر وجعلوه مقرًا للتواصي وبنو المسجد الأعظم أو الجامع الكبير سنة (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م)، وأصبحت تلمسان حاضرة من حواضر المغرب الإسلامي. وعقب استيلاء عبد المؤمن بن علي على تلمسان (٥٣٤هـ/١١٣٩م)، تزايد التوسع العمراني بها موازاة مع تزايد النشاط التجاري من جهة وانتشار التعريب والثقافة الإسلامية من جهة أخرى، وحظيت تلمسان من جديد بعناية الموحدين لها حيث ابقوا عليها كمقر لولايتهم ومركز إشعاع، وأعطاها عبد المؤمن الأولوية كمركز ثقافي نظرًا لما آلت إليه المدينة من تطور وربما لكونها قريبة من مسقط رأسه بتاجرا. ومن الأعمال التي قام بها عبد المؤمن بن علي في مدينة تلمسان، تجديد المسجد الجامع وبناء قصر المشور سنة ٥٤٠هـ وعقد مجالس العلم ونشر التعليم الإجباري، فأصبحت تلمسان من حصون الموحدين الهامة لنشر دعوتهم في المغرب الأوسط. انظر: مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج٢، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ٤٤٤-٤٤٥. عبد الحميد حاجيات، "**تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط**".

مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول، ١٩٩٣، ص٣٧. ١٨٣. علي محمد محمد الصلابي، **صفحات مشرفة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي الجوهر الثمين في معرفة دولة المرابطين**، ط١، ج٤، مكتبة الإيمان بالمنصورة، أمام الجامع الأزهر، ص ٣١٢.

(١٦) بلبشير عمر: المرجع السابق، ص ١٧٧، ١٧٨.

(١٧) المرجع نفسه، ص١٧٩.

(١٨) مستغانم: هي بقرب واد الشلف على البحر، مدينة مسورة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء، ويبذر في أرضها القطن فيجرد، انظر في التعريف بها: الإدريسي، المصدر نفسه:ج١/ ص٢٧١- انظر كذلك: بن عيسى عبد القادر المستغانمي: **مستغانم وأحوازها عبر العصور: تاريخيًا وثقافيًا وفنيًا**، المطبعة العلوية بمستغانم، الجزائر، ط١-١٩٩٦م.

(١٩) بلبشير عمر: المرجع السابق، ص١٨٠.

(٢٠) **طبنة:** أعظم بلاد الزاب، بينها وبين المسيلة مرحلتان، وهي مدينة كبيرة، ولها حصن قديم عليه سور من حجر جليل ضخم متقن البناء من عمل الأول، ولها أرباض واسعة، وهي مما افتتح موسى بن نصير حين دخل بلاد إفريقية فبلغ سبها عشرين ألف رأس، وتشق طبنة جداول الماء العذب، ولها بساتين كثيرة فيها النخل والثمار، ولها نهر يشق غابتها، وقد بني له صهريج كبير يقع فيه وتسقى منه جميع بساتينها وأرضها، ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها. ومنها أبو مروان عبد الملك بن زيادة اللّه الطبني، كانت له رحلتان إلى المشرق، وأخذ العلم عن جماعة من أهل مكة ومصر والقيروان، وأخذ بالأندلس عن جماعة منهم القنازعي، الحميري: المصدر السابق، ص٣٨٧.

(٢١) جودت عبد الكريم يوسف: **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين ٣-٤هـ /٩-١٠م**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢، ص٣٩.

(٢٢) الحميري: المصدر السابق، ص٣٨٧.

(٢٣) **المسيلة:** هي من مدن المغرب الأوسط يرجع تأسيسها إلى أوائل القرن العاشر ميلادي، وبالضبط (٣١٥هـ/٩٢٧م)، للمزيد انظر: **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط**، المرجع السابق، ص ٧٤،٧٥ / أحمد أبو عبد الرزاق: **الأدب في عصر دولة بني حماد**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩م، ص٦٦.

(٢٤) أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، الجزء٥، إشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية الرباط ودار الغرب الإسلامي بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٨٩.

(٢٥) جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص ٣٩ – ٤٠.

(٢٦) الونشريسي: المصدر السابق، ج٥، ص ٩٠.

(٢٧) جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢٨) الونشريسي: المصدر السابق، ج٥، ص، ٢٥، ٢٣٤.

(٢٩) المصدر نفسه، ص، ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣٠) جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص، ٤٣ – ٤٥.

(٣١) الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص، ٢٧٩، ٣٢٥.

(٣٢) جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص٤٦ – ٤٧.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٥٣، ٥٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

واقع التعليم في المغرب الأوسط من خلال نوازل الونشريسي

قاسمي بختاوي

أستاذ التاريخ الوسيط
جامعة حسيبة بن بوعلي
الشلف – الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

يُعَدّ أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي أحد أقطاب الفقه المالكي. انتفعت به الأمة الإسلامية حيًا من خلال دروسه وفتاويه، وميتًا بما خلفه وراءه من علماء ومؤلفات، خاصةً المتعلقة منها بالنوازل الفقهية مثل المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. لقد أشار الونشريسي في معياره إلى نوازل كثيرة مست مختلف الميادين. ففي المجال الثقافي، أماط اللثام عن الأحوال التي كان عليها التعليم في المغرب الأوسط على عهده، مشيرًا إلى تنوع المؤسسات التعليمية من كتاتيب ومساجد ومدارس وزوايا، وبين واجبات المعلمين، وظروف تمدرس الصبيان. كما أكد صاحب المعيار على وجود المناظرات العلمية، وبروز أسر علمية كأسرة العقباني وأسرة ابن مرزوق اللتان أنجبتا علماء أجلاء ذاع صيتهم مشرقًا ومغربًا في مختلف الأرجاء. وقد نوه بالمجهودات التي بذلها السلاطين والحكام من بني مرين وبني زيان تشجيعًا للحركة العلمية في تلمسان، باستقطابهم للعلماء وتفننهم في العمران، ولم يخف الونشريسي تردي أوضاع التعليم في دولة بني عبد الواد في أواخر عهد آل زيان، مبررًا ذلك بإسناد هذه المهمة النبيلة إلى الجهلة من بني الإنسان.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ١٤ يناير ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ أبريل ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

المغرب الإسلامي، الشريف التلمساني، سعيد العقباني، أسرة المرازقة، المناظرات العلمية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

قاسمي بختاوي. "واقع التعليم في المغرب الأوسط من خلال نوازل الونشريسي".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١٣٢ – ١٣٦.

مُقَدِّمَةُ

تشكل النوازل الفقهية مصدرًا هامًا لكتابة التاريخ، ذلك أن الفقهاء أفتوا في كثير من المسائل التي كانت تعترض حياة الناس. ومن النصوص الهامة التي اعتمد عليها كثيرًا في تدوين تاريخ المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة في العصر الوسيط، كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد الونشريسي.[١] وتكمن أهمية النوازل في ارتباطها بالكثير من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. لقد سلط الونشريسي الضوء على نشاط التعليم في المغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطة، خاصةً في الجزأين السابع والثامن من كتاب المعيار، حيث أورد فيه الكثير من النوازل، التي من خلالها كشف النقاب عن واقع الحياة التعليمية في المغرب الأوسط.

يُعَدّ التعليم عاملاً أساسيًا لتطوير وازدهار الحركة الفكرية، وترقية المجتمعات سلوكيًا وحضاريًا، فقد كان ظهوره ضيقًا عند الجماعات الأولى من البشر، حيث كان الإنسان الأول يتعلم من مظاهر الطبيعة وأحوال الحيوان.[٢] وظل بسيطًا إلى أن ظهرت الديانات السماوية التي انتشلت الناس من حضيض الهمجية إلى سمو الأخلاق؛ حيث كان ظهوره عند العرب قبل ظهور الإسلام، واقتصر على تلقين الأبناء ما يحتاجون إليه من معارف، كالتدريب على الفصاحة وتعلم الأخلاق الفاضلة والفروسية والرماية وبعض العلوم كالتنجيم والكهانة والطب.[٣]

لقد انفرد الدين الإسلامي الذي سلم من ما لحق بالديانات الأخرى من تحريف وتزييف، بالدعوة إلى طلب العلم والتنويه بفضل أهله، حيث قال تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ".[٤] وقال عز وجل: "هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ"[٥]. لقد حرص الرسول(ﷺ) على تعليم أصحابه أمور دينهم ودنياهم، واستمر الخلفاء الراشدون من بعده في تعليم أهل البلاد المفتوحة ومنها بلاد المغرب الإسلامي، الذي ما فتئ أن انقسم نتيجة الحركات الانفصالية في نهاية العهد العباسي إلى ثلاث أقسام منها: المغرب الأوسط، لم يشذ المغرب الأوسط عن غيره من الربوع الإسلامية الأخرى، حيث عرفت حواضره نشاطًا فكريًا ملحوظًا، بل وأصبحت منارات علمية بارزة تستقطب اهتمام العلماء وطلبة العلم على حد سواء من كل الأصقاع، فبم تميز التعليم في هذه المنطقة على عهد الونشريسي؟

١- مراكز التعليم في المغرب الأوسط في عصر الونشريسي

لم يقتصر التعليم في المغرب الأوسط على مكان واحد، وإنما كان يتم في دور مختلفة إما تبعًا لمراحل التعليم، أو حسب تاريخ ظهور المرافق التعليمية في المنطقة. وعلى العموم، كان هذا النشاط الفكري يتم في الكتاتيب والمساجد والزوايا والمدارس.

يُعَدّ الكُتّاب (بضم الكاف وتشديد التاء)، المؤسسة التعليمية الأولى التي يتوجه إليها الصبيان.[٦] وهو عبارة عن حجرة مجاورة للمسجد، بسيطة التأثيث، تجمع الشيخ المعلم بالغلمان المتعلمين. يعود ظهوره كمكان لحفظ القرآن وتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة إلى بداية ظهور الإسلام، حيث كان قبل تمصير الأمصار عبارة عن خيمة من خيم المعسكر، يصاحب الفاتحين في حلهم وترحالهم[٧]، ومن ثَمَّ كان ظهوره في المغرب الأوسط بعد منتصف القرن الأول الهجري تزامنًا مع انتشار الإسلام في المنطقة. ويقام الكتاب عادة بجوار المسجد، وهو في الغالب عبارة عن غرفة يستأجرها المعلمون لتعليم الصبيان، أو يتولى تشييدها ميسورو الحال من الأولياء، إدراكًا منهم لأهمية تعليم أبنائهم، وكثيرًا ما كان يتكفل ببنائها وتمويلها أهل الخير تطوعًا منهم واحتسابًا لوجه الله[٨].

يشير الونشريسي في نوازله أن التحاق الأطفال بالكُتّاب في المغربين الأوسط والأقصى حيث كان يعيش، يتم في سن الخامسة أو السادسة، وفيه يعكف الأطفال على تعلم القراءة والكتابة، ويشرعون في حفظ القرآن الكريم عن طريق التلاوة الجماعية[٩]. وجرت العادة أن يرسل الأولياء هدايا إلى المؤدبين عند ختم أبنائهم للقرآن الكريم، أو في المناسبات الدينية المختلفة كعاشوراء والمولد النبوي الشريف. وقد كانت الهدايا إما مبالغ مالية أو شموع تجمع ثم تباع[١٠]. وكان بعض الأثرياء يستأجرون معلمين لتعليم أبنائهم القرآن لقاء أجر متفق عليه بين الطرفين[١١]، على الرغم من أن التعليم عند المسلمين في البداية كان يؤدى احتسابًا لوجه الله دون مقابل مادي. لكن بتزايد الإقبال على العلم وتنوع مواضيعه، ظهرت فئة احترفت التعليم وتفرغت له؛ فأضحى من الضروري أن يتقاضى المعلم أجرة تؤمن له حاجياته المختلفة من مأكل وملبس ومأوى[١٢]. فقد سئل القاضي أبو عثمان سعيد العقباني[١٣] (ت.٨١١هـ/١٤٠٨م) عن أخذ الأجرة على تعليم العلم فأجاب: "كره مالك في المدونة الإجارة على تعليم العلم، وقيل بالإباحة... لئلا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء، فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم..."[١٤]. ورغم إجازة أجرة المعلمين، إلا أن بعضهم كان يتعفف ولا يأخذها؛ في حين اكتفى آخرون بأخذها من ميسوري الحال فقط.

يضيف الونشريسي أن المعلمين كانوا مطالبين بتصحيح الأخطاء الواردة في ألواح الصبيان، وتعليمهم حسن قراءة القرآن وتجويده؛ إضافة إلى أحكام الوضوء والصلاة. كما كانوا ينهون عن القسوة عليهم، إذ لم يكن يسمح لهم بمعاقبتهم مهما بدر منهم من سوء أدب أو هروب من الكتاب، إلا بعد استشارة أوليائهم[١٥]. وكان الصبيان يضربون على قدر طاقتهم وجرمهم، مع منع زجرهم بالسب القبيح[١٦]. فقد أجاز الفقهاء في الكتاب، معاقبة الصبي إذا قصر وأساء الآداب، على أن يتدرج المعلم في العقاب، فيبدأ بالإنذار والتوبيخ والعتاب، ثم التشهير، فالضرب الخفيف دون إلحاق الأذى بالأجساد، ولا تزيد العقوبة عن المعقول مهما كانت الأسباب، وكل ذلك بعد أخذ الإذن من الأولياء الأسياد. يقول الونشريسي عن صفات المعلم وطريقة عقابه للصبيان أن القابسي قال: "ينبغي أن يكون المعلم مهيبًا لا في عنف، لا يكون عبوسًا مغضبًا ولا مبسوطًا مرفقًا بالصبيان دون لين.... وصفة ضربه للصبيان ما لا يؤلم ولا يتعدى إلى التأثير المستبشع أو الموهن المضر، ... ولا يضربه على رأسه ووجهه. ... والضرب في ساق الرجلين آمن وأحمد للسلامة..."[١٧].

تزامن ظهور المسجد مع ظهور الكتاتيب في المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، بعد انتشار الإسلام بهذه الربوع. تشترك المؤسستان في وظيفة التعليم، لكن المسجد ينفرد بأنه مكان لأداء الشعائر الدينية وفي مقدمتها الصلاة. كما أنه يُعَدّ إحدى المؤسسات التي تتم فيها المرحلة الثانية من التعليم بعد المرحلة الأولى التي يقضيها الصبي في الكتاب، حيث ورد في إحدى النوازل أنه لا يجوز للصبيان التعلم في المساجد لأنهم لا يتحرزون من النجاسات[١٨]. وعلى عكس الكتاتيب التي يتولى المعلم التدريس فيها، كانت المساجد تعج بالفقهاء والعلماء، حيث كان الطلاب الذين يأتون من كل حدب وصوب، يتحلقون حول الشيوخ في المساجد لتلقي مختلف العلوم. لكن يبدو أن واقع التعليم بمساجد المغرب الأوسط أصبحت مزرية في أواخر العهد الزياني، حيث يعزي الونشريسي ذلك إلى انتصاب الجهال للفتوى والتدريس[١٩].

أما ظهور المدارس في المغرب الأوسط، فيعود إلى مطلع القرن الثامن الهجري، حيث يشير الونشريسي إلى انتشارها خصوصًا في الحواضر الكبرى. وكانت هذه المدارس توفر المأوى والإطعام للطلاب الغرباء، ولا يلتحق بها إلا من بلغ العشرين من العمر، وله نصيب من العلم يؤهله لحضور المجالس العلمية ومواصلة مشواره التعليمي؛ على أن يغادرها قسرًا إن لم تظهر نجابته بعد انقضاء عشر سنوات من الإقامة فيها، وذلك حفاظًا على أوقافها(٢٠). وقد أشار الونشريسي في نوازله إلى مدارس تلمسان ذات الأوقاف الواسعة، التي حبس ريعها على الطلاب، حيث حدد المحبس نصيب كل واحد من أهل المدرسة، من إمام وفقيه ومؤذن وخادم وطالب. ومن المدارس الوارد ذكرها في المعيار، المدرسة اليعقوبية(٢١) التي أسسها أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ/١٣٥٨-١٣٨٨م)، تكريما لوالده أبي يعقوب يوسف (ت.٧٦٣هـ)، حيث تولى التدريس بها أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني(٢٢). وقد لعبت هذه المدرسة دورًا بارزًا في تطوير الحياة العلمية في المغرب الأوسط، وأشاد كثير من المؤرخين بجمالها.

تُعَدّ الزوايا بدورها من المؤسسات التعليمية التي قامت في أرجاء العالم الإسلامي. كان ظهورها في المغرب الأوسط في الفترة نفسها التي انتشرت فيها المساجد والكتاتيب، وفضلاً عن كونها مكانا للزهد والعبادة والذكر، كانت مقصدًا لطلبة العلم. أما مواردها فتمثلت في الأوقاف التي يحبسها أصحابها، لتستعمل في تغطية نفقاتها المختلفة، كدفع أجور المؤذنين والمنظفين والخدم والمريدين والقيمين والطلبة.(٢٣) ومن الزوايا التي وجدت في المغرب الأوسط على عهد الونشريسي: زاوية أبي عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق، التي لعبت دورًا كبيرًا في نشر تعاليم الشيخ المتصوف أبي مدين شعيب،(٢٤) وزاوية الأمير أبي يعقوب، التي بناها السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني سنة ٧٦٥هـ بجوار المدرسة اليعقوبية، ونصب أبا عبد الله الشريف التلمساني مدرسًا بها،(٢٥) وزاوية العباد التي أنشئت بجوار مسجد ومدرسة أبي مدين شعيب، على عهد السلطان أبي الحسن المريني.(٢٦)

٢ – أشهر العلماء والأسر العلمية في المغرب الأوسط

أشار الونشريسي في الكثير من نوازله إلى العديد من الشخصيات العلمية التي اشتهرت في المغرب الأوسط، وذاع صيتها وتجاوز الآفاق. ومن أمثلة هؤلاء:

١/٢- الشريف التلمساني:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الشريف الإدريسي التلمساني، عرف بالعلوي نسبة إلى قرية العلوين من أعمال تلمسان. اختلف المؤرخون حول تاريخ ولادته، حيث ذكر أبو زكريا السراج (ت.٨٠٥هـ)، وأبو العباس المسيلي (ت.٨٣٠هـ) أنه من مواليد (٧١٦هـ/١٣١٦م)، في حين يرى عبد الرحمن بن خلدون وهو أحد تلامذته أن مولده كان سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م)، وهذا ما يؤكده الونشريسي بقوله: "... وأخبرني أن مولده سنة عشر"(٢٧). ويضيف صاحب العبر أنه كان فارس المنقول والمعقول، وصاحب الفروع والأصول(٢٨). نشأ في تلمسان وأخذ العلم عن شيوخها، حيث تفقه على ابني الإمام(٢٩) في الفقه والأصول والكلام. درس على الآبلي وتضلع في معارفه، فقرأ عليه كتاب الشفا لابن سينا، وتلاخيص أرسطو لابن رشد في الحساب والهندسة والفرائض، وشهد له شيخه بنجابته وتفوقه على أقرانه، حيث قال في شأنه: "هو أوفر مَنْ قرأ عليّ عقلاً، وأكثرهم تحصيلاً". وكان أبو عبد الله الآبلي، إذا أشكلت مسألة على طلبته، يقول لهم: "انتظروا أبا عبد الله الشريف"(٣٠). انتصب بعد ذلك للتدريس في المدرسة اليعقوبية في تلمسان، إلى أن وافاه أجله سنة إحدى وسبعين وسبعمائة للهجرة(٣١). لم يخلف الشريف التلمساني مؤلفات كثيرة نتيجة لكثرة انشغاله بالتحصيل والتدريس، أو ربما تأثرا بشيخه الآبلي الذي عارض كثرة التآليف بقوله: "إنما أفسد العلم كثرة التآليف"(٣٢). ومن أبرز مؤلفاته: "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول"، و"مثارات الغلط في الأدلة"، و"شرح على جمل الخونجي في المنطق"، و"كتاب في القضاء والقدر"، و"كتاب في المعاوضات أو المعاطات"(٣٣). وبهذا يكون قد انتفع به الناس حيًا وميتًا.

٢/٢- القاضي سعيد العقباني:

هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد التجيبي العقباني التلمساني، والعقباني نسبة لقرية عقاب في الأندلس(٣٤). ولد في تلمسان سنة (٧٢٠هـ)، وأخذ العلم عن أبرز مشايخ عصره أمثال: السطي محمد بن علي بن سليمان (ت. ٧٤٩هـ)(٣٥)، والآبلي محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني (ت.٧٥٧هـ)(٣٦)، وابني الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله التنسي التلمساني (ت. ٧٤٣هـ)(٣٧) وأخوه أبو موسى عيسى (ت. ٧٤٩هـ)(٣٨). تولى القضاء في بجاية وتلمسان وسلا ومراكش(٣٩). تخرج عليه علماء أجلاء منهم: ابنه قاسم بن سعيد العقباني (ت.٨٥٤هـ)(٤٠)، وابن مرزوق الحفيد (ت.٨٤٢هـ)(٤١)، وابن زاغو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني (ت.٨٤٥هـ)(٤٢)، وإبراهيم بن محمد المصمودي (ت. ٨٠٥هـ)(٤٣). خلف العقباني عدة مصنفات أبرزها: شرح الحوفية، وشرح جمل الخونجي في المنطق، والوسيلة بذات الله وصفاته، ولب اللباب في مناظرات القباب، وشرح العقيدة البرهانية، وشرح التلخيص لابن البناء، وشرح مختصر ابن الحاجب الأصلي، وشرح قصيدة ابن ياسين في الجبر والمقابلة، وشرح البردة، وشرح سورتي الأنعام والفتح.(٤٤) أورد له الونشريسي فتاوى كثيرة في قضايا عديدة، منها حكم أخذ المعلمين للأجرة مقابل تعليم الصبيان(٤٥)، التي سبق الإشارة إليها في مقدمة هذا البحث، وإثبات النسب بالسماع.(٤٦) توفي سنة (٨١١هـ).

٣/٢- أسرة المرازقة:(٤٧)

كما أورد الونشريسي أسماء بعض الأسر العلمية التي نالت شهرة كبيرة في حاضرة تلمسان، بإنجابها علماء أجلاء، تجاوزت شهرتهم الآفاق، ومن هذه الأسر أسرة المرازقة. يعود أصل هذه

الأسرة إلى القيروان. تنحدر من بطون البرانس، من ولد عجيسة بن برنس. هاجرت من موطنها الأصلي واستقرت في تلمسان في القرن الخامس الهجري[٤٨]. مارس المزارقة التجارة في القيصرية ودرب مرسى الطلبة في تلمسان، والفلاحة بأرض العباد. كما اشتهروا بالعلم والتقوى، فبرزت منهم شخصيات هامة لمع بريقها مشرقًا ومغربًا، منها: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المشهور بابن مرزوق الجد (٧١٠-٧٨١هـ)،[٤٩] ومحمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الذي عُرف بالحفيد (٧٦٦-٨٤٢هـ)،[٥٠] وأبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الذي اشتهر بالكفيف (٨٢٤-٩٠١هـ)،[٥١] ومحمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق المعروف بالخطيب أو حفيد الحفيد (كان حيًا سنة ٩١٨هـ).[٥٢] هذه نماذج من أبناء أسرة ابن مرزوق التي أمدت المغرب الأوسط والعالم الإسلامي بعلماء فطاحل، كما شهد بذلك الكثير ممَنْ عاصروها من أمثال الونشريسي، وابن خلدون، والقلصادي وغيرهم.

٣ – المناظرات العلمية

تُعَدّ المناظرات العلمية أحد الأنشطة الفكرية المهمة في البلاد الإسلامية، وهي شكل من أشكال التفوق والتطور العلمي. وجدت نتيجة كثرة الاختلافات بين الناس في المسائل المختلفة، وهي تهدف إلى إبراز الحق والوصول إليه بالحجة والإقناع. وكانت مظهرًا من مظاهر النشاط الفكري في المغرب الأوسط خلال القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية. كانت هذه المناظرات تتم بين علماء الحواضر الإسلامية، كتلك التي كانت تجري بين علماء تلمسان وفاس في مسائل الفقه، حيث أشار الونشريسي إلى مناظرة في مسألة الإيلاء تتعلق بقضايا الطلاق، دارت بين الفقيه أبي عثمان سعيد العقباني ونظيره أحمد القباب،[٥٣] وأخرى في حلية البيع وصحته، بين الشيخين أبي علي ناصر الدين المشدالي، وأبي موسى محمد بن عبد الله بن الإمام التلمساني.[٥٤]

خاتمة

تفيد النوازل التي أوردها الونشريسي حول الحياة العلمية في المغرب الأوسط، أن النشاط التعليمي كان يزاول في مؤسسات مختلفة (كتاتيب ومساجد ومدارس وزوايا)، وأن التعليم يتم عبر مراحل، تتم أولها في الكتاب. وكان غير مسموح للصبيان بالتعلم داخل المساجد حفاظًا عليها من النجاسة. كما أجيز للمعلمين تقاضي أجور حتى يتفرغوا لوظيفة التعليم دون سواها، علما أن الانتصاب للتعليم لم يكن يتطلب إجازة من الشيخ، بل هو ميسر لكل مَنْ عرف عنه العلم. وذكر الونشريسي أيضًا أشهر المدارس في تلمسان كاليعقوبية التي لعبت دورًا هامًا في تطوير الحركة الفكرية، حيث كان مصدر تمويلها الأحباس التي يوقفها الأثرياء والأمراء. وأشاد بنخبة من العلماء الأجلاء الذين أنجبتهم أسر علمية كأسرة العقباني وأسرة ابن مرزوق.

الهَوامِشُ:

(١) الونشريسي (٨٣٤-٩١٤هـ/١٤٣٠-١٥٠٨م): هو أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي التلمساني، فقيه مالكي، أخذ عن علماء تلمسان. نقمت عليه السلطة الزيانية التي كانت قائمة في عصره، فتعرض بيته إلى النهب، مما دفعه للفرار إلى فاس سنة ٨٧٤هـ، فمكث فيها إلى أن وافاه أجله عن عمر يناهز الثمانين عامًا. ترك مؤلفات كثيرة أبرزها: إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، القواعد في فقه المالكية، المنهج الفائق والمنهل الرائق في أحكام الوثائق، غنية المعاصر والتالي على وثائق القشتالي، إضاءة الحلك في من أفتى بتضمين الراعي المشترك، كتاب الولايات في مناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر. يُنظر: الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٩، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، **التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية**، ط٢، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠.

(٤) **سورة العلق**، الآيات ١-٢-٣-٤.

(٥) **سورة الزمر**، الآية ٩.

(٦) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحي)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، ج٨، تحقيق محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، المغرب، ١٩٨١، ص ٢٤٣-٢٤٦.

(٧) إبراهيم العبيدي التوازي، **تاريخ التربية بتونس**، الشركة الوطنية للنشر، تونس، د.ت، ص ٣.

(٨) الونشريسي، المصدر السابق، ج٨، ص ١٥٦.

(٩) نفسه، ج٨، ص ٢٤٧-٢٤٩.

(١٠) نفسه، ج١٢، ص٤٨.

(١١) نفسه، ص٢٦١.

(١٢) نفسه، ج٨، ص ٢٥٢.

(١٣) ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان**، تحقيق محمد بن أبي شنب، نشر عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨١، ص ١٠٦-١٠٧.

(١٤) الونشريسي، المصدر السابق، ج٨، ص٢٣٦-٢٣٧.

(١٥) نفسه، ج٨، ص٢٤٣.

(١٦) نفسه، ج٨، ص ٢٥٧.

(١٧) نفسه، ج٨، ص ٢٥٠.

(١٨) نفسه، ج٧، ص ٣٦.

(١٩) نفسه، ج٢، ص ٥٠٢.

(٢٠) نفسه، ج٧، ص ٢٦٦.

(٢١) نفسه، ج٨، ص ١٧٥.

(٢٢) نفسه، ج١٢، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢٣) نفسه، ج٦، ص ١٧١.

(٢٤) ابن قنفذ القسنطيني، **أنس الفقير وعز الحقير**، نشر وتصحيح محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث، كلية الآداب، الرباط، ١٩٦٥، ص ٤٠.

(٢٥) التنسي، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٧٩.

(٢٦) يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج١، تحقيق ألفريد بال، الجزائر، ١٩١١، ص ٢٠٣.

(٢٧) الونشريسي، المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٢٥.

(٢٨) عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩، ص٦٢.- الونشريسي، المصدر السابق،ج١٢، ص٢٤١.

(٢٩) ابنا الإمام: هما الأخوان أبو زيد عبد الرحمن وأبو عيسى موسى، وأبوهما محمد بن عبد الله بن الإمام، ولدا بمدينة أقامها الرومان بين مدينتي شرشال وتنس غرب مدينة الجزائر تدعى برشك، حيث كان أبوهما إماما بمسجدها. هاجرا إلى تلمسان عقب انتهاء الحصار الذي فرضه عليها السلطان أبو يعقوب يوسف المريني، فقربهما السلطان أبو حمو موسى الأول إليه، وأوكل لهما الشورى والفتوى، ثم بنى لهما مدرسة عرفت باسمهما. يُنظر:- حسن الوزان، **وصف إفريقية**، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضري، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ص ٣٢-٣٣. – يحي بوعزيز، **مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ط٢، ٢٠٠٣، ص٨٧.

(٣٠) ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٣١) الونشريسي، المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٢٥.

(٣٢) نفسه، ص ٢١٦.

(٣٣) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٣٤) محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص ٢٥٠.

(٣٥) محمد ابن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٢٦١. عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف**...، المصدر السابق، ص ٣١-٣٢. يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج١، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجات، الجزائر، ١٩٨٠، ص ١٤.

(٣٦) محمد ابن مرزوق التلمساني، **المسند**...، المصدر السابق، ص ٢٦٦. يحي بن خلدون، **بغية**...، المصدر السابق، ج١، ص ١٢٠. التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، ج١، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٤٥-٢٤٨. ابن مريم، المصدر السابق، ص ٢١٩-٢١٤.

(٣٧) محمد ابن مرزوق التلمساني، **المسند**...، المصدر السابق، ص ٢٦٥. عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف**...، المصدر السابق، ص ٢٨-٣٢. لسان الدين ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٢، تقديم ومراجعة وتعليق بوزيان الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٢٠٠.

(٣٨) محمد ابن مرزوق التلمساني، **المسند**...، المصدر السابق، ص ٢٦٥. عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف**...، المصدر السابق، ص ٢٨-٣٢. لسان الدين ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٢، تقديم ومراجعة وتعليق بوزيان الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٢٠٠.

(٣٩) محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤٠) ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٤٧-١٤٩.

(٤١) القلصادي، **رحلة القلصادي**، ص ٩٦. السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ج٧، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ط١، ص٥٠. المقري (أحمد بن محمد)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج٥، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ص٤٢٠.

(٤٢) التنبكتي، **نيل**...، المصدر السابق، ج١، ص ١٢٢.

(٤٣) نفسه، ج١، ص ٤٢.

(٤٤) محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤٥) الونشريسي، المصدر السابق، ج٨، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٤٦) نفسه، ج٢، ص ٥٤٧.

(٤٧) نفسه، ج٢، ص ٢٧٤.

(٤٨) ابن مريم، المصدر السابق، ص ٢٢٦.

(٤٩) المقري، المصدر السابق، ج٥، ص٤١٢. ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٨٦-١٨٧.

(٥٠) القلصادي، المصدر السابق، ص٩٦. السخاوي، المصدر السابق، ج٧، ص٥٠. الونشريسي، الوفيات، ص٤١.

(٥١) التنبكتي، **كفاية المحتاج**، ص ١٥٤. الحفناوي، المرجع السابق، ج١، ص ٤٩.

(٥٢) السخاوي، المصدر السابق، ج٩، ص٤٦. التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٣٣٠. المقري، المصدر السابق، ج٥، ص ٤١٩. ابن مريم، المصدر السابق، ص٢٥٨.

(٥٣) الونشريسي، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٢٦-٣٣١.
نفسه، ج٥، ص ٣٣١-٣٣٤.

أسرة حاكمه مجهولة في شبه الجزيرة العربية

دولة الجبور[١] في البحرين وعمان ونـجد[٢]

ترجمة وتعليق

د. محمد محمود خليل

مدرس إرشاد سياحي

معهد الفراعنة العالي للسياحة والفنادق

الجيزة – جمهورية مصر العربية

Eine "unbekannte" Dynastie in Arabien
Werner Caskel
Oriens
Vol. 2, No. 1 (Oct. 31, 1949), pp. 66-71
Published by: BRILL

تاريخ استلام المقال: ٢١ نوفمبر ٢٠١٣

تاريخ قبـول النشـر: ١٠ يناير ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

البرتغاليون، البوكيرك، الإحساء، القرامطة، الخليج العربي

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أسرة حاكمة مجهولة في شبه الجزيرة العربية: دولة الجبور في البحرين وعمان ونجد/ ترجمة: محمد محمود خليل.- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١٣٧– ١٤١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

حقوق الملكية الفكرية والترجمة والنشر:

- حقوق الملكية الفكرية محفوظة.
- حقوق الترجمة العربية محفوظة © للدكتور محمد محمود خليل.
- النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها.
- غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.
- المترجم والدورية غير مسئولان عن الآراء الواردة في النص الأصلي.

في تقرير عن الأسطول البرتغالي الذي غزى سواحل شبه الجزيرة العربية وقاتل في موانئ عمان فإن أفونسو دي البوكيرك كتب: أن المنطقة ما بين عمان والخليج الفارسي وحتى مكة "حكمت قديمًا" من جانب ملك معروف باسم "ابن جبر" وأن الأبناء الثلاثة له انقسموا في الحكم وذلك بعد موته، فالابن الاكبر حكم المنطقة الداخلية لعمان وحتى ظفار وحضر موت. وأن كلا الاثنين الآخرين عاشوا في الخليج الفارسي. واحد منهم غزى جزيرة البحرين وجزيرة قطيف (تاروت)، وهما يتبعان أن ذاك ملك هرموز، وأن كلاهما قد اقر بسيادة "ابن جبر" على عمان[٣].

إن التقرير يشير أولاً بشكل مؤكد إلى أن داخل عمان لم يحكمه ابن جبر[٤] بل الإمام محمد اسماعيل،[٥] ثانيًا أن نجد والبحرين تم حكمهم من داخل عمان. وفي الواقع أن كلا هاتين النقطتين قد تم تحديدهما بشكل صحيح وذلك عن طريق "تو دي بروس" المؤرخ للغزوات البرتغالية في آسيا. كما اخبر: بأن منطقة داخل عمان قد خضعت للإمام محمد، وأنه قد حمى منطقته عن طريق الجزية لـ ابن جبر العربي القوي عن طريق محصول التمر الذي يسقط سنويًا في عمان. وأن المدن العمانية "بهلا" و"نزوي" وكذلك "منح" احتفظوا بالسلام فيما بينهم من أجل منع ابن جبر الغاصب.[٦] وأن مايلز أبدى ملاحظته على هذه الأخبار بأن هؤلاء الذين ظهروا إنما يمثلوا لغز "يقصد بني جبر".[٧]

والآن فإن اللغز سيحل بمساعدة المصادر العربية ودي بروس نفسه: إن السمهودي "المؤرخ التاريخي المقيم في المدينة المنورة قبل (١٤٨١/٨٨٦) التقى بأجود ابن جبر سلطان البحرين والقطيف ورئيس البحرين ونجد.[٨]

وفي سنة (١٥٢٢/٩٢٨) جاءت رحلة الحاج المصري بالخبر التالي من البحرين بالجزيرة العربية: أنه من ضمن حجاج سنة (١٥٢٠/٩٢٦) تواجد "مقرن" أمير بنى جبر الذى حكم جزيرة البحرين وحتى المنطقة الجبلية لهرموز، والذي كان سيدًا لبدو الشرق. وقد جلب معه اللؤلؤ والمسك والعنبر، وخشب الصندل الهندي والحرير المرزكش والأشياء الثمينة الأخرى، وأنه أرسل (٥٠٠٠٠) دينار من أجل الفقراء في الأماكن المقدسة.[٩] وفي عودته من الحج وقع مقرن في يد "البرتغاليين" وقُتل، على الرغم من أنه قدم مليون دينار من أجل إفداء حياته.[١٠]

"البرتغاليون" غزوا جزيرة البحرين، ورغم أنه حصن أرضه وحماها[١١]. وفي الواقع فإن السلطان مقرن لجأ إلى الكفاح البطولي

دفاعًا عن البحرين وذلك في ٢٧ يوليو ١٥٢١[١٢] ومات بعد ٣ أيام.[١٣]

ومن خلال تقرير واضح لـ دي بروس فقد ظهرت النقاط التالية:- أن السلطان "اجود بن جبر" من الأسرة القديمة في الإحساء، وأنه في الأعوام ٧٠ قدم المساعدة للأمير الهارب "سلغر شاه" سلطان هرموز وذلك للاستيلاء علي العرش.[١٤] ومن أجل ذلك أعطاه سلطان هرموز البحرين والقطيف، إلا أنه ندم على ذلك لأن كلا المستعمرتين (البحرين و القطيف) جلبت أموال أكثر من كل أملاك هرموز الأخرى.[١٥] وبعد حرب طويلة بين الطرفين تم الاتفاق بين سلطان هرمز وأجود على أن البحرين والقطيف تظل في ملكية أجواد مع دفع الجزية لسلطان هرموز.[١٦] وأن حفيده مقرن ابن زامل جدد الدفع. وبعد ذلك استطاع البرتغاليين إخضاع مملكة هرموز[١٧]. وبالتالي ظلت هرموز في ديون وعجزت عن سداد الجزية للبرتغاليين[١٨]، ومن أجل اصلاح الوضع سافر في سنة ١٥٢٠ أسطول برتغالي من هرموز إلى البحرين ولكنه تحطم بسبب عاصفة لدرجة أن سفينتان فقط هما اللتان وصلتا للهدف،[١٩] واستطاعا أن يهبطا بشكل مطمئن وآمن.[٢٠] ولأن السلطان مقرن والد زوجه أمير مكة – كان قد توجه في رحلة الحج. مصطحبًا معه أعيان ووجهاء من البحرين كرهائن كانوا يميلون إلى سلطان هرموز، وأيضًا ليقوى قوافل الحجاج المهددة من جانب البدو.[٢١] إن مقرن احضر من مكة عمال فنيين أتراك من أجل تشييد سفن كبيرة،[٢٢] وعندما علم عن زيارة السفن البرتغالية للبحرين وعن إعداد أسطول جديد في هرموز فقد سارع بوضع موانئ البحرين في حالة دفاع واستعداد وجمع جيشه، بالإضافة إلي عدد (٤٠٠) من رماة الأقواس الفرس، وعدد (٢٠) من الرماة العثمانيين "الروم" – ودارت رحى الحرب هنا وهناك ساعتين حتى حسمت عن طريق إصابة السلطان مقرن،[٢٣] واستطاع ابن أخته الشيخ حميد الحصول على خروج آمن لنفسه ولكل أتباع مقرن وبعدها احتل مندوب ملك هرموز مدينة القطيف.[٢٤]

وفي نهاية ١٥٢١ اشتعلت المقاومة في هرموز ومستعمراتها العربية ضد البرتغاليين وعند اخماد ثورات الثائرين في موانئ عمان، ظهر القائد البرتغالي أمير البحر دون لويز وكذلك الشيخ حسين بن سعيد "عظيم ابن جبر"، حيث تحالف الطرفين،[٢٥] حيث وضع حسين بن سعيد تحت تصرف البرتغاليين ما يزيد عن (٤٣٠٠) رجل.[٢٦] وأن الشيخ حسين بن سعيد أوقع بالحامية الفارسية التابعة لسلطان هرموز في ميناء صحار بسبب خصومته مع سلطان هرموز،[٢٧] وقد عين البرتغاليين الشيخ حسين حاكم لـ صحار في "مارس ١٥٢٢".[٢٨] وبذلك فقد اتفقت التقارير البرتغالية والعربية في الملامح الأساسية[٢٩]. إن اتباع ابن جبر سيطروا على شرق شبه الجزيرة العربية ومن حين إلى آخر على البحرين، وأن تأثير الجبور وصل إلى نجد[٣٠]. وأن منطقة داخل عمان كان عليها تأدية الجزية.[٣١] فالأسرة أصلاً كان لها مكانتها في الاحساء الواحه الكبرى بشرق شبه الجزيرة العربية، ولكن تظل هناك بعض الأسئلة المطروحة: أين استوطن حسين بن سعيد. المقيم بالقرب من صحار ومن أين له بـ(٤٣٠٠) رجل لم يأتوا من الاحساء على الاطلاق لأن جيش بهذه القوة لا يجلب عن طريق الصحراء.[٣٢]

وللإجابة على تلك الأسئلة يجب علينا أن نوضح بعض الأشياء؛ أن كل أصحاب السلطة بشرق شبه الجزيرة العربية إنما اجتهدوا للوصول لحكم مباشر أو غير مباشر على عمان بدأ بالقرامطة وال (cujuniden) ومرورا بالوهابيين. وأن بوابة الغزو الوهابي وغاراتهم على صحار كانت واحة البريمي التي احتلت منهم سنة ١٨٠١. أن حملاتهم على عمان (١٨٠١-١٨١١) أنجزت بمساعدة بعض الاصول هناك. وأن خورشيد باشا قد عين ١٨٣٨ على شرق شبه الجزيرة العربية وذلك بناء على تكليف من محمد على. الذي ظهر اتصاله مع العملاء المبكرين للوهابين في البريمي. وذلك من أجل ادخال عمان تحت التأثير المصري. وعندما توغل الوهابيون من جديد في عمان فإن البريمي شكلت الأساس لهم وذلك في سنة ١٨٤٥.[٣٣]

أن البريمي خدمت أيضًا الجبور مثل الوهابيين وذلك كنقطة انطلاق لمشاريعهم في عمان. وأن حسين بن سعيد مثل هناك بيت أمراء الجبور. وأن قواته كانت على الأرجح متطوعين من الاصول "القبائل" المحيطة.[٣٤]

أما بالنسبة لـ ابن جبر الذي أخبرنا عنه دي البوكيرك فقد كانت له بالتأكيد المكانة نفسها مثل حسين بن سعيد. ومن المفهوم أنه لم يكن أمير حاكم بالمعني التقليدي علي عمان. وحول تلك النقطة فإن البوكيرك الذي دخل البلاد "عمان" عن طريق الاحتيال في مسقط حاول أن يظهر بمظهر الرجل الخارق بحديثه في اظهار وتأكيد القوة والسلطة للجبور.[٣٥]

ولكن إلى أي حد امتدت دائرة النفوذ أسرة الجبور في وسط شبه الجزيرة العربية. أن هذا لا يتضح من خلال المهام الغامضة لـ البوكيرك و السمهودي– أن السلطان أجود كما جاء علي لسان السمهودي عندما تناول في حديثة منطقة حمي ضرية بأن أجود زار المقبرة الخاصة لـ كليب البطل العربي الأسطوري القديم المرتبط بحرب البسوس.[٣٦] وهذا القبر كان مقدس من جانب البدو وهو ما حطم مؤخرًا من جانب الوهابيين. ويبحث عنه في الجنوب الشرقي وفي منطقة تسمى حاليًا الـ حمي ضرية، ومن الطبيعي فإن تلك المنطقة لم تكن ضمن مناطق النفوذ الخاصة بالسلطان. ومن الممكن أنه قد زار المقبرة في رحلة الحج لأن طريق الحج من الإحساء يصل آنذاك شمالاً لعيون الحنابج ويخترق حمي ضرية.[٣٧]

أما في الإحساء، فإن الـ الجبور حكموا فترة طويلة (١٠٠٠-١٥٩١) ثم تلاهم العثمانيين. الذين قد احتلوا القطيف والأحساء حوالى نصف قرن. كما أن العثمانيين خلفوا الجبور لفترة قصيرة على جزيرة البحرين، وقد استمر اسم الجبور في بني خالد.[٣٨] الذين باشروا الإرث الخاص بابن جبر وذلك بعد سقوط الحكم العثماني حوالي نهاية القرن السابع عشر.[٣٩]

أما عن الظهور للأسرة، فنحن لم نتأكد بدقة كيف تبرهن أنساب أمراء بني عقيل على أنها برزت من فرع بني عامر المنتسب إلى بني عقيل، لأن بني عقيل هاجروا إلى شرق الجزيرة العربية، وذلك تقريبًا في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي،[٤٠] وأنهم رحلوا مرة أخرى أثناء الحكم القرامطة وبني عامر في الفترة الأخيرة لحكم القرامطة امتلكوا امتياز الحماية لواحة الاحساء وطرق القوافل وكذلك الحق في جزء من المحصول.[٤١]

وأن هذا الحق قد منع عنهم من جانب آل ابراهيم العيونيين الذين خلفوا القرامطة وأنهم كافحوا الأسرة الجديدة، ولكن لم يوفق العيونيين في قمع الفرع القوى في البقاء.[٤٢] أن بني عامر حاصروا الاحساء والقطيف كثيرًا وأخيرًا أستطاع العيونيين ردهم مقابل بعض المكاسب.[٤٣] إلا أن خزائن وصوامع الغلال كانت خالية فتم تعويضهم بالبضائع.[٤٤] وفي سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) كانت الملكية الزراعية لـ العيونيين في الجزء الأكبر من الأحساء ثم انتقلت الملكية بعد ذلك في أيدي هؤلاء البدو وقد جاء التوغل الاقتصادي بعد السيطرة السياسية على الإحساء في سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) حيث حكم بنى عصفور بن عامر.[٤٥]

وعما إذا كانوا الجبور من نسل مباشر لـ بنى عصفور فهذا محل شك، وبالنسبة لذلك أوضح أن اسمهم استمر في الجبور وإلى فرع بني خالد[٤٦]. وأن بني خالد يكونوا طبقًا لرواية العالم المحلى الأفضل بتاريخ العرب الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل شيخ آل سعود:[٤٧] أنهم تواجدوا عن طريق الاتحاد لعشائر مختلفة لـ بني عقيل التي تنتمي لبني عامر فهذا الأصل القديم لم يغلق حيث أن بني عصفور قد خرجوا منه، بذلك فمن الممكن أن الجبور ينسبون إلى الأسرة القديمة لبني عصفور.[٤٨]

التعريف بالمستشرق الألماني ورنر كاسكل:

ولد ورنر كاسكل في ٥ مارس ١٨٩٦ في مدينة دانتسج. ودخل جامعة توبنجن لدراسة اللاهوت وفي الوقت نفسه تعلم اللغة الفارسية ثم انتقل إلى جامعة برلين، فواصل دراسة اللاهوت وتطوع للجندية في بداية ١٩١٥ فاشترك في القتال أولاً في فرنسا، ثم في الشرق الأوسط ضمن الجيش الألماني المعروف بجيش آسيا Asienkorpsالذي كان يحارب مع الأتراك ضد الإنجليز والفرنسيين في تركيا والشرق الأدنى. وهناك تعلّم اللغة التركية إلى جانب إتقانه للعربية التي درسها من قبل في الجامعة.. تأثر كاسكل في دراساته العربية بأستاذه أوجست فشر، فعني بالفيلولوجيا العربية والشعر الجاهلي. ورسالته للدكتوراه الأولى كانت بعنوان: القَدَر في الشعر العربي القديم. أما رسالته للدكتوراه الثانية، دكتوراه التأهيل للتدريس في الجامعة، فكانت بعنوان: «أيام العرب»، وفيها دراسة لأمراء العرب في الجاهلية وأبطالهم، وللملاحم العربي الجاهلية. وبهذه المناسبة جمع مواد وفيرة عن مواطن القبائل العربية قبل الإسلام وبعده.لكن العمل العظيم الذي قام به كاسكل هو دراسته الجليلة لكتاب «جمهرة الأنساب» لابن الكلبي، ويقع في مجلدين، كما له العديد من الأبحاث والدراسات عن العرب وتوفي كاسكل في ٢٨ يناير ١٩٧٠.

الهوامش:

(١) يرجع نسب بنى جبر أو الجبور إلى السلطان زامل بن حسين بن ناصر بن جبر، يرجع نسب جبر إلى بنى عقيل بن عامر بن صعصعه السخاوى: **الضوء اللامع**، ج١ ص ١٩٠؛ وقال الشاعر عامر السمين يمدح غضيب بن زامل سلطان الجبور ويرثى والده زاملاً: /**صفوة عقيل هو أسطاها وأفرسها... وخيارها همه في كسب الأنفال**/ اسطاها يعنى أكثرها سلطة ونفوذ وتجبر، والشاعر عامر السمين من شعراء النبط عاش في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي وكان من الشعراء المؤيدين لدولة الجبور، راجع عبد الله الحاتم: **خيار ما يلتقط من الشعر المنبط**، الطبعة الثانية، دمشق ١٣٨٧هـ، ج١ ص ٤٤-٤٦؛ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى: **أنساب الأسر الحاكمة في الإحساء**، ق١/ ص ٢٢٥.

(٢) وصف الجزيرى السلطان أجود في كتابه بأنه "صار رئيس نجد ذا أتباع يزيدون على الوصف مع فروسيته" ثم وصف السخاوى هو الأخر فقال "اتسعت مملكته بحيث ملك البحرين وعمان وانتزع مملكة هرمز ابن أخ الصرغل وكان رئيس نجد ذا اتباع يزيدون على الوصف"، الجزيرى: **درر الفوائد المنظمة**، ص ٣١٦؛ السخاوى: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ج١ ص ١٩٠؛ الأحسائى في تحفه المستفيد. ج١ ص ١٢٠؛ شعيب الدوسرى، **إمتاع السامر**، ص١٣١ حيث قال "بنوجبر إن كانت لهم السلطة على نجد ومنطقة الأحساء"؛ ابن بسام: **تحفه المشاق**، ص ٣٤-٦٦؛ عبد الرحمن بن عثمان أل ملا: **تاريخ هجر**، ج٢، ص١٨٧-١٨٨.

(٣) أفونسو دلبوكيرك: **السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك**، مجلد الأول، ج٢/١، ص ١٦٣، ١٨٣، ١٩٣، ٢٠٣، المجلد الثانى، ج٣/٤ ص ٤٣٦.

(٤) ويصف بروفسور س. بكنجهام في بحثه أن المصادر البرتغالية المبكرة لا تذكر سوى القليل عن عمان الداخلية، فقبل وصول البرتغاليين كانت هناك أربعة مراكز للقوى في عمان، وهى الأمامه الأباضية في نزوة، والنهانيه غالبًا فى بهلا، وبنوجبر الذين كانت قاعدتهم في الإحساء، وحكام هرمز الذين كانوا تابعين أصلاً لخانات المغول في بلاد فارس، وكانت تلك المراكز الأربعة تميل للصراع مع بعضها البعض ولكن أكثر الصراعات استمرت بين الأئمة والنهانيين للسيطرة على عمان الداخلية، وبين بنى جبر وهرمز للسيطرة على عمان الساحلية ، س. بكنجهام: **بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان**، حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة الثقافة والتراث، سلطنة عمان، ١٩٨٦م المجلد السادس، ص ٢١٤.

(٥) هو محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الحاضرى، راجع السالمى: **تحفه الأعيان بسيرة أهل عمان**، ج١، ص٣٧٩-٣٨٦.

(٦) إبراهيم خورى وأحمد جلال التدمرى: **سلطنة هرمز العربية**، ص٧٤-٧٥؛ Joao De Barros, Da Asia, Lisboa, Reprint, 1979, Vol. 4 P. 243. Teixeira, Teixeria, P, The Travels of Pedro Teixeria, with His "Kings to Hormuz" and Extracts from his "Kings of Persia" Translated by William, F. Sinclair, London, 1902. P. 189; Aubin, J., Le Royaume D'ormuz au Debut De XVIE siecle, in Mare Luso-Indicum, Vol., 1971.p. 124,134; Werner Caskel, "Ein Unbekannt" dynasticin Arabien, Orients, Leiden 1944, PP. 66-67.

ذكره المستشرق باروس حيث قال "إن ما يدفع هذه المدن (بهلا ونزوى ومناح) إلى البقاء في حالة السلم أحيانًا، هو أنها تتعرض إلى هجمات قبائل البدو المنتسبة إلى الفئة المسماه بنو جابر، التي تُعَدّ إحدى أقوى قبائل جميع جزيرة العرب، لأنهم يهيمنون على أرض يقرب قطرها من ٣٠٠٠ فرسخ (١٤٤٠٠ كيلو متر)، وفى موسم جنى التمر والثمار والمواد الغذائية الأخرى، تأتى تلك القبائل وتقلها، ولتحاشي مثل تلك المضايقات، يقضي الاتفاق بأن يدفع إمام تلك المدن من عشره (خراج المدن) إلى بنى جبر مبلغًا معينًا من المال كل عام، ويعتبر سيد بنى جبر سيدًا داخل

عمان بأجمعه تقريبًا من البحرين إلى ظفار ويعيشون جزئيًا على الإتاوة التي فرضوها على الحضر أو على السلب".

(٧) س.ب.مايلز: **الخليج بلدانه وقبائله**، ص١٥٨-١٥٩، ١٧٦-١٧٧، وقد نقل معلومات المؤرخ البرتغالي باروس كل من تكسيرا وكاسيكل وجان أوبين راجع: Barros, Op. Cit, P. 240-243; Teixeira, Op. Cit, P. 189, Note 2; Aubin, Op. Cit, PP.124, 134-138. Caskel: op.cit ,p.66-67.

زاد المؤرخ (باروس) في وصفه لبلاد عمان، أنها تتكون من عمان الداخل والساحل حيث قال "تمتد سلسلة جبلية على طول الساحل العماني وتبدو وكأنها تريد منع أهل الساحل (ساحل البحر) من الاتصال بأهل الداخل، إلا عبر بعض الفجاج التي تخترق بعض الأماكن. فتظهر قوافل الإبل المحملة بالحبوب، ورعال الخيل في أرباض البنادر، خارجه من أحد الأودية العميقة الخصبة التي سماها المؤلفون البرتغاليون آنذاك بلاد بنى جبر، فوراء عمان الساحلية الخاضعة لهرمز، تقع عمان أخرى، هي عمان قبائل البدو، الرعاة المتنقلين والإمارات الاباضية المهيمنة على الداخل.

(٨) ذكر السمهورى الأمير أجود فقال "رئيس أهل نجد ورأسها سلطان البحرين والقطيف فريد الوصف والنعت، صلاحًا وإفضالاً وحسن عقيده أبو الجود أجود بن زامل بن جبر أيده الله وسدده؛ السمهودى: **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، ج٣، ص ١٠٩٣.

(٩) العصامى: **سمط النجوم العوالى**، ج٤/ ص ٣٠٥؛ ابن لعبون: **تاريخ ابن لعبون**، ص ٣٢؛ ابن بشر: **عنوان المجد في تاريخ نجد**، ج١/ ص ١٨؛ ابن عيسى: **بعض الحوادث الواقعة في نجد**، ص ٤٦.

(١٠) ابن إياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج٥/ ص ٤٣١. ذكر ابن إياس في حوادث سنة (٩٢٨هـ/١٥٢١م) يذكر فيه أن السلطان مقرن قد أتى مكة وحج في العام الماضي، وكان يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة (النفيسة) من المسك والعنبر والعود القمري والحرير الملون وغير ذلك من الأشياء النفيسة.

(١١) على أبا حسين: **صفحات من تاريخ البحرين**، ص ٣٠-٣٣؛ عبد اللطيف ناصر الحميدان: **التاريخ السياسي لإمارة الجبور**، ص ٧٩؛ محمد حميد السلمان: **الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج**، ص٢٢٧؛ Barros, Op. Cit, P. 27-29.

(١٢) نونو بى سلفا: **صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين**، ص ١٢٧؛ V Sousa, Manuel De Fariay, The History of The Discovery and Conquest of India, Translated, by John Stevens, 2 nd Vol. 1W. Germany, 1971,v ol I, P. 256-258.

(١٣) فالح حنظل: **العرب والبرتغال في التاريخ**، ص ٣١٢؛ وأحمد العنانى: **البرتغاليون في البحرين وحولها**، مجلة الوثيقة، العدد الثاني، البحرين ١٩٨٣، ص ٩٠؛ Adamyiat, Op. Cit, P 20; F.C Danvers, The portuguese in india, London 1895, Vol. I, P. 351.

(١٤) أفونسو دلبوكيرك: **السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك**، ج١/ ص ١٨٤. حيث قال ويعنى أحد سلاطين بنى جبر "وأخذ أحدهم من ملك هرمز جزيرة البحرين، كما أخذ منه أيضًا القطيف"؛ السخاوى: **الضوء اللامع**، ج١/ ص ١٩٠؛ الأحسائى: **تحفه المستفيد**، ج١/ ص ١٢٠. عندما رفض سليمان بن سليمان النبهانى مساعدة صهره سلغرشاه في محاولته لاستعادة عرشه، لجأ الأخير إلى سلطان الجبور أجود بن زامل الجبرى الذي عرف بنفوذه وقوته العسكرية البرية الكبيرة والمعتادة على القتال في الصحراء. وفى حوالى سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م). وافق أجود على مساعدة السلطان سلغرشاه ضد أخيه سلطان ميرشاه أويس سلطان هرمز، ولكن بشروط كان أهمها على الإطلاق الاعتراف بسيادة الجبور على البحرين والقطيف، أو بمعنى آخر تنازل سلغرشاه رسميًا عن القطيف والبحرين إلى السلطان الجبور أجود بن زامل باستثناء بعض البساتين في جزيرة البحرين وفى المقابل يشارك أجود بجيشه القوى مع سلغرشاه في معركته ضد أخيه.

(١٥) س. بكنجهام: **بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان**، ص ٢١٦؛ عبد اللطيف ناصر الحميدان: **التاريخ السياسي لإمارة الجبور**، ص ٥٠-٥١؛ Aubin, op. cit, P. 124.

بعد أن اعتلى سلغرشاه عرش هرمز، ندم على تنازله عن البحرين والقطيف اللتين تدر على خزينة هرمز أكبر مبلغ من الواردات المالية. ولهذا أرسل سلغرشاه عددًا كبيرًا من الحملات المتتابعة لاسترجاع البحرين والقطيف. وكانت تلك الحملات أحيانًا برئاسته، وأحيانًا أخرى برئاسة وزيره نور الدين فالى، وأحيانًا برئاسة ابنه تورانشاه الثالث. ويبدو أن تورانشاه قد استطاع الاستيلاء على البحرين في عهد والده وذلك سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، إلا أن الوضع لم يدم على تلك الحال طويلاً، إذ سرعان ما استرجع أجود تلك المنطقة لنفوذه مرة أخرى.

(١٦) ابن ماجد: **كتاب الفوائد**، ص ٧٠؛ Aubin, ibid, P. 124-125; Ceskel, op, cit, P. 67

وقد انتهى ذلك الوضع العسكري بين الطرفين بتوقيع اتفاق بين أجود وسلغرشاه، وتنص على إبقاء البحرين والقطيف رسميًا في حوزة سلطان الجبور مقابل أن يدفع أجود لسلغرشاه سلطان هرمز ضريبة سنوية عن البحرين والقطيف. وقد ظل ذلك الاتفاق محترمًا من جانب الطرفين لسنين طويلة، وظل يعمل بذلك الاتفاق حتى سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م)، ونتيجة لذلك الاتفاق أصبحت البحرين والقطيف جزءًا لا يتجزأ من دولة الجبور.

(١٧) أفونسو لبوكيرك: المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

(18) Barros, Lbid, P. 27; Sousa, Op. Cit, Vol I, P 256; Ozbaran, Op. Cit, P 229.

وحينما طالب البرتغاليون "تورانشاه" ملك هرمز بدفع ما عليه من ضرائب سنوية للبرتغال تعلل بنقص الأموال لديه، لأن السلطان مقرن الجبرى لم يدفع له بانتظام المبالغ المقررة عليه من واردات البحرين والقطيف وبساتينها ولؤلؤها.

(١٩) محمد حميد السلمان: **الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج**، ص ٢٢٥-٢٢٦؛ Sousa, Op. Cit, Vol I, P. 265; Caskel, Op. Cit, P. 67-68

(٢٠) عبد اللطيف ناصر الحميدان: **التاريخ السياسي لإمارة الجبور**، ص ٧٩؛ Caskel, Ibid, P. 68

(٢١) ابن اياس: **بدائع الزهور**، ج٥/ ص ٤٣١؛ سعود الزيتون الخالدى: قال الأمير مقرن الجبورى الشعر وبه نعاه، ص ١-٤٠.

(٢٢) على أبا حسين: **صفحات من تاريخ البحرين**، ص ٣٠-٣٣؛ عبد اللطيف ناصر الحميدان: **التاريخ السياسي لإمارة الجبور**، ص ٧٩؛ محمد حميد السلمان: **الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج**، ص٢٢٧؛ Barros, Op. Cit, P. 27-29.

(٢٣) فالح حنظل: **العرب والبرتغال في التاريخ**، ص ٣١٢؛ وأحمد العنانى: **البرتغاليون في البحرين وحولها**، مجلة الوثيقة، العدد الثاني، البحرين ١٩٨٣، ص ٩٠؛ Adamyiat, Op. Cit, P 20; F.C Danvers, The portuguese in india, London 1895, Vol I, P. 351.

(24) Barros:op.cit, P. 50.

عبد اللطيف ناصر الحميدان: **دولة آل فضل في الإحساء والقطيف**، ص ٨٦٣

(٢٥) ويلسون: **الخليج الفارسي**، ص ٧٩-٨٠؛ عبد اللطيف ناصر الحميدان: **التاريخ السياسي لإمارة الجبور**، ص ٨٢؛ Caskel, Op. Cit, P. 68

(٢٦) فالح حنظل: **العرب والبرتغال في التاريخ**، ص ٣٢٥-٣١٦؛ Sousa, Op. Cit, Vol I, P. 268.

(٢٧) ويلسون: **الخليج الفارسي**، ص ٧٩-٨٠؛ عباس اقبال: **مطالعاتى درباب بحرين**، ص ٦٣-٦٥؛

Sousa, Ibid, P. 268.

(٢٨) جمال زكريا قاسم: **الخليج العربي**، ص ٧٨-٨٠؛

Sousa, Op. Cit, Vol I, P. 268; Caskel, Op. Cit, P. 68.

(٢٩)عباس اقبال: **مطالعاتى درباب بحرين**، ص ٦٣-٦٥؛

Miles, Op. Cit, P. 157-163; Danvers, Op. Cit, P. 354.

(٣٠) أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى: **أنساب الأسر الحاكمة في الإحساء**، ج١/ ص ٢٧٢؛ وعبد الرحمن بن عثمان آل ملا: تاريخ هجر، ج٢/ ص ١٩٦.

(٣١) وحول حكم بني جبر في عمان الشمالي بعد زوال سلطنة الجبور، راجع بحث الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان: **نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية (٩٣١هـ/١٥٢٥-١٢٨٨هـ/١٨٧١م)**، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد ١٧، لسنة ١٩٨١، ص ٢١١-٢٤٠.

(٣٢) فالح حنظل: **العرب والبرتغال في التاريخ**، ص ٣١٥-٣١٦؛

Sousa, Op. Cit, Vol I, P. 268; Caskel, Op. Cit, P. 68.

(٣٣) حول وضع واحة البريمي راجع: محمد علي تميم: **مشكلة البريمي**، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد الثاني، العدد الأول ٢٠٠٧م، ص ٨٠-٩٦، رائد عباس فاضل الشمري: **الأزمة الحدودية بين عمان والمملكة العربية السعودية حول واحة البريمي والموقف البريطاني منها**، مجلة أوروك للعلوم الإنسانية، المجلد الرابع، العدد الثاني ٢٠١١، ص ١٣١-١٥٦.

(٣٤) هذا استنتاج كاسكل وليس هناك أي إشارات في المصادر عن ذلك.

(٣٥) أفونسو دلبوكيرك: **السجل**، المجلد الأول، ص ١٦٣، ٢٠٣.

(٣٦) السمهودي: **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي**، تحقيق قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى، مكة المكرمة ٢٠٠١، ج٤ ص ٨٦ – ٨٧.

(٣٧) السمهودي: المصدر السابق، ص٨٧.

(٣٨) النبهاني: **التحفه النبهانية في إمارات الجزيرة العربية**، ص ٦٤؛ وابن خميس: **بعض الحوادث الواقعة في نجد**، ص ٤٧-٤٩. حول استيلاء الأتراك على الإحساء وبلاد البحرين . انظر: **سواحل نجد (لحسا) في وثائق الأرشيف العثماني**، إعداد أ.د. زكريا كورشون، د. محمد القرني، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٩-١٠، **وثائق الدفاتر المهمة** (MD).

(٣٩) ابن لعبون: **تاريخ ابن لعبون**، ص٣٢-٣٣؛ والأحسائى، **تحفه المستفيد**، ج١/ ص ١٢١-١٢٢؛ والنبهانى: المرجع نفسه، ص ٦٤؛ وابن عيسى: المرجع نفسه، ص ٤٧-٤٩؛ وعبد الله الصالح العثيمين: **العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت**، ص ٣٣؛ وصالح أوزبران: **الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي**، ترجمة عبد الجبار ناجى، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٧٩، ص ٣٢-٣٣؛ وحول الوجود العثماني في منطقة الخليج العربي وإقليم بلاد البحرين؛

Mandaville, The ottman Province of Al-Hasain the sixteenth and seventeenth centures, Jounral of the American oriental society, Vol. 90, 1970, P. 488.

(٤٠) أحمد أبو حاكمة: **تاريخ شرقي الجزيرة العربية**، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٥م، ص ٦٠-٦١؛ وأحمد ياغي: **سياسة مدحت باشا والى العراق العثماني اتجاه الخليج العربي**، ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، رأس الخيمة، ٢٠٠١م، ص ١٠.

(٤١) السخاوي: **الضوء اللامع**، ج١/ ص ١٩٠، القلقشندى: **قلائد الجمان**، ص ١٢٠-١٢١؛ المؤلف نفسه: **نهاية الأرب**، ص ٣٣٥؛ المؤلف نفسه: **صبح الأعشى**، ج٧/ ص ٣٩٣؛ ابن حزم الأندلسي: **جمهرة أنساب العرب**، ص ٢٩٠.

(٤٢) ابن مقرب العيوني: **الديوان (نسخة المبارك)**، ص ١٢، **الديوان** (نسخة الهند)، ص ٤٤٤.

(٤٣) العيونيين من قبيلة عبد القيس حكموا بلاد البحرين بعد أن ازاحوا القرامطة منها و ينسبون إلي عبد الله بن علي بن محمد بن إبراهيم العبدي العيوني، والعيوني نسبة إلي مكان يعرف بالعيون شمال مدينة الإحساء، وللمزيد من التفاصيل راجع: محمد محمود خليل: **آل إبراهيم العيونيين في بلاد البحرين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٧، ص٣ – ٣٢٢.

(٤٤) عبد القادر الأحسائي: **تحفة المستفيد في تاريخ الإحساء القديم والجديد**، ج١ ص ١١٢-١١٩.

(٤٥) وصاف الحضرة: **تاريخ وصاف**، ص ١٠٥، عباس إقبال: **مطالعاتي در باب بحرين**، ص ٣٥، عبد اللطيف ناصر الحميدان: **الإمارة العصفورية**، ص ٣٦-٣٨.

(٤٦) الجدير بالذكر: أن العصفوريين والجبور يرجعون للأصل نفسه والنسب من عقيل بن عامر من صعصعة، وللمزيد من المعلومات حول أنسابهم: راجع، محمد محمود خليل: **تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية**، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٣٥٥، ٤٣٧.

(٤٧) الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل بن تركي بن عبد الله آل سعود الأخ الأصغر للملك عبد العزيز مؤسس المملكة العربية السعودية. ولد الأمير عبد الله في الكويت سنة ١٨٩٤م وعاد إلى الرياض مع أبيه سنة ١٩٠٤م بعد استعادة أخيه عبد العزيز لعاصمتهم الرياض، شغف بالعلم والدراسة حتى لقبه الملك عبد العزيز بـ (فقية آل سعود وعالمهم) وشارك إلى جانب أخيه في العديد من المعارك كان أولها (هجيه) سنة ١٩١٠م وشارك في فتح الإحساء ومعارك الحجاز وتوفي في المستشفى التخصصي بالرياض في نوفمبر ١٩٧٦م. والدته هي الأميرة منيرة المهاشير الخالدي وكان من كبار المبايعين للملك سعود بن عبد العزيز آل سعود.

(٤٨) إن الأسر التي حكمت الإحساء من العصفوريين والجبور وبني خالد جميعهم يرجع نسبهم إلي قبيلة بني عقيل من عامر بن صعصعة من قيس عيلان من العدنانية، راجع محمد محمود خليل: **عرب البحرين (تاريخ الدويلات المحلية لبني عقيل)**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٧، ص٣ وما بعدها.

المؤرخ الألماني هانس إبرهارد ماير وكتابه "تاريخ الحروب الصليبية"
دراسة تحليلية نقدية

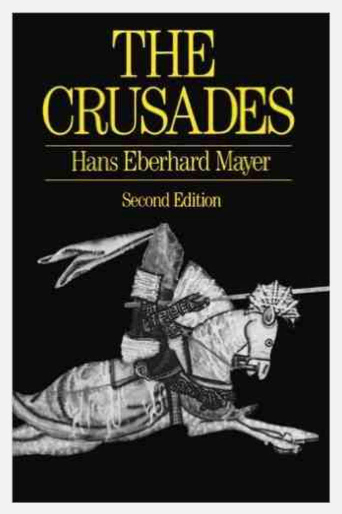

د. شعبان محمد خلف محمد حمزة

كاتب وباحث في تاريخ العصور الوسطى
دكتوراه في تاريخ العصور الوسطى
جامعة المنيا – جمهورية مصر العربية

بيانات الكتاب

تاريخ الحروب الصليبية
منشورات مجمع الفاتح للجامعات
ليبيا ١٩٩٠

تأليف: هانز إبرهارد ماير
ترجمة وتعليق: د. عماد الدين غانم
تقديم: د. نجاح صلاح الدين القابسي

كلمات مفتاحية:

الدويلات الصليبية، مملكة قبرص، المرأة الصليبية، الأراضي المقدسة، الحركة الصليبية

المؤلف

مؤلف هذا الكتاب هو "هانس إبرهارد ماير" الذي يُعَدّ ولا ريب – وكما تذكر الدكتورة/ نجاح القابسي صاحبة التقديم لهذا العمل من أكبر المختصين الألمان في دراسة الحروب الصليبية، حيث يشغل كرسي التاريخ الوسيط بجامعة كيل بألمانيا الغربية، وقد كرس الشطر الأوفر من حياته لدراسة هذه المرحلة الهامة من تاريخ أوروبا والشرق الإسلامي، إذ أنه نشر منذ حوالي ثلاثة عقود ثبتا وافيا بالكتب والأبحاث التي صدرت باللغات الأوروبية حول الحروب الصليبية، أضف إلى ذلك العديد والعديد من الموضوعات التي تدور في ثنايا الحروب الصليبية مثل كتابه: "الصليبيون والشرق اللاتيني" وكذلك كتابنا موضوع الدراسة التحليلية النقدية: تاريخ الحروب الصليبية" الذي أتم كتابته في ستينات القرن العشرين.

الكتاب

حظي كتاب: "تاريخ الحروب الصليبية للألماني "هانز إبرهارد ماير" منذ صدوره على اهتمام الأوساط العلمية الألمانية، وكذلك الأوروبية وليس أدل على ذلك من تكرار طبعته إلى ست طبعات منذ سنة ١٩٦٥ وحتى سنة ١٩٨٥، وترجم إلى الإنجليزية سنة ١٩٧٢م، ثم ترجمت أيضا طبعته السادسة المنقحة سنة ١٩٨٨، وأخيرًا تم ترجمته للغة العربية مع مقدمة للدكتورة نجاح القابسي، (منشورات مجمع الفاتح للجامعات) سنة ١٩٩٠.

آراء المؤرخين في الكتاب ومؤلفه

تقول د/ نجاح القابسي إن موضوعات كتاب: "تاريخ الحروب الصليبية" لهانس إبرهارد ماير" تتسم بالشمول، حيث يبدأ الكتاب بدراسة الدعوة للحروب الصليبية، وقد بين من خلالها العلاقة بين الصراع العربي الأوروبي على الأراضي الأندلسية ودور هذا الصراع في ظهور تلك الدعوة.

كما أوضح "ماير" كذلك دور الكنيسة في بلورة الفكرة الصليبية، وفي الأخذ بعقيدة صكوك الغفران باعتبارها من الوسائل المساعدة في إذكاء الحماس الصليبي، وبين "ماير" أيضًا المراحل التي مرت بها الدعوة والوسائل التي اعتمدت عليها، ثم انتقل بعد ذلك لدراسة الحملة الصليبية الأولى بالتفصيل ثم تناول بقية الحملات وظروف إعدادها سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، ثم ردود الفعل العربية الإسلامية تجاه هذه الحملات. ثم تعرض "ماير" بعد ذلك للكيانات الصليبية وأوضاعها الداخلية والعلاقات الصليبية الصليبية، والصليبية الأوروبية، والصليبية

البيزنطية، والصليبية الأرمينية، والصليبية المغولية، وظروف ضعف هذه الكيانات بعد ذلك، وطرد الصليبيين من الساحل الشامي، واستقرارهم في قبرص ورودس واليونان.

وعلى هذا فإن الكتاب برغم المميزات العديدة فيه، إلا أنه بقي كتابًا يعبر عن النظرة الأوروبية إلى الحروب الصليبية، ويدعونا إلى التفكير في المواضيع المهمة التي لم تجد الاهتمام الكافي حتى الآن من جانبنا مثل:

(١) مقومات حركة الجهاد ضد الغزو الصليبي، وتطورها اعتمادًا على كتب الجهاد والكتب العسكرية التي ألفت خلال تلك الفترة والعلاقة بين حركة الاسترداد في الأندلس والحركة الصليبية.

(٢) دور المغاربة في مقاومة الغزو الصليبي.

(٣) الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وأثرها في مقاومة الغزو الصليبي.

(٤) الوحدة العربية الإسلامية ودورها في القضاء على الكيانات الصليبية.

(٥) أما عن رأي الدكتورة/ نجاح القابسي في أفكار "ماير" فإنها تقول:

١/٥- إن آراء "ماير" متوازية بعيدة عن التعصب المخل والعنصرية.

٢/٥- رجوع "ماير" إلى المصادر العربية وهذا بالطبع أضفى على الكتاب أهمية كبيرة.

٣/٥- نجاح "ماير" في كثير من الأحيان في تحديد الصيغة العربية لأسماء الشخصيات الصليبية والأوروبية، وهو ما أضاف قيمة علمية للكتاب.

عرض لما تناوله المؤلف في كتابه:

نلاحظ أن كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" قد قسمه مؤلفه "هانس إبرهارد ماير" إلى ثلاثة عشرة فصلاً: تناول خلاله فترة الحروب الصليبية منذ بدء الدعوة لها، وحتى نهايتها وخروج الصليبيين من عكا سنة ١٢٩١م.

الفصل الأول:

حوض البحر الأبيض المتوسط حوالي سنة ١٠٩٥م

وهو أشبه بدراسة مختصرة عن أحوال أوروبا فترة ما قبيل قيام الحروب الصليبية، متمثلةً في الإمبراطورية الرومانية الغربية (ألمانيا) والإمبراطورية الرومانية الشرقية (القسطنطينية)، والبابوية في روما، وأحوال الكنيسة والصراع الذي دار بين الامبراطور هنري الرابع (١٠٥٦ – ١١٠٥م) والبابا جريجوري السابع، وبين البابوية وملوك انجلترا وفرنسا، والنورمان في الجنوب الإيطالي.

وقد أشار المؤلف كذلك إلى الحملة التي كان ينوي البابا جريجوري السابع أن يقوم بها لنجدة الإمبراطورية الشرقية (القسطنطينية) من هجمات السلاجقة، وتحدث المؤلف عن ثورة الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول (١٠٨١ – ١١١٨م)، واعتلاءه لعرش بيزنطه، وهجوم الثوار على باري آخر قاعدة بيزنطية في إيطاليا، ثم أبيروس، وسعى الإمبراطور الكسيوس لاسترداد أملاكه الضائعة.

تناول المؤلف أيضًا في هذا الفصل حركة الفتوح الإسلامية في المغرب وأسبانيا وصقلية، وتحدث أيضا عن السنة والشيعة والخلاف بينهما، وانقسام الشيعة إلى فرق، كان منها الإسماعيلية، ثم قيام الدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي، ثم ظهور الحشاشين، وضعف العرب، وظهور الأتراك خاصة السلاجقة الذين أسسوا دولة لها تمتد من خراسان عبر إيران حتى القوقاز وتشمل غربًا وجنوبًا بلاد ما بين النهرين، وسوريا وفلسطين حتى الحجاز، ثم توجهوا بعد ذلك لمحاربة البيزنطيين والقضاء عليهم بخطوات ثابتة، ونتيجة لهذا وقعت الكنيسة الأرثوذكسية في الأناضول – وكما يقول المؤلف – في ضيق ، وتعثرت حركة الحجاج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين بطريق البر.

ثم يعود المؤلف ليتحدث بعد ذلك عن انقسام السلاجقة على أنفسهم إذ خرج منهم سلاجقة الروم، ثم عاد المؤلف ليتناول مرة أخرى وفاة البابا جريجوري السابع سنة ١٠٨٥م، ثم فيكتور الثالث حتى اعتلاء البابا أوربان الثاني الكرسي البابوي (١٠٨١ – ١٠٩٩)، وهو البابا الأكثر حنكة من سلفه البابا جريجوري السابع، حيث عمل على تحسين علاقته مع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول حتى أن الأخير قبل إمداد الغرب له والبابوية بفرق من المرتزقة لتساعده في الوقوف متصديًا لهجمات السلاجقة على بلاده، غير أنه فوجئ بجيوش جرارة تقتحم عليه ملكه.

الفصل الثاني: "قيام الحروب الصليبية"

في هذا الفصل تناول المؤلف افتتاح البابا أوربا الثاني لمجمع كليرمونت الكنسي، وما تضمنه هذا المجامع من قضايا كنسية داخلية ثم تعرض للخطاب الذي ألقاه البابا أوربان الثاني داعيًا لرفع راية الصليب، ومحاربة المسلمين وكيف أن الفرنسيين استجابوا لهذا النداء.

وبين ثنايا سطور هذا الفصل يعود المؤلف وكأنه قد نسي أن يعرف لنا أو يعطى لنا المدلول الذي تعنيه كلمة القدس في الغرب، وما فيها من بريق وسحر ولمعان جذب إليه قلوب الناس، ويربط هذا بالعلامات والظواهر الطبيعية التي صاحبت قيام الحملات الصليبية، كظهور الجراد، وهبوط النجوم، وكيف كان للخرافات من تأثير خطير على عقول وقلوب العامة والبسطاء والجهلاء من الناس في الغرب الأوروبي.

شرح لنا المؤلف فيما شرح بكتابه "تاريخ الحروب الصليبية" في فصله الثاني: الحج وأهميته لدى المسيحيين، خاصة بعد بناء الأديرة والكنائس وتزايد أعدادها في الشرق، وما صاحب هذا أيضا من تزايد في أعداد الحجاج، برغم الصعوبات الكثيرة التي قد يواجهونها في الطريق.

ثم يوضح لنا المؤلف أيضًا الفرق بين الحج والحملة الصليبية، حيث يقول أن المشارك في الحملة الصليبية يتميز عن الحاج

بسلاحه، وأما الحملة الصليبية فلم تكن في أساسها سوى حج مسلح ذي امتيازات روحية خاصة تقترن بغفران خاص، وعليه فإن الحملة الصليبية هي تطوير محكم لفكرة الحج. وأن قيام الصليبيين بتلك الحملات كان نابعًا عند البعض من الفكرة القائلة بأن الأراضي المقدسة، ومخلفات السيد المسيح هي في أيدي المسلمين، ولابد من تخليصهما.

وعلى هذا ينتقل بنا المؤلف ليشرح لنا الأحوال الدينية والإقطاعية في أوروبا، وعن أقدمية فكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين في الأراضي المقدسة، منذ عهد البابا سلفستر الثاني (٩٩٩-١٠٠٣م)، ثم يعود المؤلف ويشير إلى حروب النورمان والمسلمين، ثم حرب المسيحيين ضد مسلمي الأندلس، وكيف أن الحروب في الأندلس قد أثرت على قيام الحملات الصليبية كجزء من العمل الأوروبي المشترك لصد الإسلام، حتى أن البابوات اعترفوا بعد ذلك بجهد المسيحيين في محاربتهم للمسلمين في الأندلس واعتبروه حرب صليبية كالتي بالقدس.

في هذا الفصل أيضًا استعرض هانس إبرهارد "ماير" ما اعتبره سببًا من أسباب قيام الحملات الصليبية، ألا وهو ضعف الإمبراطورية أمام الهجمات القوية للمسلمين، خاصةً بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١م.

أضف إلى ذلك فكرة التوحيد التي وجدها البابا أوربان الثاني فرصة يجمع فيها كل الأطراف المتنازعة كالبيزنطيين والنورمان والألمان وأوضح أن العامة إذا كانت الخرافات قد جذبتهم للاشتراك في الحملات الصليبية، فإن الأمراء والفرسان شدهم إليها أيضًا عوامل الجذب الاقتصادي والعوامل الاجتماعية – التي كان يحياها أهل الغرب الأوروبي – وكذلك حب المغامرة لدى الفرسان للحصول على مراكز أكثر أهمية.

أضف إلى ذلك تدهور الزراعة، وتزايد أعداد السكان، والصراع بين أبناء الفرسان على الإرث، إذ أن المؤلف قد بين لنا صور وأشكال نظام الإرث في شمال فرنسا وإيطاليا، وجنوب اللوار. وهنا اعتبر المؤلف أن المشاركة في الحملات الصليبية تمثل مجالاً رحبًا خلال القرن الثاني عشر لهؤلاء الأمراء والفرسان، حيث توفرت لهم الفرصة الحقيقية للخلاص مما هم فيه، والخروج من وضع القهر في جماعة الأسرة والرغبة بحياة حرة، ولعل هذا – وكما يذكر "ماير" – ما دفع بالكثير من الأمراء والفرسان إلى التطوع في الجيش الصليبي.

وفي صورة من صور الدراما التراجيدية يسرد لنا المؤلف مسألة صك الغفران، وأثرها على حياة الفرد ومدى أهميتها، إن سافر للشرق في حملة صليبية حتى تغفر ذنوبه وتتطهر، وبهذا يعتبر أن صك الغفران استعمل في القرن الثالث عشر الميلادي لأجل أهداف سياسية وعقوبات التوبة والتبرئة وعقوبات الذنوب، ثم يشير إلى أن من قام بالحملات الصليبية سواء من العامة أو من الأمراء والفرسان فقد قام لأغراض متنوعة، ما بين دينية واقتصادية واجتماعية وسياسية.

الفصل الثالث: الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ – ١٠٩٩م)

وهذا الفصل تناول فيه "ماير" اجتماع البابا أوربان الثاني في مدينة كليرمون الفرنسية، واختياره لـ "ادهيمار لوي بوي" Adhemar Van le Puy" قائدًا روحيًا للحملة الأولى، "وريمون الرابع كونت تولوز" قائدًا عسكريًا وتحديده ليوم الخامس عشر من أغسطس سنة ١٠٩٦م موعدًا لانطلاق الحملة الصليبية نحو الشرق ثم مواصلة البابا أوربان بعد ذلك لنشاطه الدعائي للحملة في كافة الأرجاء الأوروبية وإرسال الأساقفة لانجلترا وألمانيا وجنوب إيطاليا.

وبعدئذ ينتقل بنا المؤلف ليعرض لنا قصة ظهور بطرس الناسك، ومن ثم التعريف به، ودوره في تجمع العامة من الصليبيين حوله بفضل نبوءاته وانطلاقه بهذه الجموع من منطقة الراين تجاه الشرق مرورًا بالمجر وبلغاريا فالقسطنطينية، ومن قبله كان والتر المفلس أحد أتباع بطرس الناسك.

ثم يذكر "ماير" أيضًا أن بطرس الناسك بفضل فصاحته قد جمع العديد من الألمان حوله، ودفع بثلاث فرق تحت قيادة جوتشالك، وفولكمار، وأميكو لينغين للتوجه شطر بيت المقدس، لكن هذه الفرق قد أبيدت على حدود المجر، بعدها يسرد لنا وصول حملتي والتر المفلس وبطرس الناسك لبيزنطة، ومن ثم عبورهما إلى آسيا خلال مضيق البسفور، وبمساعدة البيزنطي ألكسيوس كومنين، وتعرضهما للإبادة من قبل السلاجقة، ولم ينج منهم إلا القليل من ضمنهم بطرس الناسك الذي فر عائدًا إلى القسطنطينية، ثم فشل حملة العامة تلك.

وأصبح الأمل معقود على حملة الفرسان متمثلةً في حملة الأمير "جودفري دي بوايون" فرنسي الجنسية، وهنا شرح "ماير" التعريف به، ومن صحبه في الحملة، والطريق الذي سلكه وصولاً إلى بيزنطة مركز تجمع القوات الصليبية، ثم تعرض للكونت هيو فرماندوا، وبوهيمند النورماني، وريموند تولوز، وروبرت النورماني، وروبرت الثاني كونت فلاندرز، وكيف أنهم ساروا متخذين طريقًا مغايرًا لجيش جود فري دي بوايون، وهو طريق أجناتيا، وتناول المؤلف الشخصيات البارزة التي اشتركت في الحملة كزوجات الأمراء، وأخواتهم، وما تعرضوا له من مخاطر طوال الطريق حتى وصلوا لبيزنطة، والعلاقة بينهم وبين الإمبراطور البيزنطي "الكسيوس كومنين"، ومن ثم عبورهم لآسيا، بعد أزمة الشكك التي أنتابت الجانبين البيزنطي والصليبي، وإصرار بعض الفرسان الصليبيين على عدم حلف اليمين للإمبراطور البيزنطي " كريمون كونت تولوز" الذي لم يحلف اليمين إلا تحت وساطة القادة والمندوب البابوي أدهيمار على أن يحترم شخص الإمبراطور وممتلكاته.

بعد ذلك يحدثنا "ماير" عن تحرك جود فري دي بوايون والنورمان في نهاية إبريل سنة ١٠٩٧م من بلكانوم، نحو نيقية. عاصمة السلطان السلجوقي، "قليج أرسلان" – ذات الموقع

الاستراتيجي التي وصل إليها في ٦ مايو ١٠٩٧م حيث أحكموا حولها الحصار، ويوضح لنا "ماير" هنا أن قليج أرسلان" لم يأخذ الصليبيين عندما سمع بمقدمهم على محمل الجدية بعد تجربته مع جموع بطرس الناسك، ولكن بعدما تحقق من الأمر، وقرر التقدم لمقاتلتهم ومقاومتهم، لقي هزيمة كبيرة على أيديهم، حيث فات الأوان.

وبين لنا "ماير" أيضًا أن قادة الجيوش الصليبية ساروا عبر الأناضول إلى أنطاكية في مسيرة ٤ أشهر عانوا فيها نقص الماء والغذاء وأن الطرق التي ساروا من خلالها طرق كانت بالنسبة لهم مجهولة وأضحوا بذلك في حاجة ماسة لقيادة موحدة إذ أنهم كانوا دائمي التنازع، ومن ثَمَّ فقد قسموا أنفسهم لمجموعات.

وفي ٢٩ يونيو اصطدمت مجموعة منهم، وهي مجموعة بوهيمند بقوات "قليج أرسلان"، وفي فجر اليوم التالي وقعت المعركة وهجم السلاجقة من جميع الجهات، وقد استفادوا من سلاحهم الخفيف، ومن خفة حركتهم بحيث لا تتمكن صفوف الفرسان المثقلين بالدروع من مهاجمتهم، وبذلك أحاطوا النصارى بسهامهم من كل جهة، ومن ناحية أخرى لم تكن قوتهم كافية لاختراق الصفوف التي رصها بوهيمند بصلابة، وقد فاجأ الأتراك الظهور المباغت للفرقة الثانية بقيادة جود فري دي بوايون ، وريمون تولوز، التي بلغها الأمر عن طريق بوهيمند، وحسمت المعركة للصليبيين ووقع المعسكر السلجوقي في أيديهم.

ثم يتابع "ماير" بعد ذلك تقدم الصليبيين حتى بلوغهم أنطاكية ثم طرابلس، وبيت المقدس، وكيفية استيلاءهم عليهم، ثم يوضح لنا في وصف رائع دخول الصليبيين المسجد الأقصى، والمذبحة الرهيبة التي افتعلها الصليبيون، ثم المنازعات بين القادة الصليبيين على تولي المناصب، بعد احتلالهم المدن الإسلامية، وقضاء الصليبيين على الجيش المصري بقيادة الوزير الأفضل قضاءً مبرمًا.

الفصل الرابع: الدويلات الصليبية (١٠٩٩ – ١١٤٦م)

وهو فصل حدثنا فيه "ماير" عن الوصف الجغرافي للمناطق التي احتلها الصليبيون، ثم مناخ المنطقة، وأحوالها تحت أيدي الصليبيين، ودور الجمهوريات الإيطالية كبيزة، والبندقية وأساطيلهم في الاحتلال الصليبي للبلاد الإسلامية، ثم ينتقل الحديث بعد ذلك نحو وفاة جودفيري دي بوايون ملك بيت المقدس، وتولية أخيه بلدوين خلفًا له، ثم أثر نجاح الحملة الصليبية في الشرق، حيث استيقظت الروح الصليبية لدى أهل الغرب الأوروبي، حتى حملوا صلبانهم واتجهوا ناحية الشرق الإسلامي، مثل ولف الرابع كونت بافاريا، وكونتيسة النمسا "إيدا" أرملة لوتيبولد الثاني، والمؤرخ اكهارد وغيرهم، وقد ذكر "ماير" أنهم ساروا نحو بيزنطة ثم هرقلية لكن السلاجقة أوقعوهم في كمين وقتلوهم أو أسروهم.

بعدها يستعرض "ماير" حملة بوهيمند أمير أنطاكية عام ١١٠١م، ويذكر أن الصليبيين انتصروا وتغلبوا على المسلمين إلا لضعف الآخرين وانفراط عقدهم، ثم يحدثنا بعد ذلك عن النزاع الصليبي الصليبي، والتآلف بين الصليبيين والمسلمين، ثم يتكلم عن الفاطميين وضعفهم، والهيئات العسكرية الصليبية كالاسبتارية ونزاع الصليبيين على الإرث، والدور الاقتصادي لجنوه وبيزه والبندقية،حتى تسلم عماد الدين زنكي راية الجهاد ضد الصليبيين، ثم ينتقل للحديث عن الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومنين (١١١٨ – ١١٤٣م)، وحملاته على الأناضول وشمال الشام الإسلامية مرة أخرى، ووفاة زنكي وتولية خلفاءه وهم ابنه الأكبر سيف الدين غازي في الموصل، ونور الدين محمود في حلب.

الفصل الخامس: الحملة الصليبية الثانية (١١٤٥ – ١١٤٩م)

يحدثنا المؤلف "هانس إبرهارد ماير" في الفصل الخامس من كتابه: "تاريخ الحروب الصليبية" عن سقوط الرها في أيدي المسلمين وأثره على الغرب الأوروبي، ومن ثَمَّ الدعوى لحملة صليبية ثانية، على يد البابا إيوجينيوس الثالث، وتكليفه للقديس برنارد رئيس دير كليرفو بنشر الدعوة الصليبية في كافة الأرجاء الأوروبية، ثم استجابة الملك الألماني "كونراد الثالث" والملك الفرنسي لويس السابع" للقيام بحملة صليبية على الشرق.

ثم يروي لنا "ماير" بعد ذلك كيفية الاستعداد الألماني والفرنسي للحملة الصليبية، ثم الاتفاقيات التي تمت بينهما وبين البيزنطيين لأجل ذلك، فانطلاق الحملة الألمانية بقيادة كونراد الثالث وتوجهها من ألمانيا ومرورها بالنمسا، ثم المجر، فبلغاريا، ثم القسطنطينية، واستقبال الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنين لها، وعبورها لآسيا الصغرى حتى وصولها إلى نيقية.

ثم ينقلنا "ماير" في صورة رائعة إلى تحرك الفرنسيين بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع واتخاذه للطريق البري الذي سار فيه الملك الألماني، وعبوره المجر ثم بلغاريا فالقسطنطينية، والتقاؤه بالإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنين، ٤ أكتوبر ١١٤٧م. والعلاقة التي ربطت بين الجانبين الفرنسي والبيزنطي وتصرفات الفرنسيين حيال الأراضي البيزنطية، ثم عبورهم لآسيا الصغرى، حتى وصولهم إلى عكا، مركز تجمع القوات الصليبية مع الجيش الألماني بقيادة كونراد الثالث، وعقدهم اجتماعًا للعمل على وضع خطة عسكرية للتحرك تقضي بتوحيد حلب ودمشق، وعزمهم على الإعلان عن مهاجمة دمشق أولاً، وتحركهم ومحاصرتهم لدمشق، وما وقع للجيش بعد ذلك من فشل الحصار ودعوة الملكان الألماني والفرنسي دون طائل يذكر، حيث مرورهم بالأراضي البيزنطية ومقابلتهم للملك البيزنطي مانويل الأول كومنين، وعرض الملك الألماني كونراد الثالث عقد تحالف مع البيزنطي مانويل ضد النورمان. العدو اللدود والمشترك وكان هذا ما أنهى به هانس أبراهارد "ماير" فصله الخامس عن الحملة الصليبية الثانية.

الفصل السادس: الدويلات الصليبية (١١٤٩ – ١١٨٧م)

بين "هانس إبرهارد ماير" في هذا الفصل توزيع إرث زنكي بعد وفاته سنة ١١٤٦، بين أبناءه سيف الدين ونور الدين، ثم تحالف الأخوان ضد الصليبيين ومقاومتهم للحملة الصليبية الثانية، وبعد

انتهاء الحملة الصليبية وفشلها عاد نور الدين محمود للعودة مرة أخرى لمقاومة الصليبيين في أنطاكية، مع الأخذ ببناء المدارس والجوامع لنشر المذهب السني، ونبذ المذهب الشيعي ثم عمله على نبذ التحالف بين دمشق والصليبيين حتى دخوله دمشق، وترحيب الناس به، وكيف أن نور الدين محمود أضحى خطرًا على الصليبيين.

بعدها يصور لنا "ماير" الملك بلدوين الثالث وأمه مليزا ثم يصف لنا بلدوين الثالث من حيث الشكل والجسم، وسياسته تجاه المسلمين والصليبيين. ثم زواج أميرة أنطاكية كونستانس أميرة أنطاكية من رينالد دي شاتيون، ووفاة بلدوين الثالث وتوليه خلفه الملك عموري الأول وسياسته الداخلية والخارجية خاصة حملاته على مصر والصراع بين شاور. وضرغام، ثم موت عموري وظهور صلاح الدين الأيوبي، وتوحيد كلمة المسلمين ومقاومة تهديدات رينالد دي شاتيون أو أرناط وقتله، ثم يحدثنا كذلك عن تولية بلدوين الرابع بعد وفاة عموري الأول. وسياسته داخليًا وخارجيًا حتى وفاته، ثم موقعة حطين والاستعداد الصليبي لها، والإسلامي كذلك، وكيفية نجاح المسلمين في هزيمة الجيش الصليبي هزيمة ساحقة في هذه الموقعة، وتغير أوجه السياسة الخارجية للمسلمين لتقف موقف القوة، وأثر تلك الهزيمة وانتصار المسلمين من حيث تمكن صلاح الدين من استرجاع بيت المقدس لحظيرة المسلمين مرة أخرى سنة ١١٨٧م. ورد فعل تلك الأحداث على صليبي الشرق والغرب على السواء.

الفصل السابع: الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧ – ١١٩٢م)

في هذا الفصل أشار "هانس إبرهارد ماير" إلى النزاع بين البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة في الفترة من (١١٥٩ – ١١٧٧م*، ثم يتعرض بعد ذلك لأهمية القدس، وأثر سقوطها في الأوساط الأوروبية، وتتابع وصول السفارات لأوروبا بعد وقعة حطين، والدعوة للحملة الصليبية الثالثة، واستجابة كل من الملك الألماني فردريك الأول بربروسا، والملك الفرنسي فيليب أغسطس والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، وأعدادهم للتحرك شطر الأراضي المقدسة، وكان أول مَنْ تحرك بحملة الإمبراطور فردريك الأول بربروسا حيث اتخذ الطريق البري المار عبر النمسا، ثم المجر، فبلغاريا، فالقسطنطينية وقد تحدث "ماير" هنا عن العلاقة التي ربطت بين فردريك الأول بربروسا وإمبراطور بيزنطة اسحق انجليوس، ومخاوف كل منهما من الآخر، والعراقيل التي وضعها الإمبراطور اسحق للجيش الصليبيين مما دعا فردريك بدعوة ابنه هنري السادس للإعداد لحملة عن طريق البحر لحصار القسطنطينية ثم عبور الإمبراطور فردريك الأول بربروسا لمضيق البسفور تجاه آسيا الصغرى، ثم غرقه في نهر سالف، ونهاية حملته وتشتت جيشه بين من تابع تقدمه نحو الشرق، وبين مَنْ رجع لبلده أو البلدان الأخرى.

بعد ذلك يروي لنا "ماير" ما حدث من تقدم الجيشين الفرنسي والإنجليزي عبر الطريق البحري، حتى وصولهما لعكا، ومن ثم التوجه لاستعادة بيت المقدس، والدخول في عدد من العمليات العسكرية مع القوات الإسلامية بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ثم الصراع بين الصليبيين أنفسهم مما أدى إلى عودة الملك الفرنسي لبلاده دون تحقيق طائل، بعده عاد أيضا الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده عن طريق النمسا، بعدما عقد صلح مع صلاح الدين الأيوبي عرف بصلح الرملة، ثم وفاة صلاح الدين الأيوبي وهنري السادس بمسينا بعد قيامه بحملة صليبية فاشلة نحو الشرق الإسلامي.

الفصل الثامن: تطور الدويلات الصليبية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر

وقد تكلم فيه "ماير" عن زيارات الرحالة للأراضي المقدسة، وما سجلوه من أحداث ومرويات عن هذه الأماكن، وعن نشأة الإقطاع في مملكة بيت المقدس، وعن السكان الصليبين وتوطنهم، وتقسيم السكان الصليبيين لطبقات فجعل الطبقة البرجوازية المكونة من النبلاء والبارونات هي الطبقة العليا، ثم حدثنا "ماير" بعد ذلك عن العادات والتقاليد في المجتمع الصليبي ببلاد الشام، والزواج وتقاليده وطقوسه ومراسيمه سواء للنبلاء والعامة، وتحدث كذلك عن البلاط الصليبي ومراسيمه ووظائفه.

ثم وضع المرأة الصليبية ببلاد الشام، ثم حدثنا عن النظام المالي الملكي والأوضاع الاقتصادية للصليبيين، ورجال الدين والمحاكم والتنظيم الكنسي في المدن الكبيرة والريف والعلاقة بين الكنائس الشرقية بعضها ببعض، وعن الجاليات الإيطالية والتجارة والتجار، والسوق والبضائع، ثم تطرق "ماير" بعد ذلك إلى اهتمامات الملوك بقراءة التاريخ كما يقول وليم الصوري، والاهتمام بالكتب وتزويقها والناسخون، وغير ذلك.

الفصل التاسع: الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٨ – ١٢٠٤م) اليونان تحت حكم الإفرنج (١٢٠٤ – ١٣١١)

في هذا الفصل حدثنا "ماير" عن الحملة الألمانية الصليبية التي قام بها الملك هنري السادس من قبل، ثم تطرق للحديث عن الدعوة للحملة الصليبية الرابعة، ودور البابا أنوسنت فيها، ثم الاتفاق الذي وقع بين الصليبيين والبنادقة لنقلهم للأراضي المقدسة، ومن ثم رحيلهم، ثم تحول الحملة عن مسارها للهجوم على مدينة زارا، بعدما غرر البنادقة بالصليبيين، والنهب والسلب الذي وقع بالمدينة جراء هذا الهجوم، ثم تناول "ماير" بعد ذلك التحول الثاني للجيش الصليبي من مدينة زارا إلى مدينة القسطنطينية واحتلالها بدلا من التوجه نحو الأراضي المقدسة.

وما أوقعه الصليبيون والبنادقة بأهل القسطنطينية والمدينة ثم عرض موقف البابوية من هذا الاحتلال، وتحول الحملة الصليبية الرابعة عن مسارها، والولايات اليونانية مثل أبيروس – ونيقية – وطرابيزون – وتكوينها وملوكها وسياستها، وعن الامبراطور يوحنا

الثالث فاتانس (١٢٢٢ – ١٢٥٤م) ثم نهاية السيطرة اللاتينية على القسطنطينية على عهد ميخائيل الثامن بلايولوغوس (١٢٥٩ – ١٢٨٢م) وعن الإقطاعات اليونانية.

الفصل العاشر:

الحملة الصليبية ١٢١٢ الحملة على دمياط (١٢١٧ – ١٢٢١م)

حدثنا "ماير" عن أن الحماس الصليبي في الغرب لم يضمر بعد استسلام الدويلات اللاتينية في اليونان من أجل الحملات الصليبية. ولهذا قامت الحملة التي عرفت بحملة الأطفال والتي قام بها أطفال من ألمانيا وإيطاليا، ومصير هذه الحملة ونهايتها ثم دعوة البابوية لحملة صليبية جديدة حيث وجه النداء للألمان، وإمبراطورهم فردريك الثاني الذي كان لانشغاله بالحرب مع أوتو الرابع أثر في تأجيل الدعوة، وعدم تلبيته، وكذلك انشغال ملكي فرنسا وانجلترا بصراعهما أيضا مما منع مسيرتهما. لكنه أشار إلى حملة جان دي برين على دمياط، وما قام به الصليبيون من دخول دمياط ومهاجمة برج السلسلة ثم مقاومة القوى الإسلامية بقيادة الملك الكامل محمد لها، ونهاية الحملة الصليبية الخامسة وفشلها وأثر ذلك في توحد كلمة الأيوبيين.

الفصل الحادي عشر: حملة فردريك الثاني (١٢٢٨ – ١٢٢٩م)

يستعرض لنا "ماير" في هذا الفصل قرار الحرمان الذي ناله الإمبراطور الألماني فردريك الثاني لعدم تلبيته دعوة البابا للقيام برفع راية الصليب ومحاربة المسلمين، واعتبروا أنه السبب في الحملة الصليبية الخامسة، ثم يحدثنا "ماير" عن استعداد فردريك وخروجه في الحملة الصليبية التي عرفت بالسادسة، ومقابلة الملك الكامل محمد، والاتفاقيات التي جرت بينهما، وحصول فردريك على مفاتيح بيت المقدس دون أية حرب بينه وبين المسلمين وأثر ذلك على المسلمين، وكذلك البابوية وأهل الغرب الأوروبي، وما ناله فردريك من الحفاوة في بلده بسبب ذلك حتى أصبح يعرف بابن الكنيسة المحبوب.

الفصل الثاني عشر: مملكة قبرص حتى ١٤٨٩م والدويلات الصليبية (١١٩٢ – ١٢٤٤)

عرض لنا "ماير" تاريخ مملكة قبرص وفرسانها وحكامها ودورها السياسي حتى سقوط عكا ١١٩٢م. وحكام قبرص في عكا الصليبية، وما كانت عليه مملكة قبرص من المكانة الاقتصادية بعد وقوع عكا في أيدي المسلمين وخروج الصليبين من بلاد الشام ثم شرح لنا كيفية احتلال المماليك لجزيرة قبرص ١٤٢٦، وأحوالها على أيديهم وحتى العصر العثماني بإيجاز.

الفصل الثالث عشر: الدويلات الصليبية (١٢٥٤ – ١٢٩١م)

وكان هذا آخر فصل من فصول كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" لهانس إبرهارد ماير" حيث أشار فيه عن حملة لويس التاسع عشر على الشرق. وهزيمته ووقوعه في الأسر، ومن ثم رحيله إلى عكا، ثم إلى بلده فرنسا بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١م، ثم وفاة هنري الأول ملك قبرص وآل آبلين والحرب الأهلية الطاحنة في قبرص، والملك هيثوم الأول وحرب المغول، ثم تحدث عن السلطان بيبرس وبروزه كأهم شخصية من شخصيات العصر المملوكي، وسياسته تجاه الصليبيين في بلاد الشام وحروبه في إنطاكية، ثم وفاة بيبرس في دمشق، والهدنة التي وقعت بين الصليبيين والأرمن والمغول ١٢٧٥م، ثم زحف قلاوون على عكا وسقوطها ١٢٩١م.

في ضوء ما عرضناه "لهانس إبرهارد ماير" وكتابه "تاريخ الحروب الصليبية" يمكن القول أنهما حملا ميزات عدة كان منها:

- أن "هانس إبرهارد ماير" أجاد كمؤرخ ألماني في سرد أحداث الحروب الصليبية على مدار تاريخها الطويل.
- تميز أسلوبه بالسلاسة والوضوح وسهولة العرض.
- إجادته في تحليل الكثير من المواقف والمعارك العسكرية.
- ذكره الدقيق لأسماء القادة والنبلاء والملوك والأماكن والبلدان بدقة متناهية سواء في الغرب أو الشرق.
- عدم المبالغة في كثير من الأحيان.
- تبين أيضًا من خلال هذا العرض أن "هانس إبرهارد ماير" كمؤرخ ألماني مسيحي تمتع في كثير من الأمور بعدم التحيز لجانب بعينه سواء الصليبيين أو المسلمين، وإنصافه كثيرا للجانب الإسلامي، وليس أدل على ذلك مما ذكره في الفصل الأول من كتابه أثناء حديثه عن معاملة السلاجقة المسلمين لمسيحي الشرق، حيث ذكرا ما نصه: "إنه لم يثبت أبدًا أن السلاجقة قد ضغطوا على المسيحيين الشرقيين، كما تزعم المصادر الغربية، إذ لم يعامل المسيحيون في المناطق التي سيطر عليها السلاجقة معاملة تختلف عن معاملة المسيحيين في ديار الإسلام، حيث ينظر إليهم كأقلية تخضع لحماية الشريعة الإسلامية، وتدفع الجزية، ولها حق ممارسة شعائرهم الدينية بحرية محدودة، وأن ما جرى للمسيحيين أثناء الاحتلال يتعلق بسير الحرب، وقد تعرضت له جميع طبقات السكان.. وعندما يركز البابا أوربان الثاني على ملاحقة المسيحيين الشرقيين، وتحذو حذوه حركة الدعاية للحملة الصليبية، فإنما يعود هذا إلى جهله بحقيقة الواقع أو إلى هدف إيقاظ الأحقاد في أوروبا".
- تحرى "ماير" الصدق في كثير من المواقف، وذكره لما يعرفه فقط، وما لا يعرفه يقول عنه أنه لا يعرفه أو أن معلوماته فيه قليلة مقتضبة، وليس أدل على ذلك مما جاء في الفصل الثاني عشر من كتابه، حيث قال: "إن معلوماتنا حول تطور الدويلات الصليبية في الساحل الشامي ليست بنفس الجودة التي كانت عليها قبل ١١٩٢، لقد ضاعت مجموعات كثيرة من الوثائق، ولم يتوفر لنا تاريخ مثل ذلك الكتاب الذي ألفه وليم الصوري".
- استخدام "ماير" ثبتا جيدًا للمصادر والمراجع مع وجود الخرائط وكشفًا للإعلام، وهذا ما يضفي على الكتاب أهمية خاصة.

- إن كان المعلومات التي ذكرها "ماير" في كتابه تعبر عن وجه نظره كمؤرخ ألماني، إلا أنها – وكما أعتقد – لا تعبر بالضرورة عن رؤية ووجهة نظر الألمان في الحروب الصليبية وتجاه المسلمين عمومًا.

إن كانت هذه ميزات تميز بها "ماير" في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية" فإن هناك عدد من المآخذ التي قد أخذت عليه منها:

- وصفه للفتوحات الإسلامية في جنوب فرنسا وسويسرا بأنها قد سببت الدمار والتخريب لهذه البلاد، وهذا ما قاله في فصله الأول من كتابه: "تمكن المسلمون خلال القرن التاسع الميلادي من فتح صقلية في الغرب، واتخذوا مواقعهم في جنوب إيطاليا، حيث ألحقوا سنة ٩٨٢م هزيمة نكراء بالإمبراطور الروماني أوتو الثاني، وأوقعوا الدمار في جنوب فرنسا وسويسرا، وكانوا ينطلقون على هذه المناطق من قواعدهم على شاطئ بروفانس". وهذا بالطبع لم يكن جد صحيح، فكيف لأمة كان لها هذا الكم الهائل من الحضارة في بلاد الأندلس وغيرها، وانتشرت علومها وآدابها في كافة أنحاء العالم، بحيث تعلم منها هؤلاء الأوروبيون أنفسهم، ونقلوا عنها علومها، أن يكون هذا حالهم أثناء فتوحاتهم، وماذا يسمى إذن الهجمات الشرسة للشعوب الجرمانية، وغزوهم لبعضهم البعض، وما يلحقونه من سلب ونهب؟!
- مما يعاب على "ماير" أيضًا: أن يذكر أن خلافًا قد وقع في الإسلام بين السنة والشيعة وهو خلاف ديني – دون أن يتحقق من هذا، إذ لم يدرك هنا أن الخلاف بين السنة والشيعة كان خلافًا سياسيًا وليس دينيًا في العقيدة أو السنة، على من له حق تولية الخلافة.
- أضف إلى ذلك عدم وضع "ماير" هوامش للتعريف بالأماكن والمدن والبلدان والشخصيات المعروفة وغير المعروفة.
- انسياق "ماير" وراء المصادر الغربية، خاصة تلك التي وصفت المسلمين بالكفار دونما أن يحدد ذلك في كتابه أو يعلق عليه. **وقد جاء هذا في الفصل الثاني من كتابه، حيث ذكر ما نصه:** "إذا لم يكن المقصود من الحملة الصليبية، كما قال عنها أوربان مساعدة المسيحيين في الشرق، ولو أن الهدف غير مبرر في حقيقة الظروف إلا أن هدفًا أكثر تحديدًا نشأ عن هذه الدعوة ألا وهو تحرير الأراضي المقدسة .. من يد الكفار". وفي موضع آخر يقول: "ينوه البابا بوجود التوجه إلى هناك (أي إلى الأراضي المقدسة) لمقاتلة الكفار الذين امتلكوا تلك المدينة وأرض المسيحية بأجمعها وبلغوا القسطنطينية.
- يُعاب على "ماير" كذلك تكراره لبعض الأحداث كمسألة الميراث عند الصليبيين التي يتكلم عنها في الفصل الثاني من كتابه ثم يعود للحديث عنها مرة أخرى.
- يؤخذ على "ماير" أنه برغم التفصيلات الكثيرة التي نراها في ذكره لأحداث الحملات الصليبية، إلا أننا نجد أنه قد تحدث باختصار شديد عن مرور الحملات بشبه جزيرة البلقان – خاصة مملكة المجر وبلغاريا والأراضي البيزنطية وصولا للقسطنطينية سواء عن الطريق البري المعروف باسم بلجراد القسطنطينية أو عن طريق اجناتيا المار بالبحر الأدرياتيكي ثم بلغاريا فالقسطنطينية ، وما حدث أثناء هذا المرور من اشتباكات وسلب ونهب على تلك الأراضي، وهو ما يبين لنا أكثر طبيعة هذه الحملات من أنها لم تأتي لتخليص القدس من أيدي المسيحيين الغاصبين على حد زعمهم، بل لغرض اقتصادي والطمع في ثروات الشرق، والدليل على ذلك أفعالهم الوحشية بإخوانهم في المسيحية الفاطمية بشبه تلك الجزيرة.
- مما يؤخذ على "ماير" كذلك أنه كان في بعض الأحيان يميل إلى تصديق القصص والخرافات ، ونقله من النصوص دونما تحليل، ومثال ذلك، ما جاء لديه في الفصل الثالث من كتابه حيث يقول: " وتبعًا للقصص فقد تزوجت "إيدا" – (وهي كونتيسة نمساوية جاءت إلى الشرق الإسلامي وبعض الصليبيين على إثر احتلال الأخير للقدس، وقد هاجمها السلاجقة وقيل أنها أسرت أو قتلت) – أميرًا عربيا وهي أم زنكي ألد أعداء النصارى في حين أنه كان على تيمو أن يصلح صنما إسلاميًا". وهذا قول خاطئ لماير ولا يمت للحقيقة بصلة، إذ لم يعلم أن عماد الدين زنكي كان في هذه الفترة (أي فترة مجيء أيدا للشرق) شابًا يافعًا، كذلك لم يفسر لنا "ماير" من هو "تيمو" الذي كان لابد له من أن يصلح صنمًا إسلاميًا، وهل يعرف "ماير" أن المسلمين كان يصلحون الأصنام في ذلك الوقت، إذن هذا الكلام غير منطقي بالمرة، حتى أننا نرى أن مترجم الكتاب يرد عليه في هذه النقطة في الفصل الثالث نفسه بالقول: "إن هذه الأسطورة لها علاقة بالتصورات الخاطئة عن الإسلام والتي كانت شائعة في أوروبا، وبالعقلية الأوروبية الخاضعة للخرافات".
- نلاحظ أن "ماير" في الفصل الحادي عشر من كتابه، يشبه الإمبراطور فردريك الثاني بأنه تلميذ محمد، فهل يعلم "ماير" أن لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلميذ من النصارى يتعلم على يديه، ثم يكذبه، ويكون نصرانيًا، ثم يدعيه ابن الكنيسة المحبوب بعد ذلك. فإننا نقول أن "ماير" وإن كان يريد أن يعبر لنا عن مدى العلاقة الحميمة التي جمعت بين الإمبراطور فردريك الثاني، وبين الملك الكامل محمد، فليس من المفروض عليه أن يبالغ في هذا التشبيه لحد المبالغة هذه، وإن العلاقة التي ربطت الملك الألماني بالملك الكامل ما هي إلا علاقة قد نشأت في ظروف طارئة اتهم فيها حتى الملك الكامل بالخيانة لأنه قد انصاع لفردريك وسلمه مفاتيح القدس، إنقاذًا لموقفه في الأوساط الأوروبية وقرار الحرمان الذي صدر ضده.

خلاصة القول: إن كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" للمؤرخ الألماني: "هانس إبرهارد ماير" يعد من الكتب ذات القيمة الكبيرة برغم ما فيه من ملاحظات، لأنه يعبر عن صورة الحروب الصليبية في أعين أحد المؤرخين الألمان، ولما يحويه من معلومات غاية في التفاصيل الكثيرة، ولا يبعث على الملل لأنه قلما تجد كتابًا يسرد لنا هذه الوجه الغربية وتغطي كل هذه الفترة الهامة من فترات تاريخ العصور الوسطى، وبخاصةً تاريخ الحروب الصليبية.

أبعاد الصراع في المجال المغربي
نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث
دراسة مقارنة

د. عبد الرزاق السعيدي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

مدير مركز الدراسات والأبحاث – تافيلالت

المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه في الآداب تخصص تاريخ

وحدة التكوين والبحث: المغرب في العلاقات الدولية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله – فاس ٢٠١٣.

إعداد: عبد الرزاق السعيدي

إشراف: أ.د. ماجدة كريمي

كلمات مفتاحية:

الدولة المغاربية، الدولة السعدية، السلطة العثمانية، الحقبة الوسيطية

مُقدِّمة

شكل تاريخ المجال المغاربي قديمًا وحديثًا موضوعًا سالت فيه أقلام الدارسين والباحثين. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التاريخ ما يزال في حاجة للبحث والتنقيب، وذلك وفق محددات معرفية ومنهجية جديدة، ترنو تقويم المعطيات التاريخية بروح من المسؤولية العلمية والاقتراب من الموضوعية، من أجل توضيح بعض جوانب تاريخ هذا المجال على امتداده. بل والأكثر من هذا محاولة توضيحه بعيدًا عن الأبحاث التي اعتمدت البطولة والثيولوجيا (Theology)، بل والخرافة في بعض الأحيان.

وبالمقابل فإننا ننوه بالأعمال الجادة والتي أولت عناية فائقة لجوانب الصراع في تاريخ هذا المجال وأبعادها الجيوسياسية والاقتصادية، وتحديدًا في حقبته الوسيطية والحديثة والتي استوفت أغراضنا العلمية التاريخية، في استحضار الماضي وفهمه بعيدًا عن الاندفاع والتشنج كما ننوه بالأعمال التي استهدفت تحرير دراسة التاريخ الإسلامي عمومًا وتاريخ المجال المغاربي على وجه التحديد من أخطبوط التبعية سواء للماضي أو للآخر، دون رفض مناهج القدامى ومناهج الغربيين على الإطلاق بقدر ما حرصنا على الإفادة من نتائجهما معًا بعد الاستقصاء والمتابعة.

وحين نحاول هنا دراسة تاريخ العلاقات بالمجال المغاربي خلال نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، في علاقته الوثيقة - قليلاً أو كثيرًا- بالصراعات التي عرفها هذا المجال على جميع المستويات-اقتصادية وسياسية- مذهبية، فإننا لا نعمل على إقحام التاريخ ضمن إطار الجغرافية السياسية، ولا على تطويعه لها بشكل تعسفي، ذلك أن مثل هذا الأمر لا يعدو في اعتقادنا إلا أن يكون عملية هجينة غريبة عن "علم التاريخ" على عكس ذلك، نحن نطمح هنا إلى أن نبحث تاريخ المجال المغاربي من خلال منظار جديد، يؤكد في المقام الأول على تلمس القضايا الرئيسية التي عرقلت من تطوره، نهاية تاريخه الوسيط وبداية عصره الحديث وعلى جميع المستويات.

وفي هذا الإطار تدخل هذه المحاولة التي اخترناها موضوعًا للبحث، ضمن مسعى هادف يرنو إلى مقاربة الصراعات الجيوسياسية الدولية في ضوء المصالح الاقتصادية، والتساؤل حول إمكان التنقيب عليها في تاريخ المجال المغاربي في فترته الوسيطية وبداية فترته الحديثة بالتحديد.

والحاصل أن هذا الموضوع "الصراع في المجال المدروس" ظل في واقع الأمر حتى عهد قريب يدخل في دائرة الحكر على المشتغلين بالأنثروبولوجيا والعلوم السياسية والعلاقات الدولية، وأن ما كان يرد عند بعض المؤرخين في هذا الإطار لم يخرج في مجمله عن دائرة الترف الفكري والإشارات الخجولة في الغالب الأعم. إلا أنه من شأن هذه الدراسات أن تساعد المؤرخ على إعادة ترتيب المعلومات التاريخية والمتواترة بالخطأ أو المغالطة، ومن ثمة فإن هذا البحث

يحاول وضع سياقات علمية جديدة للعديد من المعطيات المتداولة في هذا الحقل خلال الفترة المدروسة.

ولعل التصدي لمثل هذه الإشكالات يتطلب جهدًا كبيرًا لإنجاز المتطلبات العلمية المراد ملامستها، وعليه فإن الأصالة في هذه المعالجة منهجًا ومضمونًا، كانت الدافع الأساسي لاختيار إشكالية البحث هذه الإشكالية المتمثلة أساسًا في تحليل القوة المكانية، بشريًا وجغرافيًا واجتماعيًا، ودورها في رسم أبرز ملامح الصراع بالمجال المغاربي في فترتيه الوسيطية والحديثة. ونحسب أن هذه الدراسة، ستحاول تقديم مساهمة متواضعة في هذا الشأن، تستهدف سبر غور مجالات متنوعة ومختلفة، متبنية منهجًا شموليًا نقديًا يقوم على رصد الظواهر موضوع الدراسة، من خلال ربطها بأبنيتها المؤطرة وأساسياتها الفاعلة.

تبويب الموضوع:

يخيل إلينا، أنه ولبلوغ الرصد الكافي للظواهر السالفة في المجال المغاربي في علاقاته بالمراكز الدولية الكبرى المتصارعة خلال نهاية العصر الوسيط وبداية التاريخ الحديث، وجب علينا العمل على توزيعها على أبواب البحث، درءً للتكرار وبناءً عليه فقد اعتمدنا التقسيم التالي للموضوع. كانت البداية بمدخل تمهيدي، لتوضيح الصعوبات التي تواجه البحث في تاريخ المجال المغاربي، برؤية جديدة كما بينا ذلك، وثلاثة أبواب وفصول ستة، وستة عشر مبحثًا.

المدخل التمهيدي: عرضنا فيه، مفهوم الصراع أو ممارسة العنف في العلاقة بين التاريخ والجغرافية السياسية، وذلك من أجل إدراك أنماط السلوك السياسي والإحاطة منهجيا بوقائعها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية كذلك. إضافة إلى تحليل التفاعل بين المجال الجغرافي، والجماعات البشرية وتفسير عناصر قوتها في ضوء ما تملكه من إمكانيات وقدرات طبيعية وغيرها.

وقد خصصنا الباب الأول، لتوضيح مفهوم المجال المغاربي تأصيلاً وامتدادًا، والوقوف على الخلفية التاريخية لوحدة هذا المجال في فصله الأول، مع الإشارة إلى التجارب السياسية البارزة في بناءه، وذلك من خلال مباحثه الثلاثة والتي تناولت هذا المجال والتغيرات التي وقعت عليه بين الفترة الوسيطية والتاريخ الحديث، والفصل الثاني الذي لامسنا من خلال مباحثه الواقع الاقتصادي للمجال المغاربي، من خلال بعض الأنماط الإنتاجية، ترسيخ اقتصاد الوساطة زيادة على إثارتنا لإشكالية "الحدود " خلال الفترة موضوع الدرس آخذين بعين الاعتبار خصوصية المرحلة وطبيعتها كما تحدثنا عن نموذج المجال المغاربي في التكتل والوحدة والفعالية من خلال "الدولة المغاربية الموحدية".

أما الباب الثاني، فقد خصصناه لدراسة التشكيلات الجيوسياسية الجديدة نهاية العصر الوسيط، من خلال فصله الأول بمبحثيه وكذلك الخريطة المذهبية، مع الإشارة إلى بداية تعمق الصراع على جميع المستويات في هذا المجال مع نهاية التاريخ الوسيط وبداية التاريخ الحديث، وذلك لأهميتها في بناء التشكيلات السياسية في هذا المجال خلال هذه الحقبة بأبعادها الجغرافية والاجتماعية والسياسية على المستوى الدولي والمحلي.

وفصله الثاني بمباحثه والتي تناولت الخريطة الاجتماعية والاقتصادية كبعد من أبعاد الصراع بالمجال، والتي أدت إلى تراجع الحصيلة كما وكيفا، إضافة إلى خلاصات أساسية.

وتناولنا في الباب الثالث، قراءة في المجال المغاربي خلال العصر الحديث، من خلال الفصل الأول تحت عنوان "المجال المغاربي من الهيمنة والقوة إلى التفكك والتبعية" بمباحثه الأربعة لتفسير التراجع المغاربي بداية التاريخ الحديث، من خلال توضيح الأنماط الاقتصادية الجديدة، والبنيات الاجتماعية المواكبة للتحولات، والإشارة إلى الواقع السياسي الجديد والذي يجسده الصراع العثماني المغربي، ونزاع القوى الكبرى حول احتكار المجال المغاربي خلال القرن السادس عشر الميلادي، وقد أفردنا الفصل الثاني بمبحثيه لمناقشة محاولات النهوض المحدودة في جميع المجالات، والتحولات السياسة الاقتصادية المستجدة على المستوى الجهوي والمحلي.

هذا واعتنى البحث أخيرًا، بالصراعات الجيوسياسية الكبرى والتي كان المجال المغاربي مسرحًا لها، وذلك من خلال عنصر المقارنة بين فترتين زمنيتين مختلفتين والذي اعتبرناه تجليًا وتمظهرًا صادقًا لما جرى في الوضعية العامة لحوض البحر المتوسط مشرقًا ومغربًا. ونظرًا لما لهذه الفترة الزمنية من أهمية في تاريخ المجال، فقد هدفنا من خلالها إلى توضيح الخريطة السياسية للمجال المغاربي، وما رافق ذلك من تحولات كمية وكيفية من خلال مراحل تطورها ونتائجها العامة متسائلين حول أفاق ورهانات العلاقات بهذا المجال.

وفي الختام أبرزنا في عجالة ما أنجزه البحث من نتائج وخلاصات .

خاتمة

فانطلاقًا من هذا العمل المتواضع يتضح لنا أن أبعاد الصراع في المجال المغاربي، هي خلاصة مركبة لواقع العلاقات الدولية مشرقًا ومغربًا. وكان دليلنا على ذلك، دخول المجال المغاربي في حالة من التفكك والتجزيء السياسي فبعضه تحت سلطة عثمانية لا تعرف عن المجال إلا كونه يشرف على إحدى شرايين التجارة الدولية، وبعضه الأخر (المغرب الأقصى) تحت سلطة الدولة السعدية محاصرة من كل جوانبها. ناهيك عن التراكم الاقتصادي الذي لم يتحقق في أزهى فترات تجارة العبور اعتمادًا على -اقتصاد الوساطة- خلال الفترة الوسيطية، والذي بدا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيقه خلال بداية التاريخ الحديث، نظرًا لتغير كل المعطيات كمًا وكيفًا.

فقد تأكد من خلال هذه الدراسة، أن عدم إقلاع هذا المجال ليصبح فاعلاً أساسيًا في الأحداث الدولية وخاصةً بداية العصر الحديث، وانغماسه في مسلسل من الصراعات والنزاعات على أكثر من صعيد، يرجع بالأساس إلى عاملين اثنين:

- النمط الاقتصادي المتبع والذي كانت له مجموعة من الإيجابيات، ولكنه غير كفيل بتحقيق التراكم المادي الذي يحدث الانتقال والتطور.
- أن جلّ القوى التي حكمت المجال المغاربي، سواء خلال الحقبة الوسيطية أو الحديثة، لم تساعده على إحقاق بنيات اقتصادية منتجة وكيانات سياسية مستقلة، وتركيبة اجتماعية منسجمة (الطبقة البورجوازية)، بقدر ما استهدفت المجال وفق مصالحها الاقتصادية التي تتبنى الاحتكار، بل وأدخلته في صراعات لا حد لها.

كلها أفكار وتساؤلات تحتاج إلى مزيد من الجهد والتنقيب، لإماطة اللثام عن جوانب أخرى من التأثيرات الخارجية في الصراعات والنزاعات الدائرة اليوم ومستقبلاً بالمجال المغاربي، ويكون للأعمال التاريخية الجادة الدور الهام في ذلك. وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتنا، وخاصةً على المستوى المعلومات والمنهجية وكذلك المصطلحات والمفاهيم، فقد تم تذليلها بتوجهات الأستاذة الدكتورة ماجدة كريمي، والتي راعت هذا البحث من بدايته إلى نهايته فلها الشكر الجزيل، وإلى كل الأساتذة الذين ساهموا من قريب أو بعيد في إخراج هذه المحاولة إلى الوجود.

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

مظاهر الحياة العلمية في حلب
(ق٧هـ/ ١٣م)

عبد القادر سليماني
أستاذ مشارك التاريخ الوسيط
المدرسة العُليا للأساتذة
الجلفة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

تعدّدت مظاهر الحياة العلمية في حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وتنوعت أشكالها، من المجالس العلمية التي كانت تُعقد في المساجد والبيوت للفقه والحديث ومختلف العلوم المتعلقة بهما، وحلقات المدارس والخوانق والزوايا، والتي كان يعقدها علماء أفذاذ من أهل حلب أو ممَنْ استقر بهم المقام بها بعد ذيوع صيتها، وانتشار المؤسسات العلمية والتعليمية به، إلى مظهر آخر كان نتيجةً للأول وهو تحوّل مدينة حلب إلى بلد رحلةٍ لكبار العلماء في ذلك العصر، يقصدونها طلبًا للعلم أو للتعليم، وللمكانة التي كان يتبوأها العلماء عند حكام المدينة وعامتها، فضلا عن بروز ظاهرة جديدة بها، وهي نشوء أسرٍ علميةٍ مذهبية، توارثت العلم والوجاهة في المدينة وساهمت بشكل كبير في دفع الحياة العلمية إلى الأمام.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٢ أغسطس ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ أكتوبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:
المشرق الإسلامي، المجالس العلمية، المجالس الفقهية، مجالس الحديث، الأسر العلمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد القادر سليماني. "مظاهر الحياة العلمية في حلب (ق ٧هـ/ ١٣م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١٥٢ – ١٦٥.

مُقَدِّمَةٌ

ذاع صيت حلب وعلت مكانتها العلمية خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، لما عرفته من انتشار المؤسسات العلمية والتعليمية بها، والتنافس بين الأمراء والوجهاء في تشييدها والاعتناء بها، فزادت المجالس العلمية في مختلف العلوم، وكثر الطلب بها، حتى غدت منافسة لشقيقتها دمشق أو ربما فاقتها، وقد ارتبطت المكانة الكبيرة للمدينة بشخصية عظيمة، هي شخصية نور الدين محمود زنكي (ت.٥٦٩هـ/١١٧٤م) الذي أقام مشروعه الجهادي ضد الصليبيين على شقين أولهما عسكري وثانيهما علمي، عمل من خلاله على ترسيخ سياسة إحيائية علمية سنية، قامت على بناء المدارس والتشجيع على بناءها، واستقطاب كبار العلماء من مختلف الأقطار، والتعظيم من شأنهم، وهو الأمر الذي استمر وازداد على أيدي خلفائه من بعده من الأيوبيين، وما أن دخل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حتى بدأت تلك السياسة تُؤتي أكلها، من خلال كثرة مجالس العلم والطلب بها وهي الملاحظة التي يُوردها أحد صناع الحياة العلمية بها والشاهدين عليها وهو المؤرخ ابن خلكان (ت.٦٨١هـ) حين يقول: "ولما وصلت إلى حلب لأجل الاشتغال بالعلم الشريف وكان دخولي إليها يوم الثلاثاء مستهل ذي القعدة سنة ست وعشرين وستمائة وهي إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين..."(١)، وهوما سنتناوله بالتفصيل في هذه الدراسة.

أولاً: المجالس العلمية

تُعتبر المجالس العلمية مظهرًا هامًا من مظاهر نشاط الحركة العلمية في أي بلاد، لأنها مرآةً عاكسة لمدى رغبة المجتمع وأفراده في طلب العلم والاستزادة منه. ولأنّ الأمر كذلك فإنّ مدينة حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لم تشذّ عن هذه القاعدة، حيث أنّي ومن خلال بحثي في المصادر المختلفة استطعت احصاء ما لا يقل عن (٣٠٨) مجالس علمية طوال هذا القرن، تنوّعت مضامينها حسب الترتيب من الفقه الى الحديث ثمّ النحو والعربية والقراءات.

١/١- مجالس الفقه وعلومه:

تضمّنت مجالس الفقه أيضًا علم أصول الفقه والخلاف، وقد كان تدريسها يرتكز على عدّة طرق منها تحفيظ المتون والمختصرات الشهيرة في واحدٍ من المذاهب. كمختصر القدوري[٢] في الفقه الحنفي أو الوجيز[٣] في الفقه الشافعي . أو تدريسه من خلال الاستدلال على الأحكام الشرعية من الكتاب والسنّة، وفي هذه الحالة الأخيرة فإنّ الدرس يتضمّن أيضًا التفسير وفقه الأحاديث، وقد كانت هذه المجالس الفقهية تُعقد في المدارس والجوامع والخوانق، فضلا عن بيوت العلماء وكبار القوم من الأمراء والوزراء. وبالعودة إلى ما تقدّم من إحصاء تقريبي فإنّ مجالس الفقه وعلومه أخذت نصيب الأسد حيث أحصينًا مائة وستة وستين مجلسًا للفقه[٤] وما تعلّق به من علوم، وقد تعدّدت أماكن إلقاء الدروس، فبالرغم من انتشار المدارس إلاّ أنّ بعض مجالس الفقه بقيت تُعقد في الجوامع أو البيوت.

وقد قسّمت هذه المجالس حسب المذاهب الفقهية فوجدتُ تقاربًا في العدد بين مجالس الشافعية والحنفية، فالأولى بلغ عددها (٨٣) مجلسًا، والثانية أحصيت منها (٨٢) مجلسًا، أما الفقه المالكي فإنّي لم أحص منه شيئًا كثيرًا إلاّ ما كان في المدرسة المشتركة مع الشافعية وهي مدرسة الجبيل،[٥] ومع ذلك فإنّ مدرسها كانوا من الشافعية، يُضاف إلى ذلك مجلسٌ بالجامع الكبير ذكره المؤرخ ابن العديم، وهو مجلس الفقيه المالكي أبو عيسى بن موسى المغربي (ت. ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٣م).[٦]

ويبدو لي أنّ سبب ذلك . إضافة إلى عدم التمكين للمذهب المالكي في المدينة . يعود إلى ظاهرة تغيير الانتماء للمذاهب، فقد وُجدت نماذج لعلماء مالكية من المغرب والأندلس استقروا في مدينة حلب، ولما كانت سوق مذهبهم كاسدةً فيها، أُضطروا إلى انتحال مذاهب أخرى إما رغبةً في البروز على المستوى العلمي، أو لتبوّأ مناصب في الدولة كانت حكرًا على المتمذهبين بالمذهب الشافعي أو الحنفي، وهما الأكثر سيطرةً في المدينة آنذاك، ومن هؤلاء أبي عبد الله الفاسي المقرئ (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) والذي كان مالكيا أشعريا، إلا أنّه لمّا قدم حلب اعتقد على مذهب أبي حنيفة،[٧] وكذلك الأمر بالنسبة للفقيه أبي عبد الله السلاوي (ت. ٦١٦هـ /١٢١٩م)،[٨] ورغم ذلك فقد وُجد من المالكية من بقي على مذهبه، إلا أنّ مساهمته العلمية في المدينة اقتصرت على الحديث أو النحو وغيره مثل المحدّث محي الدين الشاطبي المالكي (ت. ٦٦٢هـ /١٢٦٤م) فقد ولي دار الحديث البهائية بحلب وحدّث بها.[٩]

أما الحنابلة فقد تركّز نشاطهم في مدينة حلب على الحديث وعلومه، وسنفصّل في ذلك عند التطرق إلى مجالس الحديث. وبالعودة إلى مجالس الفقه فإنّ أغلبها كان بالمدارس وسنُعطي عليها أمثلة مبتدئين بمجالس الشافعية ومنها:

- أولاً: مجلس القاضي أبي المحاسن بهاء الدين ابن شداد الشافعي في المدرسة الصاحبية، فقد كان مجلسًا حافلاً بالطلبة والمشتغلين حسب وصف المؤرخ ابن خلكان الذي درس بنفسه على الشيخ.[١٠]
- وثانيها: مجلس الفقيه محمد بن أبي بكر ابن الخباز الموصلي (ت. ٦٣١هـ /١٢٣٤م) في المدرسة السيفية، فقد كان يدرّس بكتاب "الوجيز" للغزالي.[١١]
- وثالثها: مجلس الفقيه كمال الدين ابن العجمي الحلبي (ت. ٦٤٢هـ /١٢٤٥م) في المدرسة الزجاجية، حيث رُوي عنه أنّه ألقى كتاب "المهذّب"[١٢] دروسًا خمسًا وعشرين مرّة.[١٣]
- ورابعها: هو مجلس الفقيه اسماعيل بن باطيش الموصلي (ت. ٦٥٥هـ/١٢٥٧م) في المدرسة النورية، وقد شمل مجلسُه أصول الفقه أيضًا فقد تميّز به، فالذهبي يصفه بأنّه كان أصوليًا متفننًا،[١٤] وقد استمرّ في التدريس حتّى تجاوز الثمانين من عمره.[١٥]
- وخامس هذه المجالس: هو مجلس الفقيه المحدث كمال الدين أحمد ابن الأستاذ الأسدي الحلبي (ت. ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) بالمدرسة الظاهرية، وهي مدرسةٌ مشتركةٌ بين الشافعية والحنفية، كما درّس بغيرها من المدارس، وقد أطنبت المصادر في وصف مجلسه وحرص الطلبة على حضوره، حتّى قيل عنه أنّه كان من حسنات الدهر في حلب في هذا القرن.[١٦]

وإضافةً إلى مجالس المدارس فقد وُجدت مجالس أخرى بغيرها من المؤسسات التعليمية ومنها: مجلس الفقيه والمحدّث الصوفي أحمد بن عمر الخيوقي المعروف بنجم الدين الكبرى (ت. ٦١٨ هـ /١٢٢١م) فقد استقرّ بخانقاه القصر، وعقد فيها مجالس للعلم والفقه، وقد وصفه الذهبي بأنّه محدث معروف بالسنّة والتعبد.[١٧] وأيضًا مجلس: الفقيه أحمد بن عبد الله الأشتري الحلبي (ت. ٦٨١ هـ /١٢٨٢م) في الجامع الأموي أيضًا، وقد كان رجلاً جامعًا بين الفقه والحديث والتصوف، موصوفًا بالعبادة والصلاح والحرصعلى نشر العلم والإفادة.[١٨] ومنها مجلس: الفقيه شمس الدين محمد بن بهرام الدمشقي (ت. ٧٠٥ هـ/١٣٠٦م) في جامع بني أمية الكبير، وكان يُدرّس بكتاب "التعجيز"،[١٩] كما أنّه ألّف مختصرًا في الخلاف استخرجه من حلية الشاشي،[٢٠] ودرّس به، وقد استمرّ مجلسُه حتّى وفاته.[٢١]

وأمّا مجالس الفقه الحنفي، فسنذكر منها:

- أولاً: مجلس الفقيه شمس الدين محمد بن يوسف بن الخضر الحلبي المعروف بابن القاضي الأبيض (ت. ٦١٤هـ /١٢١٧م) بالمدرسة الشاذبختية بظاهر حلب.[٢٢]
- وثانيًا: مجلس الفقيه والمحدث عبد المطلب بن الفضل الهاشمي الحلبي (ت.٦١٦هـ /١٢١٩م) بالمدرستين الحلاوية والمقدّمية،[٢٣] وهذا الإمام كان شيخ مذهب الحنفية بالمدينة وكان مجلسه مهوى أفئدة العامة والرؤساء، وقد استمر في مجلسه حتّى تجاوز الثمانين.[٢٤]

- وثالثًا: مجلس الفقيه جمال الدين خليفة بن سليمان الحوراني (ت. ٦٣٨ هـ /١٢٤١م) في المدرسة الأتابكية، والذي ابتدأه سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩ م)، حتّى سنة وفاته.(٢٥)
- ورابعًا: مجلس الفقيه محمد بن عمر بن حفاظ المعروف بابن العقّادة الحموي (ت. ٦٤٢ هـ /١٢٤٥م) بالمدرسة الطومانية، فقد نظم مختصر القدوري في الفقه أرجوزةً وكان يُدرّس به.(٢٦)
- وخامسًا: مجلس الفقيه المحدث نجم الدين علي بن خشنام الكردي المعروف بشيخ الإسلام (ت. ٦٥٨ هـ /١٢٦٠م) بالمدرسة الجاولية، حيث كان مجلسًا حافلاً بالإفتاء والتّدريس، واستمرّ به من بعد سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) حتّى استشهاده في وقعة المغول سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م).(٢٧)
- وسادسًا: مجلس الصاحب كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم الحلبي (ت. ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)، وشهرة الرجل تُغني عن الإطناب في وصفه ووصف مجلسه في المدرسة الحلاوية الذي جمع بين الحديث والفقه والأدب، وقد ارتاده أكابر الدولة قبل الطلبة والمتفقهة،(٢٨) وممّا يدل على فضل هذا الرجل أنّك تجد له تراجم مع المؤرخين والمحدّثين والفقهاء والنحاة، فالمؤرخ ابن شاكر الكتبي يصفه فيقول: "كان محدثًا حافظًا مؤرخًا فقيهًا مفتيًا بليغًا..."،(٢٩) والحافظ ابن كثير يقول: "سمع الحديث وحدّث وأفتى ودرّس وكان إمامًا في فنون كثيرة".(٣٠)

أما مجالس الفقه الحنفي في المؤسسات التعليمية الأخرى غير المدارس فنضرب منها أمثلة:

- أوّلها: مجلس الفقيه ركن الدين إبراهيم بن عثمان الحموي ثمّ الدمشقي (ت. ٦٣٧هـ /١٢٤٠م) بالجامع الكبير.(٣١)
- وثانيها: مجلس الفقيه الصّوفي أحمد بن يوسف الأنصاري الدمشقي ثمّ الحلبي (ت. ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) وهومن كبار علماء الحنفية في عصره، فقد برع في الفقه والخلاف، وزيادةً على مجالسه في المدارس الحنفية في حلب، فقد كان له مجلسٌ دائمٌ في رباط سنقر جاه في حلب، وممّا يدلّ على علم الرجل وشُهرته أنه أُستدعي مرّةً إلى بغداد لتدريس الفرقة الحنفية في المدرسة المستنصرية.(٣٢)
- وثالثها: مجلس الفقيه الصّوفي فخر الدين إسماعيل بن هبة الله الحلبي المعروف بابن العديم (ت. ٦٩٤هـ /١٢٩٥م) في خانقاه القديم في حلب.(٣٣)

٢/١- مجالس الحديث:

أشرنا فيما سبق من هذه الدّراسة إلى أنّ الاهتمام بالحديث الشريف ومدارسه، قد بدأ منذ أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في كل المشرق الإسلامي، من خلال سياسةٍ علميةٍ رسمها الحكام والعلماء معًا، وبالفعل فقد بدأت نتائج هذا الاهتمام تظهر خلال القرون التالية، السابع وما بعده في شتّ أنحاء العالم الإسلامي، ففي مدينة حلب استطعتُ إحصاء (١٠٣) مجالس للحديث طوال هذا القرن،(٣٤) توزّعت على المدارس والجوامع والخوانق والبيوت. وتفصيلاً أكثر لهذا العدد فقد وجدتُ منه (٦٨) مجلسًا طويلاً استمر أصحابُه في التّحديث حتّى سنوات وفياتهم، والباقي هو لمجالس قصيرة الأمد، أو لشيوخٍ من غير حلب ممّن زارها وحدّث بها.

أما المجالس الطويلة المدة فسأذكر منها ستة مجالس:

- أوّلها: مجلس القاضي بهاء الدين بن شداد الشافعي المذكور آنفا، وقد بدأه قُبيل بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي واستمرّ فيه حتّى وفاته سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م)، حيث كان يُسمع الحديث بين صلاتي الظهر والعصر في بيته، ولمّا بنى دار الحديث المعروفة باسمه أضاف مجلسًا آخر بها،(٣٥) ومن خلال نظرةٍ بسيطةٍ في كتب التراجم المختلفة يُمكننا أن نُدرك قيمة الرجل العلمية وفضله، فقد رحل إلى بلادٍ عديدة وسمع، ودرّس بنظامية بغداد وغيرها،(٣٦) ثمّ استقرّ بحلب وصار من رؤسائها، وكان للناس به نفعٌ كبيرٌ كما يقول المؤرخ أبوشامة المقدسي.(٣٧)
- وثانيها: مجلس الحافظ تقي الدين إبراهيم بن محمد الصريفيني الحنبلي (ت. ٦٤١هـ/١٢٤٤م) في دار الحديث البهائية في حلب، حيث كان يتكلّم على الأحاديث وفقهها ومعانيها،(٣٨) وقد ولّاه ابن شداد هذه المدرسة(٣٩) في حدود سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) فاستمرّ بها الى سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٣م) ثمّ غادرها الى دمشق،(٤٠) وقد وُصف الرجل بأنّه كان إمامًا صدوقًا واسع الرواية والدراية.(٤١)
- وثالثها: مجلس المحدّث الرحال يوسف بن خليل الأدمي الدمشقي ثمّ الحلبي الحنبلي (ت. ٦٤٨هـ/١٢٥٠م) فقد استوطن حلب وتصدّر بجامعها وصار حافظها والمشار إليه بعلم الحديث فيها،(٤٢) وقد بدأ بالتحديث من قبل سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) وحتّى وفاته، وروى عنه خلقٌ كثير، وآخِر من روى عنه إجازة زينب بنت الكمال.(٤٣)
- ورابعها: مجلس المحدّث المسند كمال الدين أحمد بن محمد النصيبي الشافعي (ت. ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) في الجامع الكبير أيضًا، حيث كان يروي في مجلسه كتاب "الشمائل" للترمذي (ت. ٢٧٩هـ/٨٩٣م) وغيره، وقد وُصف هذا الرجل بأنّه كان أسند من بقي في حلب.(٤٤)
- والمجلس الخامس هو: مجلس الحافظ جمال الدين أحمد بن الظاهري الحلبي الحنفي (٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م) وهومن كبار حُفّاظ العصر فقد سمع على نحو سبعمائة شيخ، وخرّج لنفسه أربعين حديثًا في أربعين بلدًا،(٤٥) وكان يُحدّث في زاوية له بحلب، وقد سمع منه البرزالي (ت.٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، والمزّي (ت. ٧٤٢هـ/١٣٤١م) والذهبي (ت. ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).(٤٦)
- والمجلس الأخير: هو مجلس المسند علاء الدين بيبرس العديمي التركي الحلبي الحنفي (ت. ٧١٣هـ /١٣١٣م)، فقد تفرّد في حلب

بكثرة عواليه، وحدّث سنين عديدة، وكانت الرحلة تُشدّ إليه رغبةً في رواياته.(٤٧)

ويُضاف إلى ما ذكرناه مجالسٌ وحلقات أخرى عقدها أصحابها لمدٍ قصيرة، أو أنّ شيوخها كانوا ممن زار حلب أومرّ بها فسمع منه الناس ومنها: مجلس الحسين بن المبارك الزبيدي البغدادي الحنبلي (ت. ٦٣١هـ/١٢٣٤م)، حيث حدّث بالصحيح في الجامع الكبير في حلب.(٤٨) ومجلس المحدث علي بن أبي بكر بن روزبة البغدادي الصوفي (ت. ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م)، فقد حدّث بالصحيح في حلب وازدحم عليه الناس.(٤٩) وأيضًا: مجلس المسند عز الدين بن رواحة الحموي الشافعي (ت. ٦٤٦هـ /١٢٤٨م) فقد حدّث مرّاتٍ عديدة بحلب.(٥٠) والمجلس الآخر: هو مجلس المحدّث محي الدين الشاطبي المالكي (ت. ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، فقد ولِيَ دار الحديث البهائية بحلب وحدّث بها لسنواتٍ عديدة.(٥١) ومنها: مجلس الشيخ مجد الدين الهذباني الحموي الشافعي الصوفي (ت.٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، فقد حدّث بزاوية له بحلب، وكان المحدّث جمال الدين بن الظاهري يعظّمه، وقد سمع منه المزّي والبرزالي.(٥٢) وآخر هذه المجالس: هو مجلس المحدّث أبي بكر الكردي الدِشتي الحنبلي (ت. ٧١٣هـ /١٣١٣م)، حيث عُرف عنه أنّه حدّث بمسند الطيالسي في حلب.(٥٣)

وقد مثّلت عدد مجالس الحديث في مدينة حلب في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي في جدولٍ حسب مذاهب المحدثين كما يلي:

جدول رقم (١)	أعداد ونسب المحدّثين في مدينة حلب حسب مذاهبهم (ق ٧هـ / ١٣م)	
المحدثون حسن مذاهبهم	العدد	النسبة المئوية
الشافعية	٥١	%٤٩.٥١
الحنفية	٣٨	%٣٦.٨٩
الحنابلة	١٣	%١٢.٦٢
المالكية	٠١	%٠.٩٧
المجموع	١٠٣	%١٠٠

من خلال الجدول رقم (١) يتّضح لنا غلبة المذهب الشافعي على المحدثين في مدينة حلب بـ (٥١) محدثًا ونسبة (٥٠%) ومن بعده المذهب الحنفي بـ (٣٧) محدثًا ونسبة (٣٦.٢٧%)، وهو أمر مبرّر على اعتبار انتشار هذين المذهبين في المدينة، إلاّ أنّ الملفت للانتباه هو نشاط المحدّثين الحنابلة في المدينة بـ (١٣) محدثًا، ونسبة (١٢.٧٤%) وهو رقم يُعبّر عن النشاط الحثيث للطائفة الحنبلية في المشرق الإسلامي عمومًا وبحلب خصوصًا، وهي . أي مدينة حلب . وإن لم تكن من مناطق نفوذ المذهب الحنبلي في هذا القرن، إلاّ أنّ كبار المحدّثين الحنابلة قد أثروا الحياة العلمية فيها بشكلٍ كبيرٍ.

ويبدو لي أنّ استقرار الحافظ ابن خليل الأدمي بالمدينة ونشاطه العلمي بها، كان عاملاً مشجعًا على وفود الحنابلة إليها إمّا للسماع منه أو التحديث وذلك لمكانة الرجل الكبيرة بالمدينة. وقد وجدنا في العديد من تراجم علماء الحنابلة الذين حدّثوا بحلب أنّهم زاروها في أيام الحافظ بن خليل، فهذا الاقتران المتكرّر يُعطينا صورةً واضحةً عن ذلك، ومن أمثلة ذلك المحدّث شمس الدين محمد بن سعد الأنصاري المقدسي ثمّ الدمشقي الحنبلي (ت. ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)(٥٤) والمحدّث كمال الدين عبد الرحيم ابن قدامة المقدسي الحنبلي (ت. ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م).(٥٥)

وقد حاولت النظر إلى مجالس الحديث في مدينة حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من زاويةٍ إحصائية أخرى أيضًا، وهي معرفة أعدادها ونسبها المئوية حسب أماكن القائها أي المؤسسات العلمية والتعليمية، كما هو موضح في الجدول رقم(٢).

جدول رقم (٢)	أعداد ونسب مجالس الحديث في مدينة حلب حسب أماكن القائها (ق ٧هـ/ ١٣م)	
المؤسسات التعليمية	عدد المجالس	النسبة المئوية
المساجد والجوامع	٧٠	%٦٧.٩٦
المدارس ودور الحديث	١٩	%١٨.٤٤
البيوت	٠٩	%٨.٧٣
الخوانق والأربطة	٠٣	%٢.٩١
الزوايا	٠٢	%١.٩٤
المجموع	١٠٣	%١٠٠

من خلال الجدول رقم (٢) يُمكننا أن نلاحظ أنّ أغلب مجالس الحديث الشريف كانت تُقام في المساجد والجوامع، بـ (٧٠) مجلسًا ونسبة (٦٧.٩٦%)، خصوصًا في الجامع الأموي الكبير، وذلك لأنّ هذا الجامع كان مفتوحًا لكلّ الطوائف المذهبية السنّية، ممّا يمكّن المحدّثين من غير الشافعية والأحناف بالنشاط فيه بحرّيةٍ قد تنعدم في باقي المؤسسات المذهبية، والتي كانت حصرًا على علماء وشيوخ هذه المؤسسات، وقد لاحظنا فيما سبق وجود فئةٍ من المحدّثين الحنابلة رأت في حلقات الجامع الكبير متّسعًا لنشاطها العلمي، طبعًا مع وجود استثناءات كالمحدّثيْن تقي الدين الصريفيني (ت.٦٤١هـ/١٢٤٤م)، ومحي الدين الشاطبي المالكي (ت. ٦٦٢هـ /١٢٦٤م)، اللّذين وليا دار الحديث البهائية الشافعية وحدّثا بها.

أمّا التحديث في المدارس فقد جاء في المرتبة الثانية بـ (١٩) مجلسًا ونسبة (١٨.٤٤%)، وقد كان مرتبطًا بشكلٍ كبيرٍ بمذهب المحدّث ومكانته.

وبعدها تأتي مجالس الحديث بالبيوت بـ (٩) مجالس ونسبة (٨.٧٣%) وأغلبها مجالس لنساءٍ محدّثات ممّا يفسّر سبب عقدها بالبيوت، ثمّ مجالس الخوانق والأربطة بـ (٣) مجالس ونسبة (٢.٩١%)، وأخيرًا مجالس الزوايا بمجلسين ونسبة (١.٩٤%).

وبالنسبة لمجالس الحديث في الخوانق والأربطة، فهذا يُحيلنا إلى ملاحظة مهمّة وهي مشاركة طائفة الصوفية والزُهّاد في نشر الحديث الشريف وعلومه، رغم ما عُرف عن أكثرهم من بعدٍ عن الالتزام بصحيح الدين وصريحه، إلاّ أنّ ذلك يمدّنا بصورةٍ مضيئةٍ عن مشاركة وانخراط جميع مكوّنات الجسد العلمي الحلبي في الحياة العلمية في المدينة.

٣/١- مجالس العلم الأخرى:

لم تقتصر مجالس العلم على الفقه والحديث فقط، بل اتّسعت لتشمل علومًا أخرى من قبيل النحو والقراءات والفرائض، وحتّى مجالس قراءة كتب الوعظ والفضائل، وقد أحصيتُ منها جميعها إحدى وأربعين مجلسا،[٥٦] وسأورد منها أمثلةً أبدأها بالنحو والعربية:

وأوّلها: مجلس الشيخ القاسم بن القاسم الواسطي (ت. ٦٢٦هـ /١٢٢٩م) فقد استوطن مدينة حلب في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي واتّخذ له مجلسًا بالجامع الكبير لتدريس النحو، واستمرّ في ذلك إلى وفاته في السنة المذكورة، كما كانت له مساهماتٌ في التأليف أيضًا.[٥٧]

وثانيها مجلس الشيخ موفق الدين بن يعيش الحلبي (ت. ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م)، وفي الحقيقة فقد كانت له عدّة مجالس موزّعةً بين الجامع الكبير والمدرسة الرواحية الشافعية وبيته.[٥٨]

ويُعَدّ ابن يعيش من كبار نُحاة هذا القرن، فضلاً عن مشاركته في علم الحديث أيضا، ولعلّ أهمّ مصدرٍ يُفيدنا في الحديث عن هذا الرجل ومجالسه هو كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان، حيث أنّ هذا الأخير درس على يدي ابن يعيش وفي ذلك يقول: "وكان دخولي إليها (أي حلب) سنة ستٍّ وعشرين وستّمائة.... وكان الشيخ موفق الدين شيخ الجماعة في الأدب، ولم يكن فيهم مثلُه "، ثمّ يصف طريقته في التدريس فيقول: "وكان حسن التفهيم لطيف الكلام، طويل الروح على المُبتدي والمنتهي، وكان خفيف الروح ظريف الشمائل كثير المجون، مع سكينةٍ ووقارٍ"،[٥٩] وقد أسهبت المصادر الأخرى أيضا في وصف الرجل وفضله، وحسبُنا قول الذهبي فيه: "تخرّجبه أئمّة وكان طويل الباع ثقةً علاّمة".[٦٠]

وثالث هذه المجالس: هو مجلس الشيخ جمال الدين ابن مالك الجياني النحوي الشهير صاحب الألفية (ت. ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م)، فقد تصدّر بجامع حلب لإقراء النحو مدّةً من الزمان، ثمّ غادر إلى دمشق.[٦١]

ورابعها: مجلس الإمام كمال الدين عبد الله الغرناطي المالكي (ت. ٧١١هـ/١٣١١م) حيث أقام في حلب عشر سنين يدرّس الناس النحو والقراءات.[٦٢]

أمّا مجالس القراءات فمنها:

مجلس الشيخ أبي إسحاق بن ريحان الرقّي الضرير (ت. ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م) في الجامع الكبير.[٦٣]

ومجلس الشيخ أبي عبد الله محمد بن الحسن الفاسي المالكي ثمّ الحنفي (ت. ٦٥٧هـ /١٢٥٩م) الذي قدم حلب في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وكان له بها مجلسٌ حافلٌ في الجامع الأموي الكبير،[٦٤] وقد قال عنه الذهبي: "شرح القصيدة الشاطبية في التجويد فأجاد فيها، وكان إمامًا متفننًا بصيرًا بالقراءات وعللها، ثقةً حجّة، انتهت إليه رئاسة الإقراء ببلد حلب"،[٦٥] كما عُرف عنه أنّه كان يُجيد الكلام على طريقة الأشعري.[٦٦]

أمّا المجالس العلمية الأخرى فمنها في الفرائض:

- مجلسٌ لعيسى بن طاهر الحلبي الحاجب (ت. ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)[٦٧] وآخر لمجد الدين الحسن بن أمين الدولة الحنفي (ت. ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)،[٦٨] ومجلسٌ لصدر الدين البُصروي الحنفي (ت. ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م).[٦٩]

ويُمكننا أن نضيف إلى كلّ المجالس العلمية السابقة، مجالس أخرى لقراءة الكتب ومنها:

- مجلس أبي عبد الله محمد بن أحمد السلاوي الحنفي (ت. ٦١٦هـ /١٢١٩م)، حيث قدم إلى حلب سنة ستمائة وحدّث فيها بسيرة ابن هشام.[٧٠]
- ومجلس آخر لإسماعيل بن هبة الله الإسنائي الشافعي (ت. ٧٠٠هـ/١٣٠١م) الذي دخل حلب في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فظنّ الشيعة أنّه شيعي لكونه من إسنا،[٧١] لكنّه ألّف كتابًا في فضائل أبي بكر، وعقد مجلسًا في الجامع الكبير يدرّس به مستدلاً على إمامة الصديق "رضي الله عنه".[٧٢]

ثانيًا: الرحلة إلى مدينة حلب

إنّ المقصود من الرحلة إلى مدينة حلب خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، هو إبراز مدى استقطاب المدينة للعلماء والطلبة على حدٍّ سواء، لأنّ هذا الأمر في رأينا هو مظهرٌ مهمٌ من مظاهر الحياة العلمية، وقد ذكرنا في المبحث السابق أسماء بعض العلماء . من غير الحلبيين . ممّن ساهم في الحياة العلمية بالمدينة، إلاّ أنّنا في هذا المبحث سنحاول التركيز على من جاء حلب طلبًا للعلم، خصوصًا من الأسماء التي صارت فيما بعد من أبرز أعلام العصر، لأنّه من المعروف في تاريخنا أن الرحلة في طلب العلم والحديث أساس قيمة الرجال العلمية، بل إنّ هناك من يقيس مدى علم الرجل في أي مجال بِسَعَة رحلته قبل أسماء شيوخه، ولهذا فقد كان للرحلة في طلب العلم أثرًا كبيرًا في تقدير العالِم،[٧٣] هذا قبل أن تبرز وسائل وطرقٌ أخرى لنقل العلم كالإجازة والوجادة[٧٤] وغيرها، ولذلك وجدنا من العلماء من لم يُجز الأخذ

بها[٧٥] لأنّها أبطلت الرحلة التي كانت من سبل طلب العلم المشهورة، وبناءً على ذلك فقد بدأت البحث في تراجم العلماء الذين رحلوا إلى مدينة حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لطلب العلم أو سماع الحديث.

وللتأكد من ذلك فقد أخذت عيّنة عشوائية من خمسين عالمًا برزوا خلال هذا القرن وما بعده، من الذين رحلوا الى حلب ودرسوا بها، فوجدت فيها تنوعًا وتعددًا، حسب المذاهب الفقهية ومواطن هؤلاء العلماء وتخصّصاتهم كما هو موضحٌ في الجدول رقم(٣).

الجدول رقم (٣)		عينة لخمسين عالما ممَنْ رحلوا الى حلب طلبًا للعلم (ق ٧هـ / ١٣م)		
م	اسم العالم ومذهبه وسنة وفاته	تخصصه العلمي	موطنه الأصلي	شيوخه في حلب
١	ضياء الدين المقدسي الحنبلي (ت. ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)[٧٦]	محدّث	بيت المقدس	ابن خليل الأدمي
٢	شرف الدين ابن الجوهري الشافعي (ت. ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)[٧٧]	محدّث	دمشق	ابن خليل الأدمي
٣	تقي الدين بن الصلاح الشافعي (ت. ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)[٧٨]	محدّث	شهرزور	بهاء الدين بن شداد ووالده الصلاح الكردي وابن الأستاذ
٤	سراج الدين بن شحانة الحنبلي (ت. ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)[٧٩]	محدّث	حران	افتخار الدين الهاشمي
٥	أبو المنصور عبد الله بن محمد الحنبلي (ت. ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م)[٨٠]	محدّث	بغداد	افتخار الدين الهاشمي
٦	محمد بن عبد العظيم بن زكي الدين المنذري الشافعي (ت. ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)[٨١]	محدّث	مصر	كانت له رحلة الى حلب
٧	محب الدين بن النجار (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)[٨٢]	محدّث ومؤرخ	بغداد	كانت له رحلة الى حلب
٨	عماد الدين أحمد بن يوسف العلوي الحنفي (ت ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)[٨٣]	فقيه	الموصل	افتخار الدين الهاشمي
٩	ناصح الدين فرج الخادم الحبشي الحنفي (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م)[٨٤]	فقيه	الأندلس	افتخار الدين الهاشمي
١٠	ناصح الدين الحنبلي(ت٦٥٣هـ/١٢٥٥م)[٨٥]	محدّث	حران	ابن خليل الأدمي
١١	سبط بن الجوزي الحنفي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[٨٦]	مؤرخ وواعظ	بغداد	افتخار الدين الهاشمي وابن الأستاذ
١٢	أبوعبد الله محمد بن ابراهيم المالكي (ت. ٦٥٥هـ/١٢٥٧م)[٨٧]	فقيه	المغرب	عبد اللطيف بن الفضل الهاشمي
١٣	علم الدين محمد محمد بن أحمد المالكي (ت. ٦٦١هـ/١٢٦٣م)[٨٨]	مقرئ	الأندلس	افتخار الدين الهاشمي
١٤	تقي الدين أحمد بن عبد الواحد الشافعي (ت. ٦٦٧هـ/١٢٦٩م)[٨٩]	فقيه	بيت المقدس	افتخار الدين الهاشمي
١٥	شمس الدين بن هامل الحنبلي (ت ٦٧١هـ/١٢٧٣م)[٩٠]	محدّث	حران	موفق الدين بن يعيش
١٦	شرف الدين أبو المظفر يوسف بن الحسن الشافعي (ت. ٦٧١هـ/١٢٧٣م)[٩١]	محدّث	دمشق	موفق الدين بن يعيش
١٧	ناصح الدين أبو الثناء محمود الطاووسي الشافعي (ت. ٦٧٢هـ/١٢٧٤م)[٩٢]	فقيه	قزوين	بهاء الدين بن شداد وابن الأستاذ

الجدول رقم (٣)		عينة لخمسين عالما ممَنْ رحلوا الى حلب طلبًا للعلم (ق ٧هـ / ١٣م)		
١٨	تقي الدين ابن العنيقة الحنبلي (ت. ٦٧٤هـ/١٢٧٦م)[٩٣]	محدّث	حران	العز بن رواحة وابن خليل وابن يعيش
١٩	شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الأنصاري الحنبلي (ت. ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)[٩٤]	محدّث	دمشق	ابن رواحة وابن خليل
٢٠	شمس الدين محمد بن عربشاه الشافعي (ت. ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)[٩٥]	محدّث	همذان	ابن خليل
٢١	شمس الدين عبد الله بن الأوحد الحنفي (ت. ٦٧٨هـ/١٢٧٩م)[٩٦]	فقيه	دمشق	افتخار الدين الهاشمي
٢٢	جمال الدين أبو حامد ابن الصابوني الشافعي (ت. ٦٨٠هـ/١٢٨١م)[٩٧]	محدّث	دمشق	الموفق عبد اللطيف البغدادي
٢٣	محمد بن رزين الشافعي (ت. ٦٨٠هـ/١٢٨١م)[٩٨]	فقيه ونحوي	حماه	ابن يعيش
٢٤	شرف الدين محمد بن أحمد بن المجير الشافعي (ت. ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)[٩٩]	محدّث	دمشق	ابن خليل
٢٥	ابن خلكان الشافعي (ت. ٦٨١هـ/١٢٨٢م)[١٠٠]	مؤرخ	اربل	ابن يعيش وابن شداد
٢٦	شهاب الدين عبد الحليم بن تيمية الحنبلي (ت. ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)[١٠١]	فقيه	حران	ابن رواحة وابن خليل وابن يعيش
٢٧	برهان الدين محمود بن علي الشافعي (ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)[١٠٢]	فقيه	مراغة (من مدن اقليم اذربيجان)	ابن رواحة وابن الأستاذ
٢٨	جمال الدين محمد بن أحمد الشريشي المالكي (ت.٦٨٥هـ/١٢٨٦م)[١٠٣]	محدّث ونحوي	الأندلس	ابن يعيش
٢٩	شمس الدين محمد بن محمود الشافعي (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)[١٠٤]	فقيه وأصولي	أصفهان	طغريل المحسني
٣٠	شمس الدين عبد الرحمن بن أحمد الصالحي الحنبلي (ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م)[١٠٥]	محدّث	بيت المقدس	ابن خليل
٣١	فخر الدين علي بن أحمد بن البخاري الحنبلي (ت ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)[١٠٦]	محدّث	حران	ابن خليل
٣٢	تقي الدين إبراهيم بن علي الصالحي الحنبلي (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)[١٠٧]	محدّث	واسط	ابن الأستاذ
٣٣	نجم الدين أحمد بن حمدان الحنبلي (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٦م)[١٠٨]	فقيه	حران	ابن خليل
٣٤	شمس الدين محمد بن أبي بكر الحنبلي (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م)[١٠٩]	فقيه ومتصوف	حران	ابن اللتي وابن خليل وابن رواحة
٣٥	محمد بن جوهر الحنفي (ت. ٦٩٦هـ/١٢٩٧م)	مقرئ	تلعفر	ابن رواحة وابن خليل
٣٦	ابن واصل الشافعي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)[١١٠]	مؤرخ	حماه	ابن شداد وابن يعيش
٣٧	عبد الحافظ بن عبد المنعم الحنبلي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م)[١١١]	محدّث	بيت المقدس	إبراهيم بن خليل
٣٨	زين الدين عبد الله بن مروان الشافعي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م)[١١٢]	فقيه	ميافارقين	ابن رواحة وابن خليل

	الجدول رقم (٣)			عينة لخمسين عالما ممَنْ رحلوا الى حلب طلبًا للعلم (ق ٧هـ / ١٣م)
٣٩	أبو الحسن علي بن مسعود الحنبلي (ت ٧٠٤هـ/١٣٠٥م)[١١٣]	محدّث	الموصل	ابن رواحة وابراهيم بن خليل
٤٠	شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الشافعي (ت ٧٠٥هـ/١٣٠٦م)[١١٤]	حافظ محدّث	دمياط من بلاد مصر	ابن رواحة وابن خليل
٤١	نظام الدين محمد بن عبد الكريم الشافعي (ت ٧٠٦هـ/١٣٠٧م)[١١٥]	مقرئ	تبريز (من مدن إقليم أذربيجان)	ابن رواحة وابن شداد
٤٢	أبوبكر محمد بن يوسف بن مسدي المالكي (ت ٦٦٣هـ /١٢٦٥م)(١١٦)	محدث حافظ	الأندلس	ابن الأستاذ
٤٣	شمس الدين محمد بن سامة الحنبلي (ت ٧٠٨هـ /١٣٠٩ م)[١١٧]	محدّث	بيت المقدس	كانت له رحلة إلى حلب
٤٤	أبوبكر أحمد بن محمد الحنبلي (ت ٧١٣هـ/١٣١٣م)[١١٨]	محدّث	الدشت	ابن يعيش
٤٥	عبد الغني بن عروة الحنبلي (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)[١١٩]	متصوف	رأس العين	عز الدين الرسعني
٤٦	نصر بن سليمان الصوفي الحنفي (ت ٧١٩هـ/١٣١٩م)[١٢٠]	مقرئ ومتصوف	منبج	إبراهيم بن خليل
٤٧	عفيف الدين اسحاق بن يحي الحنفي (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)[١٢١]	محدّث	آمد (من مدن الموصل)	ابن خليل والضياء صقر
٤٨	عز الدين الغرافي الشافعي (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م)[١٢٢]	فقيه	مصر	نقيب الأشراف وابن يعيش
٤٩	علم الدين البرزالي الشافعي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٩ م)[١٢٣]	حافظ محدّث	دمشق	ابن اللتي وبيبرس العديمي
٥٠	شمس الدين الذهبي الشافعي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)[١٢٤]	حافظ محدّث	دمشق	سنقر القضائي وشهدة بنت الصاحب بن العديم
المجموع	٥٠			

من خلال دراسة هذه العيّنة من العلماء، وجدت أنّهم ينتمون الى خمسة عشر (١٥) مدينة من مختلف مدن العالم الإسلامي، أوّلها مدن الجزيرة الفراتية كالموصل وشهرزور ميافارقين ورأس العين وآمد وغيرها وعدد العلماء منها تسعة علماء (٠٩)، ثمّ مدينة حرّان بثمانية علماء (٠٨)، ثمّ بيت المقدس بخمسة علماء (٠٥)، وبعدها بلاد الأندلس بخمسة علماء (٠٥). وتليها بعد ذلك مدينة حماه وبغداد وبعض مدن بلاد مصر بثلاثة علماء (٠٣)، يضاف إلى ذلك بعض العلماء من مناطق أخرى كبلاد المغرب وواسط وقزوين وغيرها كما هو موضّح بالجدول السابق، وهذا الأمر يدلّ على أنّ سمعة مدينة حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، قد تجاوزت حدودها القريبة، إلى أقاصي العالم الإسلامي بما شهدته من حركة علمية جذبت إليها طلبة العلم من مختلف الأرجاء.

وإذا نظرنا الى هؤلاء العلماء من زاوية أخرى وهي مذاهبهم أمكننا أن نرى تنوعًا أيضًا، وهوما رصدناه من خلال الجدول رقم (٤).

جدول رقم (٤)	عينة من خمسين عالما درسوا في مدينة حلب حسب مذاهبهم (ق ٧هـ/١٣م)	
العلماء حسب مذاهبهم	العدد	النسبة المئوية
الشافعية	٢١	٤٢%
الحنابلة	١٨	٣٦%
الحنفية	٠٧	١٤%
المالكية	٠٤	٨%
المجموع	٥٠	١٠٠%

بناءً على نتائج الجدول رقم (٤) فإنّ العلماء الشافعية من العينة السابقة بلغ (٢١) رجلاً ونسبة (٤٢%)، يليهم الحنابلة بـ (١٨) عالمًا ونسبة (٣٦%)، ثمّ الحنفية بـ (٠٧) علماء، ونسبة (١٤%)،

وأخيرًا المالكية بـ (٠٤) رجال ونسبة (٨%)، وهو ترتيب منطقي ومعقول جدًا، ولكننّا سنؤجل محاولة تفسيره لنربطها بما سنوضّحه من خلال الجدول الموالي، والذي رصدنا فيه أكثر ستة علماء في مدينة حلب من الذين كان إليهم المقصد في طلب العلم والحديث.

جدول رقم (٥)	أكثر ستة علماء قصدًا من طلبة العلم في مدينة حلب (ق٧هـ/ ١٣م)
اسم العالم ومذهبه	تخصّصه العلمي
ابن يعيش الشافعي (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م)	نحوي ومحدّث
ابن خليل الحنبلي (ت ٦٤٨هـ/١٢٥٠م)	محدّث
ابن رواحة الشافعي (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)	محدّث وفقيه
افتخار الدين الهاشمي الحنفي (ت ٦١٦هـ/١٢١٩م)	محدّث وفقيه
ابن شداد الشافعي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٥م)	محدّث وفقيه
ابن الأستاذ الشافعي (ت ٦٦٢هـ/١٢٦٤م)	محدّث وفقيه

إذا ربطنا هذا الجدول بما قبله أمكننا أن نفهم بسهولة أنّ الأغلبية الشافعية من طلبة العلم الذين درسوا بمدينة حلب، إنّما تعود الى أنّ الأكثرية من علماء حلب ومحدّثيها هي من الشافعية، وبالتالي فطلبة العلم كانوا يقصدون المدينة لسماع الحديث وأيضا للاستزادة من الفقه، خصوصًا مع وجود جماعةٍ من كبار علماء الشافعية فيها من أمثال بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٥م) وابن رواحة الحموي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) وزين الدين بن الأستاذ(ت ٦٦٢هـ/١٢٦٤م).

أمّا الحنابلة من طلبة العلم فكان أكبر همهم في مدينة حلب هو سماع الحديث، خصوصًا مع تركّز طائفة كبيرةٍ من المحدّثين من مختلف المذاهب في المدينة مثل افتخار الدين الهاشمي الحلبي الحنفي (ت. ٦١٦هـ/١٢١٩م) وابن خليل الدمشقي ثمّ الحلبي الحنبلي (ت٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وعز الدين الرسعني الحنبلي (ت. ٦٦١هـ/١٢٦٣م)، وسُنقر القضائي الحلبي الشافعي (ت. ٧٠٦هـ/١٣٠٧م)، ولهذا وجدنا طائفة الحنابلة في المرتبة الثانية من طلبة العلم في حلب، وهي الطائفة المعروفة بالرحلة والجهد في طلب العلم والحديث. وإذا تطرّقنا إلى الحنفية فسنجدهم في الترتيب الثالث، لأن تركيزهم كان على الفقه والنحو، أمّا المالكية فكان أكثر اهتمامهم بالنحو وإلى حدٍّ ما الحديث الشريف.

وبالنظر إلى عيّنة العلماء الخمسين من منظورٍ آخر هو التخصّصات العلمية التي عُرف بها هؤلاء العلماء وجدنا النتائج التالية من خلال الجدول رقم (٦).

جدول رقم (٦)	عينة من خمسين عالمًا درسوا في مدينة حلب وتخصصاتهم العلمية (ق ٧هـ/١٣م)	
التخصصات العلمية للعلماء	العدد	النسبة المئوية
المحدّثون	٢٧	٥٤ %
الفقهاء	١٤	٢٨ %
المقرئون	٠٤	٨ %
المؤرخون والإخباريون	٠٣	٦ %
النحاة	٠٢	٤ %
المجموع	٥٠	١٠٠%

من خلال القراءة المتأنّية لنتائج هذا الجدول نلاحظ أنّ فئة المحدّثين جاءت على رأس هذه التخصصات العلمية بـ (٢٧) محدثًا، ونسبة (٥٤%)، ويبدو وأنّ سبب ذلك يعود لكون هذا العصر كان عصر علم الحديث بامتياز، إضافةً إلى سببٍ آخر تمثّل في استقرار مجموعةٍ هامةٍ من المحدّثين في المدينة طوال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على غرار يوسف بن خليل الحنبلي (ت. ٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وأخيه إبراهيم بن خليل الحنبلي (ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ومحي الدين الشاطبي المالكي (ت. ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، وعبد الرحيم بن عبد الرحيم بن العجمي الشافعي (ت. ٦٧٠هـ/ ١٢٧٢م)، وكمال الدين بن النصيبي الشافعي (ت. ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م)، وجمال الدين بن الظاهري الحنفي (ت. ٦٩٦هـ/١٢٩٧م)، وعلاء الدين سنقر القضائي الشافعي (ت. ٧٠٦هـ/١٣٠٧م)، وبيبرس العديمي الحنفي (ت. ٧١٣هـ/١٣١٣م) وغيرهم كثير.

ومن أبرز المحدّثين الذين سمعوا في مدينة حلب نجد: تقي الدين بن الصلاح الشافعي (ت.٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، والجمال بن الصابوني الشافعي (ت. ٦٨٠هـ/١٢٨١م) والذي أصبح شيخًا لدار الحديث النورية في دمشق،[١٢٥] وشهاب الدين بن تيمية الحنبلي (ت. ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، وشرف الدين الدمياطي الشافعي (ت. ٧٠٥هـ/١٣٠٦م)، والحافظ شمس الدين الذهبي (ت. ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

أمّا بالنسبة للفقهاء فقد بلغ عددهم من العينة السابقة (١٤)، وبنسبة (٢٨%)، وترتيبها الثاني مردّه إلى أنّ المجالس الفقهية ومدارسها قد انتشرت بشكلٍ كبيرٍ في مدن العالم الإسلامي في هذا العصر، وبالتالي فلم تكن الرحلة إلى حلب بغرض التفقه مغريةً كما هو الشكل بالنسبة للحديث. وكذلك الأمر بالنسبة للمقرئين بـ (٤)

رجال، ونسبة (٨ %)، ثمّ المؤرخين والإخباريين بـ (٣) رجال، ونسبة (٦%)، وأخيرًا فئة النحاة بـ رجلين ونسبة (٤%).

ولنا ملاحظةٌ في هذا المجال، تتمثّل في أنّ ما كان يجذب طلبة علم النحو إلى مدينة حلب هو وجود شخصيةٍ مهمّةٍ في هذا التخصص العلمي، هي شخصية ابن يعيش الحلبي (ت. ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، والتي طغت على غيرها من شيوخ النحو في المدينة، ليس لتميّزه في هذا العلم فحسب، وإنّما لأنّه شارك في علومٍ أخرى وبرع فيها كالقراءات والحديث وإن كنّا قد قصرنا الحديث عنه على علم النحو لأنّ دوره فيه كان أكبر وأبرز، وممّن درس على يديه النحوي الشهير محمد بن أحمد الشريشي (ت. ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، والمؤرخ ابن خلكان الشافعي (ت. ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، والمؤرخ ابن واصل الحموي الشافعي (ت. ٦٩٧هـ/١٢٩٨م). وعمومًا فإنّ هذه الاستنتاجات والتحليلات تبقى نسبيةً وغير قابلةٍ للتعميم رغم ما تُقدّمه لنا من إضاءات مهمّةٍ للموضوع.

ثالثا: الأسر العلمية المذهبية

اشتهرت في مدينة حلب خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أُسرٌ علميّةٌ مذهبيةٌ تعدّدت عطاءات أفرادها من علم الحديث إلى الفقه إلى القضاء والمناصب الإدارية المختلفة، مشكّلةً بذلك ظاهرةً علميةً جديرةً بالاهتمام والبحث، لأنّها تُبيّن لنا بجلاءٍ مدى مذهبية الحياة العلمية في المشرق الإسلامي عمومًا وفي مدينة حلب خصوصًا، هذا من جهة ومن جهةٍ أخرى تضعنا أمام أهميّة البيئة الأسرية في ترسيخ العلم وتوارثه. وقد وُجدت في مدينة حلب في هذا القرن عدّة أُسرٍ توارثت العلم، إلاّ أنّني أحصيت منها خمسة أسرٍ[١٢٦] كانت هي الأكثر دورًا ونشاطًا في الحياة العلمية بالمدينة، وسأذكرها تباعًا وأُردف كلّ واحدةٍ منها بشجرة نسبٍ تبيّن ما تفرّع عنها من علماء وفقهاء ومحدّثين:

وأوّلها: أسرة بني العجمي الشافعية التي تُنسب إلى الشيخ شرف الدين أبوطالب عبد الرحمن بن العجمي (ت. ٥٦١هـ/١١٦٦م)[١٢٧]، وقد خرج منها عشرات الفقهاء والمحدّثين في حدود قرنين من الزمان، من نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ومن أشهر هؤلاء في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي الفقيه شمس الدين أحمد بن عبد الرحيم بن العجمي (ت. ٦٣١هـ/١٢٣٤م)[١٢٨]، والفقيه كمال الدين عمر بن عبد الرحيم بن العجمي (ت. ٦٤٢هـ/١٢٤٥م)[١٢٩]، والفقيه شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي (ت. ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)[١٣٠]، والمحدّث عماد الدين عبد الرحيم بن عبد الرحيم بن عبد الرحيم بن العجمي (ت. ٦٧٠هـ/١٢٧١م)[١٣١]، والمحدّثة فاخرة بنت عبد الله بن عمر بن العجمي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)[١٣٢]، والشيخ المسند شمس الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن العجمي (ت. ٧١٤هـ/ ١٣١٤م)[١٣٣]، وغيرهم كثير إلى حدود منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

وثاني هذه الأسر هي أسرة بني النحاس الحنفية نسبةً إلى الفقيه هبة الله بن طارق بن النحاس الحلبي الحنفي،[١٣٤] ومن علمائها في هذا القرن الفقيه موفق الدين محمود بن هبة الله بن النحاس (ت. ٦٠٢هـ/١٢٠٦م)،[١٣٥] والفقيه بدر الدين يعقوب بن ابراهيم بن هبة الله بن النحاس (ت. ٦٣٧هـ/١٢٤٠م)،[١٣٦] والفقيه إسحاق بن محمود بن هبة الله بن النحاس (ت. ٦٤٤هـ/١٢٤٦م)،[١٣٧] ومحي الدين محمد بن يعقوب بن هبة الله بن النحاس (ت. ٦٩٥هـ/١٢٩٦م)،[١٣٨] والمحدّث بهاء الدين أيوب بن أبي بكر بن ابراهيم بن النحاس (ت٦٩٩هـ /١٣٠٠م)،[١٣٩] والمسند كمال الدين إسحاق بن أبي بكر بن إبراهيم بن النحاس (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م).[١٤٠]

والأسرة الثالثة هي: أسرة بني أبي جرادة المعروفة أيضًا ببني العديم الحنفية، وهي من نسل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة (ت. ٥٥٤هـ/ ١١٥٠م)،[١٤١] ومن أشهر أعلامها في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي الفقيه أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة (ت. ٦١٣هـ/١٢١٦م)،[١٤٢] وابنه المحدّث محمد بن أحمد بن أبي جرادة (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)،[١٤٣] وأخوه المؤرخ والمحدّث الكبير كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم (ت. ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)،[١٤٤] وابناءه: المحدث مجد الدين عبد الرحمن (ت. ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)،[١٤٥] وجمال الدين محمد (ت. ٦٩٤هـ/١٢٩٥م)،[١٤٦] وقد كانا من كبار فقهاء الحنفية بالمدينة، وابنته المحدّثة أم محمد شُهدة ابنة عمر بن العديم (ت. ٧٠٩هـ/١٣١٠م)،[١٤٧] وقد استمرّت هذه الأسرة العريقة في مدّ الحركة العلمية بالعلماء والفقهاء حتّى خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

والأسرة الرابعة هي أسرة بني الأبيض الحنفية التي تنتسب إلى الفقيه الحنفي يوسف بن الخضر الحلبي الحنفي المعروف بالأبيض (ت. ٥٩٢هـ/١١٩٦م)،[١٤٨] ومن ابنائها الفقيه محمد بن يوسف بن الخضر المعروف بقاضي العسكر (ت. ٦١٤هـ/١٢١٧م)،[١٤٩] والمحدّث أحمد بن محمد بن يوسف (ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)،[١٥٠] والفقيه عبد الله بن محمد بن يوسف (ت. ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)،[١٥١] والفقيه محمد بن عبد الله بن محمد (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)،[١٥٢] والمحدّثة فاطمة بنت أحمد بن محمد (ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).[١٥٣]

أمّا آخر هذه الأسر فهي أسرة بني الأسدي أوبني الأستاذ الشافعية، وهي منسوبة إلى الفقيه عبد الله بن علوان بن عبد الله الأسدي الحلبي الشافعي المعروف بالأستاذ، وقد خرج منها عدّة فقهاءٍ ومحدّثين طوال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ومنهم الحافظ عبد الرحمن بن عبد الله بن الأستاذ (ت. ٦٢٣هـ/١٢٢٦م)[١٥٤] وابناه الفقيهان زين الدين عبد الله (ت. ٦٣٥هـ/١٢٣٨م)[١٥٥] وجمال الدين محمد (ت. ٦٣٨هـ/١٢٤١م)،[١٥٦] ومنهم أيضًا المحدّث كمال الدين أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الأستاذ (ت. ٦٦٢هـ/١٢٦٤م)،[١٥٧] والفقيه عز الدين عمر بن محمد بن عبد الرحمن (ت. ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)،[١٥٨] وخاتمة هذه

الأسرة في هذا القرن كانت بالمحدّث بهاء الدين يوسف بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت. ٦٩٩هـ/١٣٠٠م).[١٥٩]

خاتمة

من خلال هذه الدراسة الموجزة لمظاهر الحياة العلمية في مدينة حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أمكننا إيجاز أهم النتائج التي تم التوصل إليها فيما يلي:

تنوّع المجالس العلمية في المدينة والتي شملت الفقه والحديث والنحو والفرائض وغيرها من العلوم الشرعية، مع قلّةٍ في مجالس العلوم العقلية بسبب عدم رواجها في المدينة، وتحكّم الفقهاء في الحياة العلمية، حيث صبغوها بصبغةٍ مذهبيةٍ خاصة، برز فيها بشكلٍ كبيرٍ اللونان الشافعي والحنفي وندُرِ وجود تأثير لغيرهما، وهو أمرٌ يُمكن تفسيره بالتعصّب المذهبي، والاستعانة بالحكّام للتمكين للمذهبين المذكورين وتهميش ما عداهما، والأمر هنا غير قاصرٍ فقط على الفروع وإنّما تعدّاه إلى أصول الدين، على أنّه لابدّ من التذكير -برغم ذلك- على أدوارٍ للحنابلة في مجال الحديث، وللمالكية في النحو خصوصًا، مع الإشارة إلى تناقص هذه المجالس العلمية بمجملها، عقب الغزو المغولي للمدينة سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م).

ومن المظاهر التي رأيت أنّها مهمة أيضًا، زيادة نشاط الهجرة إلى مدينة حلب والرحلة إليها، حيث أصبحت مقصدًا لطلبة العلم والمتفقهة، بعد أن لم تكن ذات بالٍ قبل ذلك، وتبيّن لي هذا الأمر من خلال عيّنةٍ عشوائيةٍ من خمسين عالمًا درسوا بحلب، وقد حملت هذه العيّنة نتائج متعدّدة: في مذاهب أصحابها، والأسباب العلمية لرحلتهم إلى المدينة، وما تخصّصوا فيه فيما بعد من العلوم المختلفة. بل إنّ منهم أعلامًا بارزةً في القرن (٧هـ/١٣م) وما بعده، كالمؤرخ ابن خلكان الشافعي (ت. ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، والحافظ شرف الدين الدمياطي الشافعي (ت. ٧٠٥هـ/١٣٠٦م)، والحافظ علم الدين البرزالي الشافعي (ت. ٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، والحافظ شمس الدين الذهبي الشافعي (ت. ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

وهذا التغير في مكانة مدينة حلب في المشرق الإسلامي، قد رصده عددٌ من المؤرخين وأشاروا إليه، ومنهم ابن خلكان في ترجمته لابن شداد الشافعي في كتابه "وفيات الأعيان"، وكذلك ياقوت الحموي في "معجم البلدان" عند حديثه عن المدينة، وكلا الرجلين مصدرين مهمّين لأنّهما عاشا في مدينة حلب ردحًا من الزمن وعاصرا هذا الأمر الذي نتحدّث عنه.

ومن النتائج المهمة أيضًا أنّ الطبيعة المذهبية للحياة العلمية في المدينة، قد ساهمت في إيجاد أسرٍ علمية مذهبية، توارثت العلم وساهمت بدورها في دفع الحركة العلمية في المدينة، ومنها أسرة بني العجمي الشافعية وأسرة بني العديم الحنفية وغيرها.

وفي الحديث عن تأثير الحياة العلمية في مدينة حلب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، على مختلف مناحي الحياة فهو موضوعٌ يحتاج إلى دراسةٍ مستقلّةٍ لتشعبه وارتباطه بعدّة عوامل مختلفة. إلاّ أنّه يُمكننا تسجيل بعض النقاط المفيدة في هذا الأمر ومنها:

أنّ الحياة العلمية كانت في بعض صورها وجهًا آخر للاستقرار السياسي، وأيضًا لمدى اهتمام الحكّام والسلاطين بالعلم ورجالاته، خصوصًا أنّ التشرذم والتفكك كان هو السّمة البارزة للمحيط السياسي في المشرق الإسلامي في ذلك العصر، ومدينة حلب لم تخرج عن هذا الإطار العام.

وبمقارنةٍ بسيطةٍ بين حالة الفقهاء والعلماء قبل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وخلاله، يتوضّح لنا التغير الملموس ولعلّنا نرصد هذا التغير جليًا من خلال ما تورده المصادر التاريخية المختلفة، فابن خلكان في ترجمته للقاضي الفقيه بهاء الدين بن شداد الشافعي يُلاحظ أنّه صار للفقهاء حرمةٌ كبيرةٌ في وقته، وأصبحوا يأكلون على سماط الحكام، وهذه المكانة لم تكن لتوجد لولا البيئة العلمية التي أتاحت لهم دورًا مؤثرًا في الحياة السياسية فضلاً عن دورهم العلمي، وابن شداد نفسه كان هو صاحب الكلمة العليا في كلّ ما يدور في مدينة حلب. وفي مقابل ذلك لابدّ لنا من الإشارة إلى أنّ تطور الحياة العلمية ونشاطها لم يكن مرتبطًا دائمًا بالاستقرار السياسي، بل إنّنا أحيانًا نستغرب للتناسب العكسي بينهما.

وفي الجانب الاجتماعي وجدنا أنّ أهمّ ظاهرةٍ هي زيادة التعصب المذهبي، بفعل التنافس المذهبي بين أرباب المذاهب المختلفة، وقد تجسّد ذلك في إنشاء المؤسسات العلمية والتعليمية والمجالس العلمية، ولم يقتصر التعصب على العامة فقط وإنّما تعدّاه إلى العلماء والفقهاء الذين هم في الأصل من أسباب هذه الظاهرة، إضافةً إلى الحكام والوزراء، وهوما جعل مدينة حلب مثلاً تُحرم من دورٍ كبيرٍ لعلماء الحنابلة والمالكية إلاّ نادرًا.

ورغم الفائدة الكبيرة التي جرّها التنافس العلمي والمذهبي بزيادة وتيرة المجالس العلمية والتصنيف، إلاّ أنّ انقلاب الأمر إلى تعصّبٍ مذهبيٍ ذميم، أساء إلى الحياة العلمية برمّتها، خصوصًا بعد أن انتشر في أوساط العامة وصار سلوكًا اجتماعيًا شائعًا.

وعمومًا فالحياة العلمية في مدينة حلب قد بلغت أوجّها في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وإن كانت قد تعرّضت لضربةٍ قاصمةٍ في أواسط هذا القرن بفعل الهجمة المغولية، ولكن سرعان ما تماسكت من جديد وواصلت مسيرتها حتّى نهاية القرن، وفي القرن الموالي الذي شهد هو أيضًا حركةً علميةً جديرةً بالدراسة والبحث وقد تلمّسنا ملامحها في نهاية دراستنا هذه، ولعلّ باحثًا يهتم بها وبصورها المختلفة.

الهوامش:

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان**، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م. ج٢، ص٢٣٥.

(٢) **مختصر القدوري**: هو مختصر في الفقه الحنفي للشيخ أبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي (ت. ٤٢٨هـ) وقد ظلّ لقرون عديدة مشهورًا ومتداولاً عند الحنفية وله شروح عديدة وقد طبع كثيرًا. عبد العزيز بن ابراهيم بن قاسم: **الدليل الى المتون العلمية**، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٤٩.

(٣) **الوجيز**: هو مختصر في الفقه الشافعي ألّفه أبوحامد الغزالي (ت. ٥٠٥هـ/١١٢م). اسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، دار احياء التراث العربي، بيروت، ب ت.، ج٢، ص٨٢.

(٤) سنذكر مصادر هذا الإحصاء التقريبي في المتن بالتفصيل.

(٥) ابن شداد: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق دومينيك سورويل، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٣م.، ج١، ص١٠٩.

(٦) ابن العديم: **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م، ج١٠، ص٤٣٣٢.

(٧) الصفدي: **الوافي بالوفيات**/ تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار احياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢، ص٢٦١. والذهبي: **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧، ص٣٥٩.

(٨) ابن قطلوبغا: **تاج التراجم في طبقات الحنفية**، محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢، ج٢، ص ٦٦.

(٩) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١، ص١٦٧. واليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ط ٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج٢، ص٣٠٤.

(١٠) ابن خلكان: المصدر السابق، ج٧، ص٩٠.

(١١) نفسه: ج٧، ص٩٠.

(١٢) **المهذّب**: هو كتاب في الفقه لأبي اسحاق الشيرازي الشافعي (ت. ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣). السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو، ط ٢، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٣هـ، ج٤، ص٢١٥.

(١٣) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨، ج٢٣، ص١١٥.

(١٤) نفسه: ج٢٣، ص٣١٩.

(١٥) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٩، ص ١٤٠.

(١٦) اليونيني: المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٣ .

(١٧) الذهبي: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عبد السلام تدمري، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.، ج٤٤، ص٣٩٣.

(١٨) اليونيني: المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٥.

(١٩) **كتاب التعجيز**: هو كتاب في الفقه الشافعي لابن يونس الموصلي الشافعي (ت. ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م). السبكي: المصدر السابق، ج٨، ص١٩٢.

(٢٠) **كتاب حلية الشاشي**: كتاب في الفقه الشافعي لأبي بكر الشاشي الشافعي (ت. ٥٠٧هـ/١١١٣م). نفسه: ج٦، ص٧١.

(٢١) ابن قاضي شهبة: **طبقات الشافعية**، تحقيق عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص٢٣٥.

(٢٢) القرشي: **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، مير محمد كتب خانة، كراتشي، ب ت.، ج٢، ص١٤٦.

(٢٣) نفسه: ج١، ص٣٣٠.

(٢٤) الذهبي: **العبر في خبر مَنْ غبر**، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ب ت.، ج٣، ص١٧٠.

(٢٥) ابن شداد: المصدر السابق، ج١، ص ١٤.

(٢٦) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص١٨٦.

(٢٧) ابن شداد: المصدر السابق، ج١، ص١١٧.

(٢٨) نفسه: ج١، ص١١٣.

(٢٩) ابن شاكر الكتبي: **فوات الوفيات**، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ج٣، ص١٢٦.

(٣٠) ابن كثير: **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ب ت، ج١٧، ص٤٤٢.

(٣١) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٦، ص٣١٩.

(٣٢) ابن العديم: المصدر السابق، ج٣، ص١٢٦٨. والعيني: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ص٤٩٨.

(٣٣) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥٢، ص ٢١٣.

(٣٤) سنذكر مصادر هذا الإحصاء التقريبي عند التطرق للموضوع بالتفصيل في المتن.

(٣٥) ابن خلكان: المصدر السابق، ج٧، ص٩١ وص٩٩.

(٣٦) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج٢، ص٩٦.

(٣٧) أبوشامة: **ذيل الروضتين أوتراجم رجال القرنين السادس والسابع**، تحقيق محمد زاهد الكوثري، ط ٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م، ص١٦٣.

(٣٨) ابن عبد الهادي: **طبقات علماء الحديث**، تحقيق أكرم البوشي وابراهيم الزيبق، ط٢، ١٩٩٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٤، ص٢١٩.

(٣٩) في سبب تولية دار الحديث يذكر ابن رجب الحنبلي نقلاً عن ناصح الدين الحنبلي (ت. ٦٣٤هـ) أنّ ابن شداد رأى في المنام الرسول "عليه الصلاة والسلام" فسأله عن أفضل المذاهب، ثمّ كتم ابن شداد الجواب، وقدرأى الناصح أنّه أشار الى مذهب الإمام أحمد، ودليله في ذلك أنّ ابن شداد لم يغيّر تعصّبه على الأحناف بل مال الى الحنابلة وأجلس الصريفيني في دار الحديث، ولوكان الجواب مذهب الشافعي لأظهره، لأنّه كان داعيةً له مبالغًا في تعظيمه عند السلاطين. ابن رجب الحنبلي: **الذيل على طبقات الحنابلة**، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٣م، ج١، ص١٦٨.

(٤٠) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٦، ص٩١.

(٤١) الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، ب. ت، دار إحياء التراث العربي، الهند، ج٤، ص٢٥١، ص٢٥٢. وابن رجب: المصدر السابق، ج١، ص١٦٨.

(٤٢) ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق، ج١، ص١٨٢.

(٤٣) ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مج٧، ص٤٢١.

(٤٤) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٨، ص٣٨.

(٤٥) الصفدي: **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق علي أبوزيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص٣٤١. وابن عبد الهادي: المصدر السابق، ج٤، ص٢٦٤.

(٤٦) الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، ج٤، ص١٨١.

(٤٧) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٠، ص٢١٩. والتقي الغزي: **الطبقات السنية في تراجم الحنفية**، دار إحياء العلوم، بيروت، ب ت، ج١، ص١٩٧.

(٤٨) ابن رجب: المصدر السابق، ج١، ص١٣١. وابن العماد: المصدر السابق، مج٧، ص٢٥٣.

(٤٩) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢٢، ص٣٨٧.

(٥٠) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٧، ص٧٦.

(٥١) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١، ص١٦٧.

(٥٢) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥١، ص٣١٥.

(٥٣) ابن تغري بردي: **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ب ت، ج٢، ص١٥٨.

(٥٤) ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج٧، ص٤٣٣.

(٥٥) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٨، ص٢٠١.

(٥٦) المصادر مفصلة حسب المجالس.

(٥٧) السيوطي: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم، ط ٢، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج٢، ص٢٦١.

(٥٨) ابن خلكان: المصدر السابق، ج٧، ص٤٨.

(٥٩) نفسه: ج٧، ٤٩.

(٦٠) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢٣، ص١٤٥.

(٦١) السيوطي: **بغية الوعاة**، ج١، ص١٣٠. وابن كثير: المصدر السابق، ج١٧، ص٢٩٠.

(٦٢) الصفدي: **أعيان العصر وأعوان النصر**، ج٢، ص٧٠٨.

(٦٣) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٥، ص٣٣٧.

(٦٤) ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، مكتبة ابن تيمية، ب. ت، ج٢، ص١٢٢. والذهبي: معرفة القراء الكبار، ص٣٥٩. وابن كثير: المصدر السابق، ج١٧، ص٣٩٠، ص٣٩١.

(٦٥) الذهبي: **معرفة القراء الكبار**، ص٣٥٩.

(٦٦) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٢، ص٢٦٢.

(٦٧) اليونيني: المصدر السابق، ج١، ص١٢.

(٦٨) القرشي: المصدر السابق، ج١، ص١٨٩.

(٦٩) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج١، ص٣٢. والتقي الغزي: المصدر السابق، ص٥٥.

(٧٠) ابن قطلوبغا: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٦.

(٧١) **إسنا**: مدينة في أقصى الصعيد بمصر، على شاطئ النيل من الجانب الغربي. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ب ت، مج١، ص١٨٩. ويبدوأنّ أنّ أكثر أهلها كانوا من الشيعة.

(٧٢) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٩، ص١٤١.

(73) أحمد منير الدين: **تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الإجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس**، تر سامي الصقار، دار المريخ، الرياض، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م، ص٦٥.

(٧٤) **الوجادة**: هي أن يقف الشخصعلى كتاب لآخر فيه أحاديث يرويها بخطّه ولم يلقه، أولقيه ولم يسمع منه ذلك الذي وجده بخطّه فيقول: وجدت بخطّ فلان. وهي من طرق نقل العلم وتحمّله. ابن الصلاح: **مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الإصطلاح**، تح عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ب ت، ص٣٥٨.

(٧٥) منهم الشافعي (ت. ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، والقاضي أبوالحسن الماوردي (ت. ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م). الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص٤٨. وابن شاكرالكتبي: المصدرالسابق، ج٣، ٤٢٧.

(٧٦) الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، ج٤، ص١٤٥٩.

(٧٧) السيوطي: **طبقات الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص٥٠٩.

(٧٨) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢٣، ص١٤١. ابن كثير: المصدر السابق، ج١٣، ص١٩٦.

(٧٩) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢٣، ص٢١٤.

(٨٠) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٧، ص١٧٢.

(٨١) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٣، ص٢١٨. والذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٧، ص٢٠٨.

(٨٢) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٥، ص٨. والسيوطي: **طبقات الحفاظ**، ص٥٠٢.

(٨٣) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٧، ص٣٧٩.

(٨٤) نفسه:ج٤٨، ص١٣٢.

(٨٥) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٠، ص١٦٨.

(٨٦) أبوشامة: المصدر السابق، ص٤٨.

(٨٧) القرشي: المصدر السابق، ج٢، ص٥.

(٨٨) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٢، ص٧٣.

(٨٩) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج١، ص٣٦٧.

(٩٠) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢٣، ١٤٥.

(٩١) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥٠،ص٨٠.

(٩٢) نفسه: ج٥٠، ص١١٨.

(٩٣) نفسه: ج٥٠، ص١٤٦.

(٩٤) الذهبي: **المعجم المختص بالمحدثين**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٩. **وتاريخ الإسلام**، ج٥٠، ص ٢٦٠.

(٩٥) الذهبي: نفسه، ص٢٤٣.

(٩٦) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج. ص. وابن العماد: المصدر السابق، مج٧، ص٦٣٠.

(٩٧) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥٠، ص٣٦٩.

(٩٨) ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، مج٧، ص٦٤٣. والذهبي: **العبر في خبر مَنْ غبر**، ج٣، ص٣٤٥.

(٩٩) الذهبي: **تاريخ الإسلام**،ج٥٠،ص٣٦٤.

(١٠٠) ابن خلكان: المصدر السابق، ج٧، ص٤٨ و٩٠.

(١٠١) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٧، ص١٤٨.

(١٠٢) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٢. والسبكي: المصدر السابق، ج٨، ص٣٦٩.

(١٠٣) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٢، ص٩٤. والذهبي: **المعجم المختص بالمحدثين**، ص٢٢٠.

(١٠٤) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥١، ص٣٤٩.

(١٠٥) ابن العماد: المصدر السابق، مج، ص٧١٤. وابن رجب: المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٠.

(١٠٦) الذهبي: **المعجم المختص بالمحدثين**، ص١٥٩. وابن رجب: المصدر السابق، ج١، ص٢٥١.

(١٠٧) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٦، ص٤٤.

(١٠٨) ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، مج٧، ص٧٤٩.

(١٠٩) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥٢، ص٢٧٧.

(١١٠) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٢، ص٢٣٣.

(١١١) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ٢، ص١٩٤.

(١١٢) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٧، ص٣٢٣.

(١١٣) ابن رجب: المصدر السابق، ج١، ص٢٧٤. والذهبي: **معجم الشيوخ**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م،ج٢، ص٥٦.

(١١٤) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٧، ص٣٦٧. وابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج٢، ص٤١٠.

(١١٥) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٣، ص٢٣٢.

(١١٦) نفسه: ج٥، ص١٦٦.

(١١٧) الذهبي: **معجم الشيوخ**، ج٢، ص٢٠٩. **والعبر في خبر مَنْ غبر**، ج٤، ص١٤.

(١١٨) ابن حجر العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، ط٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج١، ص٣٦٤. والذهبي: **المعجم المختص بالمحدثين**، ص٣٦.

(١١٩) الصفدي: **أعيان العصر وأعوان النصر**، ج٣، ص١١٥.

(١٢٠) القرشي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٣٥.

(١٢١) ابن حجر: المصدر السابق، ج١، ص٤٢٦. **والذهبي: المعجم المختص بالمحدثين**، ص٧٠.

(١٢٢) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٥، ص٢٠٦.
(١٢٣) الحسيني: **ذيل تذكرة الحفاظ**، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٠. والسبكي: **معجم الشيوخ**، تح بشار عواد وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٣٢٠. والصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٠، ص٢١٩.
(١٢٤) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥٣، ص٧٢. وابن العماد: المصدر السابق، مج٧، ص٦٣٠.
(١٢٥) الذهبي: **العبر في خبر مَنْ غبر**، ج٣، ص٣٦٤.
(١٢٦) تفصيل المصادر عند الحديث عن كل شخصية علمية.
(١٢٧) السبكي: المصدر السابق، ج٧، ص١٤٧. والذهبي: **العبر في خبر مَنْ غبر**، ج٣، ص٣٦.
(١٢٨) سبط بن العجمي: **كنوز الذهب في تاريخ حلب**، تحقيق شوقي شعث وفالح البكور، دار القلم، حلب، ١٤١٧هـ، ج١، ص٣٩٨.
(١٢٩) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢٣، ص١١٥.
(١٣٠) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٧، ص٩٣. والعيني: المصدر السابق، ص٧٠.
(١٣١) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٩، ص٣٠٨.
(١٣٢) نفسه: ج٥٢، ص٣٣٤. و**معجم الشيوخ**: ج٢، ص١٠٢.
(١٣٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج١، ص٢٠٣.
(١٣٤) القرشي: المصدر السابق، ج٢، ٥٣.
(١٣٥) نفسه:، ج٢، ص١٦٢.
(١٣٦) ابن شداد: المصدر السابق، ج١، ص١١٧.
(١٣٧) نفسه: ج١، ص١٢١.
(١٣٨) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥٢، ص٢٧٦. و**معجم الشيوخ**، ج٢، ص٣٠٢. وفيه أنّه كان يقول "أنا في الفروع على مذهب أبي حنيفة، وفي الأصول على مذهب أحمد".
(١٣٩) القرشي: المصدر السابق، ج١، ص١٦٣.
(١٤٠) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٨، ص٢٦٥.
(١٤١) القرشي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٥.
(١٤٢) نفسه: ج١، ص١٣١.
(١٤٣) نفسه: ج٢، ص٢٧.
(١٤٤) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٢٢، ص٢٦٩ و٢٧٠ و٢٧١.
(١٤٥) الذهبي: **المعجم المختص بالمحدثين**، ص٢٠٦.
(١٤٦) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥٢، ص٢٢٨.
(١٤٧) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج٢، ص٥٢٩.
(١٤٨) القرشي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٦٣.
(١٤٩) نفسه: ج٢، ص٣٩٠.
(١٥٠) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٨، ص٣٣٢.
(١٥١) القرشي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٠.
(١٥٢) نفسه: ج٢، ص٦٩.
(١٥٣) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٥١، ص٢٢٩.
(١٥٤) ابن كثير: **طبقات الشافعيين**، تحقيق أنور الباز، دار الوفاء، المنصورة، ٢٠٠٤م، ص٨١٤.
(١٥٥) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤٦، ص٢٢٩.
(١٥٦) نفسه: ج٤٦، ص٣٨٢.
(١٥٧) ابن كثير: **طبقات الشافعيين**، ص٨٨٦.
(١٥٨) السبكي: المصدر السابق، ج٨، ص٣٤١.
(١٥٩) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، جج٥٢، ص٤٦٢

ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

Articles

Demographic, Socio-Economic and Architectural Structure of Tibnīn in the Age of the Crusades

Ahmed Mohamed M. Abdelkawy Sheir
Historical Scholar from Egypt
M.A. Georg-August-Universität
Göttingen, Gemany

ABSTRACT

Tibnīn was an important small Crusader fief and a fortified castle. It was vital for the Kingdom of Jerusalem, because it included fertile agricultural lands, was a tax collection centre, and because it controlled the Damascus-to-Tyre commercial route. Additionally, its castle played defensive and offensive role in the north of the Kingdom of Jerusalem and upper Galilee, and its rulers of Tibnīn played a major role in forming the history of the Latin East. When the Crusaders invaded the Levant at the end of the eleventh century, it was given rise to new demographic, cultural, socio-economic, and architectural features. The present Paper aims at removing some of the mystery concerning the fief of Tibnīn and its castle in the Latin East. This paper thus is a study of the demographic structure of Tibnīn and discusses the socio-economic role of Tibnīn in the Latin east. Moreover, the role of Tibnīn in influencing the relations between Muslims and the Crusaders in the Levant and the architecture of the castle of Tibnīn and its importance in the age of the Crusade will be examined.

Keywords:

Tibnīn, The Crusades, Crusader Castles, The Latin East, Crusader soldiers

Article info:

Received: 13 January 2014
Accepted: 04 March 2014

Citation:

Ahmed Mohamed M. Abdelkawy Sheir, "Demographic, Socio-Economic and Architectural Structure of Tibnīn in the Age of the Crusades". - Historical kan Periodical. - Vol. (8) Issue (29); September 2015. Pp. 166 – 177.

1- Introduction

The Crusade movement is one of the most important occurrences of medieval history. It took place throughout two centuries in the Levant and affected both Muslims and Crusaders and in turn changed the way in which West and East related to one another.(1) To understand the history of the Crusades, it is important to study not only the military aspects but also the socio-economic and political relationships. When the Crusaders took control of the Holy Land and many Islamic cities in the Levant, they transferred their feudal European system there. They established four main fiefdoms or lordships, Jerusalem, Edessa, Antioch and Tripoli. In addition, there were another twelve secondary fiefdoms,(2) of which Tibnīn was one. Tibnīn was called "Toron" by the Crusaders. Once the Crusaders had captured Tibnīn, they began building its fortified castle, from which the fief of Tibnīn gained its importance throughout the period of the Crusades.

2- The Study Area and the Historical Background

Tibnīn lies on "Jabal 'Amil" and was strategically located on the trade route between Damascus and Tyre, in the south of present-day Lebanon.(3) This area was known as Jabal 'Amilah, and later as Jabal 'Amil. Most historians have thought that the naming of this

land goes back to the tribe of Banu 'Amilah " بنو عاملة", which emigrated from Yemen to the Levant in pre-Islamic times and settled in these lands, because of a flood caused by the destruction of the Maārib Dam "سد مأرب".(4) It was also named Jabil al-Jālīl and Jabal al-Khalil. Jabil ʿĀmil included several mountains and areas: Jabil Tibnīn, Jabil Hunin, the coast of Tyre, Shaqif Arnun and others.(3)

Geographically and historically, Lebanon was part of Greater Syria. The natural borders of Jabal ʻAmil were the Horn River "al-Qarn" near of Ṭīr-Shiḥah "طيرشيحا " south of Acre, Jordan and part of the Lebanese mountains to the east, the al-Āwali River "نهر الأولي" on the north, and the Mediterranean Sea on the west. The region of Jabal ʿĀmil became part of the Islamic State from the seventh Gregorian century. When the Crusaders invaded the Levant, they advanced to control the cities and villages of Jabal ʿĀmil because of this area's importance, geographically, strategically, and economically, as will be illustrated. The area of Jabil ʻAmil included many villages which were divided into several fiefdoms; Tibnīn was one of these fiefdoms in the south part of Jabal ʻAmil.(5)

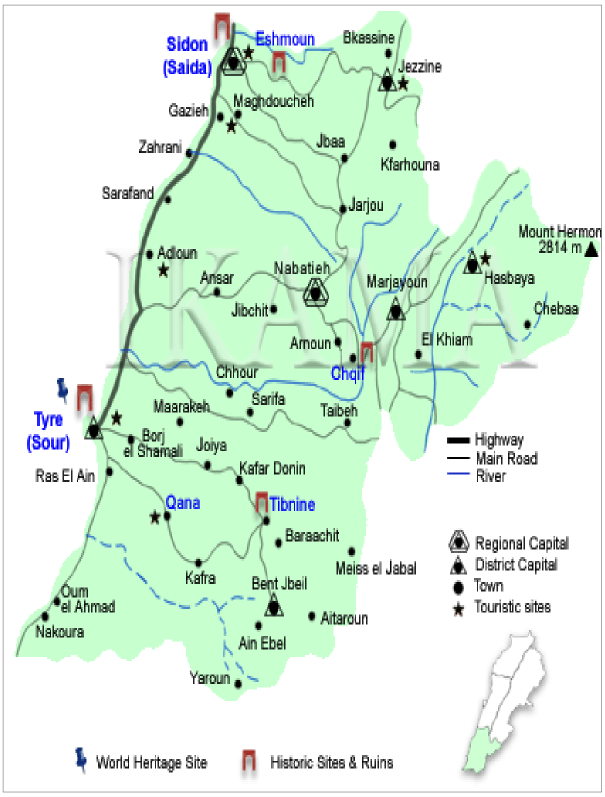

Map 1: Jabal ʻAmil and Southern Lebanon(6)

Once the castle of Tibnīn was built by Hugh of Saint-Omer in AD 1103-05 / AH 496-99, it became a base from which the Crusaders could launch invasions in the area of Galilee in the northern part of the Kingdom of Jerusalem. It thus played an important military, political and economic role in the north of the Kingdom of Jerusalem throughout the period of the Crusades. Owing to this, the Muslims constantly attempted to regain it and did so in 1187. However, the Emperor Frederick II succeeded in recapturing it in 1129, so that it resumed its political, military and economic role under the Latin rule until it fell eventually and forever to the Muslims in 1266.

Tibnīn was an important Crusader fief and castle. It played a pivotal role in capturing the city of Tyre, which had received military reinforcements from Damascus before its fall to the Crusaders' in 1124. From that time, Tibnīn and Tyre became important military and economic Crusader settlements. The fief of Tibnīn was vital for the Kingdom of Jerusalem, because it included fertile agricultural lands, was a tax collection centre, and because it controlled the Damascus-to-Tyre commercial route. Militarily, it controlled the area north of Galilee, which was a very important region for the Crusader States and the Kingdom of Jerusalem, because in addition to the importance of the defensive and offensive role of its castle in the north of the Kingdom of Jerusalem,(7) the rulers of Tibnīn played a major role in forming the history of the Latin East. They were key figures in the political and military events of the Kingdom of Jerusalem, as will be discussed throughout this work.

The arrival of the Crusaders to the Near East area at the end of the eleventh century gave rise to new demographic, cultural, socio-economic, and architectural features. New inhabitants, new traditions and new languages came with the European inhabitants. Islam and Christendom, Arabs and Franks, East and West met face to face in the Levant.(8) The present article aims at removing some of the mystery concerning the fief of Tibnīn and its castle and illustrates the importance of this relatively unknown fiefdom, its subjects and rulers in the formation of the history of the Latin East. This paper thus discusses the demographic and socio-economic role of Tibnīn in the Latin east. Moreover, the role of Tibnīn in influencing the relations between Muslims and the Crusaders in the Levant and discusses the architecture of

the castle of Tibnīn and its importance in the age of the Crusade will be examined.

Tibnīn was an ancient city and a castle was built there by the Aramaic King Hazael (842-805 B.C) when his conquests reached Palestine. The castle was built to dominate the commercial roads that linked Egypt and the Arabian Peninsula. It was named Tibnīn, which in Aramaic means "constructed and fortified building". The castle was destroyed by the hands of the Assyrians and the Chaldeans and was rebuilt in the Greco-Roman period, when it was garrisoned to protect the commercial caravans[.9]

Tibnīn Castle lies on top of Jabal ʻAmil, between Damascus and Tyre,[10] at a distance of 25 kilometers southeast of the city of Tyre. Geographically, it belonged to Upper Galilee (الجليل: Galīl).[11] Tibnīn is the Arabic equivalent of the Crusader name "Toron". Hugh Saint-Omer, the first lord of Tibnīn in the age of the Crusades, built the castle of Tibnīn, which he called Toron, on the highest ridge of the mountain between 1103 and 1105/496-499.[12] It looked down on the Wadi alʿAin, and the largest part of the city of Tibnīn was on a lower ridge and south west of the castle.[13] Western historiographical sources and Latin charters mention it under the name of Toron. It is called Tibnīn, the original name, in the Arabic sources. This study often uses and mentions the original name, Tibnīn.

3- Populations of Tibnīn

The human factor had a great influence on the Crusade movement and on its outcome. The overpopulation in Europe was one of the factors that led to conquest of the Near East in 1095. Moreover, the Islamic world was badly divided at that time. The Syrian climatic conditions were more favorable than those in Europe, and the Europeans would find sufficient food by cultivating the arable lands in the Levant. The growth in numbers of younger sons of the noble and royal houses of Europe motivated them to discover new lands for their own. The Crusade movement was also an opportunity for soldiers, seculars, knights and others to acquire new possessions in the Levant.[14] The population increase of European areas that participated in the Crusades can be estimated as follows (in millions):

European Areas	A.D. 1000	A.D. 1200
France and the Low Countries	6	10
Germany and Scandinavia	4	7
British Isles	1.7	2.8
Italy	5	7.8
Iberia	7	8
Total	23.7	35.6
Russell, "The Population of the Crusader States," p. 298		

Although there were big urban cities in the Levant, the majority of the Latin population settled in villages and combined European agricultural experience with the local farming practices.[15] Tibnīn was commercial-agricultural and one of the most suitable areas to settle. It was a place where taxes were collected from the commercial caravans traveling between Damascus and Tyre.[16]

Throughout the twelfth and thirteenth centuries, it is estimated that the average population density of cities in general was about 125 persons to the hectare and that population of Syria was estimated at about 2.7 million people.[17] The average size of the villages near Tyre was about 120 villages with in 450 km(2) and their size was about 3.75 km(2) per village.[18] This means that we can expect the villages of Tibnīn to also be about 3.75 km(2) in size, because they were located near Tyre and some of the villages near Tyre actually belonged to the fief of Tibnīn. Although it is difficult to estimate the population of inhabited Syrian areas because of its mountainous character and extended desert, the villages were estimated to have about 200-210 persons.[19]

It is difficult to define the borders of the fief of Tibnīn throughout the period of the Crusades. It is estimated that there were about 120-133 villages in the extended region between Tibnīn and Tyre.[20] The fief of Tibnīn included some villages in the vicinity of Tyre, as can be derived from a description by Willam of Tyre, who mentions that Humphrey I of Tibnīn held the hilly county around the city of Tyre, which extended almost to Lebanon and that he held both strongholds and fields in peace.[21]

The demography of the Crusader States varied from the north to the south and from the

east to the west. In general, there were more Muslim inhabitants in the north of the Kingdom of Jerusalem than in the south, because of the fear that had spread among them in the first ten years of the Crusade conquests. They left their homes and lands, going to more secure cities in the north that the Crusaders had not captured. The Muslims and Arabic inhabitants formed ethnic and linguistic blocks in the Crusader fiefdoms, at least throughout twelfth century.[22]

The inhabitants of Jabal 'Amil were from a variety of Arabic tribes, and were the descendants of a population that had lived there since time immemorial.[23] From the beginning of the eleventh century, the areas of Transjordan and north of Palestine were mostly Sh?ite. The native Christians of Syria shared a common faith with the Franks, but they were closely linked to their Muslim neighbors by language, customs and history. Sometimes they suffered under the Crusaders and sometimes some helped the Crusaders against the Muslims. "They gave the Franks no trouble, but they could regard the prospect of Muslim rule with equanimity." Both the Crusaders and the Muslims preferred who were loyal to them.[24]

Edward Robinson was one of the first modern travelers to Tibnīn in the middle of the 19(th) century.[25] He reported that "the village of Tibnīn has 380 male inhabitants, of whom 250 were Metāwilech and 130 were Christians."[26] Thus there were Christian inhabitants in Tibnīn in the mid-1800s, but the majority during the period of the Crusades were Shi'ite Muslims.

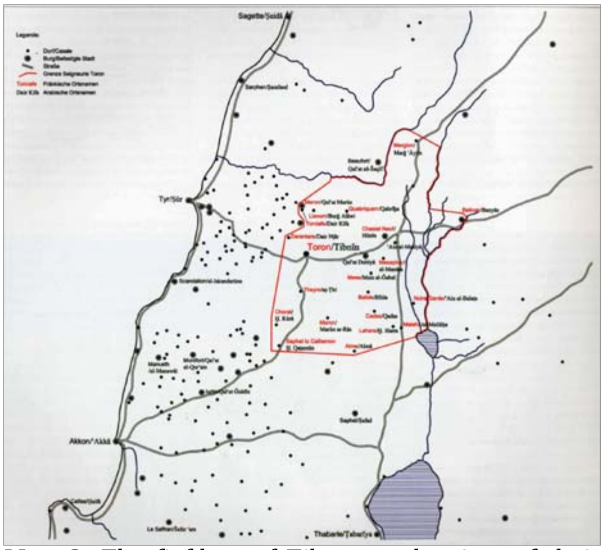

Map 2: The fiefdom of Tibnīn at the time of their greatest expansion in the middle of the twelfth century.[27]

Crusader society was a mixture of Eastern and European culture. There were numerous languages, cultures and traditions. Inhabitants of the Levant shared each other's' celebrations, festivals and special occasions. Although the most widely spoken language between the Crusaders was French and the language of the churches and monasteries was Latin, many of the Crusaders learned and spoke Arabic.[28] It was mentioned that Humphrey IV of Tibnīn was the interpreter in the negotiations between the Muslims and the Crusaders in 1192, and it was said that Humphrey IV learned the Arabic language during his two years of captivity, 1187-89.[29] This indicates that daily life between the Crusader and Muslim inhabitants was completely different from the life of war between the Muslim and Crusader leaders. There not was only warfare but also mutual cultural and social relationships.

In the time when Tibnīn and the area of Jabal 'Amil were captured, the Franks committed many atrocities. However, the villages did not suffer much torture or murder, because the Crusaders needed the villagers to cultivate the lands to provide sufficient food.[30] In 1113, during the war between Ṭughtikīn of Damascus and the Crusaders in the area of Tibnīn and Galilee, the Muslims raided Tibnīn and Galilee, which led to a rebellion of the Muslim inhabitants against the Latin rule in these areas. To counter this, King Baldwin settled Syriac Christians in this region, but he also kept the Muslim inhabitants because of their experience in cultivating the land.[31]

The Muslim peasants paid the usual taxes they were accustomed to pay after the Crusaders conquered an area and controlled it.[32] When Ibn Jubair visited the area of Tibnīn and its neighboring villages in 1184, he reported that most of the inhabitants of Tibnīn and the neighboring area were from Muslim tribes. They cultivated the lands and lived a pastoral and rural life. Both Latin and Muslim inhabitants enjoyed a stable life under Frankish rule in Tibnīn. The crops and livestock were divided between the Franks and Muslims and they lived together in peace.[33]

Although the situation of the Muslim peasants and inhabitants was bad under Crusader rule in general, there were some exceptions such as the peasants of Tibnīn, whose situation was better than others in neighboring Crusader areas. The Crusader lords of Tibnīn and the Kingdom of Jerusalem

needed them to cultivate the land of Tibnīn, which was an important crop-growing area that provided food for the Latin Kingdom of Jerusalem.(34)

After the battle of Hattin in 1187, the Muslim forces recovered Tibnīn on Sunday, July 29(th), 1187 / 18(th) Jumada II 583.(35) The Crusaders lost their lands in Galilee, Tibnīn and other areas, and were replaced by some Muslims tribe who were loyal to the Sultan, Ṣalaḥal-Dīn, but the Eastern Christians remained living alongside the Muslims.(36) With this reconquest, the Muslims controlled Tibnīn and dominated the commercial road. In addition, Tibnīn became the headquarters of the Muslim army for its military operations against the Crusaders in the city of Tyre.(37) Owing to the importance of Tibnīn economically and strategically for the Crusaders, they constantly attempted to regain it. They laid siege to it by helping the German troops in 1197-98, but they did not recapture it.(38)

Ibn-al-Āthīr mentions that when German troops surrounded Tibnīn in 1197-98/ 593, the Muslims wanted to surrender the city to the Crusaders in exchange for their safety. Some Frankish inhabitants warned the Muslims at Tibnīn, saying that, "If you give the castle to the Germans, they will take you captive." The Muslims therefore defended the castle and did not leave it.(39) This appears to show that the relations between the local Crusader and Muslim inhabitants were close and friendly, and that they were socio-economically related.

On February 18(th), 1229/ 638, Emperor Frederick II formed a treaty at Jaffa with Sultan al-Kāmil, under which the Crusaders regained Tibnīn and the extended region from Jerusalem to Jaffa. They maintained a truce for ten years, which will be discussed in further chapters.(40) Tibnīn was ruled by the Franks from 1229 until Sultan Bībars took control the city of Tibnīn and its castle in 1266/664.(41) During this period, there were socio-economic ties between the Latin and Muslim inhabitants of Tibnīn.

4- Agriculture

Agriculture played a significant role in the Crusader States and was the basis on which the Crusader economy and Crusader settlements in the Levant were built. However, historical sources fail to mention agricultural aspects in their narratives. The agricultural characteristics of the mountains ofʿAmil, in Tibnīn, the south of Lebanon and the north of the Kingdom of Jerusalem, were somewhat similar to those in the south. This mountainous area, Tibnīn, included cultivable soil and had the necessary water sources to irrigate the land, and the coastal plain was a narrow area with large cultivations and got water from some conduits cut in the mountains.(42)

The lands of Tibnīn as well as the area of Jabal ʻAmil were known to be arable,(43) because the mountainsides were formed as terraces, which kept the arable soil in place and retained the abundant rainfall, thus assuring the moisture needed for crops.(44) William of Tyre described the environment, soil and climate of Tibnīn as "famed for its salubrious air and delightful climate, [it] lies in the tribe of Asher between the sea and Mt. Lebanon and is about equally distant from the two cities, Tyre and Banyas." The soil of Tibnīn was fertile and well suited to the cultivation of vines and trees, producing abundant crops worked by the peasants. He describes the advantages of the site of Tibnīn, which was able to provide the needs of the Crusaders and its founder, Hugh of Saint-Omer, because of its fertile soil. Moreover, it was a very fortified place, which was important for capturing the city of Tyre, and thus important for the whole area at that time.(45)

The waters of the Litany River originate in the plains of Baalbek and the Bekaa, and the al-Zahrani River stems from east of the Mountain Niha, heading south-west and flowing into the sea, a distance of seven kilometers south of the city of Sidon.(46) The lands of Tibnīn got water from the nearby springs and watercourses. The nearest valley was WadiʿAin al-Mizrāb, which had great springs to irrigate the fields, and from Wadi alʿAin, north of the castle.(47) This increased the agrarian importance of Tibnīn, in addition to its being a fortified fortress.

The army of the Kingdom of Jerusalem under the leadership of King Baldwin I attacked the city of Tyre in November 1111 / Jumada I 505. Ṭughtikīn of Damascus immediately dispatched some of his forces to attack the Crusader-held lands in Tibnīn and north.(48) King Baldwin ordered his army to return,(49) because he was afraid that the Muslims would take control of their wheat and vineyards crops cultivated in this area.(50) This demonstrates the economic and agricultural importance of the area of Tibnīn as a source of food, which

increased its strategic, political and military importance as well.

The village was the basic unit of rural life in the Crusader States in the Levant.(51) This underlines the importance of agriculture for both the Crusaders and Muslims. Most inhabitants of Tibnīn and Jabal ʻAmil were skilful farmers and peasants, who represented an economic necessity for the Latin fiefdoms.(52) This fact was illustrated when the Muslim inhabitants rebelled against Latin rule in these areas; King Baldwin I moved Syriac Christians from near the Kingdom of Jerusalem to settle in this region, Jabal ʻAmil, Tibnīn and Galilee. However, King Baldwin ordered the Crusader rulers to treat the Muslim peasants well, because they needed their experience in farming the land in this area.(53)

The area of Jabal ʻAmil and the fief of Tibnīn comprised flat plains, mountainous and plateaus, both highlands and lowlands. The first was suitable to cultivate lemon, banana and palm trees, while the soil of the mountain land was good for producing timber and some kind of fruit trees.(54) This was confirmed by Ibn-Jubair in his travels in 1184; he said that there were roads through land full of trees and forests between Tibnīn and Hunīn, the neighboring castle to Tibnīn.(55)

The land in northern Syria and the fief of Tibnīn had important vineyards and plantations of olive trees at the period of the Crusades. Vegetables and legumes, such as beans, lentils, peas, were important in the diet of the Muslims and the Franks, and were grown in the same soil. The lords of every fief held the villages with their arable lands under his own control. Nevertheless, there was a waste of potential farmland in this area as the other areas at that time.(56)

Sugarcane and cotton were important crops that had been planted in the Levant since the tenth century, and both of these crops were exported to southern Europe. Cotton and sugarcane require large amounts of water, which came from the local springs and rivers.(57) These crops and also grapes were grown in the interior valleys in the area around Tyre and in Galilee territory. It was said that the vineyards became more widespread after the beginning of the Crusades, which might mean that they were cultivated by the Crusader settlers. The most suitable lands for conversion to vineyards were around and near Tyre.(58) All of these sources confirm that these crops and fruits were planted in the lands of Tibnīn and Jabal ʻAmil in the north of Galilee and around Tyre, and that there were watercourses and springs for irrigation.

Throughout the twelfth century, when the Kingdom of Jerusalem was at its height, the Crusaders benefitted considerably from their control of the fertile agricultural areas, receiving payment for and taxes on the harvests from the Muslims. There was also agricultural cooperation between the Crusaders and Muslims. For instance, in 1185, Raymond III of Tripoli made an agreement with Ṣalaḥal-Dīn, by which he brought much wheat into the Frankish lands.(59) After 1187, the Franks lost much of their lands, including Tibnīn, and their Kingdom was limited to the coast. However, the region of the fertile coast could not provide sufficient food.(60)

5- Trade, Taxes and Currency

The mainstay of the Crusader economy was trade. The Crusader kings were therefore eager to develop the commercial structure of the Levant. There were several factors that helped the Crusaders to develop trade in the Crusader States. The most prominent factor was the existence of several internal commercial roads in the Levant, which increased their commercial activities and their commercial relations with Muslims and European merchants.(61)

The Crusaders had the castle of Tibnīn built in 1105, by which they controlled the commercial road from Tyre to Damascus and threatened the Muslim trade caravans that went along the Transjordan road and south of Hebron. The latter route posed a lot of difficulties,(62) so traders turned to the Damascus-to-Tyre route. The castle overlooked the road between Tyre and both Damascus and Banyas and controlled the commercial movement between Tyre and the Muslims in the inland cities.(63)

The commercial caravans came from Damascus and went through Tibnīn to Tyre in particular and to the south in general. Ibn Jubair wrote that the Crusaders collected taxes "المكوس: al-Mūkūūs" from the commercial caravans at Tibnīn, saying "we reached to a big fortified Crusader fortress called Tibnīn, which was a place where taxes were collected from the caravans, موضع تمكيس القوافل, and it was under the hand of the Pig, mother of the Pig King." The taxes were ()"Dinar and carats of Tyrian dinars on the head (per person), الضريبة فيه دينار وقيراط من

الدنانير الصورية على الراس". He mentions that the Crusaders forced the Moroccans in Tibnīn, who merchants were possibly living in Tibnīn, to pay the above-mentioned taxes, because they had joined in the wars of Nūr al-Dīn against them.(64)

The description of Queen Agnes and her son King Baldwin IV by Ibn-Jubair as "Pigs", the meat of which Muslims are forbidden to eat, reflects the attitudes of this time, where both Muslims and Crusaders were enemies and each described the other with the worst attributes. Nevertheless, there were many of socio-economic interrelationships between the Muslim and Crusader inhabitants of the Levant, regardless of the warfare between them. Trade was important for both the Crusaders and Muslims, because it was the main source of revenue for both in the Levant. Both were eager to maintain their commercial relationships and were strongly motivated to encourage the merchants and help them to carry out their business of buying and selling.(65)

The peasants of Tibnīn and other Crusader States, some of whom were free and others who were bound subjects, had to pay taxes to the Crusader overlords. Some of these were paid as part of the harvest "Kharāj" and others as rents "redditus". They also paid some form of tax on livestock.(66) Ibn Jubair mentions that the Muslim inhabitants of Tibnīn and the neighboring area lived in peace with other Latin inhabitants. However, they paid half of their yields "غلة :ghallat" and paid a poll tax " : جزيةJiziāh", which was about "one dinar and one dinar five carats". They had to pay small taxes on the fruits tress as well.(67)

The nineteenth century traveler, Edward Robinson, reported that the inhabitants of Tibnīn were still paying taxes. "They pay a land tax of 12,000 piastres. There is also a poll tax of 2,100 piastres. Another tax of 2.300 piastres had been remitted by the Sultan, not long ago."(68) This confirms that Tibnīn was a commercial centre and agricultural village that provided its rulers with significant taxes and payments.

There were other taxes paid in the Crusader ports and fiefs in general. These taxes varied from fief to fief and from one commodity to another. Indeed, the feudal system of the Crusaders in the Latin East largely depended on the local peasants, who paid a huge number of the taxes. In addition to the taxes they paid on their crops, livestock and themselves, they had to pay the tax of Xenia, which was in eggs, chicken, cheese and timber. This was paid three times a year, at Christmas, Easter, and Lent.(69)

The crops grown in Tibnīn contributed to the prosperity of trade in the Latin East in general. Specifically, sugarcane and cotton were the most important crops and were exported to Europe.(70) This means that Tibnīn was an important economic fief. It controlled the commercial routes, was tax collection centre and itself also produced some of the crops that were exported to Europe. This increased in general the revenue of the Kingdom of Jerusalem and gave Tibnīn much political and military importance as well.

Although the coinage was a royal monopoly, some fiefdoms and barons, including Tibnīn, Beirut, Sidon and Tyre, had the right to strike currency.(71) The lords of Tibnīn struck a feudal currency, but they did not put their names on the coins. The crusader name of Tibnīn, i.e. Toron, was on the face of this currency.(72) When Tibnīn and Tyre were united under the rule of Philip of Montfort in the middle of thirteenth century, he founded a powerful commercial fief at Tyre and Tibnīn and struck a copper currency.(73) The name Philip of Montfort is on the face and the name of Tyre on the back.(74)

The use of feudal currency in the Latin East was limited in general, because these coins were low-value, used mainly in simple and domestic daily transactions. It seems that the minting of this sort of currency meant political independence from the Kingdom of Jerusalem.(75)

In 1256, the conflicts between the Venetians and Genoese escalated. Philip of Montfort Lord of Tibnīn and Tyre supported the Genoese and expelled the Venetians from their properties in Tyre and in the area between Tyre and Tibnīn.(76) The Genoese were given the confiscated property by Philip of Montfort in order to gain their support.(77) This was part of a political-economic conflict between Philip of Montfort and his rivals in Acre. This means that the economic role of Tibnīn was exploited by its lords to play an important political role in the latin east.

6- The Castle of Tibnīn

6.1 The location and the reasons of construction: The castle of Tibnīn was an important offensive base and defensive bastion in the period of the Crusades and gave the fief of Tibnīn and its lords a significant political and

military role. It was built high on a steep mountain in 1103-05 and was given the name of Toron by its builder, Hugh of Saint-Omer.(78) It is located about 25 kilometers southeast of the city of Tyre,(79) on the highest hill of a ridge ranging in altitude from 700m to 800m above sea level.(80)

Conder and Kitchener, conducting a comprehensive survey of western Palestine, reported that "the castle was situated on a small round hill to the north-east of the village of Tibnīn. The hill itself is on a ridge, which is separated on the north and south from the surrounding country by deep valleys with steep sides." It stands at a great height above the neighboring counties and dominates the area as far as the River of al-Kāsīmiyeh. It defended the area between Safed and Tyre and protected the routes between Tiberias and Banyas to Tyre.(81) This indicates that the castle controlled Tibnīn to the south and its dependencies.(82) Moreover, the castle overlooked the costal and mountains towns of Jabal ‘Amil, Safad, Golan, Wadi al-Tīm, and it included water wells which were sufficient for the people in the case of siege and war. At the foot of the castle, in the plain to the East, there was a "Khan" or inn, to provide food and lodging for the travelers and for the storage of goods.(83)

There were several reasons for building the castle of Tibnīn and the Crusader castles in the Latin East in general. The main reason for construction of the castle of Tibnīn was to control the Damascus-to-Tyre route, defend the northwest of Galilee in the west, and to also defend the north of the Kingdom of Jerusalem. The Castle of Tibnīn was strategically located for attacking the Muslims in the upper Galilee region and the city of Tyre.(84) It was also built to overcome the problem of the deficiency in the number of Crusader soldiers.(85)

The castle was the administrative base of the fiefdom and was the place where the taxes were collected, being a military fortified centre. It played a religious role in defending the Christian pilgrims and protected the merchants. There was a socio-economic life inside the castle. Knights, lords, senior employees and clerks lived inside the castle, forming a social and civilian society alongside the military life of the castle's soldiers.(86) The castle was a significant element of the feudal system, but its architecture has been more studied than its social functions. The leader or master of the castle imposed his authority over the neighboring district, and the castle was the centre of feudal governance from which judicial and administrative authority was exercised over the inhabitants.(87)

The castle of Tibnīn frequently played these roles and its lords, such as Humphrey II, controlled several neighboring areas and cities, including Banyas and Hunīn. But Humphrey II was also the Constable of the Kingdom of Jerusalem,(88) which shows the importance of the castle in the Latin East, in particular, the significance of the castle of Tibnīn economically, politically and military. This will be discussed further in the other papers.

6.2 The Architectural Structure of the Castle: The style of the castles and buildings in the Latin East in the period of the Crusades falls into two main categories, Romanesque and Gothic. The first was the prevalent style used in the middle of the twelfth century and the second replaced it. The Crusaders in the Latin East built their fortresses and castles in a style to distinguish them from the local architecture. The Frankish establishments in the Levant sometimes displayed features not found in Europe at that time.(89)

It is not always possible to determine chronologically the building phases of medieval constructions. Nevertheless, it is estimated that the layout of Tibnīn Castle was completed in the first half of the twelfth century. It is similar to contemporary buildings such as Saône (Ṣahyūn; Qal‘at Ṣalaḥ al-Dīn) and Giblet (Jbail), especially with regard to the design of the towers. It is believed that the major building phase was finished at the end of 1120. Most of the towers were destroyed in the siege of 1197-98, when German troops laid siege to the castle and destroyed its walls. There were some repairs during the Ayyubid period. It is estimated that there was wide rebuilding in the thirteenth century.(90) al-Mu'aẓẓam-Isa of Damascus destroyed some parts of the castle, when the Crusaders attacked Egypt in 1218-21.(91) When al-Mu‘aẓẓam learned of the departure of Frederick II from Europe heading for the East in 1227, he destroyed the castle of Tibnīn.(92) His aim was to defortify the Castle in case it fell into the Crusaders' hands, which it did in 1229.

The castle of Tibnīn was designed to play both an offensive and defensive role. It was built to fit its location on top of a hill, "and is roughly circular, with round and square towers to flank the sides. The slopes of the hill were

faced with smooth-dressed stones." The walls were about six feet thick, and formed an irregular rectangular space.(93) The entrance of the castle could be reached by a steep ascent in the southwest (A), and in this entrance was a gothic portal, which included vaulted passages. In the southwest is a projecting window or balcony which overlooked the country to the northeast. There were made of stones on the inside as well as on the outside.(94) There were great towers (A, F, M, I and L) surrounding the castle.(95)

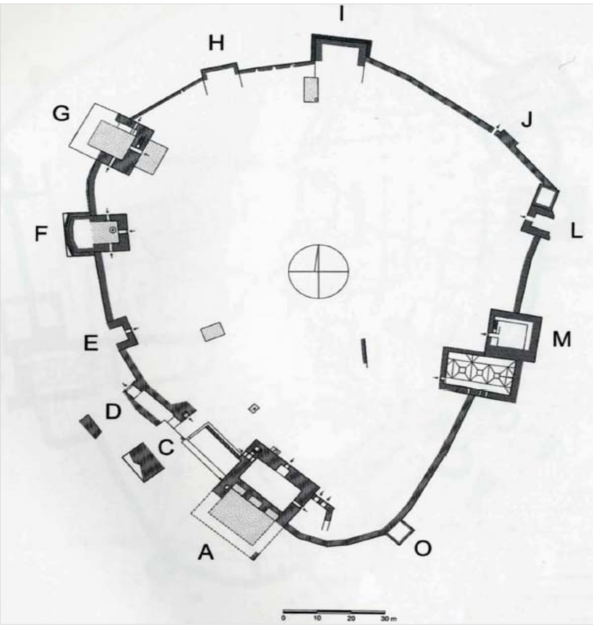

Figure 1: Plan of the castle. (96)

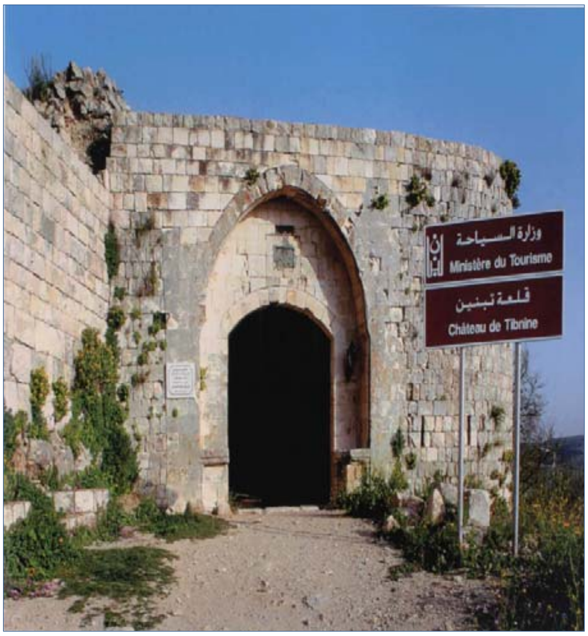

Figure 2: The gate of the Castle.(97)

Figure 3: The entrance looking north-west.(98)

Mathias Piana considers that the fortress of Tibnīn was the largest of the Crusader donjons built. It was one of the most symmetrical western types, which was derived from north-western France and was a type known as early as the tenth century. “The characteristic features are the rectangular outline, the elevated entrance, the cross-wall, the water-supply installation, and the massive walls with mural stairs.” (99) This all points to the castle of Tibnīn having played a major role in the period of the Crusades, and indicates that it and its rulers were of significant political and military importance in the Latin East.

7- Conclusion

This study has dealt with the socio-economic and demographic structure of Tibnīn and its area, Jabal ‘Amil. The majority of its inhabitants were Muslim Shi'ites and the importance of its population and its peasants in cultivating the lands has been shown. The area produced abundant crops, which were important in feeding both the Crusaders and Muslims in the Levant. Some crops were also exported to Europe. Tibnīn was a strategic economic location in upper Galilee and controlled the commercial road from Tyre to Damascus. It was the place where the taxes were collected. It occupied a significant position in the Latin East and played a substantial role in the economic events of the Kingdom of Jerusalem. This in turn was linked to its prominent military and political role of

this castle, which will be dealt in next further researches.

Features of the architecture of the Castle of Tibnīn have been described. The castle was designed to fulfill an offensive and defensive role. It was a fortified castle, strategically placed to play a key position in the defence of the north of the Kingdom of Jerusalem and Galilee. It played a crucial military role against the Muslims in the cities of Tyre and Damascus, among others. Tibnīn was a base from which to mount attacks against the Muslims in the north and sometimes in the south of the Kingdom of Jerusalem. The castle gave the fief of Tibnīn and its rulers an even more prominent role during the period of the crusade.

NOTES:

(1) Kathryn Hurlock, *Wales and the Crusades 1095-1291* (Cardiff, University of Wales Press, 2011), p. 1.

(2) Aly Ahmed Mohamed al-Sayed, *al-Khalīl wa al-Haram al-Ibrāhīmī fi ʻAṣr al-Ḥurūb al-Ṣalībīah AH* 492-*583 / AD 1099-1187 (Hebron in the Age of the Crusades)* (Cairo, Dar al-fikr al-ʻAraby, 1998), p. 13.

(3) Yàkut al- Hamawy, Muʻegam al-Buldān {Lexicon Countries}, ed. Farid Abdel Aziz El Gendy, vol. 2 (Beirut: 1990), p. 14.

(4) Ismāʿ[illegible] ibnʿAli Abū-al-Fidā, *al-Mukhtaṣar fi Ākhbār al-Bashar (The Summary of the History of People*, vol. 1. ed. Mohammed Zenhom et al (Cairo: Dar al-Māʿarif, nd), p. 133; Mohamed Jabir al-Ṣafā, *Tārīkh Jabal ʻĀmil {History of Jabal Amil*}(Beirut: nd), p. 24; Ali al-Zein, Llbah[illegible]hʿan *Tārīkhanā fi Lebnān (Search for our History in Lebanon) (*Beirut: 1973), p. 25.

(5) Muḥsan al-Āmīn, *Khuṯaṯ Jabil* ʻAmil, *ed. Ḥassan* al-Āmīn, vol. 1 (Beirut: al-Enṣāf Press, 1983), p. 108; Taqy al-Faqīah, *Jabal ʻĀmil,* Pp. 15, 18.

(6) This map is taken from the current official website of the Town of Tibnīn.

(7) Steven Runciman, *A History of the Crusades*, vol. 2 (USA: Cambridge University Press, 15(th) ed, 1995), p. 95; Ronnie Ellenblum, *Crusader Castles and Modern Historians* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), Pp. 112, 135.

(8) Nabih Amin Faris, "Arabic Culture in Twelfth Century," *in Setton, vol. V* (Madison, Milwaukee, and London: University of Wisconsin, 1985), p. 3.

(9) Sulaymān Ẓāhir, Muʻjam Qurá Jabal ʻĀmil{ Lexicon of the Villages of Jabal Amil}, vol. 2, (Lebanon: 2006), p. 169.

(10) al- Hamawy, *Muʻegam al-Buldān*, vol. 2, p. 14.

(11) Mathias Piana, " The Crusader Castle of Toron: First Results of its Investigation," in *Crusades. The journal of the Society for the Study of the Crusades and the Latin East*, vol. 5, (2006), p.173.

(12) William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, translated by. E. A. Bacock and A.C.Krey, vol. I (New York: 1943), p. 469; Denys Pringle, *Secular Buildings in the Crusader Kingdom of Jerusalem* (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p.102.

(13) Edward Robinson and E. Smith, and Others, "Later Biblical Researches in Palestine and in the Adjacent Regions," *Journal of Travels in the year of 1852,* edited by Edward Robinson (Boston, London: Crocker and Brewster: 1856), p. 57.

(14) Josiah Cox Russell, "The Population of the Crusader States," *in Setton, vol. V* (Madison, Milwaukee, and London: University of Wisconsin, 1985), Pp. 296-299.

(15) Sarah Kate Raphael, *Climate and Political Climate: Environmental Disasters in the Medieval Levant* (Leiden. Boston: Brill, 2013), p. 32.

(16) Ibn-Jubair, *al-Riḥlah (The Travel of Ibn- Jubair) (*Beirut: Dār Ṣādir, nd), p. 274.

(17) Josiah Cox Russell, *Medieval Regions and Their Cities* (Bloomington: Indian University Press, 1972), p. 200; Russell, "The Population of the Crusader States," p. 305.

(18) Russell, *Medieval Regions,* Pp. 205-06.

(19) Russell, “The Population of the Crusader States,” Pp. 307-308; Russell, *Medieval Regions*, p. 206.
(20) Joshua Prawer, *Crusader Institutions* (Oxford: Clarendon Press, 1980), Pp. 146-48.
(21) Willam of Tyre, vol. II, Pp. 19-20.
(22) Joshua Prawer, “Social Classes in the Crusader States: the Minorities, *in Setton, vol. V* (Madison, Milwaukee, and London: University of Wisconsin, 1985), Pp. 61-62.
(23) al-Ṣafā,M., *Tārīkh Jabal ʿĀmil*, p. 25;Taqy al-Faqīah, *Jabal ʿĀmil*, Pp. 34-40.
(24) R.C. Smail, *Crusading Warfare* (Cambridge: Cambridge University Press, 2ed, 1195), Pp. 52-53.
(25) Piana, M., "The Crusader Castle of Toron," p. 175.
(26) Robinson, "Later Biblical Researches," p. 59. Metāwilech(المتاولة) are the Muslim Shiites who lived in Jabal Amil See: Nawal Fayyaḍ, *Ṣafaḥāt min Tārīkh Jabal ʿĀmil fi alʿAhdīn alʿOsmâniyye wa al-Farancy{ Form the History of Jabal Amil in the Ottoman and French Era}*, (Lebanon- Beirut: 1998), p. 14.
(27) Mathias Piana, "Die Burg Toron (Qal’at Tibnīn) Im Südlichen Libanon" *in Burgen und Städte der Kreuzzugszeit: Studien zur international Architektur- und Kunstgeschichte 65* (Petersberg: Michael Imhof Verlag, 2008) Pp. 398
(28) Ṣalaḥ al-Dīn Abd-al-Moneim Ali, "al-Rīīf fi Bilād al-Shāām 1099-1192 / 492-588 (The Countryside in the Levant 1099-1192 / 492-588)." (PhD.diss., ‘Ain Shams University, Faculty of Arts, Cairo, 2007), Pp. 250-256; al-Sayed, *al-Khalīl*, p. 328.
(29) Abū-al-Yaman al-‘Ualaīmy, *al-Ānas al-Jalīl Bitārīkh al-Quds wa al-Khalīl {In the History of Jerusalem and Hebron}*, vol. 1 (Beirut: 1966), p. 379.
(30) Aly Ahmed al-Sayed," Emārit al-Jālīl Taḥt Ḥukm al-Latīn wa Durha al-Sīāsī fi al-Ṣirā‘a al-Ṣalībī al-Islāmī 1099-1154 / 492-549, (The Principality of Galilee under the Latin Rule and Its Political Role in the Crusader-Islamic Conflict in the Levant)." (Master Thesis, Alexandria University, Faculty of Arts, Egypt, 1988), Pp. 327-28; "Jabal Amel: The Cradle of Knowledge and the Land of Freedom", *Noor al-Islam: Islamic Cultural Magazine* (Beirut, Lebanon: Imam Hussain Foundation). 6(th) Year (2000: No. 71-72), p. 3.
(31) Renė Grousset, *Histoire des Croisades, et du Royaume France de Jerusalem*, tome 1 (Paris: 1948) p.484; al-Sayed, “al-Jālīl,” Pp. 327-28
(32) Russell, “The Population of the Crusader States,” p. 304.
(33) Ibn-Jubair, *al-Riḥlah* , Pp. 274-75.
(34) Hatem al-Tahawy, *al-‘Eqtiṣād al-Ṣalīby fi Bilād al-Shām {The Crusader Economy in the Levant}* (Cairo: ‘Ein for Human and Social Studies, 1999), p. 196.
(35) ‘Imad al-Dīnal-Āṣfahānī, *al-Fatḥ al-Qussī fi al-Fatḥ al-Qudsī*, ed. Mohamed Subaih (Cario: Dar al-Manār, 1(st) ed, 2004), Pp. 58-59; al-Fatḥ Ibn Ali al-Bindārī, *Sanā al-Barq al-Shāmī*, ed. Fatḥīah al-Nabrawy (Cario: Maktabat al-Khanjy, 1979), p. 296.
(36) Raphael, S.,*Climate and Political Climate*, p. 38; al-Sayed, *al-*Khalīl, p. 321.
(37) Badr al-Dīn al-‘Ainī, *‘Iqd al-Jumān fi Tārīkh Āhl al-Zamān*, ed. Mahmud Rizq, vol. II (Cairo: Dar al-Kutub wa al-Wathāiq al-Qaūmīah, 2(nd) ed, 2010), Pp. 120-21.
(38) Margaret Ruth Morgan, ed. *La Continuation de Guillaume de Tyre (1184-1197*) (Paris: Librairie Orientalist Paul Geuthner, 1982), Pp, 187, 195-97.
(39) ‘Izz ad-Din Ibn-al-Athīr, *Kītāb al-Kāmil fi al- Tārīkh (The Perfect History or the Collection History)*, ed. Mohamed Yusuf, vol. 10 (Beirut: Dar al-Kutub al-‘Ilmyah, 4(th) ed, 2003, p. 247.
(40) Taqī al-Dīn al-Maqrīzī, *Kitāb al-Sulūk li-Mʿarifa Duwal al-Mulūk (Chronicle of* Maqrīzī *about the History of Medieval Egypt)*, ed. Muhammad Abd al-Qadir Ata, vol. 1 (Beriut-Lebenon: Dar al-Kutub al-‘lmyah, 1997), Pp. 353-54.
(41) Ibid , vol. II, p. 36; Adrian J. Boas, *Crusader Archaeology: The Material Culture of the Latin East* (London and New York: Rutledge, 1999), p. 5.
(42) Jean Richard, “Agriculture Conditions in the Crusader States,” *in Setton, vol. V* (Madison, Milwaukee, and London: University of Wisconsin, 1985), Pp. 251, 253.
(43) al-Fqiah, Jabal ʿAmil, p. 9.
(44) Richard, J., “Agriculture Conditions,” p. 253.
(45) William of Tyre, vol. I, p. 469.
(46) al-Fqiah, *Jabal ʿAmil*, Pp. 28-30.
(47) Robinson et al, "Later Biblical Researches in Palestine," p. 57.
(48) abū-al-Maḥāsin, *al-Nujūm al-Ẓahirah fi Mulūk Misr wa al-*Qāhirah *(The Brilliant Stars in the History of Kings of Egypt and Cairo*), ed. Mohamed Hassan Shams- al-Dīn, vol. 5 (Beirut: Dar al-Kutub al-‘Ilmyah,1992), Pp.178-180; Ibn al-Qalānisī, *Dhīl Tārīkh Dimashq*, p. 178.
(49) al-Sayed, “al-Jālīl,” p. 230.
(50) Ibn-al-Athīr, *al-Kāmil*, vol. 9, p. 146
(51) Richard, “Agriculture Conditions,” p. 254.
(52) Smail, *Crusading Warfare*, p. 54.
(53) Grousset, *Croisades*,vol.1, p.484; al-Sayed, “al-Jālīl,” p. 327-28
(54) Nawal Fayyaḍ, *Ṣafaḥāt min Tārīkh Jabal ʿĀmil*, Pp. 19-20.
(55) Ibn-Jubair, *al-Riḥlah*, p. 274.
(56) Richard, “Agriculture Conditions,” p. 254, 257-258.
(57) Raphael, *Climate and Political Climate*, p. 32.
(58) Richard, “Agriculture Conditions,” Pp. 259-61.
(59) *Ibid*, p. 263-64.
(60) Raphael, S.,*Climate and Political Climate*, p. 37.
(61) Adel Abd al-Hafiz al-Banna, *Āsūāq al-Sām fi ‘Aṣr al-Ḥurūb al-Ṣalībīah 1099-1291{The Markets of the Levant in the Period of the Crusades}* (Cairo: ‘Ein for Human and Ssocial Studies, 2007), p. 19.
(62) al-Sayed, *al-Khalīl*, p. 193
(63) Paul Deschamps, *Les Chateaux des Croises en Terre-Sainte, la Defense du Royaume de Jerusalem*, II. (Paris: 1939), p. 112.
(64) Ibn-Jubair, *al-Riḥlah* , p. 242, 274; Smail, *Crusading Warfare*, p. 54.
(65) al-Banna, *Āsūāq al-Sām*, p. 59.
(66) Richard, “Agriculture Conditions,” Pp. 255, 256.
(67) Ibn-Jubair, *al-Riḥlah* , Pp. 273-75.
(68) Robinson, "Later Biblical Researches,” p. 59.
(69) al-Tahawy, *al-‘Eqtiṣād al-Ṣalīby*, Pp. 131-133, 196-97. *Lent* is (Ecclesiastical Terms) Christianity the period of forty weekdays lasting from Ash Wednesday to Holy Saturday, observed as a time of penance and fasting commemorating Jesus' fasting in the wilderness.

(70) al-Banna, A., *Āsūāq al-Sām,* Pp. 38-39.
(71) John La Monte*, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100 to 1291* (USA: the Medieval Academy of America, 1932), p. 174.
(72) al-Tahawy, *al-'Eqtiṣād al-Ṣalīby*, p. 163; Joshua Prawer*, The Latin Kingdom of Jerusalem: European Colonialism in the Middle Ages* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1972), p. 391.
(73) Jonathan Riley-Smith, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174-1277* (London: Macmillan Press, 1973), Pp. 27-65; Hans Mayer, "Ibelin versus Ibelin: The Struggle for the Regency of Jerusalem 1253-1258," *Proceedings of the American Philosophical Society*, vol. 122, no. 1 (Feb. 15, 1978), p. 50.
(74) al-Tahawy, *al-'Eqtiṣād al-Ṣalīby*, p. 162; Prawer, *The Latin* Kingdom*,* Pp. 384, 390-91.
(75) *Ibid*, p. 162*; Ibid,* p. 391.
(76) Peter W. Edbury, John *of Ibelin and the Kingdom of Jerusalem* (Uk, Woodbridge: The Boydell Press, 1997), p.
(91) Piana, "Die Burg Toron," p. 401.
(77) Mayer, H., "Ibelin versus Ibelin," p. 48.
(78) William of Tyre, vol. I, p. 469; Denys Pringle, *The Churches of the Crusader Kingdom of Jerusalem: A Corpus,* vol. 2: L-Z (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), p. 367.
(79) Piana, "The Crusader Castle of Toron," p.173.
(80) Joshua Prawer, *Crusader Institutions*, (Oxford: Clarendon Press, 1980), p.146; al-Sayed, *al-Khalīl*, p. 126.
(81) Claude R. Conder and Horatio H. Kitchener, *The Survey of Western Palestine Memoirs of the Topography, Orography, Hydrography, and Archaeology, 1: Galilee,* ed. E. H. Palmer and Walter Besant (London: 1881), Pp. 133-34.
(82) Piana, "The Crusader Castle of Toron," p. 177.
(83) Ibn-Jubair, *al-Riḥlah* , p. 274; al-Faqīah, *Jabal 'Āmil*, Pp. 22-23.
(84) Runciman, *The Crusades*, vol. 2, p. 95; Ellenblum, *Crusader Castles*, Pp. 112, 135.
(85) Saeīd 'Ashour, *al-Ḥarakah al-Ṣalībīah (The Crusade Movement),* vol. 1(Cairo: 1963), p. 291
(86) Ṭālib Abd al-Fattah Ṣawafi, "al-Qilā'a fi Shamāl Filisṭīn 1099-1291/492-691{The Castle in the North of Palestine}," Master thesis, Yarmouk University, Faculty of Arts, Jordan: 1997), Pp. 85-86, 110-112; David Nicolle, Crusader Castles in the Holy Land 1192-1302 (Oxford: 2005), p. 39.
(87) R. C. Smail, "Crusaders' Castles of the Twelfth Century,*"* Cambridge *Historical Journal*, vol. 10, no. 2 (1951), p. 133.
(88) William of Tyre, vol. II, Pp. 205, 256.
(89) Adrian J. Boas, *Domestic Settings: Sources on Domestic* Architecture *and Day-to-Day Activities in the Crusader States* (Leiden, Boston: Brill, 2010), p. 33.
(90) Piana, "The Crusader Castle of Toron," p. 185; Piana, "Die Burg Toron" p. 406.
(91) Runciman, *The Crusades*, vol. III, p. 156.
(92)al-Maqrīzī, *al-Sulūk* , vol. I, p. 351. Piana, " The Crusader Castle of Toron," p. 174.
(93) Conder and Kitchener, *The Survey of Western Palestine*, p. 135.
(94) Robinson et al, "Later Biblical Researches in Palestine," Pp. 58-59.
(95) Piana, "The Crusader Castle of Toron," Pp. 184-85.
(96) Conder and Kitchener, *The Survey of Western Palestine*, p. 133*;* Mathias Piana, "Die Burg Toron" p. 400.
(97) Mathias Piana, "Die Burg Toron" p. 401.
(98) *Ibid*
(99) *Ibid*, p.182.

المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والمعمارية لإقطاعية تبنين في عصر الحرب الصليبية

أحمد محمد محمد عبد القوي شعير
أكاديمي مصري
ماجستير تاريخ العصور الوسطي
جامعة جورج اوغست جوتنجن، ألمانيا

ملخص:
هذا المقال يتناول دراسة المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والمعمارية لإقطاعية تبنين في عصر الحرب الصليبية، والذي يكون جزء من أطروحتي للماجستير بقسم تاريخ العصور الوسطي والحديثة في جامعة جوتنجن ألمانيا، يناير 2014. تبنين هي أحدي الإقطاعيات الأثني عشر الصغرى في مملكة بيت المقدس، وقد بدأ ميلادها كإقطاعية صليبية (1103-1105م/96-99 هـ) على يد "هيو سانت أومر" والتي منحها أسم تورون. تبنين تقع في منطقة جبل عامل جنوب لبنان في منطقة الجليل الأعلى على الطريق التجاري بين دمشق وصور، الذي بدوره جعلها تلعب دورًا هامًا في الصراع الصليبي الإسلامي لتحكمها في هذا الطرق التجاري الهام بين دمشق وصور. ساهمت تبنين بدور أساسي في إسقاط مدينة صور 1124 في يد الصليبيين وظلت قاعدة هامة لمحاربة المسلمين في شمال مملكة بيت المقدس.
لمعرفة أهمية الدور السياسي والعسكري لهذه الإقطاعية، وما العوامل التي جعلتها ذات مكان هامة رغم أنها إقطاعية صليبية صغري، كان لابد من دراسة البنية الاجتماعية والسكانية الدعامتين الأساسيتين لكافة المستوطنات الصليبية. وبيان أهمية قلعتها في عصر الحروب الصليبية، ودراسة أهميتها الزراعية والاقتصادية لمملكة بيت المقدس، وهذا بدوره منحها أهمية عسكرية وسياسية هامة. وبالتالي فهذه الورقة تتناول دراسة أهميتها الزراعية والاقتصادية ومعرفة تركيبتها السكانية علاوة على أهمية قلعتها وطرازها المعماري الذي يبين مدي قوتها وحصانتها وأهميتها العسكرية في الشرق اللاتيني عصر الحروب الصليبية.

إبراهيم القادري بوتشيش

أحمد جميات

أحمد محمد عبد القوي شعير

بشير مبارك

حسين حمد حسين الفقيه

حمزة قادري

رشيد اليملولي

سلوى الزاهري

شعبان محمد خلف محمد حمزة

طارق بن زاوي

عبد الرحمن بالأعرج

عبد الرزاق السعيدي

عبد الغني حروز

عبد القادر سليماني

عبد الله عيسى

عيسى محمود العزام

قاسمي بختاوي

محمد جمال حامد الشوربجي

محمد محمود خليل

المصطفى ولد يكبر

كان التاريخية

Historical Kan Periodical

www.kanhistorique.org